البدور الضاوية

في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية

سليمان بن محمد الحوات الحسني

(1160هـ - 1231هـ)

الجزء الأول



أكتوبر 2024

بسم الله الرحمن الرحيم

البدور الضاوية

في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية

سليمان بن محمد الحوات الحسني

(1160هـ - 1231هـ)

الجزء الأول

(نسخة موافقة لمخطوط)

أكتوبر 2024م

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

يسرنا أن نقدم هذا العمل المتواضع هدية لمحبي كتب التراث عموما، ولمحبي التاريخ خصوصا، ولسنا ندعي فيه كمالا بقدر ما نعترف بالعجز عن إخراجه كما هو مطلوب، وهدفنا أن نوفر للباحثين نسخة رقمية تسهل البحث السريع والاقتباس، فقد بات البحث العلمي في عصرنا هذا يرتكز على هذه الخاصية أيما ارتكاز، لذلك صار لزاما أن تتوفر نسخة رقمية ولو بإخراج نص الكتاب من دون توسع في التعليقات كما فعل بعض المحققين ممن سبق أن اكتفوا بتخريج النص بعيدا عن الإثقال والحشو الزائد، فأسدوا للباحثين خدمة جليلة لا يعرف قدرها إلا من وقف على أعمالهم، وأملنا أن يكون في هذا الجهد المتواضع كمثل ذلك شيء من النفع للباحثين، لاسيما والكتاب مرجع مهم في بابه، وعمدة الباحثين قديما وحديثا، فلعل هذا العمل المتواضع يمهد ويسهل تحقيق الكتاب تحقيقا علميا جيدا، وإن كان قد سبق تحقيقه بالفعل في جامعة محمد الخامس سنة 1993م، ولا علم لنا بقيمة ذلك التحقيق، هل هو في المستوى اللائق بالكتاب أم لا، ولكن حيث لم يبرز للوجود فإن الباحث يبقى في حاجة إلى الاطلاع على نص الكتاب والاستفادة منه بأي وجه كان، وهو ما دفعنا إلى أن نصنع نسخة رقمية موافقة للمخطوط الوحيد المتوفرة على الشبكة، والذي لا يمثل مع كامل الأسف إلا الجزء الأول من الكتاب فقط، ولم يسعنا إلا أن نرتكز على نسخة وحيدة رغم وجود نسخ أخرى بالمكتبة العامة بالرباط، ولكن لا حيلة لنا في الوصول إليها، ولو توفرت لكان التحقيق أدق، ولكشفت المقابلة بين مختلف النسخ عن كلمات غامضة تركناها مضطرين وأشرنا إليها في الهامش طبعا، وقد عثرنا على مقتطف صغير من الجزء الثاني على موقع مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، في اثنتي عشرة صفحة، ولا يمثل إلا جوابين للعلامة محمد بن أحمد المسناوي الدلائي عن سؤال حول حكم الدعاء على الظالم، فأثبتناه بعد الجزء الأول للفائدة.

وقد أشرنا إلى ترقيم المخطوط داخل نص الكتاب وجعلناه محصورا بين عمودين مائلين بالأحمر هكذا // // حتى يسهل على الباحث الرجوع إلى المخطوط ليستوثق من المعلومة بنفسه إن أراد ذلك، وبداية كل صفحة مما يلي ترقيمها مباشرة، وإن كان كثير من الباحثين لا يستسيغون قراءة المخطوطات، بل يتعذر ذلك على بعضهم أصلا، وهو الدافع الثاني لإنشاء هذه النسخة الرقمية، وقد بذلنا ما في الوسع والطاقة لإنجازها وإخراج نص سليم بقدر الإمكان، آخذين على أنفسنا أن لا نثبت كلمة حتى نستوثق منها، ولم نبخل بوقتنا في ذلك، حتى كنا نقضي مدة طويلة في ضبط الكلمة الواحدة أحيانا، وما تعذر علينا ضبطه بعد ذلك تركناه فارغا بين قوسين مع

الإشارة إليه في الهامش. أما ما كان من نقص واضح من خلال السياق، أو اكتشفناه بالرجوع إلى مصادر أخرى، فقد أثبتناه بين معقوفتين بهذا الشكل [ ]. وشرحنا بعض المصطلحات القليلة، كما وضعنا بعض التراجم دون أكثار لأن غرضنا الأساسي كما ذكرنا هو إبراز مضمون الكتاب مع توفير خدمتي البحث والنسخ.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن المخطوط يبدأ بمنظومة للإمام البليغ سيدي محمد بن أبي بكر اليازغي تسمى "حدائق الأزهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية البكرية"، مما جعل نص كتاب البدور الضاوية يبدأ بترقم **21** ، كما أن الصفحة **161** من هذا الجزء الأول غير متوفرة، وقد أشرنا إليها في موضعها وتركناها فارغة، أما الترقيم **499** فوقع مكررا في المخطوط سهوا، مما جعل الترقيم بعده لا يتوافق مع ترقيم النسخة الرقمية المخصصة لبرنامج الشاملة، لكن الأمر بسيط، ويكفي أن يكون القارئ على علم به.

نسأل الله الكريم أن يتقبل منا هذا العمل بمحض مَنِّه، وينفعنا وينفع غيرنا به، إنه ولي ذلك والقادر عليه. آمين والحمد لله رب العالمين.

ربيع الثاني 1446هـ الموافق أكتوبر 2024م

بداية كتاب البدور الضاوية



الصفحة الأخيرة من المخطوط (الجزء الأول)

ترجمة المؤلف رحمه الله

(من موقع ميثاق الرابطة)

بقلم د. جمال بامي

وفقه الله.

من الكتابات المشهورة في التأريخ لأسرة من أسر العلم الكبرى ببلدنا المبارك كتاب الروضة المقصودة في مآثر بني سودة، وهو كتاب في التعريف بإسهام هذه الأسرة المباركة في بث أخلاق العلم والصلاح بالمغرب، أما صاحبه فهو الفقيه الصوفي الفاضل سيدي أبو الربيع سليمان الحوات، وقد آثرت في هذه الحلقة أن أعرف به وبإسهاماته العلمية الجليلة، ولا شك أن هذا التعريف سيلج بنا –على عادة المنهج المتبع في هذه المقالات– إلى عوالم الحركة الفكرية والعلمية وعلاقات كل ذلك بالعمران والاجتماع الإنساني بفضل من الله..

يقول الفاضل عبد الحق الحيمر محقق فهرسة الحوات المسماة "ثمرة أنسي في التعريف بنفسي" في مقدمة تحقيقه: هو سليمان بن محمد بن عبد الله بن محمد الحوات العلمي الحسني، يكنى أبا الربيع، والظاهر أن هذه الكنية لازمته تبعا لاسمه سليمان جريا على التقليد المعروف في الأسماء والكنى العربية، إذ لا يعرف له ولد اسمه "الربيع".. أما لقبه فهو الحوات، وقد ورثه عن سلفه الولي أبي عمران موسى بن الحسين، وهو الجد الرابع له القادم على شفشاون، وسبب تلقيبه به أنه اصطاد حوتا ببلاد غمارة لم يشاهد الناس مثيلا له، فلقبوه به، وقالوا له الحوات، فجرى هذا اللقب عليه في حياته، ثم على أعقابه من بعده، ومنهم المؤلف..

ولد سليمان الحوات بمدينة شفشاون يوم الجمعة احد أيام رجب (عام 1160هـ / 1747م)، مات والده وتركه صبيا لم يتجاوز الشهر السادس من عمره فبقي تحت كفالة أمه، إذ أن جميع إخوانه ماتوا في حياة أبيه، أو بعده بقليل وقد كانت أسرته تعيش مما تدره عليها أملاك السيد الوالد وأصوله بشفشاون غيرها، وقد فتح الصبي عينيه على هذه الأسرة الصغيرة المكونة من أمه وجدته، ومن عبد مملوك خلفه والده اسمه صهيب (ت 1199هـ) وقد كان لهذا المملوك أثر في نفسية المؤلف وحياته إذ كان هو الساهر على أملاك الأسرة وصيانتها واستغلالها، وهو الذي تكفل بحمله إلى الكتاب أولا، ثم رحل به ثانيا إلى فاس في أول قدومه عليها للدراسة (عام 1180هـ) ([1])

ترجم سليمان الحوات لنفسه في فهرسته: ثمرة أنسي في التعريف بنفسي، كما تُرجم في عديد المصادر نذكر منها:السر الظاهر في من أحرز بفاس الشرف الباهر، من أعقاب الشيخ عبد القادر له ملزمة 11 ص: 5 "ط

1 – ثمرة أنسي في التعريف بنفسي، ص: 49،51 و79.

حجرية بفاس"، وقرة العيون في الشرفاء القاطنين بحومة العيون، مخطوط بالخزانة الوطنية (الرباط 1481 ورقة 32)، والروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة، مطبوع بعناية الفاضل عبد العزيز تيلاني، تحدث فيه عن نفسه في مواضع متفرقة، والترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني، (ص: 545 / 547)، تحقيق عبد الكريم الفيلالي (نشر وزارة الأوقاف 1967م)، وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني، والدرر البهية لإدريس الفضيلي، (95/2 –96، ط حجرية فاس 1314هـ)،وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، (1349 بيروت)،ومعجم المؤلفين لرضا كحالة (275/4 نشر دار إحياء التراث العربي بيروت)، والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للعلامة سيدي محمد بن تاويت (869/3 – 871 ط سنة 1984)، وتاريخ المفتري عليه في المغرب لعبد الكريم الفيلالي (ص: 02، ط الرباط 1969)، ومؤرخو الشرفاء للداهية ليفي بروفنصال (ص: 244 ترجمة عبد القادر الخلادي ط الرباط 1977)، وتاريخ الشعر والشعراء بفاس لأحمد النميشي (ص 86 ط أندري فاس 1343هـ، وأعلام الزركلي 167/3 ط 3)،وأحمد العراقي في "مقدمة تحقيق أرجوزته كشف القناع: (مجلة المناهل ع: 27، ص: 319 – 324).

ذكر سليمان الحوات في ثمرة أنسي في التعريف بنفسي من شيوخه نحو العشرين أخذ عن ستة منهم ببلده شفشاون، وعن الباقين بمدينة فاس، وقد تجاوزت علاقاته مع بعضهم حد الأخذ والتلمذة إلى الصداقة والود، وقد ظهر ذلك في أمداحه فيهم ورثائه إياهم، وفيما ألف في بعضهم من كتب، مثل كتاب الروضة المقصودة في مآثر بني سودة الذي أطنب فيه في التعريف بالعالم الكبير محمد التاودي بن سودة. باستثناء شيخ واحد، هو أبو محمد عبد الكريم بن علي الزهني اليازغي، الذي ساءت علاقته به قبل قراءته عليه ثم تحسنت بعدما اتصل به ودرس عليه. رحمة الله عليهم أجمعين..

من خلال مرويات سليمان الحوات عن شيوخه وما قرأ عليهم من مؤلفات في مختلف الفنون يمكن تصنيف ما أخذه في: علوم الفقه والقراءات والتفسير والحديث والأصول وأحكام وتوحيد، وعلوم أدبية من لغة ونحو وبلاغة وشعر وأنساب وتاريخ، وعلوم عقلية كالحساب والتوقيت والمنطق والطب، بالإضافة إلى علوم التصوف وطرقه وأسانيده وأهله وأسراره..

يقول عبد الحق الحيمر في مقدمة تحقيق ثمرة أنسي في التعريف بنفسي: وبذلك نستطيع تصور الأسس الثقافية التي قامت عليها شخصيته العلمية والأدبية فقد تسنى له أن يحيط بثقافة عصره المتعددة الجوانب، وأن يستوعبها أتم استيعاب، ويتمثلها أحسن تمثل مما أهله في ختام هذه المرحلة الدراسية أن يبدأ مرحلة جديدة من حياته هي مرحلة النضج العلمي والأدبي، والإنتاج في ميادين الإفتاء والتأليف والتدريس قال: وجلست للتدريس بشفشاون وفاس، وأفتيت فيما أسأل عنه من نوازل الخصومات وغيرها بلا أجر بعد أن وقعت لي الإجازة العامة من معتبري أشياخي ([1])

---

1 – ثمرة أنسي في التعريف بنفسي: ص: 105.

أما تلاميذ سليمان الحوات فكثر نذكر منهم: أبو العباس أحمد بن الطيب شقور العلمي (تـ 1234هـ) كان فقيها أديبا أجازه المؤلف إجازة عامة ضمنها مروياته عن شيوخه بفاس، والعالم الشهير أبو محمد عبد القادر بن أحمد الكوهن (تـ 1254هـ) كان فقيها عالما له رحلة حجازية وفهرسة: إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد تحدث فيها عن مروياته وشيوخه، ومن ضمنهم المؤلف، وأبو الفضل العباس بن أحمد بن سودة (تـ 1241هـ) كان عالما فقيها تولى القضاء بفاس، وأبو العباس أحمد الحكمي (تـ 1226)؛ كان فقيها أديبا تولى القضاء بسلا ومكناس، شارك المؤلف في جل أشياخه وأخذ عنه علم العروض.

وقد عد أبو القاسم الزياني سليمان الحوات من شيوخ السلطان المولى سليمان الذين اعتبروا أنفسهم أصحابا له فقط لإقرارهم بالإفادة من دروسه وتقريراته..

ويبدو أن شهرة سليمان الحوات كشاعر قد شاعت بين الأوساط الأدبية في فاس خلال مرحلة الطلب، خصوصا وأنه نبغ في قرض الشعر وهو ابن عشرين سنة، ويبدو أيضا أن اسمه كان معروفا لدى الأمراء لذلك استدعوه للجلوس بحضرتهم في كل من فاس ومكناس كما في "فهرسة الحوات." ..

وخلال (سنة 1191هـ)، أصبحت علاقته وثيقة بالقصر الملكي، فقد أتاحت له الظروف أن يتعرف عليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله ويقربه ويكلفه ببعض المهمات، وتقدم أن أبا القاسم الزياني اعتبره من أشياخ السلطان المولى سليمان الذين عدوا أنفسهم أصحابا له فقط، لكننا لا نعرف بالضبط متى وأين تتلمذ عليه، ومن ثم؛ فإننا نجهل تاريخ أول اتصال له به، كل ما نعلم أن المؤلف كانت له علاقة متينة وجاه ومكانة لدى المولى سليمان، وأنه كان مع حمدون ابن الحاج . في طليعة الشراء الذين مدحوه وخلدوا مآثره ومفاخره في أشعارهم([1])

لم يكن سليمان الحوات ميالا إلى تولي أي خطة من الخطط، وقد عرضت عليه المناصب الكثيرة فعزف عنها واقتناعا بما كان لديه من مخلفات والده وإيثارا للسلامة والعافية ([2]) إلا أنه لما تقدمت به السن، وقل ما كان بيده من مال اضطر أن يقبل خطة نقابة الأشراف بفاس، بعد أن أسندها إليه السلطان المولى سليمان، وقد كانت مهمات هذه الخطة شائكة، ومشاكلها متعددة لكثرة أدعياء النسب النبوي في هذا العصر، ويبدو أن صاحبها قد مارس مهمته بحزم و صرامة، وأنه تصدى لكل دعي، فكثر أعداؤه وتعدد حساده والمتكلمون فيه والساعون به، وقد تبرم هو من هذه الحال في شعره:

كثر الحساد حتى خفتهم	فأنا بالله منهم عائذ
فأنا بالله، لله أنا	ولكل ما سواه نابذ

1 – مقدمة تحقيق ثمرة أنسي في التعريف بنفسي مطبعة الهداية 1996، تحقيق عبد الحق الحيمر.
2 – ثمرة أنسي: ص: 127.

ويبدو أن السلطان بلغه في هذا الشأن ما بلغه، فرأى أن يخفف العبء عن المؤلف فأشرك غيره معه في هذه الخطة وتركه على رأسها، كما أفادنا بذلك محقق ثمرة أنسي في التعريف بنفسي.
ويتحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني في السلوة عن تولي المؤلف لهذه الخطة وما اضطلع به في شأنها فيقول: "وقد ولاه أمير المؤمنين أبو الربيع مولانا سليمان بن محمد العلوي نقابة الأشراف والنظر فيهم، فأحسن في ذلك السيرة، وحفظ حرمة الجناب النبوي، جزاه الله خيرا." ..

ترك أبو الربيع سليمان الحوات عدة تآليف في مختلف الفنون نذكر منها في الآداب: شعره العام، وقد تطرق فيه إلى جل الأغراض التقليدية، وله ديوان الأمداح السليمانية، حققه الفاضل عبد الحق الحيمر نفس محقق ثمرة أنسي في التعريف بنفسي، وقد ضمنه أمداحه في السلطان المولى سليمان، وله جمع وتقديم ديوان أبي العباس أحمد عبد العزيز الهلالي السجلماسي، قام بتحقيقه الأستاذ عبد الله الهمس بجامعة فاس، وقد ضمن مقدمته مجموعة من الآراء النقدية في الشعر مع التعريف بصاحبه، وله خطبتان في الحث على الجهاد توجد نسخة خطية منها في مسجلاته ومراسلاته الأدبية توجد نسخة منها في المكتبة الزيدانية بمكناس، وفي الخزانة الحسنية بالرباط.

وله مقامة في الحساب، ورسائل: منها رسالة على لسان السلطان المولى سليمان موجه إلى الأمير سعود بن عبد العزيز يحثه فيها على الوقوف عند حدود الكتاب والسنة، ومنها رسالة وجهها إلى المؤرخ أبي القاسم الزياني في شأن مؤلفاته التاريخية التي بعثها إليه قصد إبداء رأيه فيها وهي مطبوعة في كتاب الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا..

ولسليمان الحوات في مجال التاريخ: البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، وموضوع هذا الكتاب هو التأريخ لأهل الزاوية الدلائية مع ذكر مناقبهم وما قاموا به من أعمال..

وله كتاب الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة. مطبوع بتحقيق الفاضل عبد العزيز تيلاني، وقد ألفه الحوات برسم شيخه أبي عبد الله محمد التاودي بن سودة، وله السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر، من أعقاب الشيخ عبد القادر، وقد طبع هذا الكتاب طبعة حجرية بفاس (سنة 1351هـ).
وله قرة العيون من الشرفاء القاطنين بحومة العيون، وهو تعريف بالشرفاء الدباغيين؛ وله أيضا المسك الأريج في نسب أولاد الدريج، وله تأليف في ترجمة شيخه أبي عبد الله محمد بن الحسن بناني، توجد نسخة خطية منه بخزانة محمد بناني بفاس، وتأليف في الناصريين أهل زاوية تامجروت بدرعة، وهو غير تأليف والده فيهم المسمى تحفة المعاصر في بعض صالحي تلامذة أبي عبد الله محمد ابن ناصر، وله تقييد في فضائل السلطان مولاي سليمان، وتقييد عن علاقة المغرب بالجزائر.

وله رسالة تاريخية جوابية حول من تولى وظائف الكعبة المكرمة منذ إسماعيل عليه السلام إلى عصر المؤلف، وله فهرسه المسمى ثمرة أنسي في التعريف بنفسي، وهو الفهرس الذي حققه الفاضل عبد الحق الحيمر.

كتب سليمان الحوات في الفقه كذلك، نذكر من كتاباته الفقهية: تغيير المنكر فيمن زعم حرمة السكر. وهورسالة جوابية تقع في تسع ورقات ضمن مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط 12450، وله: حكم الحضور في مجالس الغناء والخمور، والباعث على تأليفه قوله: "لما رأيت الكثير من الفقهاء الأعلام يحضرون مجالس الغناء والرباب والطار، وأشعار الخمر والمرد، وغير ذلك مما للفساق فيه أوطار، وإذا سئلوا عنه قالوا هو مختلف فيه إما جهلا وعمها، وإما لبسا للحق بالباطل خفية وشبها، أردت أن أؤلف تأليفا أبين فيه ما هو متفق على حرمته، ومختلف فيه حتى ينماز الفرق بينهما لكل نبيه، ولا يغتر بقول جاهل أو متجاهل في أمر دينه متساهل". ولا يخفى أن هذا موقف معتدل من هذا الفاضل، فهو لا يرضى لأهل العلم مثل هذه المجالس التي تضعف الهمم، وتبعد عن معاني الكونية والإنسانية، أما إذا كان الطرب طربا حقيقيا، وقف قواعد الفن، والموسيقى، والكلمة الطيبة فهذا من اهتمامات أهل العلم على مر العصور، والطريف أن الحوات نفسه صاحب هذه "الفتوى" له تآليف في علم الموسيقى مثل كتاب: كشف القناع عن وجه تأثير الطبوع في الطباع: وهو عبارة عن أرجوزة في طبوع الموسيقى الأندلسية في ستة وخمسين بيتا حققها الأستاذ أحمد العراقي اعتمادا على نسخة خطية توجد بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 4229، ونسخة الأستاذ المرحوم عبد السلام بن سودة بفاس، وقد نشرها بمجلة المناهل المغربية (عدد: 27 ص: 319 – 337). كما استفدناه من مقدمة تحقيق "ثمرة أنسي" للمحقق عبد الحق الحيمر.. فليرجع إلى مقدمة تحقيق "ثمرة أنسي" للوقوف بتفصيل على مؤلفات الحوات وأمكنة وجود مخطوطاتها، والمطبوع منها، وإنما قصدنا هنا الاختصار بقصد إبراز تفوق هذا العالم الفاضل وامتلاكه ناصية الكتابة. كما نريد أن نربط هذا البعد العلمي بالبعد الإنساني الذي سنذكر بعض جوانبه فيما بقي من المقالة.. والحال أنني استفدت من مقدمة "ثمرة أنسي" كثيرا في تلخيص بعض جوانب البعد الإنساني في حياة صاحبنا سليمان الحوات..

لقد كانت تربط سليمان الحوات بأعلام عصره علاقات صداقة متينة، ومن هؤلاء الأعلام العلامة الأديب الشهير حمدون ابن الحاج (ت 1232)، فقد كانا على مودة متبادلة واتصال دائم تجري، بينهما المكاتبات نظما ونثرا، من ذلك ما خاطبه الحوات في ختام رسالة:

إذا عرتـــك مــــن الأيــــام نائـــبة ... فــلا يخلــص منهــا غيــر حمــدون
إن مــن ذو الــود يومــا قبــل صــلته ... فحبلـــه أبـــــدا ليــــس بممنــــون
علـــى سجـــيته مــن التحيــة مــا ... يقــوم مــن حقــه عنــي بمســنون

فأجابه حمدون بقوله:

أبـــا الربيـــع سليمـــان أتيــت بمـــا ... لــم يــأت يومــا بمثــله ابــن عبــدون
رســـالة نبـــأت بصـــفو ودك لـــي ... مـــا شـــابهتها رســالة ابـــن زيــدون

شـيطان فكـرك غـواص علـى درر أقـر بـالعجز عنهـا فكـر حمـدون
لازلـت مفتـرش الجـزاء مـرتفعا ومـن يعاديـك فـي المنـازل الـدون

ومنهم العلامة الأديب أبو عبد الله محمد بن الطيب سكيرج (تـ 1194هـ)، فقد نزل عليه المؤلف ضيفا صحبة جمع من أعلام فاس حيث قضوا معه أياما تبادلوا أثناءها ما رق وطاب من طاب صنوف الآداب، ويحدثنا الحوات عن ذلك، فيقول: "فنزلنا مكناسة الزيتون على روض البلاغة المزهر الأحفل، الكاتب الأديب الأنبل، العالم الأكمل أبي عبد الله سكيرج الفاسي وصل الله عنايته، فألفيناه في مجلس منادمته مع خاصته من أحبته.. فقال:

لمـا أبـاح النـوى راح الفـراق وقـد ركبـت ظهـر الفيـافي منضـيا تعبـي
يممـت ربعـا بـه للحـسن معتـرك وفيـه روض لأهـل الفضـل والأدب

ثم قال أجز، فأجزت بقولي:

وكيـف لا، ودلـيل الحـب أرشـدني والحـب يرشـد أحـيانا إلـى الأدب
فكـان لـي موقـف عـلى الحبـور بـه في مظهـر الأنـس بين اللهو والطرب
حيـث محـيا "أبـي زيـد" ورنتـه يستبعـدان قريـب الهـم والوصـب

فلما وصلت إلى هنا استعادني إنشادها، وهو مقبل علي يهتز إعجابا وطربا، ثم تنحى عن سدته جملة، وأجلسني فيه متفردا بعدما كنت مشاركه في جهة منه فقط.. فمكثنا على ذلك أياما، بين تناشد الأشعار، وتجاوب الأوتار، وكؤوس حلال الشراب علينا تدور، من راحات حسان كالبدور، لم نستيقظ من سنة المسرة إلا بعد أن مضت من الشهر عشرة (..) ورب المنزل المذكور، وعلم الإجلال المنشور، حملته الأريحية على المبالغة في الإكرام، بالتردد علينا في كل برهة بموائد الطعام، مختلفة الأجناس، تستلذ مضغها الأضراس إلى أن انفصلنا كل في وجهته سعيد، وربك الفعال لما يريد..

ويفيدنا المحقق عبد الحق الحيمر في مقدمة "ثمرة أنسي في التعريف بنفسي" بإثارته لموقف الحوات المشرف وتدخله من أجل إطلاق سراح صاحبه العلامة الصوفي أحمد بن عجيبة (تـ 1224هـ) حين أسر في تطوان بإيعاز من الشيخ علي الريسوني وغيره، فخاطبه الحوات بقصيدة معاتبا وناصحا جاء فيها:

أبـا حسـن كـن مثـل والـدك الـذي تغيـب فـي سـكر الشـهود عـن الحـس
وإلا فاصـلح مـنك بالـزهد فاسـدا وكـن واثقـا بالـموت يصبح أو يمسـي
ولا تعتـرض مـا لـست تعلـم حكمـه ودع عنك حظ النفس والرجم بالحدس
وأنصـف ولا تجـحد إذا كـنت عالمـا بعلـم غـد كعـلم مـا مـر بـالأمس

فما بـالكم تســعون سـعي معـارض لطائفة التجريد فــي الضـرب والحس
وكيــف يهـين ابنــي عجـيبة مسـلم وعلمهمـا بـالله أجـلى مــن الشـمس
كأنــك لـم تعــرف حــقيقة سرهـم ولـم تعتــرف منهـا بنـوع ولا جـنس
هـم القـوم كــفوا نفسهـم ولسـانهم ومـن يستطع كف اللــسان أو النفس

تقدمت السن بالحوات وأخذ المرض يقترب منه أولا في بصره فالتجأ إلى الأولياء بعد أن عز الدواء وقصد ضريح سيدي أبي غالب متوسلا به في شفاء بصره، وحين بلغ الستين وشعر بضعفه، ودنو أجله أخذ يطرق باب التوبة راجيا من الله أن يتجاوز عن سيئاته ويسلك به سبيل السلامة.

ولما حل الوباء بمدينة فاس تيقن الحوات أن الرحيل قد آن أوانه فبادر إلى شراء مقدار قبره وهيأه استعدادا للانتقال، ويحدثنا ذلك فيقول: "لما فشا أمر هذا الطاعون بحضرة فاس الإدريسية اشتريت قدر قبر بداخل قبة الشيخ الولي أبي عبد الله التاودي بخارج باب عجيسة فحفرته وحصنته بصندوق من خشب ولحدته وعلمته بمرمرة صغرى وأعددته لدفني إذا قضى الله بوفاتي، وهو الخامس من الصف الذي يمنه المحراب." ..

وكنت أنشدت أبياتا جعلتها داخل قبري هذا لما حفرته وهي:

هـــذه حـــفرة أعـــدت لــــدفني فــي جـوار الخيــار حـــين الوفــاة
وعســاها تكــون لـــي خيــر روض مــن ريــاض النعيــم فــي الجنــات
رب عفــوا علـــى ســليمان مـــن لا زال يــدعي فـــي النــاس بــالحوات
ولــئن كــان مســرفا أنــت تمــحو رحمـــة منــك أعظـــم الســيئات
لقـــد جئـــت بالـــرسول شفـــيعا يــوم لا غـــيره لــــذي الــزلات
وعليـــه أزكـــى الصـــلاة دوامـــا وعلـــى صـــحبه الكـــرام الهـــداة

توفي سليمان الحوات بفاس يوم (الثلاثاء 19 صفر عام 1231هـ/1816م) وعمره اثنتان وسبعون سنة إلا شهرا ودفن بقبره الذي أعده بنفسه، وأرخ صاحبه العلامة الأديب حمدون ابن الحاج وفاته عن طريق حساب الجمل بعام، بشراي جاءوا به، وضمن ذلك قوله:

هذا ضريح أبي الربيع شمس ضحـي لــــه بيـــت نبــــوة شماريـــخ
قد قالت الأرض لـما ضـمت أعظمه بشــراي جــاءوا بـــه، وذاك تـاريـــخ

رحم الله سليمان الحوات وجازاه عن المغرب خيرا، والله الموفق للخير والمعين عليه.

وهذه بعض الصور لبقايا آثار الزاروية الدلائية القديمة في أعلى قمة الجبل

وهي كلها لبقايا المسجد القديم، حيث تظهر أقواسه وبقايا صومعته









على اليمين بقايا ضريح سيدي أبي بكر الدلائي مؤسس الزاوية الدلائية وهو ملاصق لضريح ابنه مَحمد خليفته بعد موته، والذي هو والد مُحمد الحاج الأمير الذي انتهت إمارة الدلائيين على يديه.



منظر عام لما تبقى من المسجد

وتظهر بقايا الضريحين وسط الصورة.



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

البدور الضاوية، في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية
مما جمعه سليمان بن محمد الحوات الحسني
رحمه الله تعالى بكرمه

الحمد لله الذي قرَّب أولياءَه، وأدلى لكل منهم في بحر كرمه دلاءه، وأولاهم مكانة وتفضيلا، وأعلى كل فرد منهم وحيد، وأطلعه بدرا في سماء التوحيد، وهداه للمعرفة سبيلا، وخلع عليهم ملابس التقريب، وحلل الوَدَادَة والتحبيب، ومنحهم تعظيما وتبجيلا، وأدخلهم حضرة قدسه، وأذاقهم من قربه وأنسه، ووصل من أراد الله به توصيلا، ونزه كل واحد ببستان، وأفاض عليه هاطل سره الهتان ([1])، وأتاحه من فيضه جزيلا.
نحمده سبحانه أن أجرى لهم من فيضه بحارا، وأرسل عليهم سماءَ جوده مدرارا، وأسبغ عليهم نعمه جملة وتفصيلا، فأبرزهم للخلق أقمارا، وألاح عليهم من شموس نبيه أنورا، وجعلهم للهداية دليلا، وأعلى في الوجود فَخَارَهم، وأعز بنسبتهم إليه مقدارَهم، وألبسهم من الوقار رداء حفيلا، وأخلد في الأرض ذكرهم، وأدام //22// بين الأنام شكرَهم، وكان بإعزازهم كفيلا، وأثبت في ديوان المجد أخبارهم، وثَبَّت فيه شمائلَهم وآثارهم، وأبقى لهم في الدهر ثناء جميلا. ونشكره على ما أتاح لهم من النوال، وأولى بهم من إحسانه المتوال، ومد بهم منه عذبا سلسبيلا، فرحم بوجودهم البلاد، ونفع بجودهم العباد، فعاد أخمَصُ ([2]) الأمَل بهم طويلا، وأغاث بهم اللهفان، وأرشد بهم الحيران، وشفى بهم قلبا عليلا، وأغنى بنيلهم الفقيرَ، وأسنى ([3]) بجاههم الحقيرَ، وكثَّر ببركتهم ما كان قليلا. ونصلي ونسلم على سيدنا محمد منبع الأسرار، ومطلع شمس المعارف والأنوار، ومكمل كل المحاسن تكميلا، بَحر مَددِهم الزاخر، وموئل الأوائل والأواخر، أعظِم به موئلا، ومقتفا جليلا، الذي من نوره كل نور، ومنه حصل الفرح بالله والسرور، وبه شَفَى كل ذي لوعة عليلا، وعلى آله الجلة الصدور، وأصحابه الأهلة البدور، الذين أسسوا قواعد الدين تأصيلا، ومهدوا سبيله للمهتدين، وهيؤوا محجته للمقتدين، وحصلوه لكل تابع تحصيلا، صلاة تامة وسلاما يتتابعان سرمدا ودواما، ويتعاقبان بكرة وأصيلا.

ومن أحسن ما يطرق الأسماع، ويحسن الإلمام به والإلماع، ويُطلَب خَبرُه وحديثُه، ويُقَص منه قديمُه وحديثُه، وتجلى على منصة الاستحسان عروسُه، وتُستملَح روضات حسنِه وغروسُه //23// وتتلى سُوَر سِرِّه وآياتُه، وتُنشر أعلام فضله وراياتُه، وتلتمس حِكمُه وفوائدُه، وتُلتقَط نفائسُه وفرائدُه، وتُقطَف ثمارُه وأزهارُه، وتُقتبس أضواءُه وأنوارُه، محاسنُ أهل الله وشمائلُهم، وفضائلُهُم السَّنية وفواضِلهُم، ومزاياهم العظيمةُ الفاخرة، ومواهبُهُم الجسيمة الوافرة، إذ بذكرهم تتنزل الرحمات، وتنسدل سوابغ النِّعمات، وتُستمطر سحائبُ البركات، وتستصحب السعادة في السكون والحركات، وببركاتهم تنعقد العزمات، وتنحل عرى الشدائد والأزمات، وبنفحاتهم تحيى القلوب، وتنبعث هممها إلى المطلوب، وتستيقظ من منامها، وترتوي بعد أُوامها ([4]).

---

1 – قال في لسان العرب: هَتَنَتِ السماء تَهْتِنُ هَتْناً وهتوناً وهَتَناناً وتَهْتانا، وتَهاتَنَتْ: صَبَّتْ.
2 – أخمَصُ: تجمع على خُمْص، المؤنث: خمصاء، والجمع للمؤنث: خمصاوات وخُمْص، وهي صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت.
3 – أَسْنَى الشيءَ: جعله ذا سناء، أي ذا علو وارتفاع.
4 – الأُوامُ : حرارة العطش.

وإن ممن أُقيمَ في هذا المقام الشريف، وارتقى درجةَ مرقاه المنيف، وأُكرِمَ بكرامته العظيمة، وحظي بمنقبته الفخيمة، ولاحت عليه آياته، وخفقت على رأسه راياته، السيدين السَّنِيَّين، الشيخين الوَلِيَّيْن، الصدرَين الخَيِّرَين، البدرين النيرَين، البحرين الزاخرين، الجوهرين الفاخرين، القطبين الكاملَين، المتواضعَين في ذات الله، المحبَّين لآل بيت رسول الله، المجددَين للدين، المتمسكَين بحبله المتين، العظيمَي المزايا، البعيدَي الصيت، الذَيْن جمع الله بهما من أهل زمانهما كل شمل شتيت، وأضاء نور سرهما على المغرب، وأعرَب عنه كل//24// ناطق معرب، وفاض عليه إفضالُهما، وعم أهلَه نوالُهما، الشيخان الوالد والولد، الواردان من خير ورد ومدد، الشيخ سيدي أبو بكر الدلائي، وابنه الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بُغية الرائي، طيب الله ثراهما، ورضي عنهما بمنه وأرضاهما، وقد خلص لي من مآثرهما، وقُرِّرَ لدي من مفاخرهما، وثبت عندي لهما وأسلافِهما وأعقابِهما، من سَنِي المناقب وبديع الآيات، السندُ الحسن ومعتمَد الرواة، ما يتأكد جمعه وتقييده، وتأريخه وتقليده، ويحق أن يُشاع ويُذاع، ويُحفظ ويطاع، إذ مثل هؤلاء السادات ممن يحق أن يُتَعرض لِبَث محاسنِهم تفصيلا، وإفرادُ خبرهم بالتأليف تفريقا وتأصيلا، لما لهم من المحبة لآل البيت الكرام، وكثرة الإجلال لهم والإعظام، إذ لم يصل إلينا أن أحدا ممن تقدم في الحادي، أو ما قبله من الزمان الحادي، كان لهم أكثرَ منهم إكراما، وأوفرَ احسانا وإنعاما، فعلينا إكرامُهم إذ كانوا لهم مكرمِين، وإيثارُهم إذ كانوا لهم على أنفسهم موثرين، فتصديت في هذا الكتاب لمناقبهم الأثيرة، وبيان مراتبهم الخطيرة، وجمعت فيه من مآثرهم ما قاده إلي التيسير، وقدر لي جمعَه العالم القدير، وفصلته ليقرُب لمتناوِله الحُصول، على ثمانية أبواب في كل باب عدة من الفصول، //25//

الباب الأول: في أصلهم العريق، الذي يتصل به نسبهم الوثيق.

الباب الثاني: في انتقالهم من بلاد ملوية، ونشر ما كان لهم في الغيب من المآثر المطوية.

الباب الثالث: في أصل شجرتهم النابتة بالدلاء، التي تفرع منها أكابر العلماء والأولياء.

الباب الرابع: في مركز زاويتهم، ومحيط دائرتهم.

الباب الخامس: في أولاد الشيخ سيدي أبي بكر الجليل، على حسب ما يقتضيه بَعدَ الإجمال والتفصيل.

الباب السادس: في أولاد الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر، وذكر مفاخرهم التي ليس [لها] عد ولا حصر.

الباب السابع: فيمن اتصف بالعلم من أبنائهم، ونتج فيهم منهم ببركاتهم واعتنائهم.

الباب الثامن: في ذكر أولاد سيدي عبد الرحمن بن أبي بكر، ومن تناسل عنهم من الأئمة الأعيان إلى هذا العصر، جعلنا الله ممن تمسك بعروته الوثقى، وأعزنا بعزه وعز رسوله الذي هما خير وأبقى.

وسميته بالبدور الضاوية //26// في مناقب أهل الزاوية الدلائية، والله يمنحنا العون والتوفيق، والهداية إلى سواء الطريق، ويرزقنا فيهم وفي غيرهم النية الصالحة، ويجعله لنا من المتاجر الرابحة، ويلحقنا بهذا الفريق، ويجمعنا بهم مع خير رفيق، بجاه سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الباب الأول: في أصلهم العريق، الذي يتصل به نسبهم الوثيق.

قال الحافظ أبو محمد بن حزم في جمهرته: جملة العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال، عدنان وقحطان وقضاعة اه، يعني وأما غيرهم فقد بادوا في القرون الماضية، فلن ترى لهم من باقية، كما أخبرت به الآية القرآنية، وهؤلاء السادات أهل الزاوية الدلائية إنما هم من ضئضئ ([1]) العرب القحطانية، إذ هم من فروع شجرة لمتونة، ذات الدولة الميمونة، الذين منهم التوارك ([2]) الملثمون الذين كان منهم الملوك المرابطون بانُو مدينة مراكش قاعدة ملكهم، ولمتونة هم ولد لمت، أحد أفخاذ صنهاجة.

قال شيخ بعض أشياخنا، خاتمةُ أئمة هذا البيت الأكابر، أبو عبد الله سيدي محمد بن العلامة الإمام سيدي أحمد بن الشيخ العارف بالله سيدي المسناوي البكري الدلائي رحمه الله تعالى ونفعنا به فيما نقلته من خطه، أن //27// أصلهم كما هو مشهور عندهم متداول لديهم من مشايخ الحي وعجائزه، من صنهاجة ثم من لمتونة، وفصيلتهم القربى التي هم منها من أنفَسها بنو الطالب، ويقال لهم بلسان البربر آيت يَتِّيدر، قال: وآيت عندهم تستعمل تارة بمعنى البنين والأولاد، كآيت فلان بمعنى بني فلان، وتارة بمعنى الأهل، كآيت فاس بمعنى أهلها، وبمعنى الرهط والقبيلة أيضا، ويَتِّيدر المذكورة بمثناة تحتية مفتوحة، فمثناة فوقية مشددة مكسورة، فمثناة تحتية ساكنة، فدال مهملة مفتوحة أو مكسورة، فراء ساكنة آخره، في عداد قبائل ملوية الداخلةِ فيهم والمعدودة منهم من خاصتِهم وخلاصتِهم، وأفضلِ بيوتهم وعشائرهم، وإن لم يكن أصلها منهم كما ذكر، وقد زادت فضلا وفضيلة باقي العشائرُ بسبب زيادة بيت الشيخ الكبير، العارف الشهير، سيدي أبي بكر وذريته فيهم رضي الله عنه، مع ما حصل لبنيه من بعده من شرف العلم والولاية، ومزية الظهور والوجاهة، ففي أعقابه والحمد لله ما يزيد على الأربعين من العلماء الأكابر، والأولياء المشاهير، ممن تقصر عن رتبتهم الزواهر، وما منهم إلا من درَّس العلمَ وحققه، وأحكم قياسه وأحرز طرقه، وعم الانتفاع به في العباد، وشاعت فضائله في البلاد، وذلك كله مما يعلي قدرهم، ويشيد فخرهم، وقد صرح ولده شيخ الإسلام، ومن شهد له بالصديقية العظمى الأولياء العظام، أبو عبد الله //28// سيدي محمد بن أبي بكر، وناهيك به عدالة وجلالة، فإنهم من لمتونة، وأوصى ولدَه الأمير، العلامة الشهير، أبا عبد الله محمد الحاج رحمه الله حين ذهب للمشرق حاجا عام إحدى وأربعين وألف، وذلك قبل زمان إمارته، أن لا يتعرف للتوارك إذا لقيهم، وقال له: إنهم قومك، أخشى أن يتكلفوا ضيافتك فتُعَنِّتهم، أو كلاما هذا معناه، وذلك منه رضي الله عنه شفقة عليه وحملا لولده على علو الهمة والاستغناء عن الناس اه.

ومثله للشيخ العلامة المحقق النسابة أبي محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني في تأليف له فيهم سماه "نزهة الفكر في مناقب الشيخين سيدي محمد ووالده سيدي أبي بكر"، قال فيه: وأخبرني بعض الفضلاء الثقاة، الضابطين الأثبات، ممن دخل بلاد السودان ومر ببلاد التوارك ولقي السادات الفضلاء أولاد الشيخ الولي الجليل الشهير، القدوة العالم العارف الكبير، أبي العباس أحمد المدعو الصادق لقبا له، ابن الشيخ الولي الكبير (...) ([3]) بن عبد القادر التاركي اللمتوني القاطن بأقزبا، بالقاف المعقودة والزاي بعدها، بطرف السودان، زاوية هنالك شهيرة، وهو وولده بها، مزارة كبيرة، عن أولاد الشيخ ([4]) الصادق المذكورين، عن الشيخ الصادق رضي الله عنه أنه كان يقول: إن في المغرب الأقصى دارا شهيرة هم منا، وهم اولاد الشيخ أبي بكر الدلائي رضي الله عنه، وناهيك بالشيخ الصادق //29// صدقا وبصيرة، هو العمدة فيما يقول، وإليه منتهى صدق المنقول، وهو من

---

1 - الضِّئْضِيءُ : الأَصل.

2 - بقاف معقودة وتكتب غالبا «الطوارق» أو «التوارك» مجموعة من قبائل البدو الرحل تعيش في الصحراء موزعة بين ليبيا ومالي والجزائر والنيجر وشرق موريتا.

3 - ربما كانت "اونين" أو "اونيس" والله أعلم.

4 - في المخطوط "عن أولاد الشيخ الشيخ...الخ" بتكرار لفظة الشيخ.

مشايخ الشيخ الفقيه العارف بالله أبي العباس سيدي أحمد بن محمد اليمني رضي الله عنه، كثيرا ما يعظمه ويثني عليه بالتعظيم التام البالغ والثناء الكثير، ويذكر من مفاخره.

وفي تأليف أبي زيد سيدي عبد الرحمن بن إسماعيل التادلي الصومعي عند تعريفه بالشيخ سيدي أبي بكر ما نصه: وأصله من صنهاجة حميري من عرب اليمن، قال: ورأيت نسبه مرفوعا لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه هكذا: أبو بكر بن محمد بن سعيد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن الحسن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد القادر بن علي بن أبي القاسم بن محمد بن يحيى بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن يحيى بن الحسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب بن نجم بن عيسى بن شعبان بن عيسى بن داود بن محمد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولعلهم خرجوا من الحجاز إلى اليمن فعُدوا من حمير.

قلت: والناس مصدَّقون في أنسابهم التي يحوزونها. قال الإمام مالك رضي الله عنه: "والناس مصدَّقون في أنسابهم على ما حازوه وعرفوا به كحيازة الأملاك".اهـ

وما كان الناس يعرفون هؤلاء السادات إلا بهذا النسب، ولا ينسبونهم إلا لهذا القبيل من العرب، ولا يحليهم حفاظ الأئمة الأعلام، إلا به في //30// الألسنة والأقلام، كأبي عبد الله محمد بن قاسم القصار الغرناطي حسبما رأيته بخطه في إجازته لبني الشيخ سيدي أبي بكر، وناهيك به، وأبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السلوي صاحب نظم قواعد المذهب ونظم غريب القرآن، وأبي مالك عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري صاحب المرشد المعين وفتح المنان، وأبي عبد الله محمد بن أحمد ميارة شارح المرشد المعين وتحفة ابن عاصم ولامية الزقاق، وأبي العباس أحمد بن القاضي المكناسي صاحب درة الحجال وجذوة الاقتباس، وأبي العباس أحمد بن محمد المقري القرشي التلمساني صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض، وأبي العباس أحمد بن علي البوسعيدي الصنهاجي صاحب روضة الزلفى وبذل المناصحة، وأبي العباس أحمد بن علي بن عمران السلاسي الفاسي، وأبي العباس أحمد بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي شارح رائية الشريشي في السلوك، وأخيه أبي حامد العربي بن يوسف صاحب مرآة المحاسن، وابنه أبي نصر عبد الوهاب، وأبي البركات الشيخ الشهير عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي وولديه أبي عبد الله مَحمد بالفتح شارح الحصن وأبي زيد عبد الرحمن صاحب ابتهاج القلوب، وأبي عبد الله المهدي بن أحمد بن علي الفاسي شارح دلائل الخيرات، وأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي صاحب حاشيتي شرح الكبرى وشرح المختصر //31// المنطقي للسنوسي، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر العياشي وابنه أبي سالم ([1]) عبد الله بن محمد صاحب الرحلة، وأبي العباس أحمد بن يعقوب الولالي صاحب شرح المقاصد وشرح المختصر البياني للسعد، وأبي العباس أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني شارح البردة، وأبي محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني صاحب نزهة الفكر والمقصد الأحمد، وأبي عبد الله محمد الصغير المراكشي صاحب نزهة الحادي في ملوك القرن الحادي عشر، وشيخنا أبي عبد الله محمد بن الطيب القادر الحسني في تاريخيه الكبير والصغير، وغيرهم من يعسر سرده، ولا ينحصر عده، بل متواتر عند الخاصة والعامة خبر عربيتهم، بحيث لا يتطرق في الوهم احتمال، ([2]) بالمداخلة والمصاهرة والمخالطة والمجاورة، وأما طباعهم فعلى عربيتها اليمانية لا تغيرها الانتقالات المكانية والزمانية.

فانظر لما في ألسنتهم من البلاغة والفصاحة، وفي عقولهم من النباهة والرجاحة، وفي أخلاقهم من الصباحة والسماحة.

وإذا جهِلت من امرئ أعراقه   وقديمه ([3]) فانظر إلى ما يصنع

---

1 – في المخطوط "ابن سالم" ولعله سبق قلم.

2 – كلمة "احتمال" كتبت في أول السطر وحدها وتُرِك باقي السطر فارغا، فلا ندري هل ما بعدها من الكلام تابع لها أم هناك كلام ترك له الناسخ بياضا.

3 – في المخطوط "صليبه" ولعلها تصحيف، وفي بعض الكتب "أصوله"، لكن المشهور ما أثبتناه.

الإناء بما فيه يرشح، وعين الطَّيِّب الأصل إلى المكارم تطمح، أخلاق كريمة، وعروق تُثبِت المحاسن قديمة، قد تخلقوا بأخلاق الشرف، //32// ولا شك أن الجوهر النفيس وعاؤه الصدف.

وأما ما ذكره صاحب مراكش مولاي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان السعدي في رسالته لصاحب سجلماسة مولاي محمد بن الشريف، وما ذكره مولاي محمد بن الشريف المذكور في رسالته أيضا لسيدي محمد الحاج، وما في بعض فصولهما من حشو الكلام، وسوء النثر والنظم في الملام، ونحو ذلك، فلا يُلتفت إليه، لاتفاق أهل العلم والدين من مؤرخي زمانه على نسبته الصنهاجية الحميرية، ونقلها عمن تقدمهم من أهل وطنه عمن قبل أوانه، وكل ذلك مدفوع غير مقبول، وعن ولاية الاتصاف بالإنصاف معزول، لإطباق النسابين على خلافه، وتنصيصهم على النسبة الصنهاجية الحميرية لأسلافه، وهو الحق والتحقيق، عند ذوي العلم والدين من كل جنس وفريق، ولتوقد أحشاء الجسد، من ذوي الرسائل بنار الحسد، أغرقوا في الغض منهم والتحامل عليهم، والبغض فيهم والتجاهل بهم حتى نسبوهم لغير نسبتهم، وسموهم بغير سمتهم، ليتوصلوا في محافلهم لإشاعته، ويسبق كل جاهل من ملئهم لإذاعته، وسببه النفاسة النفسانية، والأنانية الإنسانية، التي هي من نتائج الأمَّارة، على حوزة الملك والإمارة، باستعمال السياسة، والاستظهار بالولاية والرياسة، إذ كان التنازع بينهم فيها، وكل منهم يريد أن يمتطيها، وعن غيره //33// ينفيها، حسبما يذكر ذلك إن شاء الله كله، وتأتي ترجمته ومحله، وما تعرضنا لهذا إلا لدفع توهم صحة ما يذكره حسدا من لا علم عنده ولا خبرة، وإلا فنسب هؤلاء السادات كالغرة في الوضوح والشهرة، فالاقتصار على ما ذكرنا كان كافيا في المراد، لشهرته عند أهل الفن من كل حاضر وباد، وتتبع ما في ذلك من المقول، والاستقصاء بالنقول، يخرج عن المقصود ويطول، والله ولي التوفيق.

ولفظ صنهاجة التي ذكرنا جماع بطون لمتونة، هو كما قال ابن الأثير بضم الصاد وكسرها، من عرب حمير اليمانيين، يتصل نسبهم بهم من طريق عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان ([1]) بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير، هذا هو النسب المعروف لصنهاجة، الذي سلك الحفاظ في القديم والحديث منهاجه، وأطبق عليه النسابون في جماهير الأنساب، والمؤرخون في تراجم الأعيان، والمتكلمون على الألفاظ باعتبار معانيها وباعتبار من ينسب إليها، كأبي الحسن الهمداني وأبي المنذر بن الكلبي وأبي عبيد القاسم بن سلام والزبير بن بكار علامة قريش في الأنساب وناهيك به، وابن خلكان في وفيات الأعيان وابن خلدون في تاريخه الكبير وابن أبي زرع في القرطاس وابن سماك المعافري في الحلل الموشية والمجد الفيروزآبادي في كتابه القاموس، //34// وأبي محمد الرشاطي في اقتباس الأنوار، وعبد الغني الإشبيلي في اختصاره له، وعبد الحق الإمام المالكي في اختصاره، وأبي القاسم بن جزي في القوانين، وأبي السعد السمعاني في كتابه المنسوبات، وأبي الحسن بن الأثير في اختصاره له، في جماعة من غيرهم سلفا وخلفا.
وقول أبي محمد بن حزم في جمهرته بخلاف هذا في نسب صنهاجة كأنه خرق للإجماع، والله أعلم بما حمله عليه.

وحمير الذي اتصل نسبهم به هو حمير ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وفي سبأ بن يشجب يلتقي نسبهم مع حي الأنصار من الأوس والخزرج، فأكرم به إذا نسبا، فيلتقي مع الأنصار في سبأ.
وكانت مساكنهم في القرون الماضية بالواسع من البلد اليمانية، وكان لهم بها مُلك كبير، في الزمن الكثير، ثم إن أحد ملوكهم من التبابعة كان سمع من بعض أهل الكتب المنزلة أن الله تعالى يبعث رسولا من العرب اسمه أحمد لجميع الأمم، فبادر إلى الإيمان به وصدق بما يأتي به صلى الله عليه وسلم، وصار يدعو قومه إلى الإيمان بما آمن به فلم يجبه إلا طائفة من قومه حمير. ولما غلب الكفار عليهم خرجوا من أرض اليمن يطلبون النجاة منهم، وتفرقوا في الأقطار أيادي سبأ، واخفوا أنفسهم عن عدوهم باللثام، فتوجه لمتونة منهم إلى المغرب واستوطنوا في مراحل من الصحراء مسيرة شهرين إلى //35// السودان، واستحسنوا إبقاء اللثام واتخذوه شعارا لهم إلى هذا العهد لأن الله تعالى نجاهم بسببه من عدوهم. ثم في وسط المائة الخامسة عوضهم الله من ملكهم باليمن مملكة

---

1 – في المخطوط "جيران" وفي تاريخ ابن خلون "حيران"، قد أثبتنا ما في كتاب ملوك حمير للحميري "جيدان".

المغرب بعُدوَتَيه البربرية والأندلسية، وبنوا حاضرة مراكشة واتخذوها دار مملكتهم. وعِدة ملوكهم أربعة، ومدة ملكهم نحو تسعين سنة بالمثناة الفوقية أولى، وفي أحدهم يقول القائل:

ملك له شرف العلا من حمير | وإذا انتمت ([1]) صنهاجة فهم هم
لما حووا إحراز كل فضيلة | غلب الحياء عليهم فتلثموا

وكانت لهم رحمهم الله غزوات في الأندلس أبلوا فيها بلاء عظيما، وكانت لهم في الحروب شدة وبأس لم تكن لغيرهم من شجعان الناس، كانوا يختارون الموت على الانهزام، ولم يُحفظ لهم فرار من الزحف في يوم من الأيام، وبذلك ملكوا الأرض، ذات الطول والعرض، مع العدل والكرم، وحفظ العهود ورفع الهمم.
ولما انقرض ملكهم وانتثر سلكهم، تفرقوا أيضا في البلاد، وصار كل واحد منهم يهيم في واد، فيومئذ عزلت هذه الشعبة (...) ([2])، في منازل من سواحل ملوية، ولعمري إنها لبلده طيبة، تنهل في أرجائها بالبركات غمامة طيبة، فأنبتت نباتا حسنا، وسلكت للخير سننا فسننا، إلى أن حل بَدرهم في برج الدلاء، فانفلقت منه //36// هناك أنوار الاهتداء.
وبالجملة فلصنهاجة عموما المجد الطارف والتالد، يرثه الولد منهم عن الوالد.
قال أبو محمد الرشاطي في اقتباس الأنوار: فشرف صنهاجة أصيل، ومجدهم أثيل، ورئاستهم قديمة، ونسبتهم إلى حمير معلومة اهـ. ومثله في اختصاره لعبد الغني الإشبيلي.
قلت: وقد تمسك أزكى فروع شجرتهم الشماء، المثمر في حدائق الدلاء، من هذا الشرف بالعروة الوثقى، وزاد عليه بالشرف المعتبر من العلم والتقوى، ومراقبة الله في السر والنجوى.

إن السَّـرِيَّ هو السري بنفسه | وابن السري إذا سرا أسراهما ([3])

وها أنا أذكر إن شاء الله من مفاخرهم الخطيرة، ما هو أجلى من شمس الظهيرة، والله المستعان، وعليه الاعتماد والتكلان.

---

1 – ورد البيت في مواضع أخرى بلفظ "انتموا" و "انتصبوا".
2 – كلمة غامضة.
3 – أسراهما: أي أشرفهما، كما في لسان العرب.

الباب الثاني: في انتقالهم من بلاد ملوية، ونشر ما كان لهم في الغيب من المآثر المطوية.

اعلم أن الانتقال إنما هو عز وقربة، لا ذل وغربة، ولذلك هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى طيبة.

وَكُـلُّ اِمـرِئٍ يـولي الجَميـلَ مُحَبَّـبٌ   وَكُـلُّ مَكـانٍ يُنبِـتُ العِـزَّ طَيِّـبُ
إن العُـلَا حـدَّثتِني وهـي صـادقةٌ   فيمـا تُحـدِّثُ أنَّ العـزَّ فـي النُّقَـلِ

ثم الذي اشتهر بين أكابرهم وانتشر أن الذي استوطن منهم بأرض //37// الدلاء، واتخذها دار قرار ومكين له ولمن بعده من الأبناء، هو روض البركة الأزهر، الشيخ العارف الأكبر، الولي الأشهر، أبو حفص سيدي عمر، رابع الآباء لقطب رحاهم، وشمس ضحاهم، الشيخ الشهير الذكر، ولي الله بالإجماع سيدي أبي بكر رضي الله عنه، فيكون انتقاله أواخر المائة الثامنة في عفوان دولة بني مرين رحمهم الله، في أيام أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن أو ابنه أبي زيان محمد السعيد، على ما تقتضيه القاعدة التي ذكرها ابن خلدون ولي الدين في تاريخه الكبير من أن مائة سنة لا يسعها إلا ثلاثة آباء، إلا أنها ليست بمطردة، إذ قد يوجد أكثر من ذلك أو أقل بكثير كما هو مشاهد بالعيان، لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان، ومما تنخرم به ما حكاه الحافظان أبو الفرج بن الجوزي وأبو بزيد الخشني من أن يزيد بن معاوية حج بالناس في وسط المائة الأولى من الهجرة وبينه وبين عبد مناف خمسة آباء كما علم، وعبد الصمد بن علي بن عباس حج بالناس في وسط المائة الثانية وبينه وبين عبد مناف خمسة آباء.
وكان ملوك بني مرين يعظمون حرمتهم، ويرفعون رتبتهم، ويخاطبونهم بالخطاب الجميل، ويجاملونهم بالعطاء الجزيل، ويوقعون لهم في الظهائر، برفع الوظائف عن خدامهم من العرب والبرابر، مع الإقطاعات النافعة لأرضين //38// كثيرة.

قال الشيخ الإمام العلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي رحمه الله ومن خطه نقلته: رأيت بخط شيخنا الإمام أبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي رحمه الله ما نصه: ومن خط الشيخ الإمام النظار أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار ما نصه: قال لي السيد الفقيه الفاضل سيد شرفاء فاس غير مُدَافَع، سيدي محمد طاهر الحسيني الصقلي (كان بنو مرين يعظمون السادات الدلائيين غاية، وربما قاموا وأجلسوا أحدهم في مكانهم).

ثم ظاهر كلام أبي عبد الله الإفراني أن الذي سكن الدلاء أولا هو الشيخ سيدي أبو بكر ([1])، لكن أهل مكة أدرى بشعابها، ورب الدار لا يضل عن بابها. نعم سيدي أبو بكر هو الذي بنى الزاوية بها واستوطنها هو وولده بعده.
والدلاء الذي استقر بها جدهم، وتمكن فيها مجدهم، لفظها مكسورة الدال المهملة، وبعدها لام مفتوحة مخففة ممدودة، على زنة الدِّلَاء الذي هو جمع دلو، وهي بلدة طيبة على ثلاثة مراحل من مدينة فاس، مكتنفة بين جاناته ([2]) وهسكورة وتادلة.

---

1 – لو صح كلام الإفراني لكان الشيخ أبو بكر أول من لُقِّب في أسرته بالدلائي، لكن جده سيدي سعيد لقب به في نص ظهير للسلطان محمد الشيخ السعدي سيأتي به المؤلف لاحقا، وهي حجة أقوى مما أتى به المؤلف هنا من كلام الصقلي الذي يحتمل إطلاق لفظ الدلائيين على الأجداد تجوزا.
2 – في المخطوط "بجاناته" والصواب جاناته وهي زناتة بلسان البربر على عادتهم من قلب الزاي جيما، وسيأتي ذكر هذا الاسم لاحقا في هذا الكتاب.

وفـــرات واديهـــا المَعـــين زُلالـــه تمتـــد منـــه بينهـــا خلجـــان

وعيونهـا تجـري علـى صـم الصـفا بمسلسـل مثـل اللجـين الـذائب

ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولكل شيء أجل ينتهي إليه وحد.

ومن لدن حل عن صدق التوجه بواديها، وخبر صيته يزيد انتشارا //39// بحواضر الأرض وبواديها، وماء التكوين يجري عنه في الأصلاب الطاهرة، إلى أن استهل منه هلال الكرامات الظاهرة، بأصل شجرتهم الزاكية الفروع، الجامعة للأفراد والجموع، بيت الخير المعمور، سيدي أبي بكر المذكور، فاجتمع له ولأعقابه ببركته رضي الله عنه من المفاخر، ما لم يجتمع لغيره من الأوائل والأواخر، فما شئت من أثيل النسب والحسب، وإخلاص النية في الطلب، والمروءة والصون، وحسن الخلق وجميل الظن، والصبر والعفاف وكظم الغيظ وقبول العذر والعفو والصفح، والبر والنصح، والتواضع في القول والفعل، والصدق في الجد والهزل، والمودة في القربى وبذل المعروف، وإغاثة الملهوف، وما شئت من التبحر في العلوم، على الخصوص والعموم، من القراءات والتفسير والحديث والفقه والأصلين وعلم الكلام والتصوف والمنطق والهندسة والطب والحساب والفرائض والتوقيت والتعديل والإعراب والرسم والطلسمات والأوفاق الجدولية وأسرار الحروف وخواص الأسماء، والتخلق بعلوم الأدب على مقتضى سليقة العرب من النحو والتصريف واللغه والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي وإنشاء الشعر والرسائل والخطب والمقامات ونوابغ الكلم //40// وبدائع الحكم على أسلوب غريب عجيب، يعجز عنه فحلا طيء أبو عبادة البحتري وأبو تمام حبيب، ومعرفة التاريخ والأنساب وأيام العرب وأشعارها، وحسن المحاضرة، وصدق المناظرة، وتحقيق المناط، في تحصيل الاستنباط، مع الخط الرائق، والضبط الفائق، وما شئت من الاستقامة بالتقى، والمجاهدة والمراقبة والرضى والتسليم والتوكل والزهد والورع والخشية والكرامة والتبري من الدعوى، والأخذ بالاتصاف، لا بمجرد الأوصاف، والجمع بين الشريعة والحقيقة، والسلوك في السنة على مثلى الطريقة، وما شئت من الإمارة، بالعدل المخالف للنفس الأمارة، وحسن السياسة، وصدق الفراسة، والشجاعة والمهابة، وإطفاء نار الفتن، وإصلاح ذات البين فيما ظهر وبطن، مع رقة الطبع والارتياح للمديح، وإحراز قصبات السبق في المجال الفسيح، إلى غير هذا من الأوصاف الجميلة التي يعجز عن حصرها اللسان الفصيح.

هذا جملة مما كان لهم عموما من المكارم، وأذكر إن شاء الله التفصيل خصوصا بحسب التراجم، وعلى الله قصد السبيل، والله على ما نقول وكيل.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمَّتى كالمطرِ لا يُدرى أولُّه خيرٌ أم آخرُه) ([1])، وفي رواية: (أمتي [أمة] مباركة لا يدرى أولها خير أو آخرها) ([2]).
وقال ابن مالك في خطبة التسهيل: (وإذا كانت العلوم منحا إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يُدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين). وقال الشاعر: "كم ترك الأول للآخر".
فلا جرم أن أهل زاوية الدلاء، بلغوا في المجد غايته في الابتداء والانتهاء، وكلما غاب منهم كوكب ظهر عنه كوكب أو كواكب، تنبعث عنهم أنوار المكارم والمناقب، ومتى أخفاهم زمان، أظهرتهم بعده أزمان، فكانوا بين خمول وظهور، على حسب مقتضى الحال في تلك الدهور، وكانت شجرتهم من الجَد النازل بأرض الدلاء على ساق واحد لم تتعدد فيها الفروع بتعدد الأبناء، ولم يوجد ما يعتمد عليه في صحيح خبره، إلا ما أبقاه بعده من جميل أثره. نعم رأيت بخط بعض أعقابه، والبيت لا يؤتى إلا من بابه، أنه هو الذي ظهر فيه أولا الخير والصلاح، والفتح المبين والفلاح، مشتغلا بما يعنيه، مقبلا على ربه، تاليا لكتابه العزيز، معظما لآل البيت النبوي، محبا لهم ولأهل العلم والدين، مواصلا لهم متفقدا لأحوالهم، لا يُوثِر //42// على استفاده العلم وإفادته، ولا يبغي بالقرآن وأهله بدلا. وكان له عند ملوك بني مرين رحمهم الله تعظيم واحترام ومكان مكين، قال: ولم أقف له على تاريخ وفاة ولا ولادة. اهـ
وليس هذا السيد هو الذي كان يؤاجر الأهل والبنين للصلاة على سيد المرسلين في كل وقت وحين، وإنما يؤثر ذلك عن حفيده أبي الفضل سيدي سعيد، لكن ليس ذلك في حقه ببعيد.

عهـود مـن الآبـاء توارثهـا الأبنـاء — بنـوا مجـدها لكـن بنـوهم لهـا أبنـى

وكان لهذا الشيخ رضي الله عنه أولاد منهم من توفي في حياته ومنهم من بقي بعد وفاته، إلا أن العقب إنما هو لولده الأسعد، أبي العباس سيدي أحمد، كان رضي الله عنه إماما عالما فاضلا كاملا، من أكابر أهل العلم والعمل به، له مناقب كثيرة، ومآثر عديدة، وصفه صاحب الحدائق في نظمه بقوله:

ابـن أبـي العبـاس طـود العلـم — مـن منبـع الـذوق (.......) ([3]) الفهـم

ولم يترك بعده سوى ولده الفريد، أبي الفضل سيدي سعيد، نفعنا الله ببركاته.

---

1 – كُتب الحديث في المخطوط بصيغة غريبة فضلنا تجنب إثباتها حتى لا تُؤخذ على غير روية، وهذا لفظها (أمتي كالمطر لا يدرى أولها خير أو وسطها أو آخرها). ولم نعثر في شيء مما وقفنا عليه على رواية بلفظ الوسط.
2 – رواه ابن عساكر في التاريخ عن عمرو بن عثمان مرسلا. وسقط من المخطوط لفظ "أمة" الذي جعلناه بين معقوفتين.
3 – كلمة تقرأ "وَسَيْفِ" أو "وَسَيْقِ" والله أعلم.

فصل في ذكر الشيخ سيدي سعيد بن أحمد بن عمر الدلائي

هو السيد الأجل، الأستاذ المبجل، الولي الأكمل، العارف الأحفل، أبو //43// الفضل سعيد بن أحمد بن محمد الدلائي، كان رضي الله عنه من الأشياخ الكاملين، الأكابر الصالحين، والعلماء المتقين، والأولياء العارفين، الغائبين في محبة سيد المرسلين. قال في حقه صاحب نزهة الفكر: كان سيدي سعيد رحمه الله طالبا قارئا فاضلا خيرا دينا فائقا، مكثرا للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مولعا بها، مواظبا على قراءة دلائل الخيرات، لا يفارقه في أكثر الأوقات، وكان يأمر أولاده بها ويرغبهم فيها ويحضهم عليها، حتى إنه كان يسافر لنواحي البلاد فيأتي بالطرف والفواكه ويقول لهم مرغبا ومدربا: من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم كذا وكذا فله كيت وكيت من تلك الأشياء المشتهيات. وكان له عند أمراء وقته التعظيم التام، والتوقير الكثير والاحترام، لما كان عليه من الاشتغال بالعلم والدين، وما سلف من العلم والصلاح في آبائه الأقدمين، رحمة الله عليهم أجمعين، وكانت عنده ظواهر (كذا) ملوكية من بني مرين وبني وطاس وغيرهم تتضمن الاحترام والتوقير، والتنزيه عن الوظائف الجارية على العامة والتحرير، وتتضمن إقطاعات له لأرضين ببلاده، واستمرت بأيدي بنيه من بعده من أولاد الشيخ أبي بكر إلى أن كانت رحلتهم لتلمسان ففقدت.

ووقفت على نسخة من ظهير السلطان أمير المؤمنين محمد الشيخ بن محمد السعدي //44// رحمه الله، ونصه من أوله إلى آخره: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، عن أمر عبد الله تعالى مولانا أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، المؤيد المنصور بالله، القائم بأمره الشريف الحسني أدام الله عزه وأيد ملكه آمين، محمد الشيخ بن محمد، أنَّا جددنا بحول الله وقوته، لحامل أمرنا العلي المبارك الكريم أسماه الله وخلد مآثره، وهو ولينا في الله سبحانه الذي نعظم قدره، ونلتزم تبجيله وإيثاره، السيد الأفضل، الولي الأكمل، المبارك الخير الصالح، الأستاذ المعلم الناصح، سيدي سعيد بن أحمد الدلائي ، وصل الله كرامته، ووالى بمنه سعادته، تجديدا تاما، له خاصا ولأخوانه عاما، على ما بأيديهم من ظهائر أسلافنا الكرام وغيرهم رحمهم الله، المتضمنة لشرفهم وتوقيرهم واحترامهم، ومحاشاتهم من سائر كلائفنا ([1]) ووظائفنا المعهودة لغيرهم ([2])، بعد أن تصفحناها فألفيناها مؤسسة المبنى، ومستقيمة اللفظ والمعنى، في غاية ما يكون من التحقيق والتعظيم ([3])، فتعين علينا إذ ذاك نحن الاقتداء بمن مضى، والأخذ بمأخذهم كما تلقوا ذلك بالقبول والتعظيم والرضى، من غير تغيير ولا تبديل، ولا تحريف ولا تحويل، وتركناهم على ما كانوا عليه من التصرف في بلادهم المعروفة من غير اعتراض لهم فيها //45// ولا نزاع من أهل دائرتنا، ولنعلِمهم كافة عبدا وحرا، وقائدا ووزيرا، بأننا ألبسناهم لباس التوقير والإجلال والاحترام، وتوجناهم تاج العز والإكرام، فلا سبيل لمخلوق عليهم كائنا من كان، ومن حاد عن أمرنا هذا أو خالفه فلا يلومن إلا نفسه، وعليهم بطريق المَسكنة ([4]) والوقوف على ما تعود نفعه ومصلحته لدارنا العالية بالله ولا بد، والسلام. وكتب في سادس محرم الحرام عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة.اهـ

وكان لصاحب الترجمة رحمه الله حِرصٌ كبيرٌ على تحصيل العلم ونشره، مكرما لأهله محرضا لهم على تعلم العلم، معينا لهم بما أمكن من ماله، مواصلا لهم متفقدا لأحوالهم، لا يوثر على استفادة العلم وإفادته عملا.

---

1 – الكلائف جمع محرف عن الكلف، والمفرد كلفة. وهي ما كان يفرضه الملوك على رعاياهم من إتاوة أو خدمة خاصة، ويقال للكلفة أيضا نائبة.

2 – في المخطوط "وغيرهم" وقد صححناه من كتاب الزاوية الدلائية لمحمد حجي ص 299 الطبعة الثانية.

3 – من هذا الموضع إلى قوله "والرضى" كله ساقط من نسخة الزاوية الدلائية لمحمد حجي.

4 – المراد بطريق المَسكنة طريق التصوف، وتسمى أيضا طريق الفقر، لأن المتصوفين الصادقين ينصرفون عن الدنيا ويزهدون فيها.

وكان له رحمه الله فيما علمت ثلاثة من الأولاد، أبو عبد الله سيدي محمد الآتي ترجمته، وأبو عمران سيدي موسى وهو المتزوج من بني بلال، وأبو العباس سيدي أحمد، ولم أدرِ هل كان له غيرهم أم لا، ولم أقف على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته رحمه الله.

فصل في ذكر الشيخ سيدي محمد بن سعيد الدلائي

هو الشيخ الإمام، العارف الهمام، السيد الولي، الأبر التقي، أبو عبد الله سيدي محمد بن الشيخ سيدي سعيد بن الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ //46// سيدي عمر الدلائي الصنهاجي الحميري، حسبما تقدم في ترجمة والده وجده وجد أبيه.

قال في نزهة الفكر: كان سيدي محمد المذكور رضي الله عنه مباركا سَنِيا، خيرا زكيا، صالحا وليا، دينا سُنِّيا، سيدا وفيا. قال: ووصفه الشيخ العلامة المحقق أبو حامد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي في إجازته لحفيده أبي العباس أحمد الحارثي بالشيخ الولي، ذي الفضل الجلي.

وقال في التحفة: إنه كان رضي الله عنه من الأولياء الصالحين، العارفين الكاملين، أهل الخصوصية والأسرار الربانية، وكان له رحمه الله ولدان، أبو اسحاق إبراهيم، وأبو الجمال سيدي أبو بكر الآتي ترجمته رضي الله عنه ونفعنا به، والله سبحانه يضع سره حيث يشاء من خلقه، ويُطلع أيَّ بدر شاء في أفقه.

قال في التحفة: وكلهم من أهل الخير والصلاح والولاية، ومن ذرية الصالحين خلفا عن سلف، ومناقبهم كثيرة يطول علينا ذكرها، وفيما أشرنا إليه كفاية.

الباب الرابع في مركز زاويتهم ومحيط دائرتهم وفيه ستة فصول

الفصل الأول في التعريف بالشيخ سيدي أبي بكر الوالد، وذكر ما له من المآثر والمحامد

//47//

هو الشيخ الإمام، القطب الغوث الهمام، العالم العامل، العارف الكامل، الولي الواصل، السيد الأجل الكبير المحقق الوارث الرباني، صاحب الإشارات العلية، والعبارات السنية، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية، والأسرار الربانية، والهمم العرشية، والمنازلات الحقيقية، والبراهين الباهرة والأخلاق الطاهرة، والكرامات الظاهرة، الحامل في وقته لواء العارفين، والمقيم فيه دولة علوم المحققين، كهف قلوب السالكين، وقبلة همم المريدين، وزمزم أسرار الواصلين، وجلاء قلوب الغافلين، منشئ معالم الطريقة بعد خفاء آثارها، ومبدي علوم الحقيقة بعد خبو أنوارها، ومظهر عوارف المعارف بعد خفائها واستتارها، الدال على الله وعلى جنته، والداعي على علم وبصيرة إلى جنابه وحضرته، أوحد أهل زمانه علما وحالا، ومعرفة ومقالا.

وقال في نزهة الفكر: هو الشيخ الإمام، العارف الهمام، الدال على الله، والمتمسك بسنة رسول الله، عروس الوجود، وخادم الملك المعبود، الحائز ألوية الولاية في كل مقام، الفائز بكل مكرمة في دار المقام، شمس أهل العرفان، الحامل في وقته لواء المحبة والمراقبة والشهود والعيان، القائم بشروطها على ما عرف في كل وقت وزمان، قطب الزمان، الحامل في وقته //48// لواء أهل العيان، زين العارفين، أستاذ الأكابر وزمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الجامع بين العلم والحال، والهمة المقال.
كان رضي الله عنه من العلماء العاملين، والأئمة المهتدين، وممن جمع بين شرف العلم والدين، والأحوال الربانية الشريفة، والمقامات العالية المنيفة، والهمة العلية السماوية، والأخلاق الزاكية الرحمانية، والطريقة السُّنِّيَّة المستقيمة، والأحوال السَّنِيَّة العديدة، والعلم اللدني، والسر الرباني، والتصرف النافذ التام، والخوارق العظام، والكرامات الجسام، وكان قطبا جامعا، وغوثا نافعا مانعا، وغيثا هامعا، ووارثا رحمانيا، وإماما ربانيا، أقامه الله في وقته رحمة للعباد، وإماما بركة ونورا في البلاد، وكان فياض المدد والأمداد، كثير النفع للعباد، فانتفع به خلق كثير، وتخرج على يده مشايخ، وحييت به البلاد والعباد، وجدد الطريقة بالمغرب بعد دروس آثارها، وخبو أنوارها، وانتشر به الفقر واللهج بذكر الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سائر بلاد المغرب، وصار أتباعه في سائر نواحيه، وحصل به نفع عظيم حتى كان كثير من أتباعه تصحبه الآلاف من الزوار والواردين، رضي الله عنهم أجمعين. //49//

الفصل الثاني في أولية سيدي أبي بكر إلى أن انتشر خبره بجميع الأمصار والقطر

لا جرم أن هذا الولي الأكبر، والعلم الأشهر، الشيخ أبا بكر رضي الله عنه هو شمس أنوارهم المشرقة، وعين أسرارهم المتدفقة، وفيه كان البيت والعدد، ومنه انشقت فروع المدد، وهو جد السادات أهل زاوية الدلاء، وبه كمل ظهورهم، وشاع ذكرهم، وعظم أمرهم، وشعشع نورهم، وطلع بدرهم، وعلا صيتهم، وتمكن مجدهم وفخرهم، ومن لدن ظهر في الوجود، وقدرهم كل وقت في الصعود. سكن الدلاء واتخذ زاويته بها، وسميت زاويتهم بالزاوية البكرية بالنسبة إليه، وبالزاوية الدلائية بالنسبة للبلد، فتناقل الركبان حديث هذه الزاوية في الآفاق، وقصده الناس من كل جهة على الإطلاق، إلى أن كان منه ومن أولاده ما كان، بحكمة الملك الديان، وها نحن نرتب القول في ذلك، ونأتي بالمقدور عليه مما هنالك، من ولادته ونشأته إلى وقت انتقاله لسعة عفو الله ورحمته، ونتلو بأحوال بنيه وحفدته، وذويه وذريته.

فنقول: كانت ولادته رضي الله عنه عام بوعقبة وهو سنة ثلاث //50// وأربعين وتسعمائة، وسمي بذلك لأنه التقى فيه مقاتلة أهل فاس وعمالتها، وسلطانهم إذ ذاك أبو العباس أحمد الوطاسي المريني، آخر ملوكهم، ومقاتلة أهل مراكش وعمالتها وسلطانهم إذ ذاك أبو العباس أحمد الأعرج بن محمد بن عبد الرحمن الدرعي الشريف السعدي، ومعه أخوه السلطان بعده أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي، على مشرع بوعقبة من وادي العبيد، وكانت الهزيمة فيه على الوطاسي، وتفرقت جموعه حتى كاد أن يقبض باليد، ففي سنة تلك الوقعة كانت ولادة صاحب الترجمة رضي الله عنه.

قال في ممتع الأسماع: وبلغني أن الولي الصالح أبا الحسن علي ابن إبراهيم البوزيدي ([1]) دفين اكرض المشهور ببسيط تادلة من بلاد فشتالة هو الذي سماه أبا بكر، وذلك أنه اجتاز بتلك البلاد أيام ولادته وأدرك يوم عقيقته فأتوه بطعام من الوليمة وقالوا له: فما نسميه؟ فقال لهم: سموه أبا بكر، ودعا له ولمن يسمى بهذا الاسم من عقبه بالعلم والصلاح، فكان الأمر كذلك.اهـ

والشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم المذكور ولي كبير الشأن من أقران الشيخ عبد الله الغزواني نفعنا الله بهما، وشريف النسب من البوزيديين من بني عيسى بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل رضي الله عنهم، يرفع نسبه إليه من طريق جده //51// الذي ينسب إليه، وهو أبو زيد علي بن موسى بن صفوان بن يسار بن موسى بن سليمان بن يحيى بن موسى بن عيسى المذكور. قال: وكان سيدي علي بن إبراهيم المذكور من الأولياء الأكابر، ومشايخ الصوفية المشاهير، مشهور بالبركة والصلاح، مذكور بالخير والفلاح، ظهرت عليه دلائل العناية، وشواهد الكرامة ومخائل الولاية، وشهد له بالتقدم في الديانة الخاصة أهل الفضل والدراية، متواصل العبادة محب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. يروى في شأنه أنه بلغ في عبادته من مواظبته للقيام، ومواصلته للصيام، وتركه للطعام، إلى أن تروحن وترك الطعام جملة، فكان إذا سجد تقلقل رأسه، وإذا رفع رأسه من السجود تقلقل كذلك. ويقال إن ورده كان كل ليلة أربعمائة ركعة، وأنه كان يلبس قَشَّابة ([2]) صوف جديدة فلا يتم الشهر إلا وقد تقطعت من وركيه وركبتيه من كثرة السجود. وله رحمه الله مناقب مأثورة، وكرامات مذكورة، ولولا ما قصد من الاقتصار على التعريف، والفرار من الإطناب الموجب للشتامة والتعنيف، لذكرت شيئا من ذلك.
توفي رحمه الله في شعبان سنة ست وقيل سنة سبع وخمسين وتسعمائة والله أعلم.

ثم نشأ الشيخ أبو بكر صاحب الترجمة، نشأة أولي الأقدار المحترمة، مشتغلا بما //52// يقربه إلى الله زلفى، لا يَرِد به التوفيق إلا من المنهل الأصفى، حريصا على معرفة الحلال والحرام، بعيدا عن الشبهات التي تؤدي إلى الملام، ساعيا في تحصيل كبرى الهمم، لا تقف به المروءة في مواقف التهم، لا يخالط إلا أفاضل القوم، ويرى أن اليوم الذي لا يستفيد فيه علما بئس اليوم، يزاحم العلماء بركبتيه، ليبلغ من العلم أطوريه ([3])، أدخله والده رضي الله عنه في مكتب التعليم، فحفظ في مدة يسيرة القرآن العظيم، ثم صرف عنان عنايته، إلى تعلم العلم الظاهر ودرايته، وأخذ بذهن ثاقب في قراءته على جماعة من الشيوخ المعتبرين، مصحوبا في مباحثه بالفتح المبين، فقرأ ما تيسر بمدشر أبي عباد ([4])، ثم ارتحل لغيره من البلاد، كمكناسة الزيتون وفاس الإدريسية، حتى بلغ في أقصر مدة أقصى الأمنية، فتضلع في قواعد الشريعة، وتبحر في موارد الحقيقة، وأشرقت في بواطنه شموس العرفان، وانتشرت عنه أشعتها في ظواهر الأكوان، ولازال قدره يسمو، وسره ينمو، حتى تأهل للصعود في المقام الأسمى، بسلم الخصوصية العظمى.

---

1 – توفي سنة 956هـ وقيل 957هـ وله ترجمة في الإعلام للطعارجي ج9 ص184–186 وغيره.
2 – قشَّابة أو قشَّابية: لِبَاسٌ ببلاد المغرب العربي عَلَى شَكْلِ جِلْبَابٍ إِلاَّ أَنَّهَا أَقْصَرُ مِنْهُ، تُنْسَجُ عَادَةً مِنَ الصُّوفِ، لَهَا غِطَاءُ لِلرَّأْسِ يُوضَعُ عِنْدَ الْحَاجَةِ.
3 – أَطْوَرَيه: بفتح الراء وهو تثنية أطور، أي بلغ منه حدي الطول والعرض. ويضرب في الانتهاء إلى غاية العلم.
4 – على هامش المخطوط تعليق بخط مخالف نصه: ببلاد زيان قرب أبي الجعد.

الفصل الثالث في شيوخه الذين سلكوا به مثلى الطريقة بالجمع بين //53// الشريعة والحقيقة

قال في نزهة الفكر: ثم إنه لما نور الله قلبه، وظهر لبه، وجاءه الفتح من ربه، وأوقع حبه على حبه، ألهَمه التوفيق، وسلوك الطريق، وهداه إلى الشيخ الإمام، العارف الهمام، صاحب وقته، وفريد عصره، سيدي أبي عمرو القسطلِّي المراكشي رضي الله عنه وأرضاه، فأخذ عنه الطريقة الشاذلية وتمسك بطريقه، واشتغل بخدمته وتفضيله، إلى أن فتح الله عليه باب محبة أوليائه، وألبسه حلة أصدقائه، فقد أتى البيوت من أبوابها، وأخذ هذه الطريقة عن أربابها، فاستوجب بذلك المزية العظمى، والإمامة الكبرى، فلم يتقدم عليه أحد في وقته، ولم يستطع الوقوف أمامه أحد من رجال عصره.

وقال في نزهة الحادي: ثم إنه لِما سَبَق له من العناية الربانية، تعلقت نفسه بابتغاء شيخ يسلك على يده، فرحل إلى الشيخ أبي عمرو بن أحمد بن أبي القاسم الأندلسي القسطلي المراكشي، فلما جلس بين يديه أقبل عليه في أول مرة إقبالا عظيما، وضمه إليه وألبسه قلنسوته بيديه، وكان رأس سيدي أبي بكر أضخم من رأس الشيخ أبي عمرو فلم تسع القلنسوة رأسه، فجعل الشيخ يوسعها ويكلفها الدخول في رأسه وهو يتلو (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) إلى مبين، قال: فأخبر سيدي أبو بكر أنه فُتِح له في ذلك //54// الإلباس بأمر عظيم، من الاطلاع على الملك والملكوت وعالم الملائكة، ثم الغيبة عن ذلك كله.

وفي مباحث الأنوار: وروي أن الشيخ سيدي أبا بكر لما لقي الشيخ سيدي أبا عمرو وضع يده على رأسه وقرأ (وعنده مفاتح الغيب...) إلى مبين، قال: فكشف للشيخ أبي بكر عما تحت تخوم الأرض حتى رأى البهموت.
قلت: ظاهر كلامه أن الشيخ سيدي أبا بكر رضي الله عنه إنما رحل لمراكش بقصد لقي الشيخ سيدي أبي عمرو والأخذ عنه والسلوك على يده، وهو خلاف ما قاله خاتمة المحققين أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي ابن الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي أبي بكر المذكور، فإنه بعدما نقل قول شيخه صاحب نزهة الفكر أن جد سيدي أبي بكر، وهو سيدي سعيد بن أحمد السابق الذكر، كانت عنده ظواهر (كذا) ملوكية تتضمن الاحترام والتوقير والتنزيه عن الوظائف والتحرير، وتتضمن إقطاعات لأرضين له ببلاده، واستمرت بأيدي بنيه من بعده من أولاد الشيخ سيدي أبي بكر إلى آخر كلامه، قال: والظهائر المذكورة هي التي كانت سبب التقاء الشيخ سيدي أبي بكر بشيخه سيدي أبي عمرو وأخذه عنه، وذلك أنه ذهب إلى مراكش حاضرة السلطان عبد الله الغالب ابن السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الحسني السعدي بقصد تجديدها، فلما وصل إليها وجاء إلى باب القصبة التي هي محل سكنى الأمير وحاشيته، جعل يتردد هل يمضي //55// إليه أو إلى الشيخ أبي عمرو، وكان يسمع به لشهرته وبعد صيته، إلا أنه لم يره قبل ذلك قط، فساقه القدر إلى الثاني، وقادته أزِمَّة السعادة إليه بلا تواني، بسبب أنه خرج عليه في حال تردده من القصبة عبد أسود من عبيد السلطان وبيده عصا، فبنفس ما وقع بصره عليه جاء يريد ضربه بعصاه من دون من كان هنالك من الناس وهو يقول: أهذا موضعك؟ أهذا موضعك؟، فذهب إلى الشيخ أبي عمرو رضي الله عنه منشدا بلسان حاله قول القائل:

إذا ســـدت الأمـــلاك دونـــي بابهـــا	ونَهنَه ([1]) عن غشيانهم زجر حاجب
فزعــت إلـــى بـــاب المهـيمن ضـــارعا	مــدلا أنـــادي باســـمه غيـــر هائـــب

فلما دخل عليه كاشفه وجعل يقول كالموبخ له: تمشي لعبد الله تمشي لبوعمرو، ويكرر ذلك، فكان من أمره معه ما كان بسوابق نفحات رحمة الملك الديان. انتهى.

1 – نَهْنَهَ فلانًا عن الشيء: كفَّه عنه وزجرَه.

وأقول: إنه يمكن الجمع بينهما أن القصد يختلف ظاهرا وباطنا، فيكون قصده في الظاهر لُقي السلطان كما ذكر، وفي الباطن إنما هو لُقي الشيخ سيدي أبي عمرو، وتردده إنما كان في القبلية والبعدية، حتى رأى من آيات ربه ما رأى.

وإذا سـخر الإلـه أناسـا لسـعيد فـإنهم سـعداء

وإلى ذلك والله أعلم يشير صاحب نزهة الفكر، فإنه بعدما ذكر ما تقدم عنه في الكلام على تلك الظهائر وما آل إليه أمرها من الضياع //56// قال: فكان ذلك كله لسيدي أبي بكر رضي الله عنه سابقة بركة وسلف خير، وتأسيا لما أراد الله به من إظهار فضله عليه، وإيداع سره لديه.

قال الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محلي إن سيدي أبا بكر زار شيخه أبا عمرو مرة فأمره أن يدخل جنانا ويسده عليه ولا يترك أحدا يتسوره، فلما كان ذات يوم قدم على الشيخ طائفة من الزوار فأمرهم أن يذهبوا إلى السيد أبي بكر ليشيعهم، فما زالوا به وهو يقول ليس عندي ما أشيعكم به، فلما أيسوا منه رجعوا إلى الشيخ أبي عمرو وقالوا إنه قال: ليس عندي ما أشيعكم به، فقال: ادعوه إلي، فلما ذهب إليه ومثل بين يديه قال له: أنت تكذبني، أنا أقول لهم اذهبوا إلى أبي بكر يشيعكم وأنت تقول لهم ليس عندي ما أشيعكم به، فقال له: يا سيدي يمنعني من ذلك قول الله العظيم: (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) فصاح الشيخ أبو عمرو صيحة عظيمة وقع منها مغشيا عليه اهـ.
وفي نزهة الحادي ما نصه: ويقال إن الشيخ أبا عمرو أمر السيد أبا بكر بحراسة بستان له فأقام في حراسته وخدمته مدة إلى أن أذن له في التوجه إلى بلاده فتوجه إليها، إلا أنه كان يتردد لزيارة الشيخ مع الإخوان المرة بعد المرة.

وفي الممتع: ثم صار يتردد إليه ويذهب لزيارته صحبه الشيخ أبي محمد عبد الله بن يعقوب نزيل مدشر عبيد الله ودفينه //57// إلى أن توفي الشيخ أبو محمد المذكور. وكان إذا رجع من عند شيخه أبي محمد مر في طريقه ببلاد سيدي مَحمد الشرقي بتادلا، وكان سيدي أبو بكر قد ظهر بتلك النواحي أمره، واشتهر بها ذكره، وقصدته الركبان من سائر الأقطار، وفاض على الناس مدده كوابل الأمطار، فكان إذا قرب من منزل سيدي محمد الشرقي أحس بنقص في نفسه، فأُلهِم أو أُرِي له أن ذلك إنما يطرأ له من قبل الشيخ سيدي مَحمد الشرقي المذكور، فعاد يتجنب طريقه ويأتي على الجبل. وقيل إنه شكى ذلك لشيخه أبي عمرو فأمره أن يتجنب طريقه. وكان الشيخ أبو عبد الله مَحمد الشرقي رجلا قويا ذا عناية، يغار أن يظهر معه أحد بتلك البلاد، ثم إنه بعد ذلك ذهب إليه زائرا في رفقة من زواره حاملا على ظهره حزمة حطب، فتلقاه بالترحيب والإقبال ودعا له بخير، وقال له: اذهب يا ولدي فإن جميع الأولياء كسرت سواقيهم إليك، فكان بعد ذلك لا يجد شيئا من النقص في نفسه ويذهب لزيارة شيخه ويجيء من أي طريق شاء اهـ

ويحكى عنه رضي الله عنه أنه هاجت عليه ذات يوم رياح المحبة وغلبه سلطان الشوق وهبَّ له نسيم التشوق لزيارة شيخه أبي عمرو ورؤيته، فسار إليه وحده في غير إبان زيارته مع الإخوان، فوجده خارج مدينة مراكش حاضرا في دفن جنازة، وكان ذلك زمان الوباء، والوباء إذ ذاك بمراكش شديد الظهور، ولعله //58// وباء سنة خمس وستين وتسعمائة، فلما أقبل عليه قال له الشيخ سيدي أبو عمرو: وما جاء بك؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم بالوباء بأرض فلا تقدموا عليها) فقال له: لا عقل لي، فقال له: وأين رفقاؤك الذين صحبتهم في طريقك؟ فقال له: إنما جئت وحدي، فقال له: ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: (الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة رفقة)، قال له: يا سيدي لا عقل لي، فقال له: وأين عصاك؟ فإنه ما من نبي إلا وكانت له عصا، قال له: يا سيدي لا عقل لي، فعذره الشيخ ودعا له بخير ورده من حينه، ولم يدخل حضرة مراكش حينئذ اهـ وكأنه إنما أتاه عن شوق غالب، والشوق للعقل سالب، ومن لا عقل له فليس بمكلف، وقد رفع التكليف في سكرنا عنا.

ووجد بخط الفقيه العلامة أبي العباس سيدي أحمد بن يوسف الفاسي رحمه الله ما نصه: الحمد لله، أخذ شيخنا الإمام سيدي أبو بكر بن محمد الدلائي رضي الله عنه عن الشيخ سيدي أبي عمرو المراكشي، عن الشيخ سيدي عبد الكريم الفلاح، عن سيدي عبد العزيز بن عبد الحق التباع، عن سيدي مَحمد بن سليمان الجزولي، وهو فيما رأيت عند جماعة الفقراء بفاس بخط شيخ الجماعة التباعية سيدي علي صالح أنه أخذ عن سيدي محمد بن عبد الله أمغار، عن أبي عثمان سيدي سعيد الهرتناني، عن سيدي عبد الرحمن الرجراجي ([1]) الذي أقام بحرم الله عشرين سنة، عن سيدي أبي الفضل الهندي، عن سيدي //59// عنوس البدوي، عن الإمام أبي العباس أحمد القرافي، عن الشيخ أبي عبد الله المغربي، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي اهـ

وقال في الممتع والمرآة: أخذ الشيخ أبو بكر الدلائي رضي الله عنه على سبيل الإرادة والتحكيم عن الشيخ الكبير الشأن، الواضح البرهان، الجليل القدر، الشهير الذكر، ذي البركة المشهورة، والمآثر المأثورة، والفضائل التي لا تزال على طول الأيام مذكورة، أبي عمرو بن أحمد بن أبي القاسم القسطلي المراكشي المتوفى في آخر رمضان سنة أربع وسبعين وتسعمائة بمراكش، وهو أخذ عن الشيخ المعروف بجلالة القدر وكبر الشأن، أبي محمد عبد الكريم بن عمر الحاحي التيكي المعروف بالفلاح، المتوفى بمراكش أيضا في ثاني ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وهو عن الشيخ الكبير أبي محمد عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع، نزيل مراكش ودفينها أيضا، المتوفى سنة أربع عشرة وتسعمائة، وهو عن الشيخ القطب الشريف أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان الجزولي السملالي، نسبة إلى قبيلة جزولة ثم إلى سملالة منهم، وهم من أهل سوس الأقصى لكونه كان في عدادهم وإن لم يكن أصله منهم، وهو صاحب دلائل الخيرات المتوفى عام سبعين أو تسعة وستين ([2]) وثمانمائة في سادس عشر ربيع الأول بالموضع المسمى بأفوغال من بلاد مغراوة، ودفن بوسط المسجد الذي أسسه هنالك، ولما ولي الشرفاء السعديون //60// ملك مراكش نقلوه إليها ودفنوه بها بعد اثنين وستين سنة من موته رضي الله عنه، فإذا الدم جار في جسده كالحي النائم لم يتغير شيء من جميع أحواله وجميل هيئته اهـ.

ووصفه في الصديقية بالشيخ الولي الكبير العارف بالله المعمر الفياض الشهير أبي عَمَر بفتح العين والميم، بن أحمد بن القاسم القسطلي بفتح القاف وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وتشديد اللام المكسورة الأندلسي المراكشي نفع الله به.

وقال في التحفة: أخذ سيدي أبو بكر رضي الله عنه عن الإمام الأوحد الزاهد الرباني، الجامع الأشهر السراج النوراني، أبي عمرو المراكشي.

قال أبو عبد الله محمد بن علي [بن] عسكر قاضي شفشاون في كتابه دوحة الناشر في أهل القرن العاشر: إن الميم من أبي عمر مفتوحة، وهو أبو عَمَر بن أحمد بن بلقاسم الأندلسي القسطلي المراكشي دفين رياض العروس منها، كان من حضراء (كذا) مراكش وأعيانهم، وذوي الحسب والأصالة والوجاهة فيهم اهـ.

---

1 – هو أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم الرجراجي، المشهور"بمول البيبان"، أي صاحب الأبواب، بسبب وقوع ضريحه بمحاذاة أسوار المدينة العتيقة باسفي، وإشرافه على ستة من أبوابها، اثنان منها يعرفان "بباب الشعبة"، والأربعة الباقية تعرف"بباب الأقواس".
ويعد سيدي عبد الرحمن من أكبر أولياء آسفي، وتذكر الروايات أنه حضر احتلال البرتغاليين لهذا الثغر، وأنه كان واحدا من المجاهدين الأشاوس، الذين ناوشوه وقاوموا وجوده.
كان ممن يتكلم على المدونة بفاس وأملى عليها إملاء حسنًا، أخذ عنه عبد الرحمن بن عفان الجزولي، وتوفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة. انظر نيل الابتهاج ودرة الحجال وإتحاف أعلام الناس ج4 ص 576

2 – في المخطوط " تسعة وتسعين" والصواب ما أثبتناه.

قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي وبه شهر في كتابه الإصليت أنهم من ذرية ابن درَّاج القسطلي الأندلسي المذكور في ذخيرة ابن بسام وغيرها.

قال الشيخ الإمام خاتمة المحققين أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي البكري الدلائي رحمه الله: وابن دراج المذكور جد السيد أبي عمر، هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج //61// كان كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعره، وكان من بلغاء الكتاب وفحول الشعراء، ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر وقال في حقه: كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام. وذكره أيضا ابن بسام في ذخيرته وساق طرفا من رسائله ونظمه، وابن خلكان في وفيات الأعيان وقال: إن ولادته كانت في المحرم سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، ووفاته في وسط جمادى الأخيرة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، قال: والقسطلي بفتح القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وتشديد اللام، نسبة إلى قسطلة مدينة بالأندلس يقال لها قسطلة دراج، ولا أدري هل هي منسوبة إلى جده المذكور أو إلى غيره اهـ.

وبنو دراج المذكورون [من] صنهاجة، قال الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الشهير بابن حزم الظاهري في جمهرته ما نصه: ومنهم، يعني صنهاجة، رهط الشاعر أبي عمرو أحمد بن محمد بن دراج القسطلي اهـ من خط الشيخ المسناوي رضي الله عنه. فالشيخ سيدي أبو عمرو (رحمه الله) مسمى بكنية جده أبي عمرو بن دراج المذكور.

ثم إن نسب الشيخ سيدي أبي بكر صاحب الترجمة وشيخه أبي عمرو واحد، كله يرجع إلى صنهاجة كما سبق، فمن ثم قاده الله إليه بزمام السعادة، كيف //62// والأرواح أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. اهـ

وفي الدوحة: والشيخ أبو عمر صحب الشيخ أبا محمد عبد الكريم الفلاح وانتسب إليه، وعول في شأنه عليه، ولقي أيضا الشيخ أبا محمد عبد الله الغزواني وانتفع به.

وقال في الممتع: أخذ عن الشيخ أبي محمد عبد الكريم الحيحي التيكي المدعو بالفلاح، والمعروف بجلالة القدر وكبر الشأن، عن الشيخ سيدي عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع اهـ
وحاصله أن الشيخ أبا عمرو رضي الله عنه كان كبير الشأن جليل القدر شهير الذكر في سائر بلاد المغرب شهرة عظيمة، فياض المدد قوي الحال كثير الكشف عظيم الخوارق، يؤثر عنه أنه كان إذا قرأ القرآن ربما فتح عليه في الآية الواحدة بأربعمائة تأويل، وكان عريض الدعوى في مقامات الأولياء، وكان يدعي أنه القطب وأنه صاحب الوقت وأنه السلطان. وله في معنى ذلك تائية تضاهي تائية القطب مولانا عبد القادر الجيلاني وهي:

ومـن معـدن التحقيـق كـان نصـيبنا	وجملـة أنـواع اليقـين فـي قبضـتي
وكـل بحـور العلـم طـرا وردتهـا	وأنـواع أحكـام الطريقـة حرفتـي
وأقطـاب كـل الأرض مـادتهم منـا	والاجـراس والأفـراد تحـت إمـارتي
والأوتـاد والابـدال أقـاموا ببابنـا	بـذل وفقـر واحتيـاج وفاقـة

//63//

وكـل رجـال الله قـالوا بعزنـا	واظفارنـا (كـذا) بـأعلى كـل ولايـة
أقـروا بـأنني وحيـد زمـانهم	وقـدوة كلهـم وهـم لـي فتيتـي

(...) ([1]) أعنــــي أقــــروا بملكنــــا وأعنــــاقهم طــــرا أنــــاخوا لرتبتــــي
ولـو بـان مـا شـاهدته مـن عجائـب لأقطــاب وقتنــا لــذاقوا المنيــة
وشـاهدت غيـث الغيـث عينـا وعينـه وأبصــرت أنــوار الجــلال بنظرتــي
وأبصـرت مـا يـأتي ومـا كـان قبلنـا بنــور جــلال الله نــارت بصــيرتي
وعينــــي عينــــه وأمــــري بــــأمره وســري ســر خيــر كــل البريــة
مريـدي حيـث كـان شـرقا ومغربـا وجوفـا وقبلـة فـي حـرز حمـايتي
وإن أمنــي فــي البعــد كنــت امامــه وكنــت لــه حصــنا حصــينا وجنــة

وكانت الملوك تتشوش من قوله أنا صاحب الوقت وأنا السلطان، مع شهرته وبعد صيته وانتشار ذكره وكثرة أتباعه، فكانوا يهمون به ويعودون بالإذعان والانقياد إليه، مع الاعتراف له بالولاية، ويتحامون حماه، ويطلبون بركته ورضاه، وكانت له همة رفيعة في إطعام الطعام، فلا يدخل أحد زاويته إلا بادر الخدام بإحضار الطعام له على قدر طبقته، فسائر الناس يأكلون خبز الشعير وما وجد من الفاكهة معه، وفي الصبح الدَّشيش وفي المساء الكسكس، ومن هو أعلى رتبة يأكل خبز البر وخلاصة التمر والعسل واللحم والثريد ([2]) والدجاج //64// ومن هو أعلى قدرا من الطبقتين يقدمون له الحسو المتخذ من لباب الخبز الخالص وفصوص البيض مفوها بالقرفة والزعفران ولحم الضأن المطبوخ (...) ([3]) واللفت والسلجم وأنواع الفواكه التي لا توجد إلا في خزائن الملوك، ولقد رأى أرباب الملك العجب من جودة طعامه وكثرته بحيث لا يوجد له نظير، ومن تأمل ذلك علم أنه كان لا يقدر أحد على تلك الكفاية إلا من يُنفق عليها بيوت المال أو تكون له مادة ملكوتية.

ولما حضرته الوفاة أوصى بنيه وقال لهم: يا بني ابنوا باب الرباط ولا تتعرضوا لمثل ما كنت أتعرض إليه، فذلك سر إلهي لا يقدر عليه إلا من أذن له فيه. اهـ باختصار كثير، وإلا فمناقبه كثيرة، وفضائله شهيرة، لا يأتي على جميعها الحصر.

وتوفي رحمه الله كما سبق في أواخر رمضان سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وعمره اثنان وستون سنة، ودفن برياض العروس على مقربة من ضريح الشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي رحمه الله، وعليه قبة في غاية الاحتفال، وقبره مزارة عظيمة عند أهل مراكش رضي الله عنه ونفعنا به.

وقد رأيت بخط شيخ أشياخنا وهو الإمام المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي أن الشيخ سيدي أبا بكر لقي أيضا غيره من الأشياخ شهادة وغيبا كما في غير المرآة، منهم أبو عبد الله محمد الشرقي بن الشيخ أبي القاسم بن الزعري وذكر أنه //65// لما جاءه تلقاه بالترحيب والإقبال ودعا له بخير، وقال له: اذهب يا ولدي فإن جميع الأولياء كسرَتْ سواقيها إليك.
وقال الشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي: ولقي شيخنا وسيدنا الإمام أبو بكر الدلائي رضي الله عنه الشيخ البركة أبا عبد الله سيدي محمد الشرقي.
وفي الصديقية أن الشيخ سيدي أبا بكر الدلائي زار سيدي محمد الشرقي وانتفع به.

ومنهم أيضا، كما في الطرفة للحبر النسابة أبي حامد العربي بن الطيب القادري الحسني، الشيخُ أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري دفين تستاوت، فإنه لقيه بمنزله وتبرك به ودعا له بخير الدارين.

---

1 – كلمة غامضة تقرأ "بأَزوا" أو بأرْوا"، وربما كانت الباء فاءً، والله أعلم.
2 – كُتِبَت "البريد" ولعلها مصحفة.
3 – كلمة غامضة تقرأ "بالمربة" أو "بالمرفة"، وربما كانت مصحفة من لفظة "المرقة".

وقال العلامة أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي: ولقي شيخنا سيدي أبو بكر الدلائي رضي الله عنه أيضا سيدي محمد بن مبارك الزعري وغيره من أجلة أصحاب سيدي أبي عمرو اهـ.

ومنهم الشيخ أبو الطيب الميسوري نفع الله به، زاره بمنزله من ميسور، وسير إليه بولده صاحب الترجمة سيدي محمد بن أبي بكر وهو صبي صغير فقال له: عند أبيك ما يكفيك وزيادة.
ووجد بخط العلامة أبي العباس سيدي أحمد بن يوسف الفاسي ما نصه: ولقي شيخنا الإمام سيدي أبو بكر الدلائي رضي الله عنه الشيخَ أبا الطيب الميسوري وهو عن الشيخ سيدي عبد الله الخياط الزرهوني //66// عن الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني، عن الشيخ أبي العباس سيدي أحمد زروق الفاسي.
وفي الممتع والمرآة ما نصه: ولقي الشيخُ سيدي أبو بكر الدلائي رضي الله عنه الشيخَ أبا الطيب بن يحيى بن أبي القاسم اليحياوي الميسوري، زاره بمنزله من ميسور وتبرك به ودعا له بخير.
قال في الدوحة: وهو من أهل الفضل والصلاح والديانة، متصفا بأحوال الهداية والاستقامة والمتانة في الدين، له نية صالحة، وتجارة رابحة، ظهرت عليه دلائل الولاية، وتبينت فيه مخائل العناية، ملازما للصمت قليل الكلام جدا، وكان إذا تكلم لا يزيد على أن يقول: السنة تجمعنا والبدعة تفرقنا.
قال في المرآة: وكانت وفاته رحمه الله في ربيع الأول النبوي الأنور سنة ثمان وثمانين وتسعمائة، ودفن ببلاد ميسور وقبره بها مزارة عظيمة واضح مشهور، وهو أخذ عن الشيخ أبي محمد عبد الله الخياط دفين زرهون.
قال في المرآة: وكان سيدي عبد الله الخياط من كبار المشايخ الذين نفع الله بهم، وكان كثير الاتباع للسنة، يحضر مجالس العلم ويحض أصحابه على التعلم.
وقال في الدوحة: وكان من مشايخ الصوفية وأهل التربية النبوية، وكانت له أحوال سنية، شعائر مرضية، وكانت تظهر على يديه كرامات الأولياء وخوارق العادات، مع //67// سبيل الاستقامات، وله أتباع وأصحاب صحت أحوالهم.
قال في المرآة: أخذ أولا عن الشيخ أبي محمد سيدي الحسن بن عبد الحق بن عمر أجانا، وصحبه ثنتي عشرة سنة ثم قال: أنا طهرت فخارتك، وسيدي أحمد بن يوسف هو الذي يعمرها، فسار إليه، وكان تكميله على يده، واشتهرت نسبته إليه.
قال في الدوحة: توفي رحمه الله مسموما سنة تسع وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بجبل زرهون، وزاويته هناك مشهورة، والشيخ أحمد بن يوسف هو الراشدي، دفين مليانة، وكانت وفاته سنة سبع وعشرين وتسعمائة، وهو من أصحاب الشيخ الشهير، القطب الكبير، أبي العباس سيدي أحمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق، المتوفى أواخر صفر سنة تسع وتسعين وثمانمائة، ودفن بمصراتة ذات الرمال من أطراف برقة، رضي الله عنه ونفعنا به.
وقال في الممتع: والشيخ أبو محمد الحسن بن عمر بن عبد الحق أجانا أخذ من غير واسطة عن مؤلف دلائل الخيرات الشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه، وهو من كبار أصحابه وأجِلتهم وذوي القدم الراسخ في الولاية، وله من الشهرة ما فيه كفاية، قصده الناس وانتفعوا به، وهو دفين بورمَّان من بلاد بني وَحُّود من أرض شراگة.
قال في المرآة: ثم أخبرني من حفدته بعض الطلبة أنه مدفون بتاجمَّالت على ضفة وادي اللبن قرب بلاد الفراوَة ([1]) وأن //68// الذي ببورمّان حفيده سيدي الحسن بن عمر بن الشيخ سيدي الحسن بن عمر بن عبد الحق أجانا رحمة الله عليهم ونفعنا بهم.

وبالجملة، فالشيخ سيدي أبو بكر رضي الله عنه لقي هؤلاء الأشياخ الأربعة المتقدم ذكرهم، وكان يكثر زيارتهم، وكثر انتفاعه بهم، وظهرت هدايته على أيديهم، وإنما أَخَذ، على جهه التحكيم في نفسه وسَلبِ الإرادةِ، عن شيخه سيدي أبي عمرو لا عن غيره، وإليه كان ينتسب وعليه اعتمد.

---

1 – وادي اللبن: قرب بلاد الفراوة مما يلي هوارة (الحياينة). كما جاء في مجلة المناهل العدد91–92 أبريل سنة 2012م ص365

قال في النزهة: وبقي سيدي أبو بكر رضي الله عنه منتسبا لشيخه أبي عمرو ومعتمدا عليه في أحواله ومستمدا منه فيما لديه، وإليه انتهى. وهكذا وصفه في الصديقية أيضا بأنه كان يعتمد الشيخَ أبا عمرو ويعول عليه وينتسب في طريقته إليه.

وقال في النزهة: ولما توفي الشيخ أبو عمرو رحمه الله وجد الشيخ أبو بكر في حاله نقصا، وفقد ما كان يجده ويألفه في نفسه، فلم تُقِلَّه أرض ولم تُظِلَّه سماء، وهام على وجهه في البرية مع الوحوش والسباع، وأقبل على تلاوة القرآن فقرأ ختمات كثيرة فلم يرجع إليه حاله، ثم أقبل على ذكر لا إله إلا الله مدة مديدة فلم ينجبر حاله، ثم اشتغل بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وداوم على ذلك مدة فعاد إليه حاله ووجد ما كان فقده.
وهذا يحتمل والله أعلم أن يكون الشيخ سيدي أبو عمرو //69// لما قرب أجله أتى بما كان عنده من السر إلى النبي الله عليه وسلم ليكون إرثه على يده صلى الله عليه وسلم، ورجاء أن يزاد له على ذلك، وكأنه رآه أهلا لأكثر منه، وكثيرا ما يقع ذلك لأكابر الأولياء.

وكلهـــم مـــن رســـول الله ملـــتمس غرفـا مـن البحـر أو رشـفا مـن الـديم

وتوجُّه الشيخ سيدي أبي بكر بالذكر وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم طول الأزمان، إما أن يكون بإرشاد من شيخه سيدي أبي عمرو أو بالهام من الله تعالى. ثم لم يزل زائدا في التوجه حتى بلغ مراده، وفاز من النبي صلى الله عليه وسلم بالحسنى وزيادة.
ولا شك أن الصلاة على هذا النبي الكريم، الذي أثنى عليه الله بالخلق العظيم، تَرفَع في أعلى الدرجات، وتُبَلِّغ إلى أقصى الغايات وجميع الخيرات، في الحياة وبعد المماة. ثم لا يُدرَى هل كان الشيخ سيدي أبو عمرو يعلم قبل دنو أجله وارثَ سره ولكنه لم يؤذَن له في الإعلام به أو كان لا يعلمه، فإنه بعث إليه سلطان وقته أبو محمد عبد الله الغالب بن السلطان محمد الشيخ السعدي الحسني قائلا له: من الذي يرث عنك هذا السر الذي عندك؟ فقال له: إن كان بالعناية فالسلطان هو الذي يرثه، وإن كان بالقرابة فولدي محمد، وإن كان بالأخلاق الحسنة فباب //70// أعلى الشرفة لرجل من أصحاب الفاسيين، ولكن قُلْ له: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأما الشيخان أبو عبد الله سيدي محمد الشرقي وسيدي محمد بن مبارك الزعري، فسيأتي تعريفهما ورفع سندهما في ترجمة ولد صاحب الترجمة، الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن الشيخ أبي بكر، لأنه هو الذي اشتهر بالأخذ عنهما دون أبيه. وقد سبق اتصال سند الشيخ أبي الطيب الميسوري بالقطب أبي عبد الله الجزولي بسنده إلى القطب أبي الحسن الشاذلي، كما سبق اتصاله أيضا بالقطب أبي العباس أحمد زروق، وهو أخذ عن الشيخ أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي، عن الشيخ أبي زكرياء يحيى بن أحمد القادري الشريف، عن الشيخ أبي الحسن علي بن وفا، عن أبيه الشيخ أبي عبد الله محمد بن وفاء، عن شرف الدين أبي سليمان داوود الباخلي، عن تاج الدين بن عطاء الله، عن أبي العباس المرسي، عن القطب أبي الحسن الشاذلي عن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش، عن القطب أبي زيد عبد الرحمن بن الحسن العطار المدني الشهير بالزيات، عن القطب تقي الدين الفُقير بالتصغير، عن القطب فخر الدين، عن القطب نور الدين أبي الحسن علي، عن القطب تاج الدين، عن القطب شمس الدين بأرض الترك، عن القطب زين الدين القزويني، عن القطب أبي إسحاق إبراهيم البصري عن //71// القطب أبي القاسم أحمد المرواني، عن القطب أبي محمد سعيد، عن القطب سعد، عن القطب محمد فتح السعود، عن القطب سعيد الغزواني، عن القطب أبي محمد جابر، عن أول الأقطاب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أجمعين.

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي المتوفى بالإسكندرية سنة ست وثمانين وستمائة: طريقنا هذه إنما هي قطب عن قطب إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

الفصل الرابع في الثناء عليه من أهل العلم والعرفان، وشهادتهم له بأنه من أكابر أقطاب تلك الأزمان

اعلم أن أَلْسِنة الخلق أقلام الحق، تكتب المكارم على صفحات الأيام، وتنشرها للاهتداء بها مثل الأعلام، لا تخطئ إشارتها، ولا تكل عبارتها، وممن تاهت بمحاسنه أقلام الأعصار، وعطرت بالثناء عليه رياض المحافل في هضاب الأمصار، وصَدَعت به كل نسمة، صاحب الترجمة، فإنه رضي الله عنه طلع في سماء المجد بدرا، وفي رياض الكمال زهرا، وفي جيد الدهر درا، ولذلك تاهت بذكره كل قرطاس، وجرت في ميادين مدحه الأنفاس، //72// وأثنى عليه غير واحد من العلماء الأكابر، والأولياء المشاهير، فقال في حقه شيخ مشايخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار القيسي الغرناطي حسب ما رأيته بخطه في إجازته لولده الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر، أنه ولي الله باتفاق، الشهير ذكره في جميع الآفاق.

وقال الإمام الحافظ أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي: أخذ الناس بالأوصاف، وأخذ سيدي أبو بكر بالاتصاف، يعني تحقق حالا بما ادعاه غيره مقالا. نقله عنه في المرآة.

وقال في التحفة انه الشيخ الكامل، والعارف الواصل، فريد عصره، ووحيد دهره، وقطب زمانه، وأعجوبة أوانه، كان رضي الله عنه من أكابر العلم والعمل به، سالكا في الطريقة، زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة، ملازما لذلك حتى توفي رضي الله عنه.

وقال فيه الشيخ العلامة المحدث الصوفي أبو الإرشاد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي انه الشيخ العارف الجليل الولي الصالح البركة، الموفق في السكون والحركة.

وقال العلامة المدقق المعقولي الصوفي أبو العباس أحمد [بن محمد] ([1]) بن يعقوب الولالي في كتابه "مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار" كان الشيخ سيدي محمد، يعني ولد صاحب الترجمة، يشهد لأبيه سيدي أبي بكر رضي الله عنه بالمعرفة العظمى //73// والولاية الكبرى، وربما يفتخر بذلك، ومع جلاله قدره ورفعه حاله كان يقول: لو علقنا بأشفار أعيننا ما بلغنا خصلة من خصال الوالد، فقيل له: ما هي؟ قال: الصدق، فقيل له: وأنت لا تكذب، قال: إن في المعاريض مندوحة عن الكذب، وسيدي أبو بكر لا معاريض له.

وقال فيه الشيخ النقاد أبو حامد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي في كتابه المرآة ما نصه: الشيخ أبو بكر من أكابر مشايخ المسلمين، وأولياء الله المقربين، واحد عصره، ونسيج وَحْدِه ([2]) مترسم بالشريعة، متحقق بالحقيقة، بحرُ جودٍ لا ساحل له، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر.

فلو رآى من مضى بعض مكارمه   لم يذكروا في الندى معنى ولا هَرِمَا ([3])

أقام الله به رسم الجود، وأفاض به نعمته على الوجود، فكَلَّ اللسان والقلم عن استيفاء فضائله التي هي أشهر من نار على علم، وحسبك أن المغرب لما تداعت قواعده وانهدت أركان الملك به، فاختل النظام وماج الناس، كان موئلا لأهل العلم والدين، وموردا للضعفاء والمساكين، فاعتصم الإسلام بربوة منه ذات قرار ومكين، فهو الذي

---

1 – في المخطوط "أحمد بن يعقوب" وصححناها من مطبوع كتاب مباحث الأنوار.

2 – كذا في المخطوط مضبوط بالقلم.

3 – هذا البيت من قصيدة حازم النحوية التي صدرها بمدح سلطان تونس أبي عبد الله المنتصر بن السلطان أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي، إلا أن المؤلف غيره من الخطاب إلى الغيبة لمقتضى الحال. في لفظ حازم هكذا: يا أيها الملك المنصور ملكك قد   شب الزمان به من بعدما هرما

فلو رأى من مضى أدنى مكارمكم .... الخ

انظر مرآة المحاسن بتحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني ص 295

أمسك رمقه وأبقى رواءه ([1]) ورونقه، وخلفَه خلفُه من بعده، فدارهم ما زالت ولا تزال إن شاء الله دار العلم والدين، ومشرع الجود العذب المعين، //74// والنهوض بأعباء مصالح المسلمين، والله المعين.
قلت: لما أراد الله أن يظهر فضله عليه، خلق ونسب إليه، وجبره على اختيار التوسع في الدنيا، لتكون يده في القيام بهذا الامر هي العليا، فقد حُكي عنه رضي الله عنه أنه قال: لو خيرت بين الشهرة والتوسع في الدنيا وبين أن يتستر أولادي بالنبات لاخترت الثاني، لكن قيل لي: إن لم تفعل سلب منك الإيمان.اهـ
وقال في حقه الشيخ الرُّحْلَة الراوية الصالح، أبو سالم عبد الله بن الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي في رحلته ما نصه: هو شيخ العارفين في زمانه، وقدوة الواصلين في أوانه، المعروف بالبذل والإيثار، والرحمة للكبار والصغار، المشتهر بمحبة مولاه، القائم بواجب شكره فيما أولاه، محيي طريقة العرفان بعد عفائها، ومظهر ما بقي من رسومها بعد خفائها، شيخ أهل المغرب بالإطلاق، وواحد أهل العصر بالاتفاق، السريع الدمعة، المبرؤ في أحواله كلها من الرياء والسمعة، سيدي أبو بكر بن محمد الدلائي نفعنا الله بمحبته، وسلك بنا طريق مودته، فقد كان رضي الله عنه إماما في عصره، وسراجا منيرا في قطره، أخذ من التحلية بأوصاف الكمال النصيب الوافر، تاركا لما يشينه في الباطن والظاهر. قال وكان والدي رحمه الله شديد التعظيم له والترضي //75// عنه إذا ذكر، والثناء عليه، زاره مرارا متعددة لله تعالى. وأثنى عليه بما هو أهله كثير من الائمة الذين يُرجع إليهم في الأمور المهمة، بل حديث الثناء من باب حديث البحر، لا يستطيع أحد له الحصر. ثم لازال فضله ينمو، وقدره يعلو ويسمو، إلى أن كان رضي الله عنه يطحن كل يوم خمسا وعشرين صحفة من القمح أو أكثر، ولما رأى ولده الأكبر سيدي محمد كثرة الإطعام لام القيم على ذلك، فبلغ الخبر إلى والده الشيخ سيدي أبي بكر، فوجد عليه وقال له: حتى تبلغ نوبتك وافعل ما بدا لك.

الفصل الخامس في ذكر جمل من معارفه ومواهبه ومآثره، ومناقبه ومفاخره.

قال في الصفوة: كان هذا الشيخ رضي الله عنه ممن أحيى الله به رسوم الخيرات، وأظهر ما خفي من البركات، وازدحم الناس على زيارته وقصدوه من كل ناحية.

وقال في الممتع والمرآة: كان رضي الله عنه كثير الإطعام بحيث استوفى منه الغاية، واستكمل فيه النهاية، وبلغ فيه أمرا خارجا عن الوصف، ومباينا للعادة والإلف، وكان يطعم الناس على حسب أقدارهم، تمسكا بحديث (أمرت أن أنزل الناس منازلهم) وعلى نسب طبقاتهم وما يناسب حالاتهم //76// من جودة الطعام ورداءته، على سنة إطعام شيخه سيدي أبي عمرو وطريقته، وقال له إنسان يوما: إن طعامك فيه الرياء، فإن فلانا يطعم الناس سواء، فقال له رضي الله عنه: من جعل الناس سواء، فليس لحمقه من دواء، فإن الناس أصناف، وكل واحد على ما اعتاده في الغذاء، فالبدوي الذي ألف الطعام الغليظ من الدخن وشبهه إن أطعمته الدقيق لم يشبعه وبات جائعا، والحضري الذي ألف الدقيق إن أطعمته غيره لم يُقبِل عليه ولم يتسوغه وبات جائعا، وإن بات أحدهما جائعا ولم أطعمه ما يحب فقد أهنته ولم أكرمه، وقد قال صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)، فإن لم أفعل ذلك كنت مقصرا في إكرام ضيفي اهـ
وكان رضي الله عنه يَسلب الإرادة في ذلك عن نفسه وينسبها لشيخه سيدي أبي عمرو رضي الله عنه، ويشهد لذلك ما قال يوما وقد قيل له: قد نفد الزرع، فقال لمن قال له ذلك: قله لسيدي أبي عمرو. وقيل له يوما: إن الزرع قد أكله السوس، فقال: ذلك جزاؤه حيث لم يأكله المساكين.

وسئل بعض أولاده يوما هل كان سيدي أبو بكر يكسو المساكين على رأس السنة؟ فقال: بل كان يكسوهم على الدوام، قال: وكان له رضي الله عنه من الجود ومكارم الأخلاق ما أظهر أنه من عُلا المنازل بمكان، ولقد أثنى

1 – الرَّوَاءُ: حَبْلٌ يُشَدُّ به الحِمْلُ والمتاعُ على البعير، والجمع :أَرْوِيَة.

عليه غير //77// واحد من أهل الفضل والدين، ووصفوه بما هو شأن الأكابر المجدين. فمن مكارم أخلاقه رضي الله عنه ما حكى عنه الشيخ أبو علي اليوسي في المحاضرات أنه كان ذات مرة قد هربت العكاكزة أولاد عبد الحق بن أحمد المنزول من بلادهم، فنزلوا بساحته وهم جياع، ووجدوا زرع الزاوية محصودا مجموعا، فقال لهم الشيخ سيدي أبو بكر: ادرسوه وكلوه، فقام إليه ولده الأكبر أبو عبد الله سيدي محمد وأنكر ذلك عليه وقال: إن هؤلاء فساق أو كفار، ثم هم ظلام محاربون، فكيف تعينهم وتبيح لهم زرع المساكين؟ فقال له أبوه الشيخ سيدي أبو بكر: إني أريد أن أتخذ عندهم يدا، فإذا هم سلبوهم مسكينا يوما وجاء يشتكي إلي كتبت لهم كتابا، فلا بد أن يراعوا هذا الخير فيردون عليه متاعه، وإنما فعلت هذا في حق المساكين. ثم لا زال قدره يعلو ويسمو، وسره يزكو وينمو، ويداه مبسوطتان للسخاء، وفضله يعم الوارد والصادر في الشدة والرخاء، وكنزه لا يفنى بل يزيد بكثرة الإنفاق، لأنه من مواهب الله الملك الخلاق، فكيف وقد قيل له كما تقدم: "فإن لم تفعل سُلِب منك الايمان"، فما وسعه رحمه الله إلا الامتثال والإذعان.

قال في الممتع: وحدث عنه بعض حفدة الشيخ أبي المحاسن الفاسي أنه سمعه يقول: إن أهل الله أشاروا عليه باتخاذ الزاوية لإطعام الطعام، فأرسل //78// إلى الشيخ أبي المحاسن لينظر ما يقول في ذلك، فبعث إليه أبو المحاسن ببرمة وكسكاس نحاس موافقة منه على ذلك. اهـ

قال في مباحث الأنوار: الشيخ أبو بكر رضي الله عنه هو الذي يشار إليه بالكمال، أُذِن له في إطعام الزاوية وإقامة حق الواردين من الأضياف، وأعطي من البركة ما يطعم به من مُدَّين إن كانا عنده جميع ما يريد. اهـ فكان رضي الله عنه كثير الإطعام بالأنواع المختلفة من الطعام أمرا خارجا عن الوصف، مباينا للعادة والإلف، فكانت مراجله دائما تغلي وطباخه لم يزل يفرغ ويمتلي.

فـــي جفـــان كـــالجوابي	وقــــــدور راســــــيات
هكــــذا يفعـــل دأبـــا	بـــــالوفود الزائـــــرات

بل كان يطحن كل يوم خمسا وعشرين صحفة [1] من القمح مع خمسة وعشرين تليسا [2]، ثم كان يطعم كل إنسان تارة بما اشتهاه في نفسه، وتارة بما يناسبه مع أبناء جنسه، فليس الحضري كالبدوي عنده، ولا الضعيف كالقوي، متمسكا بحديث (أمرت أن أنزل الناس منازلهم).

وكان رضي الله عنه كثيرا ما تجري الحكمة على فيه، وكل إناء يرشح بما فيه، (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وإذا أرد الله بعبد خيرا //79// استعمله، وما اتخذ الله من ولي إلا وعلمه، وأرشده إلى الحق وألهمه، فلا يعسر عليه جواب، ولا يجيب إلا بالصواب. قيل له مرة: يا سيدي تفضل الناس بعضهم على بعض في الطعام مع أن المقصود إنما هو لوجه الله تعالى، والتفضيل يؤذن بالرياء والسمعة، فلو جعلت الناس سواء كان أسلم، فقال له رضي الله عنه مجيبا: من حسب الناس سواء، فليس لحمقه من دواء، فإن الناس أصناف وكل واحد على ما اعتاده من الغذاء الخ.

---

1 – قدروا الصحفة ب 4,34 كيلو فيكون مقدار 25 صحفة قنطارا واحدا بالتقريب. انظر موسوعة وحدات القياس لفاخوري محمود ص 251

2 – وجعلها محمد حجي في كتابه الزاوية الدلائية ص48 عشرين تليسا، فإما أن يكون مخطئا أو معتمدا على نسخة مخالفة لمخطوطنا. ويقدر التليس ما بين 1,66 قنطارا إلى قنطارين تبعا للدابة التي تحمله، فيكون أقل تقدير لخمسة وعشرين تليسا هو 41,6 قنطارا. وبذلك يكون مجموع ما يطحن في اليوم هو 43 قنطارا بالتقريب، وربما أكثر.

وكان جاريا في سنة إطعام الطعام لكل من حضر من أهل البدو والحضر، على طريقة شيخه سيدي أبي عمرو، غير أن الشيخ أبا عمرو كان أوصى أولاده أن لا يفعلوا ذلك بعده، لأنه كان ينفق من الغيب فلا ينفد ما عنده، وأما الشيخ سيدي أبو بكر فكان ولده شيخ الإسلام سيدي محمد بن أبي بكر يأتي بعده في ذلك بالعجب العجاب، كما يأتي إن شاء الله في ترجمته من هذا الكتاب.

وكان رضي الله عنه كثير الفرار واللجأ إلى الله، شديد الميل إلى الانفراد به عما سواه، مبالغا في كتم الأسرار، مولعا بإخمال الذكر وعدم الاشتهار، وكان يقول: الخمول نعمة والنفس تأباه، والظهور نقمة والنفس تهواه، فكانت حاله حال الصديقين المخلصين الموقنين، دائرا في أفعاله على تحصيل الصدق مع الله وإصلاح ما //80// بينه وبين الله من غير مبالاة كيف يراه الخلق، إذ ([1]) كان باطنه معقودا على الحق، مكتفيا بعلم الله السابق ومنقطعا عن مساكنة الخلق أنسا بالخالق، قيل له مرة: مالك لا تقول وسيدي فلان يقول وسيدي فلان يقول، يعني الإخبار بالمغيبات، فقال: إن القربة إذا امتلأت لا تتكلم، وإذا قل ماؤها تكلمت، وقيل له مثل ذلك مرة أخرى فقال للقائل: أنا أقول: (وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله).
وكان رحمه الله لا يُمَكِّن يده لمن يقبلها، وإنه كان إذا أراد إنسان أن يقبل يده فكأنما جاءه بمقباس من نار يكويه به.

وله رضي الله عنه كلام كثير في الطريق، فمن كلامه في تقبيل اليد: من مد يده إلى التقبيل وهي يده فحقها القطع، ومن منعها من التقبيل وهي يد الله فحقها القطع.
ومن كلامه: من انضبطت أحواله عند الناس فليس يعد من العارفين، ومن أنس بالنساء عن ربه فليس من المقربين، ومن رزق الصحة والعافية في بدنه ولم يشتغل بالطاعة، فما له عن (كذا) ربه من بضاعة.
ومن كلامه أيضا ما فاز إلا من استوفز وقرب عليه المفاز، الدنيا مرحلة، فمن طواها، هان عليه مثواها، وأمن من بلواها.

ومن دعائه رضي الله عنه: اللهم أطعمنا مما أطعمتهم، ولا تحرمنا مما رزقتهم، ولا تبتلينا بما ابتليتهم، فإنهم أقوياء ونحن ضعفاء //81// وكان رضي الله عنه تعتريه في بعض الأحيان أحوال فيبوح بالأسرار في الأقوال والأفعال، لأن من خرقت له حجب الأكوان، يشاهد كل ما في عوالم الغيوب بالأعيان، حتى إنه لما بلغه قول أبي العباس أحمد بن أبي محلي من قصيدة يمدحه بها: "والغوث يحمل شابري ([2])" اعتراه رضي الله عنه حال وجعل يقول: أنا أنا أحمل شابره، أنا أحمل شابره.
وأخذه الحال مرة أخرى أخرجه عن حسه فقال كلاما للزائرين: أنا القطب بن القطب بن القطب بن القطب خمس مرات.اهـ
وكان يوما راكبا دابة فجعل يقرأ حزب سبح اسم ربك الأعلى، فلما بلغ قوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت، فذكر إنما أنت مذكر) صاح صيحة عظيمة وقع منها عن الدابة مغشيا عليه.

ويحكى أنه أقام أربع عشرة سنة لم يلتفت إلى الدنيا ولم يتفقد أحدا من بنيه، ولسانه لا يفتر عن الذكر ساعة، فلما ارتفع عنه ذلك الوارد الإلهي ورجع إلى عالم الدنيا، وجد القرآن قد تلف له، فشكى ذلك إلى ولده سيدي محمد، فأشار عليه أن يجعل وردا في المصحف يواظب عليه كل يوم، ففعل فعاد إليه ما كان ذهب عنه.
وهذا كله من الكرامات، التي لو أبصرها منكر في الكرى مات، وبركاته رضي الله //82// عنه كثيرة، وكراماته ومكاشفاته شهيرة، ومآثره على الدوام مأثورة، وأتباعه في البلاد منشورة، وفضائله لا تزال على الأيام مسطورة.

---

1 – في المخطوط "إذا".
2 – كذا، ولم نهتد إلى معناها.

فمن كراماته وهي أول ما أظهره الله لأبيه، أنه كان في ابتداء أمره مجبولا على السخاء، محببا للخلق، كثير الضيافة، وكان والده رضي الله عنه كثير الأغنام والمواشي، مشهورا بين الأنام بالبذل الفاشي، فشكا أبوه كثرة ما يذبح للأضياف، فقال لأبيه: تعال نتفق على أن ما تلده الغنم من الذكور نذبحه للأضياف وما تلده من الإناث لا يذبح، فأجابه أبوه لذلك، فصارت الغنم بعد ذلك لا تلد إلا الذكور، فعرف أبوه أن أمره إلهي، فسلم له الأمر بعد ذلك.

ومنها ما أخبر به تلميذه الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن الحسن الدادسي الواوزغتي ([1]) أنه أشار بيده ذات مرة إلى جهة من الجهات، قال: فقلت في نفسي: لعله يشير إلى إخواننا من الجن، فالتفت إلي وأنا خلفه وقال لي: هم إخوانكم من الجن.

ومنها ما وقع له مع ابنه سيدي محمد، إذ كان في ابتداء أمره مشتغلا بالعلم الظاهر، فقال لأبيه يوما: ليس الشأن إلا علم الظاهر، وما يدعيه هؤلاء لم يتبين لنا صدق دعواهم، فاما أن تري لنا ذلك عيانا حتى نشاهده وإلا فاشتغل لنا بالعلم الظاهر، فقال له والده سيدي //83// أبو بكر: مالك ولهذا؟ اشتغل بما أنت عليه من طلب العلم، فأبى عليه وألح عليه في أن يطلعه على شيء من أسرار القوم، فجعل يسوفه إلى أن دخل عليه يوما، فلما كان بالباب سمع شخصين يتحدثان ويقول أحدهما للآخر: أما الدابة فقد سرقناها، وكان بعض الناس قد اتهمهما بها فدعاهما إلى الشيخ سيدي أبي بكر، فإن ألح علينا الشيخ بها وحملَنا على اليمين أقررنا، وإلا بقينا على إنكارنا. وكان من خبرهما أنهما سرقا دابة فاتهمهما ربها بها، وأتى بهما إلى الشيخ سيدي أبي بكر، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة وفدا عليه ومعهما متهمهما، فلما كلمهما الشيخ وقال لهما: اردا الدابة على صاحبها، فأنكرا، فقال لهما سيدي محمد: سبحان الله أو لم أسمعكما تقولان إن الدابة عندنا فإن كلفنا الشيخ بردها رددناها؟ فوجما من ذلك وتعجبا، فقال أحدهما: هذه الكلمة قلتها لصاحبي وأنا بإخف أمان، ومعناه راس الماء على مسيرة ثلاثة أيام، فجعل الشيخ سيدي أبو بكر يتبسم، فعلم سيدي محمد رحمه الله أنه إنما أظهر له شيئا مما كان يطلبه به من إظهار شيء من الكرامات، فسلم الأمر حينئذ.

ومنها أنه جاءه إنسان يسأله كسوة وعليه ثياب خلقة ممزقة، فقال لإنسان عنده: قم يا فلان فاذهب به وفتش ما عليه، ففتشه فوجد في درابيله عددا كثيرا من الدنانير، نسيت تحقيقه، فأتى بها الشيخَ فقال له: اشتر له //84// منها كسوة، ففعل وأتاه بها، فأعطاه إياها وناوله ماله وقال له: هكذا ينبغي للرجل أن يكون بنفسه ولا يكون لأحد عليه جميل، فمن يومئذ أُطلِق على الرجل مالُه وصار يتصرف فيه وينتفع به.

ومن كراماته رضي الله عنه أنه دخل عليه سارق ليلة وعلى وجهه خمار لرمد به، فأراد السارق أن يأخذ جلد سمن صغيرا، فجعل يقول له: خذ هذا الكبير، فاستحيى السارق وتاب إلى الله على يده وخرج.

---

1 – هو سيدي محمد بن محمد بن لحسن بن علي الملقب من طرف الساكنة بسيدي امحند أمحند. ويعرف أيضا في المصادر التاريخية بمحمد بن لحسن الدادسي، وكذلك بمحمد بن لحسن الواوزغتي.
و مما يؤكد علاقة سيدي محمد بن محمد بأبي بكر الدلائي هو استمرار العلاقة بينهما لمدة ثلاثين سنة، وكذلك إتيان هذا الشيخ بأتباعه ومريديه إلى أبي بكر بالزاوية الدلائية إلى أن توفي أبو بكر، و بعده سيلتحق بزاوية عائلته في المكان المعروف حاليا بواويزغت وبالضبط بدوار أيت سيدي امحند أمحند.
ولد سنة 978 هـ وتوفي سنة 1062 هـ

ومنها أنه قام يوما ثم ذهب عنه النوم أو أراد أن ينام فلم يأته النوم أصلا، فخرج يتفقد المساكن فوجد إنسانا مضطرا جوعا وبردا، فأطعمه وكساه، ولعل هذا كان قبل الإذن له في اتخاذ الزاوية وإقامتها بإطعام الطعام والله أعلم، وأما بعد ذلك فكان لا يبقي أحدا من المساكين وغيرهم من غير كسوة ولا أكلٍ، وما سكن الدلاء واتخذ الزاوية بها وأقامها بالإطعام للواردين من الأضياف وغيرهم حتى وقع له الإذن في ذلك من جانب الحق، واتفق عليه في ذلك أهل التصرف من أولياء الله تعالى في الوقت.

منها أنه بات ليلة في موضع فاشتهى البيض، فجعل يقول ذلك لبعض أصحابه ويتمنى عليه، فقام ذلك الصاحب وهو لا يدري أين يتوجه، فذهب إلى حلة هنالك فإذا بامرأة تلقته وهي تقول: أنت صاحب الشيخ سيدي أبي بكر جئت للبيض، فمكنته منه.

ومن كراماته رضي الله عنه أنه استضاف قوما ليلة فأبوا ضيافته وقالوا: لا نقدر على //85// ضيافتك، فقال لهم: وأنا لا أقدر عليكم، فبات عند قوم آخرين مجاورين لهم، وهناك لصوص جاءوا للذين بات سيدي أبو بكر عندهم فغلطوا للذين صرفوه عن المبيت عندهم وأخذوهم.

ومنها أن الزرع مرة نفد له فأمر القيم على ذلك أن يرفع ما كان يرفع، فقال له: يا سيدي قد تم، فنظر إليه نظر غضب، فقام فأراد أن يفتح الهري فلم يقدر لامتلاء الهري بالزرع حتى دفع الباب، وكان أَمَرَّ الشَّطَّابة على الهري قبل ذلك.

ومنها أنه لما اشتدت شوكة الثائر أبي العباس أحمد بن أبي محلي، قال له ولده الأكبر سيدي محمد: إني أريد لقاء هذا الرجل، فمنعه أبوه الشيخ سيدي أبو بكر وقال له: لا تفعل، فقال له سيدي محمد: لابد أن أفعل إلا إذا قلت لي لا يكون من أمره شيء، فقال له الشيخ سيدي أبو بكر: إنه لا يكون من أمره شيء، فكان الأمر كما قال.

ومنها أنه مر على شاة وهي تصيح، فقال لمن حضر: أتدري ما قالت تلك الشاة في صياحها؟ فقال: لا يا سيدي، قال: إنها قالت لولدها: أسرع لئلا يأكلك الذئب فقد أكل أخاك بذلك الموضع في السنة الماضية، فسئل الراعي عن ذلك فقال: نعم كذلك كان.

ومنها أن ابنه سيدي الخديم بات ليلة وهو صبي صغير يبكي من شدة عض البرغوث، فشكت أمه ذلك إلى الشيخ سيدي أبي بكر، فقال لها: لا تؤذيه البرغوث بعدُ أبدا، فكان سيدي الخديم يبيت مع الناس ويؤذيهم البرغوث ولا يؤذيه.
ويحكى //86// عن سيدي الخديم أنه قال: دعا لي الشيخ سيدي أبو بكر بالسلامة من البرغوث، ودعا على سيد الشرقي بالدنيا فياليته لو دعا علي بالدنيا وتركني والبرغوث.

ومنها ما وقع له مع بعض أهله ورآه أو قيل له إنه وقع مع امرأة أجنبية، فدعاه وجعل يقول له: أين منك هذه المرأة؟ أمك أم أختك؟ فلم يجبه بشيء، فجعل الشيخ سيدي أبو بكر يفتل أذنه وهو يتلو (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) الآية فتاب الله عليه من يومئذ. وكان يقول: إذا هممت بمعصية بعد ذلك ارتسمت لي الآية التي تلا الشيخ سيدي أبو بكر.

ومنها أنه دخل عليه سارق ليلا، فعمد إلى السمن أو اللبن فلته بالدقيق وجعل يأكله، فجعل الشيخ سيدي أبو بكر يلوم نفسه ويقول: أنا أحوجته إلى هذا، فلما أكل عمد إلى أخذ المتاع فقال له سيدي أبو بكر: قبل هذا كنت أنا الدنيء، وأما الآن فقد استوينا في الدناءة، فتاب الله على ذلك السارق من ذلك اليوم.

ومنها أنه أخبر بولاية حفيده سيدي محمد الحاج، وذلك أنه احتاج يوما إلى فرس يركبه فجيء إليه بفرسه، فقال لا أركب فرس المخزن. يحكى أن سيدي محمد كان لا يحبه من يوم سمع من سيدي أبي بكر ما سمع.
ومنها أنه لما اشتغل ببناء قنطرة امسدَّل نام في بعض الأيام بإزاء القنطرة في وقت القائلة فشهد لسانه وهو يقول لا إله إلا الله //87// وهو مستغرق في النوم.([1])

ومنها أنه ورد عليه بعض الطلبة من أهل الخير، فرأى شيئا مسرورا في مزودته التي على رأسه، فقال له: ما ذاك؟ فقال دراهم، فقال له الشيخ: ولدنا لا يجعل الدنيا فوق رأسه، بل يجعلها تحت قدمه، وأزال له تلك الدراهم من على رأسه وأمره أن يجعلها بموضع آخر من ثيابه.

ومنها ما حكي عن أبي العباس أحمد بن عبد الله بومحلي، قال: بات سيدي أبو بكر ليلة عند بعضهم وكان من الرجال، فجعل يذبح الغنم ثم ذبح غيرها إلى أن ذبح غير مأكول اللحم، فقيل له في ذلك فقال: ضيافة سيدي أبي بكر يأكل منها الآدمي وغيره، فعملت حالته في ذلك الرجل.

ومنها أنه خرج مع بعض الأصحاب إلى موضع هناك يسمى تاجموت ([2]) فجلس بإزاء زريبة نحل، فأمره أن يأتيه بشهد من بعض الأجباح، فجعل الصاحب يزيل الشهد، وكلما أخرج شهدة استحسنها وتمنى أن لو بلغت سيدي محمد بن أبي بكر بأرض لا عسل فيها، إذ كان إذ ذاك في وجهته الحجازية سنة خمس وألف، فلما فرغ من عمله وجاء بها إلى سيدي أبي بكر، تلقاه سيدي أبو بكر وهو يبتسم ثم قال له: تمنيت أن لو بلغت إلى محمد بأرض لا عسل فيها، فقال له: نعم، فأخذها سيدي أبو بكر ووضعها تحت برنوسه وتقدم أمامه، فلما جلس احتبى ولم يظهر شيئا من ذلك، فوقع في قلب صاحبه أنها بلغت سيدي محمد بن أبي بكر، فقيد //88// ذلك اليوم من ذلك الشهر، وتلك الساعة من ذلك اليوم، فلما قدم سيدي محمد تعرضوا له بزيز، فكان من جملة من تلقاه ذلك الصاحب، فسأل بعض أصحاب سيدي محمد بالنبي صلى الله عليه وسلم: ماذا أكلتم في ذلك اليوم الفلاني في الوقت الفلاني من الشهر الفلاني؟ فقال: بينما نحن في ذلك اليوم بالجامع الأزهر إذ خرج سيدي محمد إلى باب المسجد فجاءنا بشهد لم نر مثله قط فأكلناه، فقال له صاحب سيدي أبي بكر: أنا أزلت ذلك الشهد من الزريبة الفلانية بيدي، وأخرج له التقييد وأطلعه عليه، وحكى له الحكاية من أولها إلى آخرها.

ومنها ما أخبر به بعض الثقات أن بعض بني سيدي أبي بكر صدر منه أمر أوجب تأديبه، فقام إليه ابنه سيدي محمد ليؤدبه، فاشتد عليه غضبه وأغلظ له في القول، وأراد تأديبه بيده، وكان سيدي أبو بكر شديد الحنانة كثير الشفقة على عباد الله عاصيهم وطائعهم، وكان سيدي محمد شديد الشكيمة جدا، فلما رآه سيدي أبو بكر عزم عليه، حال بينه وبينه، فقال له سيدي محمد: (هانتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) فأخذ الشيخَ سيدي أبا بكر حالٌ وقال: أنا أجادل عنه وعنك وعن قوم آخرين، قال فبات سيدي محمد يبكي مخافة أن يكون فيما قاله اعتراض على الشيخ، وبات سيدي أبو بكر يحمد الله تعالى، فلما أصبح أُخبِر سيدي أبو بكر بما وقع بابنه، وأنه بات //89// يبكي ليلته حزينا، فقال: سبحان الله! وأنا بت أحمد الله بأن أخرج من صلبي من إذا رآني زغت عن الحق ردني إليه.

ومنها أنه سأل بعض أصحابه كم حصل له من الزرع، فقال له: ستة أوسق، ولي من المازوز ما فيه كفاية، وقد كان ذلك الصاحب عزم على أكل ذلك المازوز وإبقاء القمح للزريعة، فقال له سيدي أبو بكر: أكون على وجه الأرض وتأكل المازوز، ويعلم الله إن أكلته لا ربحت، فأمره أن يجعل الزرع في موضع حصير وأن لا يأخذ منه

---

1 – هكذا وردت الحكاية ولا يظهر وجه الكرامة فيها، نبهنا على ذلك لئلا يتوهم أننا أسقطنا كلاما.
2 – تاجموت (كتبت في المخطوط بقاف معقودة) هو دُوَّار يقع بجماعة لهري، إقليم خنيفرة، جهة بني ملال خنيفرة في المملكة المغربية. ينتمي الدوّار لمشيخة أمهروق التي تضم 11 دوار.

إلا يدٌ واحدةٌ، فامتثل أمره، فمازال يأخذ منه إلى أن بلغ وقت الحرث فحرث أكثر مما وضع في الهري، وجعل يأكل منه إلى أن وصل الصيف وألقى عليه زرعا آخر، ولا يدرى ما وراء ذلك من الخير والبركة.
ويحكى أنه ورد عليه ذات مرة الشيخ أبو محمد ([1]) سيدي الحسن الدراوي دفين خارج باب الفتوح فأفتاه بعدم وجوب الزكاة والأعشار عليه، فقال له سيدي أبو بكر: ولم ذلك؟ قال له: لأنك لا تستبد بشيء دون المساكين.
ويحكى أن بقرة من بقره رعت مرة في زرع بعض الناس، فأقام مدة لا يشرب لبنها. وذكر أن بعض الملوك اجتاز عليه مرة فبعث إليه بأواني مملوءة تمرا وغطاها، فلما وضعت بين يديه جاء بعض بنيه ليرفع المكب عن الآنية فصاح عليه والده الشيخ سيدي أبو بكر صيحة منكرة كأنما رآه على شفير بئر، وجعل يقول: متاع المخزن، متاع المخزن، ويكررها إرهابا ونهيا له.

ومنها //90// أن قوما من العرب كانوا نازلين بأرض اگرض، تلك أرضهم وبلادهم، فانقطع الوادي وجف ماؤه حتى لم يبق منه شيء، فكانوا يحفرون بإزائه الحفر ويخرجون منها اليسير من الماء كالحفنة والحفنتين، فقدم عليهم بعض أصحابه بقصد زيارة من كان هناك من الفقراء إخوانه فوجدهم كذلك، فقال لهم: هاتوا الوعدات (كذا) إلى الشيخ واذهبوا معي إليه فبادروا إلى ذلك تعرضا للإغاثة والاستنقاذ مما هم فيه من شدة الحال، وجمعوا له غنما كثيرة وذهبوا معه، وعندما قربوا من الإشراف عليه قال لهم: إن قال لكم الشيخ يكون شيء فقولوا له: يكون يا سيدي من بركتك، فلما لقوه قال للذي أتى بهم: فقير جلاب خير من فقير حباب، فالتفت إليهم فقال لهم: كيف هو واديكم؟ أيقدر أن يُدَوِّرَ الرَّحَى؟ فقالوا له: نعم يا سيدي يدورها من بركتك، وقال لهم: يدورها. فلما رجعوا إلى مكانهم وجدوا الوادي ينهمر به حس عظيم يدور الرحى وأعظم منها.

وقيل له رضي الله عنه: إن سيدي علي بن إبراهيم كان يقطع في كل شهر قشابة من كثرة الركوع والسجود وأنت لست كذلك، فقال: نعم، إلا أني فتح علي بطريق أيسر من هذه.
وكان ولده سيدي محمد يبين تلك الطريق ويقول: هي الحنانة والكرم.
وكان رضي الله عنه شديد المحبة في شيخه سيدي أبي عمرو، ومن كثرة محبته فيه وتعلق قلبه به أنه كان يصعد على //91// جبل هنالك قرب الدلاء، ويمد بصره إلى بلد زعير محبة في الشيخ أبي عمرو لكثرة تردد زعير إلى شيخه المذكور ومحبتهم فيه، وكم من مناقب عنه اشتهرت غير هذه التي سطرت في حياته وبعد مماته، ولكن هذا الوضع بنيته على الاختصار، فما أمكن إلا الاقتصار.

وكانت له رضي الله عنه المآثر الحسان، التي لا يصدر مثلها إلا عن سلطان، كبناء القناطر، منها قنطرتان على وادي أم الربيع، إحدهما قنطرة امسدَّل والأخرى مَزْدِلْفَان ([2]). وأخرى على وادي ملوية، وحفرِ العيون وأجرائها، وتوسعةِ الأودية وبنائها، وشراء الرباع في غالب البلاد وتحبيسها على الطلبة والضعفاء والمساكين، وتشيد مباني الزاوية، حتى كانت في عداد المدائن، التي يكل اللسان عن وصف ما لها من المحاسن.

---

1 – في المخطوط "أبو علي" ولعله سبق قلم، إذ سيذكر المؤلف ترجمته لاحقا ويكرر قصة إفتائه لسيدي أبي بكر بسقوط الزكاة عنه المذكورة هنا، مع تكنيته بأبي محمد، لكنه سيذكره مرة أخرى بكنية أبي علي. وقد نبه محقق الصفوة على الاضطراب الواقع في اسمه فقال في ص 48: ترجم له في نشر المثاني: 1/63، التقاط الدرر ص 29. وفيهما أن اسمه الحسن بن أحمد، سلوة الأنفاس: 3/84 وفيه اسمه: أبو محمد، ومرآة المحاسن ص 77–78 وفيها اسمه: أبو محمد سيدي الحسن بن محمد. وقيل ابن أحمد وقيل عبد الله بن مسعود، محمد الهداجي، وفي نسخة ب أبو علي الحسن بن محمد. بينما في أ وَ ح هو ما أثبتناه منهما (أي أبو الحسن علي بن محمد الهداجي الدراوي). توفي سنة 1006 هـ.
2 – قال المنصوري في كباء العنبر ص 52 ما نصه: وذكر الحوات أن سيدي أبا بكر بنى قنطرة "أمسدل" وقنطرة "مزض إلفان" أي مطحنة الخنازير. كل هذه على وادي أم الربيع، ولكنها في غير الطريق الرئيسية بين مراكش وفاس، بل هي في طريق ثانوية تخرج بالمنتجعين من الأراضي الجبلية الأزاغيرية، فلذلك لا تعرف إلا عند الأهالي.

وكان رضي الله عنه جميل الصفة، نير الوجه، حسن السمت، جميل الهدي، كث اللحية طويلها، حتى كان ولده سيدي محمد يقول: من رأيته أطال لحيته يعني الطول الكثير أضحك منه إلا الشيخ سيدي أبا بكر فإنه وإن أطالها فلقد كان يخضبها بالدموع.
وقال في مباحث الأنوار كان رحمه الله رقيق القلب كثير البكاء جدا، وكان يقول: كل من لا يسقي لحيته بالدموع لا ينبغي له أن يدعها على وجهه. وفي هذا المعنى قيل:

تريد ترى سلمى بعين ترى بها   سواها وما كحلتها بالمدامع

//92//

وكان رضي الله عنه كثير السلام، قليل الكلام، مطرقا برأسه على الدوام، وكان يتعجب ممن لا يصلي العشاء بوضوء الصبح والصبح بوضوء العشاء، وما رآه أحد يأكل طعاما قط ولا التقت يده مع أحد في آنية طعام قط.
وكان إذا صلى العصر يغيب فلا يراه إحد إلا بعد صلاة العشاء، وكان بعض أصحابه لا يزال يتحرك أي يشير بالذكر ([1]) وشوهد لسانه وهو نائم يقول لا إله إلا الله، أو الله الله، وهو مستغرق في النوم، ولقد ضم غيرَ واحد إليه فسمع في باطنه ذكر الله، قال تلميذه أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد الواوزغتي: كان كل عضو وجارحة من الشيخ سيدي أبي بكر يذكر الله حتى حائكه يسبح الله تعالى، وكان رضي الله عنه يلبس برنسا أبيض أكبر من البرنس المعتاد وأوسع، وكان يكثر غسل ثيابه حتى كان ولده الأكبر سيدي محمد يقول: ثيابي إذا غسلت كثياب سيدي أبي بكر إذا وسخت.

وكان رضي الله عنه يركب على فرس أنثى مع الشجاعة وشرف النفس، وحسن الخلق والإقبال على الخلق، والصدع بالحق، وبذل النصيحة والموعظة النافعة، وتحسين الظن بالمسلمين، وإدخال السرور عليهم في كل حين، وكان رضي الله عنه مراعيا للشريعة، محافظا على السنة جاريا عليها، بحاثاً على العلم حاضا على تعلمه وتعليمه، تاليا للقرآن العظيم، كثير الذكر والصلاة على رسول الله صلى الله //93// عليه وسلم، زاهدا في الدنيا غير ملتفت إليها ولا ناظر إلى زهرتها، ولا مغتر بزخرفها ولا مفتون بزينتها، وكل ما يفتح عليه به منها يصرفه في مصارفه في الحين، من الفقراء والمساكين، والعلماء والشرفاء والمنتسبين، ولا يتلبس من ذلك بجليل ولا حقير.
وكانت الحنانة والرحمة على جميع المؤمنين وصفا غالبا عليه، يُسَر بما يسرهم ويغتم ويهتم بما يؤلمهم ويضرهم، فيواسي ويسلي ويفرج الكروب، ويطهر القلوب من حدث العيوب، ويشرح الصدور ويعمرها بالنور، يسلك بالمريد في مثلى الطريقة، بالجمع بين الشريعة والحقيقة.
قال في مباحث الأنوار: وكانت له رضي الله عنه أخلاق رفيعة، ويحب الأخلاق الطيبة ويأمر بها، فإذا استفتح مجلس الوعظ استفتحه بقوله روى الحسن عن أبيه عن جده الحسن أن أحسن الحُسن الخلق الحسن. فانحشر الناس إليه من الحواضر والبوادي، وأفاض عليهم من معارفه ومكارمه دلاءَ الأيادي.
قال في المرآة: حدثنا الشيخ أبو عبد الله يعني سيدي محمد بن الشيخ سيدي أبي بكر صاحب الترجمة أن الشيخ أبا عبد الله سيدي محمد الشرقي أخذ عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر المختاري، وأنه قال له كنت مع سيدي محمد بن عمر مثل والدك سيدي أبي بكر معي، وقال لي: ضيق الباب، وقلت أنا لسيدي أبي بكر: ضيق الباب، فقلت للشيخ أبي عبد الله: ما قصدهم بذلك؟ فقال: التقليل من جموع //94// الناس هذا ولم يرد الله تعالى إلا توسيع باب هذا الشيخ الكامل رضي الله عنه للداخلين، وفتحه في كل وقت للصادرين والواردين، من غير حارس ولا حاجب، والشاهد يبلغ الغائب، ولم يزل الناس في مهماتهم إليه يفزعون، هم له من كل حدب ينسلون، وانثال إليه الزوار على طبقاتهم حتى الأمراء والثوار، وبلغ في الولاية مبلغا لم يعهد لغيره، فخدمه الملوك والرؤساء، وانظاف إليه الأشرف والعلماء، والطير لا تنزل إلا في محل الالتقاط، والعبد إذا ارتبط بحبل القدوة لا يقدر على حل الارتباط. على أنه رضي الله لم يكن يفعل ذلك إلا بإذن من مولاه، الذي قربه إليه واجتباه، إذ كان

---

1 – عبارة (وكان بعض أصحابه لا يزال يتحرك أي يشير بالذِّكر) نقلناها بحروفها ولم نهتد إلى فائدتها، فلعل في الكلام سقطا.

على بينة من ربه، وحليَة من أمره بقُربه، فإقباله رضي الله عنه على الخلق إنما كان إرشادا للمكتوب إليهم، ونصيحة وتقريبا عليهم، وأخذا بأيديهم، وجمعا لهم ورحمة بهم، وتحدثا بنعم الله وشكرا له على ما أولاه، ولقوة الفيض وغلبة حال الغنى بالله، وفي الحديث (لأن يهدي الله على يدك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت) اهـ فما ظنك بهداية الآلاف من الخلق، وإخراجهم من ظلمات الباطل إلى نور الحق، لا سيما وقد كان المغرب وأهله في تلك الأوقات، كما سبق نقله عن صاحب المرآة.

وأخبر بعض الثقات أن أتباع سيدي أبي بكر ورفقاءه هم الفقراء //95// والمساكين. وحكي أن سره رضي الله عنه كان بوضع اليد على الرأس، وهو محتمل لوجهين:

أحدهما أن يكون المراد أنه يضع يده على رأس المريد، وذلك إما أن يأخذ قبضة من السر الذي أودعه الله عنده ويجعله بيده على رأس المريد فتسري منه إلى ظواهر بدنه وبواطنه كلها، كما أن الراقي يضع يده على رأس المريض عند الرقية فتسري بركتها في جميع بدنه، لأن الرأس هو المدخل للبدن كله، ألا ترى إذا جعل عليه شيء من المائعات نزل إلى الحلق ثم يسري في جميع الأمعاء، وكذلك لو جعل عليه عقار حار أو بارد ظهر أثره في جميع البدن، فينتفع به أو يتضرر إما بأنه إذا أمده بشيء من سره ربما وجدت حواسه الظاهرة والباطنة من ذلك ما لم تكن وجدته قبل ذلك مما لا تقواه نفسه، فتضطر ذاته لغلبة الأحوال الواردة عليها إلى كثرة الاضطراب والقيام والقعود، فيضع الشيخ يده على رأس المريد ليسكنه ويرد اضطرابَه طمانينةً.

ثانيها: أن يكون المراد أن الشيخ يضع يده على رأس نفسه عندما يمد المريدَ بشيء من السر، فيكون له بذلك أسوة حسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حَدَّث بما لا يُعرف إلا بطريق الوحي ربما وضع يده على رأسه. فقد روي من مسلسلات //96// الفهارس، كما في المنح البادية في الأسانيد العالية للشيخ المسنِدِ الرواية الحافظ مَحمد بالفتح بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، المسلسل بوضع اليد على الرأس، من طريق إبراهيم بن سعد بن شهاب، عن أبي عبيد مولى عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله"، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله عز وجل برحمة منه وفضل، ووضع يده على رأسه. ثم وضع كل واحد من الرواة يده على رأسه، انتهى. وكانت الحكمة في ذلك والله أعلم قصد المبالغة في التبري والتحذير والتخويف من الاتكال على العمل، لأن من يبالغ في ذلك قد يضع يده على رأسه، ولكن الظاهر الاحتمال الأول، بدليل أنه رضي الله عنه قال لمريده أبي عبد الله الواوزغتي، كما سبق في الترجمة، (1) اتفق عليك الأولياء ومسحوا على رأسك اهـ

ولم يكن الشيخ سيدي أبو بكر رضي الله عنه يلتزم تلقين ذكر مخصوص لمن يرد عليه للأخذ عنه كما جرى عليه بعض مشايخ عصره وتمالأ عليه من بعدهم، وإنما كان يأمر بالتوبة بشروطها، ومجلسه مجلس وعظ، فيفتحه كما تقدم أن أحسنَ الحُسنِ الخُلقُ الحَسَنُ، ويعنعنه بالحَسَنِين الثلاثة، وكانت له وظيفة لنفسه ولمريديه وهي //97// استغفر الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكل واحد من هذه الكلمات يقولها مرة ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، مائتي مرة، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله الا الله الملك الحق المبين، سيدنا محمد رسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم. وكان يسمي ذلك بالوظيفة، لأن طريقته رضي الله عنه إنما هي شاذلية، ولا تلقين في الطريق الشاذلية كما قاله القسطلاني.

قال الإمام العلامة سيدي محمد بن عبد الله الحوات الحسني العلمي ([1]) في كتابه "تحفة المعاصر في بعض صالحي تلامذة أبي عبد الله ابن ناصر" ما نصه: وسألت شيخنا أبا عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي بارك الله فيه عن هذا التلقين المتخذ، والورد المعطى للفقراء على الكيفية المعروفة، فأجابني بأنه لم يكن في الصدر الأول وإنما أحدثه الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني، فقيل له في ذلك: أحدثت في الطريقة الشاذلية ما لم يُعهد من التلقين، أو نحو ذلك، فقال: رأيت أن أشغل من الفقراء في بعض الأوقات بعض الجوارح، أو ما هذا معناه، انتهى. //98//

1 – هو والد المؤلف وكان قاضي شفشاون، توفي سنة 1150 هـ

ويحكى أن الشيخ أبا العباس سيدي أحمد بن عبد الله معن صاحب المخفية سأل الشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي رضي الله عنهما بقوله: ما هذا الذي تعطيه للناس وتضربهم بعصا واحدة؟ أو ما هذا معناه، فأجابه بأنه ينبه الناس لذكر الله اهـ

والحاصل أن الشيخ سيدي أبا بكر الدلائي رضي الله من مفاخر الطريقة الشاذلية، أحيا الله به سنتها في زاويته البكرية الدلائية، وانتشرت عنه أسرارها في الأقطار المتنائية، وكان له التصرف التام في العوالم بأسرها، وهو في هالة أولياء التصرف كبدرها، أحاط نوره الكوني بسرها وجهرها.

ولما قربت وفاته رضي الله عنه كان ربما يظهر منه ما يشير إلى ذلك، فقد روي أن الدجاج كان يتوجه إليه ويدنو منه ويحيط به وهو يصوت، فقال له بعض بناته: ما هذا يا سيدي؟ فقال لها هذه نوائح أبيك. وكان يقول حينئذ: بلغ وقت محمد، يعني ولده، ويقول: محمد أراد أن نتنحى له من الطريق. ويكثر من قول الله العظيم الله لطيف بعباده، ومن ذكر الهيللة والشهادتين.
وهذا بعض ما حضرني من كراماته رضي الله عنه، وجدتها بخط بعض الثقات العلماء الأثبات، وإلا فكرامات صاحب الترجمة كثيرة، ومعارفه ومواهبه شهيرة، لا يتحملها هذا الكتاب المبني على الاختصار //99// لا على الإسهاب والإطناب، وإنما ذكرت منها ما رأيت مقيدا عن ذوي الصدق والإتقان، والتنزه عن رذيلة الكذب غاية التنزه والإمكان، وما هو إلا كشذرة من عقد نحر، بل قطرة من قطرات بحر، ولو اتسع المجال والحال، وطال الباع والمحال، لذكرنا من حسن سمته وسيرته، وهديه وشهرته، في أحواله وسيرته، ما يبين أنه من ذوي الولاية الكبرى، والصديقية العظمى الشهيرة الغَرَّا، وإلا فقد كان آية من آيات الله في كل وصف حميد، وفعل مجيد، سيما السخاء والحنان على عباد الرحمن، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

توفي عند طلوع الشمس من يوم السبت الثالث من شعبان سنة إحدى وعشرين وألف، وله من العمر سبع وسبعون سنة ودفن بزاويته بالدلاء، وأورث أعقابَه بعده من العلوم والأسرار ما ليس له نهاية ولا انحصار، وبنيت عليه قبة بديعة الصنع والشكل، قليلة الوجود والمثل، وقد رمز لتاريخ وفاته أبو عبد الله المكلاتي ([1]) في لاميته التي رمز فيها لتاريخ وفيات الأعيان فقال:

وإن أبا بكر "غمامٌ بلُجِّهِ" ([2])	دلاءٌ من الأرزاق تنحط من عمل

ولما رأيته بعيد الوجه من حسن مناسبة التورية، ولطف //100// ولطف الإشارة إلى التعمية، كما يجب في الرموز التاريخية، رمزت له في الشطر الأخير من بيتين في مجزوء الكامل أو الرجز فقلت:

مضى أبو بكر وكم	أعلى منار السنة
في سنة تاريخها	"سار به للجنة"

---

1 – الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي المرقع، توفي سنة 1041هـ، ويعرف بالمكلاتي الأكبر تمييزا له عن المكلاتي الأصغر المتوفى عام 1159 هـ ولنبوغه وسعة ثقافته كان كاتبا في دولة المنصور السعدي، وهو المنصب الذي لم يكن يحتله إلا النبهاء من رجال الفترة، مما يدل على أنه كان متضلعا في اللغة والأدب، بارعا في الإنشاء والترسل، وإلا لما تمكن من أن يشغل منصبا كالذي يشغله، ولاسيما في بلاط خليفة كالمنصور الذي كان يشتغل بالأدب ويقرب رجاله. من مؤلفاته كتاب "أسرار الخلافة الشريفة" في التاريخ، وكتاب "شرح لامية الأفعال لابن مالك"، وتذييل لأرجوزة محمد بن علي الفشتالي التي نظم فيها وفيات ابن قنفد، والمقامة الزهرية التي ستأتي كاملة في ص321 من المخطوط.
2 – قوله "غمام بلجه" كتب بلون أحمر لكونه يرمز لتاريخ الوفاة بحساب الجمل.

وكان له رضي الله عنه ستة من الأولاد، عم ذكرهم بالعلم والعرفان الأغوار والأنجاد، وهم سيدي مَحمد بالفتح، وسيدي عبد الرحمن، وسيدي أحمد الحارثي، وسيدي محمد الشرقي، وسيدي محمد الخديم، وسيدي عبد الكريم، إلا أن سيدي عبد الرحمن توفي قبل أبيه رضي الله عنه، ومن عداه كلهم تأخروا بعده، وها أنا أعرف بهم إن شاء الله على قدر الإمكان، وبمن تناسل عنهم من الأعيان إلى هذه الأزمان

الفصل السادس في الذين أخذوا عنه وانتسبوا إليه، وعولوا في سلب الإرادة عليه

قد كثر المغترفون من بحار لطائفه، والمقتبسون من أنوار معارفه، أخذ عنه خلائق لا يحصون، مَنْ هُم في علمي الظاهر والباطن معتبرون.

منهم أولاده السادات الأخيار، الذين تحلوا بحلية الأبرار، ويأتي إن شاء الله في تراجمهم ما يكشف عن وجه مكارمهم.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن الدادسي الواوزغتي، أي دفين //101// وَوِزَغت، وأبو عبد الله سيدي محمد بن يعقوب الولالي، وأبو علي سيدي الحسن بن علي التاسكدلتي ([1]) بقاف معقودة، وأبو علي سيد الحسن بن عبد الله دفين تاديغوست، ([2]) وأبو الحسن سيدي علي بن إبراهيم دفين تدغة، وأبو الحسن سيدي علي بن يوسف دفين أراقوا، ([3]) وسيدي سليمان الغياثي صاحب الكاف، وكان سره بوضع اليد على الرأس كشيخه سيدي أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين.

وهؤلاء الرجال الثمانية هم الذين وقفت عليهم من تلامذة الشيخ سيدي أبي بكر رضي الله عنهم.

(سيدي محمد بن محمد بن الحسن الدادسي الوَوِزَغتي)

فأما أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن الحسن الدادسي الوَوِزَغتي، فقال في مباحث الأنوار: بلده سمي وَوِزَغت بفتح الواو وكسر الثاني ثم زاي مفتوحة وغين ساكنة معجمة ثم تاء ساكنة وهي بإزاء جبل يسمى غُنَين ([4]). كان أخذ أولا عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون السملالي نسبا، السلوي وطنا ومدفنا، فانتفع به وأقام عنده مدة، ثم إنه لما أحس بكبر الشيخ قال له: يا سيدي جعلني الله فداءك، وقدمني في الوفاة أمامك، فإن قَدمتَ على مولاك فبأي شيء تأمرني اشتغل؟ بزيارة الناس أم ألتزم داري؟ فقال له يا بني زر حتى تزار، ودُر حتى تُدار، ثم قال له الشيخ عبد الله بن حسون: وأين بلدك؟ فقال له: بلدي بجبل غنين، فقال له: أغناهم الله، أغناهم الله، فلم يلبث الشيخ //102// إلا قليلا ثم توفي رحمه الله، فجعل الشيخ محمد الووزغتي لا يُنعت له رجل إلا قدم عليه، فإذا أتاه وأحس من نفسه بعدم الانتفاع به ندم على المخالطة، ولم يزل كذلك حتى قدم على إمام وقته، الشيخ الذي يشار إليه بالكمال الوقتي، سيدي أبي بكر بن محمد الدلائي بزاويته الدلائية، فلما قدم عليه ظفر بمناه، ولقي ما كان يتمناه، فالتزمه إلى أن ورث مقامه.

وقال في الممتع: أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن الداداسي، دفين ووزغت، ذكر لي بعض أصحابه أنه قال

نحن من ذرية سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه. كان قوي الحال، كثير التواجد، كثير التغني من الدندنة، لا يتمالك عند تلاوة القرآن وسماعه، يعمل فيه كثيرا ويتحرك ويتواجد حتى يكاد يطير، حتى كان في آخر أمره لا

---

1 – نسبة إلى تسكدلت وهي جماعة قروية تابعة لإقليم شتوكة آيت باها بسوس

2 – جماعة قروية تابعة لإقليم الرشيدية ضمن جهة درعة تافيلالت.

3 – كذا في المخطوط بقاف معقودة، ولعلها "أروكو" والله أعلم.

4 – يعرف حاليا بجبل "غنيم" على بعد حوالي 10 كم جنوب بني ملال وحوالي 8 كم شمال واويزغت.

يستطيع سماعه لسماعه له بنعت المكالمة والمناجاة. صحب أولا الشيخ عبد الله بن حسون السملالي بسلا، وهو من أصحاب الشيخ سيدي عبد الله الهبطي، وبقي في صحبته عاما، ولقنه أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ "اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم"، ثم أوصاه فقال له: زُر حتى تُزار، وأحِبِ حتى تُحَب، ثم ذهب إلى الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي فأخذ عنه، وسأله الشيخ عما يذكر، فذكر له الصلاة التي لقنه الشيخ أبو محمد عبد الله بن حسون، فأمره أن يزيد فيها "عبدك ونبيك ورسولك". وكان كثير الذكر //103// والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وتلاوة القرآن، وتؤثر عنه كرامات ومكاشفات، وتصريف همة وخوارق عادات، وحكم وأمثال، تشفي الغليل وتزيح الإشكال.
وقال في الصديقية: أخذ الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن الدادسي دفين ووزغت عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون السملالي بسلا وعن الشيخ أبي بكر الدلائي بالدلاء، توفي سنة اثنين وستين وألف، عن أربع وثمانين سنة.
وقال العلامة المحقق أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني: أخذ الشيخ محمد بن محمد بن الحسن الدادسي عن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي، وسيدي عبد الله بن حسون السملالي دفين سلا، وأراه الطريق المبلغة لبلاده سلا ونعتها له في المنام، ولما قدم عليه قال له: طالما انتظرتك، وقد ابطأت علي ولم يبق عندي إلا أمانتك، وأعطاه خمسين ألفا وردا، وأمره بأن يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" كل يوم ويزيد عند رأس كل مائة "صلى الله عليه وسلم" فكان يقولها. وقال له تكلفت لك بثلاثة أمور: من عرفك فعليه أمان الله، وأصحابك لا يذوقون شدة الحساب، وأنهم يغبطهم الناس في الموقف، وقال له: إن وجدت تيسيرا فارجع إلي، وإن لم تجد فلا عليك، فانصرف فما مضى إلا يسيرا وتوفي الشيخ رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة وألف. قال وبعد وفاته لقي الشيخ أبا بكر الدلائي فقال له: //104// كم وردك؟ فقال خمسون ألفا وقراءة القرآن وما تيسر من النوافل، فقال له سيدي أبو بكر: مازال لك، ما زال لك، يعني أنه لابد لك أن تزيد على ذلك، وهذا إذنٌ له من الشيخ في الزيادة والزامٌ له بها، فزاده على ذلك مائة ألف، فكان مجموع ورده بعدُ مائة وخمسين ألفا. والورد الذي أخذ عن سيدي أبي بكر رضي الله عنه هو "أستغفر الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوه إلا بالله العلي العظيم" وكل واحدة من هذه الكلمات يقولها مرة وصلي على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ "اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما" مائتي مرة، ويسمى هذا الذكر بالوظيفة. وكان مع ذلك يقرأ كتاب دلائل الخيرات، يختمه كل يوم ثلاث مرات، وكتاب تنبيه الأنام يختمه مرة. وكان مدة أيام بدايته لا ينام من الليل شيئا، بقي على ذلك نحوا من ثلاثين سنة، وجاء يوما بماله كله للشيخ سيدي أبي بكر وطرحه أمامه، فقال له: بهذا أردتَ أن تقبضني، فرجع من عنده وبات ليلته يبكي مخافة أن لا يكون قُبل ذلك منه، فلما كان من الغد جاءه فقال له الشيخ سيدي أبو بكر: مالك البارحة شوشتني، فقال له يا سيدي إني لما أتيتك بما أتيتك به بالأمس قلت لي: بهذا أردتَ أن تقبضني، فهالني ذلك، وأنا يا سيدي قد عرفت أن لا حاجة لك به ولكن امتثلت قول الله تبارك //105// وتعالى (يا أيها الذين ءامنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة، ذلك خير لكم وأطهر) ففعلت ذلك، فقال له سيدي أبو بكر: ما فهمتَ "أبهذا أ أردتَ أن تقبضني" أي: ليس بهذا وقعَت المعرفةُ بيني وبينك، إنما وقعت المعرفة في الأزل عند ملاقاة الأرواح.
وسرى للناس من نفحاته فكانوا يأتونه بقصد الصحبة فيردهم، ثم ظهر له أن ذلك ضلال عن سبيل الله وقطع للطريق، فجعل يقبل صحبتهم على نية أن يذهب بهم للشيخ سيدي أبي بكر، فلما اجتمع عنده منهم عدد كبير جاء بهم إلى الشيخ، وعندما قربوا أن يشرفوا عليه قال لهم: إذا كنتم توسمتم فيَّ شيئا فهو من هنا، وهذا رأس العين، فامتثلوا ما قال لهم إلا واحدا منهم قال له: لا أعرف غيرك، فلما قدموا على الشيخ رحب بهم وقال له: مالك مع أصحابك، لا تحشمهم، فقال له: يا سيدي خفت، فقال له: مم؟ قال: من قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) فصاح الشيخ أبو بكر صيحة عظيمة وسقط مغشيا عليه، فلما أفاق قال له: مد حبلك وشد فيه ما شئت واتني به أحمله على عنقي، فكان ذلك إذنا له منه وتكميلا، فبقي يأتيه هو ومن علق به من الأصحاب ويتصدى لهم، يجلس لهم بكرة وعشيا ويأمرهم بالأوراد، ويعطي كل واحد ما يناسب حاله //106// من الأذكار إلى أن توفي الشيخ سيدي أبو بكر رحمه الله ورضي عنه، وبعد وفاته إلى أن توفي هو أيضا رحمه الله. وكان يعمل الحضرة كثيرا فيفتتحها هو لهم أو يأمر من يفتتحها لهم، وكان كثير التواجد والهيمان، وتظهر على أصحابه الأحوال الربانية، وانتفع على يده جم غفير وعالم كثير من المسلمين،

وشدت إليه الرحال من المدن والأمصار والبوادي، وأخذ عنه طلبة العلم وغيرهم، وظفر بقوة اليقين ومتانة الدين كثير من أصحابه وأتباعه. انتهى
ووجد مقيدا عنه ما نصه: قال لي الشيخ سيدي أبو بكر: اتفق عليك الأولياء ومسحوا على رأسك.
وقال مخبرا عن نفسه: أخذت الأمان من أهل الله ومن النبي صلى الله عليه وسلم ومن المولى تبارك وتعالى.
وقال أيضا رضي الله عنه: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: احتفظ بأمتي، فقلت له يا رسول الله ماذا أصنع معهم؟ فقال لي: علمهم لا إله إلا الله محمد رسول الله، فما أرى في هذا الزمان مثلها أنفع لهم منها.
ومن حكمه وأمثاله عند قوله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" قال: هم الملائكة الذين يتعاقبون بالليل والنهار على المؤمنين، يحيون ويذهبون كالأضياف، وإكرامهم هو الاشتغال بالعمل الصالح، لأنهم يسرهم ذلك، والضيف يبلغ //107// عنك ما رأى منك، فليكن ما يبلغه عملا صالحا.
ومن كلامه: النجوم في السماء والنجوم في الأرض، وكما نرى نحن نجوم السماء، كذلك الملائكة ترى المؤمنين كالنجوم في الأرض. والرعد في السماء والرعد في الأرض، فكما نسمع نحن صوت الرعد في السماء، كذلك الملائكة تسمع ذكر الله ودعوة المظلوم كالرعد في الأرض.
ومن كلامه: إذا تعلم الإنسان حرفة، أي صنعة، وحصل له العلم بها ثم لم يشتغل بخدمتها فإنه لا يحصل له منها أجرة، وكذلك العلم والحال وغيرهما إذا لم يشتغل صاحبها بها وبالعمل بمقتضاها لم يحصل له منها نفع.
ومن كلامه: الثوب الموسَّخ لا يزال وسخه ما لم يعمل فيه الصابون، وكذلك الإنسان لا تزول منه مساوئ نفسه ما لم يكن له شيخ صحيح.
ومن كلامه: المرآة إذا لحسها الإنسان بريقه ذهبت صقالتها، وكذلك المؤمن إذا أعجبته نفسه ولحس مرآة حاله بيده ذهب ضياء قلبه وفسد حاله حتى يتوب إلى الله تعالى.
ومن كلامه: الجلد المنتفخ لا يعمل فيه الدباغ حتى يزول انتفاخه، وكذلك المتكبر لا يتأثر بشيء حتى يزول منه كبره.
ومن كلامه: الدموع ثلاثة أقسام: دمع يأتي من الرئة يكون منك إذا ظلمك أحد ونَفَسُه بارد، ودمع يأتي من الكبد إذا مات للإنسان //108// ولده أو قريبه ونَفَسُه سُخْنٌ، ودمع يأتي من القلب وينتشر بين الجلد واللحم وهو دمعُ خشية الله. قال الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).
ومن كراماته أن جماعة من آيت اعتاب خرجوا لزيارته وكانوا من أصحابه، فتعرض لهم قومهم وكانوا قد احتاجوا للمطر، وقالوا لهم: والله إن لم تأتونا بالمطر على يد شيخكم لنضربنكم بالحجر، فقدموا على الشيخ وزاروه وتبركوا به، فلما أرادوا الانصراف من عنده قالوا له: يا سيدي إن القبيلة قد عهدت إلينا أن نطلب لهم الشتاء عندك، وتوعدونا بالضرب بالحجر إن لم يغاثوا، فقال لهم: ما هذا؟ وهل حكم الشتاء بيد محمد؟ يعني نفسه، فقالوا له: يا سيدي اطلب لنا الله، ونحن قد استحيينا أن نرجع إليهم دون شيء، فلما ألحوا عليه اعتراه حال وقال لهم: قوموا واذهبوا إلى ضريح الشيخ سيدي أبي بكر وقولوا: رفعنا الوسيلة لسيد الرجال، طلبنا الفضيلة من مولى الموالي. فقاموا يقولونها، وذهبوا كذلك حيث أمرهم، فما وصلوا حتى أغاثهم الله بالشتاء، ونزل عليهم من المطر الوابل ما فيه كفاية وغنية ببركته رضي الله عنه.
هذا ما وقفت عليه من حكمه وأمثاله العديدة الأثيرة، ومكاشفاته الكثيرة، وكراماته الظاهرة الشهيرة.
//109// كل ذلك من كثرة مدد شيخه القوي، وبركة أستاذه الشهير الولي، سيدي أبي بكر رضي الله عنه.
وتوفي سيدي محمد الووزغتي المذكور سنة اثنتين وستين وألف كما سبق.
قال في الممتع: هكذا أخبرني بجميع هذه الترجمة بعض المنتسبين إليه رحمه الله انتهى.

(سيدي محمد بن يعقوب الولالي وصاحبه سيدي الحسن بن علي التاسكدلتي)

وأما الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن يعقوب الولالي وصاحبه سيدي الحسن بن علي التاسكدلتي ([1]) فقال في مباحث الأنوار: ولما أراد الله تعالى به ما أراد من ظهور كرامته عليه، وسفره ليعرف الرجال ويلقى أهل الله، دخل عليه والده يعقوب ذات يوم فوجده بداره جالسا، فلامه وعيره على القعود الدال على التراخي في أمور القراءة والدين، حيث لا يعود إلى أبيه في نيته إلا بعد تحصيل ما سافر إليه ([2])، وتوجه للصحراء، فلما وصل إلى زيز وتقلب فيه من قرية إلى قرية، وذهب في خروجه منفردا، فلما وصل ذات مرة إلى أرض قفرة تداركه الله برحمته وبدأه بفتوحات نعمته، فلقيه الخضر عليه السلام فسقاه ماء وقال له: اذهب إلى ذرعة بالموضع الفلاني تجد شيخك وهو الشيخ عمرو بن الحاج الذرعي، فذهب إليه، فلما وصل إلى الشيخ المذكور ألفاه رجلا زاهدا في الدنيا ظاهرا وباطنا، فلازمه ووجد أصوله قد كادت أن تضيع من شدة زهده وعدم اكتراثه في الدنيا، وأخذ يخدمه فوجد //110// له بصيرةً عظمى وبركةً كبرى ونعمةً جما، ولحق به من بلده صاحبه الزاهد المنيب سيدي الحسن بن علي التسكدلتي بقاف معقودة، وبقيا يخدمانه ولزما خدمته وصحبته مدة من اثني عشر عاما، ثم إنه دعاهما ذات يوم وقال لهما: إنه قد عرج بي البارحة حتى بلغت في السماوات موضعا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال للحاضرين معه مشيرا إلي: هذا شيخ من لا شيخ له يوم القيامة، ثم إني أتيت قريتكما فوجدتها منسوجة نسج البرنس، ابتدأت باتساع وانتهت بتضييق، فقالا له: نعم يا سيدي هي كذلك، ثم قال لهما: إن ذلك الرجل الدفين بها، يعني الشيخ سيدي يحيى بن يوسف، راودني عليكما وطلب مني أن أبعثكما إليه لتحيا بكما بقريته وأحوازها رسومُ الدين، واني أريد أن أبعثكما، والآن اذهبا إلى بلدكما، القرية التي أنتما منها، بسم الله، فقال له جدنا محمد بن يعقوب: يا سيدي تلك البلد سائبة، أخشى أن لا يستقيم لي ديني فيها، وأيضا بها ظلمة كثيرون، ولا يساعدون المساكين إلا بقهر واضح، فقال له الشيخ: قاهر الظلمة جزار، والجزار يحتاج إلى حراسة لئلا تتلطخ ثيابه بالدم، فقال الجد: وأنا يا سيدي لا طاقة لي على معاشرة أهل تلك البلدة بدون ذلك، فصحبتك لي أولى فسكت الشيخ هنيهة ثم قال: له قم لترجع إلى //111// بلدك فإن الله تعالى جعل قهر الجبابرة بيدك، ثم قال لصاحبه راعه ولا تباعده، فإنه إن رآك سكن غضبه، وإن لم تراعه ربما أهلك ذلك الإقليم، فرجعا معه إلى بلدهما، وكان من أمره كما قال شيخه. وكان الصالحون والمساكين وغيرهم من الناس يشكون إليه ظلمة بلادهم فينتقم الله به لهم من الظلمة الذين يظلمونهم. وكان الشيخ أبو بكر رضي الله عنه يسميه الأسد من أُسُد الله في الانتقام من المستحقين، وهذه الحالة، أعني كونَه ألبسه الله وصف الانتقام من الظالمين، اعترف له بها كبراء وقته من العارفين.

وكان رحمه الله من أهل الجد والاجتهاد، وذلك أنه لما استقر بقرية تسكدلت المذكورة، جد في تبديل العوائد الرديئة المتمكنة من عامة أهل البلد، فإنهم كانوا لا يكترثون بأهل العلم، بل كانوا مستغنين عنهم بمجرد قراءة القرآن وتلاوته فقط، فلا يطلبون علما ولا يرون عالما، فاشتغل يعلمهم حتى عرفوا قدر العلم وأهله. وكانوا لا يحجبون نساءهم غالبا فحجب هو أهله وأمر بحجاب نسائهم، فعلمهم الحجاب بذلك ففعلوه واعتادوه.

وكان رجلا قويا شديدا يباشر غالب أشغاله بيده، ويصلح الطرقات بالحجر وغيره لصعوبة بعض الأماكن منها في بلده، لأنها جبال وبلده بلد التقشف //112// والأوساخ وسواد التراب والأثلاج (كذا) والدخان، وغالب ما كان يغسل به ثيابه ماء مع تراب أبيض يسمى بلغتهم ترفست.

وكان مائلا للخمول وعدم الظهور كثيرا، زاهدا متقشفا لا يلبس إلا الصوف الخشن، وبرنسه في الغالب مصبوغ أو مصنوع من صوف أسود. وكان يزور الصالحين الأموات كثيرا، مثل أبي يعزى رضي الله عنه، ويكثر من زيارته. وكان يلقى الأحياء في زمنه مثل الشيخ الشهير أبي الطيب الميسوري، لقيه مرارا، ولقي الشيخ أبا الجمال أبا بكر بن محمد الدلائي رضي الله عنه وانتفع منه وتكمل به ورجع إلى بلده، وكان يتعاهده بالزيارة المرة بعد المرة، وكان يخرج من بيته مع بعض أصحابه، وهو السيد الحسن المذكور وغيره عند الاصفرار فيلقى الشيخ أبا بكر في الدلاء فيتكلم معه ساعة، ثم يأخذ بيد صاحبه المذكور فيعود إلى منزله في ساعته ويبيت ببلده

---

1 – نسبة إلى تسكدلت، وهي جماعة قروية تابعة لإقليم شتوكة آيت باها ضمن جهة سوس ماسة.

2 – هذه العبارة مشوشة كأن كلاما سقط قبلها.

بتسكدلت، وبين بلده وبلد سيدي أبي بكر مسيرة يوم وزيادة للراكب الفارس المجد، ومسيرة ثلاثة أيام للقوافل.
وكانت له معه وقائع معلومة، وكرامات جسيمة، ومناقب عظيمة، وإخاء ومحبة مرسومة، دلت عليها مصاحبته له في أسفاره، وذلك أنه كان ذات مرة يقرأ القرآن في سفر سَافَرَهُ معه بقصد زيارة سيدي أبي يعزى //113// نفع الله به والنور يخرج من بين ثناياه، فكوشف للشيخ أبي بكر عن حاله ذلك، فشهد له أبو بكر بالخصوصية وقال: أول ما دلني على حال محمد بن يعقوب أني شاهدت النور يفيض من فيه في تلاوة القرآن فعرفت إيمانه وقوته وإخلاصه، مع أنه كان رجلا بربريا لا يخلو لسانه من ضعف في بعض مخارج الحروف.
وبعث إليه الشيخ أبو بكر بن محمد الدلائي من الدلاء حين فشى الطاعون في جيرانه وأولاده وتعلقاته، وكان ولده سيدي محمد غائبا بالمشرق، يقول: إن ولدي محمد غائب، وأمه تعلق قلبها بلقائه كما تعلقت قلوبنا بذلك، وأنت ترى ما نزل من أمر الله تعالى، فهل يكون لنا به لُقِيٌّ أم لا؟ فقال للرسول: قل له أما أنت فإنك تلقاه، وأما أنا وغيرك فلا أدري، يعني بالغير أمه، فكان الأمر كما أشار إليه، فماتت الأم بالطاعون، ومات هو به أيضا، وبقي الشيخ سيدي أبو بكر حتى لقي ولده وعاش بعد ذلك زمانا اهـ باختصار يسير.
وأحواله الحسنة وأوصافه المستحسنة يطول تتبعها لكثرتها، وسيأتي ما يحتاج إليه منها في أماكنه من هذا الكتاب إن شاء الله.

وغير هؤلاء الثلاثة من تلامذة الشيخ سيدي أبي بكر رضي الله عنه لم أقف لأحد منهم على شيء، ولو وقفت على شيء لأثبتُّه أو أثبَتُّ بعضَه، والله الموفق.

الباب الخامس //114//
في أولاد الشيخ سيدي أبي بكر الجليل، على حسب ما يقتضيه بَعدَ الإجمال والتفصيل، وفيه سته فصول، لكل فصل منهم فصل يقصر ويطول.

الفصل الأول: في ذكر الشيخ سيدي عبد الرحمن بن الشيخ سيدي أبي بكر رضي الله عنه.

هو الإمام الذي زهت في روضات العرفان أزهار علومه، وبهرت في درجات الإحسان آثار فهومه، رئيس المتصوفين، وصدر أعلام المحققين، رأس أهل الحقائق والتمكين، وقدوة الأكابر المتصوفين، بحر الجلالة والعرفان، والمقامات العالية التي لم يختلف فيها اثنان، كان رضي الله عنه إماما فاضلا، وعالما عاملا، وشيخا كاملا، وعارفا واصلا، ووليا صالحا، وقدوة ناصحا، وجبلا راسخا، وطودا شامخا، ولد ببلادهم الدلاء، وربي في حجر العلماء والأولياء، ونشأ نشأة النجباء الأتقياء، مشتغلا بما يقربه إلى الله، تاركا لما يبعده عن مولاه، لا يخالط إلا الأفاضل، ولا يصحب إلا الأماثل، لا يشارك الصبيان في لعبهم، ولا يلتفت إلى لهوهم //115// وعبثهم، قيل له مرة مالك لا تلعب مع الصبيان؟ فقال ما للَّعب خُلقت، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وقرأ الكتب المعتاد حفظها للمبتدئين وتصدر للإقراء في شبابه، فأتى بيت التدريس من بابه، ولم يَصبُ لمربوبه وأربابه.

أخذ العلم الظاهر عن جماعة من أهل عصره الذين كانوا يقصدون زاويتهم المباركة، كالشيخ أبي محمد الحسن بن أحمد الذرعي الشهير بالدراوي، والشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن القاضي المكناسي، وارتحل لفاس الإدريسية فأخذ بها عن شيخ مشايخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار، ولازمه مدة، وانتفع به في فنون عدة، وأجازه في جميع مروياته وأسانيده ومقروآته، ومسموعاته ومناولاته، وجميع ما يجوز له وعنه روايته، وعن غيره من الأئمة الأعلام، علماء الإسلام. ثم رجع إلى بلاده بعلم غزير، وخير كثير، فعقد مجالس لإقراء أنواع العلوم من الفقه والحديث والتفسير والأصلين والتصوف وعلم الكلام واللغة والعربية وكان حافظا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عارفا بجميع أنواعه وفنونه كلها، من صحيحه وحسنه وضعيفه وموضوعه، وطرقه وغريب ألفاظه وشرحه وإعرابه وحل إشكاله وانبساط فهمه وأحكامه، وأسماء رجاله وضبطه، وجرحهم وتعديلهم ومواليهم ووفياتهم، له اليد //116// الطولى في هذه الفنون كلها، حتى كانت نسخ الصحيحين تصحح من لفظه، روي عنه رضي الله عنه أنه قال: قرأت البخاري على النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، فأعظم بها كرامة ومنقبة.

ولما قضى الوطر من تحصيل علم الظاهر، أقبل على سلوك الطريق بقصد التوجه إلى الله تعالى والقصد إليه، وجمع الهمة عليه، ورفعها عما سواه، فلزم والده سيدي أبا بكر رضي الله عنه، فكان يربيه بالأحوال، ويرقيه في مدارج الكمال، حتى بلغ على يده المبلغ العظيم، وفتح له الفتح المبين بالخير الجسيم، وظهرت عليه البركة العظيمة، والمناقب الحميدة، وأشرقت في بواطنه شموس العرفان، فتحقق بمقامات العارفين، ومنازل الواصلين، ومراتب المحققين الكاملين، وكان كثير الذكر والاستغفار، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم آناء الليل وأطراف النهار، لا ينام من الليل إلا قليلا، ولا يبتغي بذكر الله بديلا، ولما قربت وفاته رضي الله عنه هجر الخلق، وانفرد لعبادة الحق، وأقبل على العبادة بموضع خارج الزاوية، وهو الذي قرأ البخاري فيه على النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، ولم يزل يتعبد في ذلك الموضع إلى أن مرض مرض موته وحمل إلى داره، وبقي نحو الخمسة عشر يوما وتوفي رضي الله عنه بعد انصداع الفجر من يوم الأحد ثالث رمضان //117// المعظم سنة عشرين وألف، قبل موت الشيخ سيدي أبي بكر رضي الله عنه بسنة، ودفن بخلوته المذكورة وبنيت عليه قبة حفيلة مستطيلة على هيئة النوالة بإشارة منه رضي الله عنه. وقبره الآن بها مزارة عظيمة يتبرك به، ومناقبه كثيرة، وبركاته شهيرة.

ومنها أنه رئي يوما نائما بخلوته المذكورة والسباع محدقة به تحرسه.

ومنها أن الناس عاينوا القناديل توقد في ضريحه غير مرة إلى الصباح.

وأخبر غير واحد من أهل تلك البلاد أن من حلف عند ضريحه كاذبا لا تمر عليه ثلاثه أيام حتى يدخل قبره. ولم يزل الناس يقصدونه في حوائجهم المهمات ويلتمسون منه البركات إلى الآن، نفعنا الله ببركاته آمين.
وترك ولده سيدي محمد، وستأتي ترجمته إن شاء الله.

الفصل الثاني في ذكر الشيخ أبي عبد الله سيدي مَحمد بن أبي بكر رضي الله عنه وفيه مقاصد

المقصد الأول في استهلال هلاله، إلى ظهور بعض الآيات على كماله.

كان والده الشيخ سيدي أبو بكر رضي الله عنه ونفعنا به من لدن كانت شبيبته في العنفوان وهو يرى بعين البصيرة أنه يتزوج من //118// خيار بنات بني مروان، وهم قوم من تلك البلاد كان لهم المجد الطارف والتِّلاد ([1])، ينتسبون إلى أمير المؤمنين مروان آخر بني أمية بالشام، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فخطب منهم مرة أو مرتين فلم يوجب ([2])، ولكل شيء عند الله أجل وسبب. وكان رأى أن الله يهب له معها ذرية طيبة، لا تزال غمامتها بالعلم والعمل صيبة، فأخذ يتوجه إلى الله في ذلك بالتردد لزيارة الشيخ أبي يعزى، الذي لم يزل ينسب له التصرف بعد وفاته ويعزى، حتى قيل له: أفي هذا الأمر الهين اليسير تقصد أبا يعزى والنساء سواها كثير؟ فأجاب من قال له ذلك: لو رأيت ما رأيت ما قلت ذلك، وفي رواية: لو رأيت ما رأيت لزرته مائة مرة وألفا. ثم لم يبرح يقصد أبا يعزى حتى طاب جناه، وبلغ بحمد الله مناه، فتزوج منهم السيدة عائشة بنت السيد أبي بكر المرواني، وكانت رضي الله عنها امرأة بمكان من الصلاح والحسب والدين. وفي الحديث (الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة). وفي الحديث أيضا أن المرأة الصالحة بين النساء كالغراب الأعصم بين الغربان اهـ وذلك لعزة من تستكمل المعتبر من الأوصاف، لعزة الدين فيهن، فإنهن ناقصات عقل //119// ودين، فكان أول ولد للشيخ أبي بكر معها هذا الولد الذي فيه أيضا كأبيه البيت والعدد، وكانت ولادته رضي الله عنه تقريبا سنة سبع وستين وتسعمائة بالموحدة في النَّيِّفِ والمثناة في المئين ([3])، ولما ولد أتى بعض النسوة إلى أبيه تبشره فقال لها: رأيته حين ولد وقد أخذه النبي صلى الله عليه وسلم وجعله في حجره ووضع يده على رأسه، فاذهبي وانظري رأسه ترين أثر أصابع النبي صلى الله عليه وسلم فيه، فذهبت فوجدت أثر أصابع النبي صلى الله عليه وسلم في رأسه، فرجعت إلى أبيه وأعلمته بما وجدت ورأت.
ووجد بخط صاحب المرآة أن سيدي محمد صاحب الترجمة ولد بعد ولادة أبيه بخمس وعشرين سنة، وتأخرت وفاته عن وفاة والده بنحو ذلك والله أعلم.

وسماه على اسم جده مَحمد بفتح الميم أولَه، ليفتح له من أول النشأة فيما كان فيه أمَّل.
وقد حكى أن أباه الشيخ سيدي أبا بكر ذهب حينئذ إلى شيخه سيدي أبي عمرو رضي الله عنهما بمراكش، ولما أخبره به قال له سيدي أبو عمرو: عليَّ به، فأتاه به في الحين، فوجد الشيخَ ينتظره خارج المدينة ومعه ثمانية نفر، فوضعه في حجر الشيخ سيدي أبي عمرو فأذن في أذنيه ودعا له بالبركة فيه، ثم التفت إلى أصحابه وقال: ليعطه كل واحد منكم //120// مسألة، فقال أحدهم: أعطيته العلم، وقال الثاني: أعطيته الحلم، وقال الثالث: أعطيته التقوى، وقال الرابع: أعطيته المعرفة، وقال الخامس: أعطيته العز، وقال السادس: أعطيته النصر على أهل وقته، وقال السابع: أعطيته الحياء، وقال الثامن: أعطيته الكرم.

---

1 – تِلاد: جمع تالد، وهو القديم الموروث غير المكتسب، عكس الطارف.
2 – كذا في المخطوط، ولعل صوابها "فلم يُجَبْ".
3 – أي بالباء في سبع، وبالتاء في تسعمائة.

وقال الشيخ سيدي أبو عمرو: وأنا أعطيته أولادا ثمانية، ولكل واحد منهم تلك الخصال البادية، انتهى.
وقد نظم الشيخ العلامة أبو العباس سيدي أحمد بن القاضي هذه المسائل الثمانية فقال:

يـــا آل فخــــر الــــدلا لله دركــــم ... حــزتم مفــاخر لــم تُــدرَك ولــم تُــرَم

العلــــم والحلــــم والتقـــوى ومعرفـــة ... والعــز النصــر والحيــا مــع الكــرم

لا تعجبـــوا لحســـود بـــات يحســـدكم ... إذ خصـــكم ربنـــا بـــأعظم الـــنعم

ثم لا يخفى أن إتيان الشيخ سيدي أبي بكر بهذا المولود لشيخه أبي عمرو من مسقط رأسه زاوية الدلاء وهو بمراكش إنما كان غيبيا أو طيا، وإلا فالولد في قرب ولادته لا يمكن عادة السفر به المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا في الأيام، نعم للأولياء كرامات يطوى معها في لحظة بعيد المسافات، (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك).

ومن لدن كان صبيا وواردات الخير تتكاثر عليه بكرة وعشيا، جبل رضي الله عنه على حسن //121// حسن المعاملة من صغره، واستمر على الموافقة أيام عمره، ولم ير إلا حاضرا غير ساه، وذاكرا غير لاه، أخذت الاصطفائية بزمام فطرته، فنشأ على حسن طاعته وخدمته، وعلامة ذلك التزامه للموافقات، ومواظبته على الطاعات. قال بعضهم: "من أدركته العناية في الأزل، وفق لصالح القول والعمل، ومن هُيِّئَ للسعادة، لم تزل جوارحه للطاعات منقادة.

ولما بلغ سن تعليم القرآن، أدخله والده رضي الله عنه المكتب مع الصبيان، فكان يحفظ أكثر مما يحفظون، ويفهم أكثر مما يفهمون، ولا يلتفت إليهم إذا كانوا يلعبون، مشتغلا دائما بما يعنيه، مجتهدا في بيت مجدِه يَبنيه، حتى حفظ القرآن العظيم في مدة قليلة، وأحكم رسمَه وأحسن ترتيلَه، وكان والده مع ذلك يدربه ويهذبه ويؤدبه، ويرقيه بالأحوال والمعارف والأسرار، وكان يبعث به وهو يومئذ صبي صغير مع من يرفق به في المسير لمن كان في جواره من شيوخ التصرف والتصريف، ليستمد منهم وطينته طاهرة قبل بلوغه حد التكليف.
وقد سبق أنه أُتِيَ به مرة للشيخ الولي أبي الطيب الميسوري، وكان من شيوخ أبيه، فرحب به وأقبل عليه إقبالا عظيما، وقال له: اذهب يا ولدي، عند أبيك ما يكفيك وزيادة، انتهى. هكذا ذكره بعض أصحابه عنه.
وفي //122// المرآة: لما زار الشيخ أبو بكر أبا الطيب كما تقدم، وكان معه ولده صاحب الترجمة في صغره، فجاء معه بعض أصحاب أبيه إلى الشيخ أبي الطيب وقال له: يا سيدي هذا ولد سيدي أبي بكر، فتلقاه بما يحسن ويجمل، وقال لهم: عند أبيه ما يكفيه وزيادة. اهـ

ثم صار والده رضي الله عنه يسلك به طريق الرياضة، على وجه يبلغ به سريعا أغراضه، ويفقهه في أحكام العبادة، ويحرضه على ملازمة العلماء والاستفادة، حتى كان لا يبغي بالعلم وأهله بدلا، وكلما تعلم شيئا من أمر دينه أحسن به عملا، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ويسير به على سنن المهتدين، لأنه تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، ولا يتوصل إليها إلا بتعلم العلم ودرايته.

دخل رضي الله عنه أولا بقريحةٍ ألمعية، إلى رياض العلوم الأدبية، فاقتطف أزهارها الندية، وتنسم روائحها الزكية، وهي ثمانية أصناف، لا يكمل إلا بها في الأديب الأوصاف، اللغة، والنحو، والتصريف، والعروض، والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب، وأنسابها، ثم أخذ في بقية الوسائل، من علوم الأواخر والأوائل، كأصول الفقه، وأصول الدين، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق، والحساب، والتوقيت، والتعديل، وغيرها مما يكون عليه في معرفة الكتاب والسنة التعويل.

ولما بلغ وهو أثناء الاشتغال //123// بذلك حد الاحتلام، أخذ والده رضي الله عنه يتخير لطاهر نطفته من تقع فيه من البيوتات العظام، فوقع اختياره على بيتة هنالك لا أعظم منها حسبا ونسبا، وعلما ومعرفة وأدبا، يقال لهم

الشرفاء الشبوكيون، النازلون ببلاد اشبوكة من جاناته [1] ويقال أيضا آشبوك بالمد أولا وإسقاط هاء التأنيث، وهم بنو ولي الله أبي يعقوب يوسف الشبوكي نفع الله به.

وقد ذكر العلامة الرئيس المؤرخ أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الخزرجي، من بني ملوك الأندلس المصريين، في كتابه نثير الجمان فيمن نظمني وإياهم الزمان ونثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، بعض أعيان هذا البيت الشبوكي من أهل العلم والأدب، والرئاسة والحسب، فقال ما نصه: صاحبنا الفقيه محمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف، يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشبوكي، رأيته وصحبته، ونسبه حسبما نقلته من خطه على متن كتاب وأخبرني هو به وسمعته أيضا بفاس من بعض الناس، وهو: محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمران بن عبد الرحيم بن نوح بن شعيب بن علي بن محمد بن خيار بن فضل بن طاهر بن مطهر بن حمود بن زياد بن محمد بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويعرف بالشبوكي، واشبوكة بينها وبين فاس ثلاثة أيام.
وأخبرني أن جده عبد الرحيم //124// أتى من المشرق إلى المغرب واستوطن باشبوكة، وهو شريف، ويوسف أبوه كان رحمه الله جميل الوجه جدا، شاعرا مجيدا فقيها، وبرز عدلا في سماط شهود فاس، واستخدمه أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عنان المريني شاهدا في دار صناعة، وأحمد والد يوسف كان فقيها صالحا، ومحمد والد أحمد كان فقيها صوفيا، ويوسف والد محمد كان فقيها عالما صالحا مكاشفا مجاب الدعوة، من أهل الطبقة العليا في الصلاح، وأبو عبد الله هذا كتب الوثيقة بشهود فاس.
حاله أكرمه الله: هو فارس القريض، وحامل لوائه الطويل العريض، وله وجه وسيم، وحياء جسيم، وسمو همة لم يبلغها إنسان، ولم يُسمع مثلها في سالف الأزمان، ويؤثر عزة نفسه على هواه، ويختار مَهْيَعَ السُّمُو على ما سواه.
ثم ذكر لي قصيدة قال أنشدني إياها في مدح [أمير] المسلمين أبي فارس عبد العزيز المريني رحمه الله.
ولما نقل كلامه الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد المقري في كتابه أزهار الرياض قال: وأقارب هذا الشريف الشبوكي لم يزالوا إلى الآن، ولهم مصاهرة مع والدنا الشيخ الفقيه المحدث الحاج الرحال البركة القدوة الصالح، الولي الناصح، أبي عبد الله سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي أبي بكر بن محمد صاحب الترجمة، أبقى الله دارهم، وأعانهم على ما أولاهم، //125// اهـ قلت: لكن رفعَ الشريفِ نَسبَه، كما ذكر، من طريق محمد ابن سيدنا الحسن السبط رضي الله عنهم لا يصح، لأنه لم يعقب، بل لم يعقب من أولاد سيدنا الحسن الاثني عشر إلا الحسن المثنى وزيد، وأما العشرة الأخر الذين من جملتهم محمد المذكور فلا عقب لواحد منهم، قاله الحافظ الثقة الضابط أبو محمد بن حزم الظاهري في جمهرته.
قال شيخ بعض مشايخنا الإمام المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي البكري الدلائي برد الله ضريحه في كتابه النصرة، بعد أن نقل كلام ابن حزم الذين نقلناه: وبهذا تعلم عدم صحة ما رُفع من الأنساب من طريق محمد المذكور أو أحد من إخوته غير الحسن المثنى وزيد، ثم ذكر ما رُفع من الأنساب وحكم بعدم صحته، إلى أن قال: ومنه أيضا ما ذكره أبو الوليد يوسف بن الأحمر في كتابه نثير فرائد الجمان، ونقله عنه أبو العباس المقري في أزهار الرياض، في نسب أخوالنا الشبوكيين في رفعه من طريقه أيضا. والذي وقفت عليه في بعض تقاييد الشيخ القصار يدل على أنهم حسينيون بالتصغير، وذلك أنه قال في تقييد: رأيت نسخة رسم شرف السيد علي بن أبي عبد الخالق عبد العظيم بن محمد بن إسحاق بن إسماعيل بن سعيد بن يحيى بن حماد بن داود بن يحيى الحسيني، تاريخه سنة ست وتسعين بتقديم التاء وستمائة، ممن شهد فيه غير واحد من //126// الشرفاء الشبوكيين والأبي زَكْراوِيِّين، ثم نُسِخَ في زمان آخر، وفيه أعلمَ بإعمال الأعلام يُسْرَتَهُ عبدُ الرحمن بن إبراهيم اليزناتني، أَعلمَ بإعمالِه محمدُ بن عثمان بن سعيد الفشتالي.

---

1 – يذكر أن اسم زناتة ينطق جاناته لدى البربر . وهو من قلب الزاي إلى حرف الجيم مثل (تماشق. تمازق . تماجق)

وقال أيضا في تقييد ثان: أصل السيد إسماعيل وإخوته أبي زكرياء وأبي يعقوب من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وأُمِروا بأن ينزل إسماعيل بالموضع المسمى بعد ذلك برباط عين الفطر ([1])، وينزل أبو زكرياء باِتوغزاء ([2]) ببلاد حاحة، وأبو يعقوب باشبوك ببلاد جاناته لينتفع بهم أهل المغرب.
وقال أيضا في تقييد ثالث: اجتمع عند يعقوب بن عبد الحق بفاس الفقيهُ الولي عيسى بن أبي الحسن علي بن أبي عبد الخالق، ورجل من أولاد الولي أبي يعقوب الشبوكي، فأخرج لهم النص على أنهم من رجل واحد اهـ ما قاله القصار.

ثم قال الشيخ المسناوي: وهذا غير قادح في نسب من ثبت شرفه بالحيازة المعتبرة فيه شرعا، ولا سيما إن حصلت معها الشهرة والاستفاضة، لحمل ذلك على خطأ الناقل أو تحريف الناسخ، كما يقع كثيرا في الأنساب من كثير من المؤرخين والموثقين اهـ

فخطب منه الشيخ سيدي أبو بكر المذكور رضي الله عنه لولده صاحب الترجمة الذي بيته بالفضل معمور، بعض صالحات أبكارهم، خطبة من لا يخفى عليه رفع أقدارهم، فأجابوه في الحال //127// لتحقق الكفاءة بينهما في الدين والحال، ثم رزقه الله معها من الرفاء والبنين ما أبينه إن شاء الله في محله أتم تبيين.
وبعد ذلك ركب صاحب الترجمة جواد العناية، للصدق في مجال المقاصد العلمية إلى أن أحرز النهاية، من التفسير والحديث والفقه والتصوف، بملكة يقتدر بها على كمال الاستنباط والتصرف، وذهن ثاقب، كأنه السهم لأغراض التحقيق صائب.

تعلم أولا على والده البعض من جزئيات ذلك وقواعده، وعلى غيره من الأئمة الأخيار، الذين كانوا يقصدون زاويته المباركة من البوادي والأمصار، كالإمام الصالح أبي علي الحسن الذرعي وغيره، إذ كان والده رضي الله عنه مَشرقا لأنوار العرفان، ومطمحا لأنظار الأذهان، وموردا للظمآن، ومفزعا للهفان، فكان صاحب الترجمة يغترف من بحار علومهم، ويقتبس من أنوار فهومهم، حتى اتسعت عارضته في الوسائل والمقاصد، وامتلأت جابيته بالمطالب والفوائد، وأربى على جميع الأقران، بالحفظ والضبط والإتقان.

ثم استعمل الرحلة إلى حضرة فاس، زمان كان فيها الشيوخ الماهرون في النص والقياس، وذلك أوائل القرن الحادي عشر، فحضر مجالسهم التي كانت في وجوه الدهر كالغرر، وأخذ عنهم أخذ تحقيق وتحصيل، في كثير من //128// الفنون على الإجمال والتفصيل، بل أدرك بها شيخَ الجماعة بالمغرب كله، الذي لا يرجع إلا إليه في فهم كل مشكل وحله، الإمامَ النظار، أبا عبد الله محمد بن قاسم القصار، رضي الله عنه، فسمع منه وروى عنه وصافحه، ومر به في طريق أسانيده، وأجازه في كل ما توجهت إليه عنايته، من كل ما تصح له وعنه روايته.

كما أدرك أيضا شيخ العارفين، وقدوة الواصلين، أبا المحاسن يوسف بن محمد الفاسي، فكان يتردد لزيارته، ويتبرك باستفادته، وكلما أقبل عليه توجه بكليته إليه، ثم رجع من رحلته هذه بحرا زاخرا، وفلكا من الدراية والرواية فاخرا، وسعيه مشكور، وصدره معمور.

---

1 – توجد عين الفطر بدكالة، بقرية مولاي عبد الله على بعد 12 كلم من الجديدة.
قال محقق "مفاخر البربر" ص 230 هامش 6 ما نصه: عين الفطر: هي "تيط" أو "طيط" أو "عين" الفطر، قرب دكالة. بناها سيدي محمد بن عبد الله وكانت تسمى أيضا "تيطنفطر" وكانت عبارة عن رباط ساحل أزمور قرب الجديدة. عند بروفنسال: "بعيد الفطر" وهو تصحيف (نبذ تاريخية – ص68) (ابن عبد الله المراكشي – الأعلام – ج5 ص128) (عبد العزيز بن عبد الله – الموسوعة المغربية – ملحمة المدن والقبائل – ملحق2 159)
2 – كذا تبدو، ولم نتمكن من ضبطها.

وكان سافر سنة خمس وألف من الهجرة لأداء فريضة الحج وسُنة العمرة، فحج واعتمر، وزار قبر خير البشر، صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك بقلب خاشع، ورأس خاضع.

ولقي بمصر القاهرة زين العابدين بن الشيخ الواصل أبي المكارم محمد البكري الصديقي رضي الله عنه، فلازمه مدة إقامته بها واستفاد منه خيرا كثيرا، وشاهد من أسراره أمرا كبيرا، ثم رجع إلى المغرب وشمس الولاية من طلعته مشرقة، ورياض الخصوصية في وجهه مونقة، وكان رضي الله عنه من لدن طلع في سماء الشريعة بدره، ومغناطيس شهود الحقيقة يجذبه من حيث لا يَدري سرَّه، //129// ولما أراد الله أن يشرح صدره، ويشتغل بأدلة المعرفة اللدنية فكره، أرشده أن قال يوما لوالده الشيخ سيدي أبي بكر رضي الله عنه: ليس الشأن إلا علم الظاهر، وما يدعي هؤلاء لم يتبين لنا صدق دعواهم فيه، فإما أن تري لنا ذلك عيانا، وإلا فاشتغل لنا بالعلم الظاهر، فما زال به حتى أطلعه على شيء من الكرامات فسلم، فمن يومئذ والمعارف له تتجلى، وهو بحليها شيئا فشيئا يتحلى، وصار يتردد بإذن أبيه إلى من كان في الوقت من شيوخ الطريقة، الذين يخوضون به في بحر الحقيقة، فلقي جماعة من الشيوخ، الذين كانت لهم في الولاية القدم الثابت الرسوخ، وأخذ عنهم واستند إليهم، الشيخين السابق ذكرهما، أبي المحاسن يوسف الفاسي بفاس، وزين العابدين البكري الصديقي بمصر، وكالشيخ أبي عبد الله مَحمد الشرقي بزاوية جعيدان بتادلا، والشيخ أبي مهدي عيسى البوكيلي بتادلا أيضا، الشيخ أبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري بتاستاوت، والشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون بسلا، وتبرك أيضا بغيرهم ممن يضيق الوقت عن حصرهم. وتقدم أنه لما زار والدُه الشيخ سيدي أبو بكر الشيخ أبا الطيب الميسوري، كان معه ولده صاحب الترجمة في صغره، فجاء به بعض أصحاب والده إلى الشيخ أبي الطيب وقال له: هذا ولد سيدي أبي بكر، فتلقاه بالقبول وخاطبه //130// بما يحسن ويجمل، وقال: عند أبيه ما يكفيه وزيادة.
ويحكى أنه زار الشيخ أبا عمرو المراكشي المتقدم الذكر مع والده وهو صبي صغير من سبع سنين، فدعى له بخير.

المقصد الثاني في أشياخه الذين أظهروا فيه كل كامن، من علمي الظاهر والباطن.

اعلم أن شيوخ الإنسان آباؤه في الدين، وواسطة بينه وبين رب العالمين، وينبغي معرفة الآباء الدينية، كما ينبغي معرفة الإباء الطينية، ولأن بمعرفة شيخ الرجل يعرف قدره، ويتبين في طريق القوم حاله وأمره.
وقد أخذ هذا الشيخ رضي الله عنه فنون العلم الظاهر عن جماعة من الشيوخ الأكابر، بعضهم ممن كان يقصد زاويتهم البكرية الدلائية، وبعضهم ممن رحل إليه بالحضرة الفاسية. اعتمد من الفريق الأول في علوم الأدب الثمانية وغيرها من الصناعات الحسابية والتوقيتية، الشيخَ أبا العباس أحمد بن محمد الشهير بابن القاضي، من أولاد ابن القاضي الزناتيين المكناسيين، وبيتهم بيت كبير في العلم والحسب، وهم من نسل الأمير موسى بن أبي //131// العافية، كما صرح به هو رحمه الله في كتابه جذوة الاقتباس، ورفع نسبه فيه إليه ثم تبرأ من فعله بأهل البيت. ولد رحمه الله سنة ستين وتسعمائة بالمثناة أولا، وكان حافظا ضابطا محققا مؤرخا إخباريا ثقة سيال القريحة بالشعر، حسن العبارة، لطيف الإشارة، مستحضرا لكلام العرب، مستجمعا لعلوم الأدب، ماهرا في معرفة علوم الأوائل، مشاركا في غير ذلك للأئمة الاوائل. أخذ في بلاد المغرب عن جماعة من أشياخها، كأبي العباس أحمد المنجور، وأبي زكرياء يحيى السراج، وأبي عبد الله محمد بن مجبر المساري، وأبي عبد الله القصار، وغيرهم ممن تضمنته فهرسته.

وكان ركب البحر في رحلته إلى المشرق فأسره النصارى، وبقي عندهم في ضيق عظيم حتى افتداه السلطان أبو العباس المنصور السعدي، بعد أن استصرخه لفدائه برسائل نظما ونثرا، وألف تآليف مفيدة، منها جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ودرة الحجال في أسماء الرجال، والمنتقى المقصور في محاسن الخليفة أبي

العباس المنصور، ولقط الفرائد من لفاظة حلو ([1]) الفوائد، وغنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض، والمدخل في الهندسة، ونظم تلخيص ابن البنا، وفهرسته المسماة برائد الصلاح، وتقييد على جداول الحوفي، //132// وغير ذلك من المقيدات نظما ونثرا في الأغراض المهمات، فأخذ عنه الناس كثيرا، كأبي العباس أحمد بن علي ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي وغيره. وكان سافر لزاوية الشيخ الشهير، العارف الكبير، سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنه فأقام عنده مكرما يقرئ بنيه مدة، فانتفعوا به غاية، ولاسيما أكبرهم سيدي محمد الذي عقدنا هذا الفصل للتعريف به رضي الله عنه، ثم من لدن رجع عنهم الشيخ والشيخ سيدي أبو بكر يتعاهده بتتابع الإكرام كل عام، إلى أن توفي قبله سنة خمس وعشرين وألف ([2]) رحمه الله ورضي عنه.

واعتمد من الفريق الأول أيضا في الفقه والأصلين والمنطق والبيان وغير ذلك من معقول العلم ومنقوله، الشيخَ أبا محمد الحسن بن أحمد الذرعي المعروف بالدراوي، نسبة لذرعة القطر المعروف في لسان العامة بِدرا، كان يكتب بخطه الدراوي بالألف بعد الراء كما في المرآة. ولد رحمه الله قبل الخمسين وتسعمائة بالمثناة أولا، وكان من أهل العلم والتفنن فيه، والعمل الصالح والنية الصادقة والزهد، نفع الله به خلقا كثيرا من طلبة العلم، وكان رفيقا بهم حريصا على نفعهم، دؤوبا جميع نهاره على التجويد ([3]) بالإفراد والجمع، وتدريس أنواع العلوم، وكانت له اليد الطولى في معرفة العقائد والمنطق والنحو والقراءات، مع كمال التحقيق //133// وجودة النظر والفهم والتدقيق، والتمكين في الولاية، والتصرف في الكون بالعناية، والجمع بين الحقيقة والشريعة، والخوض في بحار الأحوال الرفيعة.
أخذ عن جمع كثير من المشايخ كأبي محمد عبد القادر بن خدة الراشدي شارح صغرى السنوسي، وأبي العباس المنجور، وفي بعض المقيدات أنه أخذ عن ولي الله أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي، وكان تردد لزيارة الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي رضي الله عنهما، وسافر لزيارة الشيخ الولي سيدي أبي بكر الدلائي فأقام عنده مدة كثيرة يقرئ العلوم حتى عم النفع به هنالك. ويحكى أنه قال يوما للشيخ سيدي أبي بكر: لا تجب عليك يا سيدي زكاة، فقال له: ولم؟ قال: لأنك لا تستبد بشيء دون المساكين، والله أعلم بصحته.
ولقي الخضر عليه السلام، روي أنه وجده بباب داره بصورة حسنة فقال له: ما أتى بك لباب داري؟ فقال له أنا الخضر جئت أبشرك بأنك رجل صالح. ومن تآليفه شرحه الحسن على صغرى السنوسي، وشرح جمل المجراد، وأخذ عنه أئمة أكابر كأبي عبد الله محمد بن يوسف التملي، وأبي العباس أحمد بن محمد بن جلال وأبي الحسن علي البطوئي، والقاضي عبد الواحد الحميدي.
وذكر والدي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحوات الحسني اليملحي العلمي في كتابه تحفة المعاصر أن الشيخ سيدي محمد هذا ابن الشيخ العارف //134// سيدي أبي بكر الدلائي ممن أخذ عنه. وبالجملة فهو من مفاخر ذلك العصر رواية ودراية، ومعارفَ وولاية. توفي رضي الله عنه في الخامس من شعبان سنة ست وألف، ودفن بدار ابن عمرو خارج باب الفتوح، وبنيت عليه قبة، وقبره مزارة مشهورة يتبرك بها، نفع الله به.

واعتمد من الفريق الثاني في علوم التفسير والحديث والفقه والتصوف وغيرها من مقاصد الفقه المهمة، مع المباحثة والمذاكرة على طريق التحقيق والتحصيل، كما كان عليه أكابر الائمة، أبا عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن علي القصار الأندلسي القيسي الغرناطي رضي الله عنه، وناهيك به، وكأنَّ فيه قد جرى قولهم: "كل الصيد في جوف الفرا". ولد رضي الله عنه بحضرة فاس سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة بمثناة أولا، وأخذ عن مشايخ لا يحصون من جملتهم الشيخ جار الله خروف من محمد التونسي، والشيخ أبو عبد الله محمد بن مجبر

---

1 – كذا في المخطوط، وكتب في موسوعة أعلام المغرب "حقق" عوض "حلو".
2 – لعل في الكلام سقطا أفسد المعنى، لأن ابن القاضي قد توفي سنة 1025هـ بعد أبي بكر الدلائي المتوفى سنة 1021 هـ
3 – كذا تبدو، والله أعلم.

المساري، ([1]) والأستاذ أبو العباس أحمد التسولي، الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم الدكالي المشترائي، وابنه ولي الله أبو شامة بن إبراهيم، والشيخ أبو عبد الله محمد اليستيتني، والشيخ الإمام ولي الله أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي رضي الله عنه، لازمه واقتدى به في العلم والدين، وانتفع به في الظاهر والباطن، واغترف من معين //135// علمه وعرفانه الذي ليس بآسن، وهو عمدته فيما يدريه ويرويه، ويحمله ويمليه.

قال صاحب المرآة في حق الشيخ القصار انه الإمام العالم المتبحر المحقق النظار، مفتي فاس وخطيب جامع القرويين بها، ومحدث المغرب في وقته، وكان دائم الخشية والخشوع، سريع الدمعة ذاكرا للموت، كلامه كله جِدٌّ مشرب بالوعظ والتذكير، مجالسه روض مزهر كثير الفوائد.

قال أبو عبد الله محمد الطيب الفاسي في كتابه المَطمَح: وكان، يعني الشيخ القصار، في لسانه ضيق في عبارته، فضاع بذلك كثير من علمه، فلم يَتصدَّ للتأليف، وإنما كانت في بطاقات ذكر لي أنها بيعت بعد موته بالوزن بالأرطال، ولذلك لم يكن يحضر مجلسه إلا الواحد والاثنان ممن مارسه، وكان يُجزِئ في الأجوبة بالكلمة، ومع ذلك كان ممن لا يُبلَغ شأوُه. انتهى.

وفيه يقول الشيخ عبد الله المصري الدنوشري رحمه الله:

قـد حـاك شـقات العلـوم أئمـة	وكسوا بها بالفضل من هو عار
رقـت حواشـيها وراق طرازهـا	لكنهـا تحتـاج للقصـار

وكان أهل عصره كلهم مطبقين على تعظيمه، وتفضيله وتقديمه، يلهجون بتحقيقه ويثنون على سواء طريقه، ويفتخرون بنقل علومه ودقائق فهومه، ويقتدون بأثر مآثره، حتى كادوا //136// يصلون بنوادره.

إذا قالـت حَـزام فصـدقوها	فـإن القـول مـا قالـت حَـزام

وكان يقال: إن هذا التحقيق في العلم الذي يوجد عند أولاد الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي نفع الله به إنما هو ارث عنه، فقد أخذ عنه منهم وتخرج به الإمام العارف أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي أخو الشيخ أبي المحاسن، وابنا أبي المحاسن الحافظ أبو العباس أحمد والمحقق أبو حامد العربي، وأخذ عنه وتخرج به غيره من الائمة الأعلام، المقتدى بهم في ملة الإسلام، كأبي العباس أحمد بن محمد المقري القرشي، وأبي مالك عبد الواحد بن عاشر الأنصاري، وأبي الطيب الحسن الزياتي، وأبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي، كما أخذ عنه وتخرج به واعتمد في جميع العلوم العقلية والنقلية الأصلية والفرعية هذا السيد المبارك الجليل الذي نحن بصدد تعريفه، أبو عبد الله محمد بن الشيخ العارف الكبير سيدي أبي بكر الدلائي نفع الله بهما، لازمه مدة، وانتفع به في فنون عدة، وأجازه بلفظه وخطه، وصافحه بيمنى كفه. ونص الإجازة ولفظُها، من خطه المبارك نقلتها:

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، يقول كاتبه محمد بن قاسم بن محمد بن علي القصار القيسي //137// الغرناطي أصلا وأبا، القصار لقبا، عفا الله عنه وعمن دعا له.

---

1 – محمد بن مجبر المساري أبو عبد الله، الأستاذ الحافظ النحويّ، سيبويه زمانه، وواحد وقته وأوانه. له طرز على ألفية ابن مالك، شيخ الجماعة. أخذ عن أبي عمران موسى الزّواوي، وعن أبي عبد الله ابن غازي، وأكثر على الزّواوي.

وكانت له مشاركة في الحساب والفرائض، وكان يستظهر مختصر ابن الحاجب الفرعي، وكان يقوم به أحسن قيام، يتكلم عليه فى مسجد الشّرفاء من فاس، وفى مسجد العقبة الزرقاء التى بإزاء داره والسقاية التى هنالك.

توفي سنة 984 هـ ودفن خارج باب الجيسة، أحد أبواب فاس المحروسة، فى روضة الولي أبي عبد الله محمد بن الحسين.

كان من نعم الله عليَّ لقاء الفقيه المتفنن الصالح، مربي طلبة العلم والدين، الكثير الإحسان إلى الضعفاء والمساكين، حاج بيت الله الحرام سيدي محمد بن ولي الله باتفاق، الشهير ذكره في الآفاق، سيدي أبي بكر بن محمد أبقاه الله فخرا للإسلام، ونفعا للفقراء والأيتام، آمين. فطلب من محبه ([1]) إجازة فقلت له:

أجــزت لكــم مروينــا مطلقـــا ومـــا لنـــا ســـائلا أن تُتحِفـــوا بـــدعاء

وسمع من لفظي بعض صحيح البخاري رضي الله [عنه]، وأجزت له جميعه والموطأ وبقيةَ الستة، ومسند أحمد، وسائر مصنفات الحديث الشريف، وما في الأوراق [قبله] ([2])، وجميع ما اشتملت عليه فهارس ابن الزبير والزين العراقي وابن حجر والشيخ زكرياء وسيدي يحيى السراج والنيسابوري وابن غازي ومشيخة ابن النجار، وأجزت له جميع مروياتي بأنواعها وجميع ما لي. وكتب محمد المذكور أول ربيع الثاني عام اثني عشر وألف مسلما على من يقف عليه وسائلا دعاءه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما اهـ
ومراده رضي الله عنه بما كان في الأوراق قبله: فهرسته الجامعة لأسانيده، إذ هي التي كانت الإجازة عقبها.
وكتب المجاز أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي بكر رضي الله عنهما تحت هذه //138// الإجازة، ومن خطه أيضا نقلت:
الحمد لله، صافحني سيدي وسندي وشيخي ومولاي محمد بن قاسم القصار، أبقى الله بركته وأصلح ذريته، بما صافحه شيخه رضوان عن سقين عن زكرياء عن رضوان عن الربعي عن اللمطي عن الحوثي عن القزويني عن الصائن ([3]) عن ابن أبي زرعة عن الفزازي عن البغوي عن عبدان عن ابن سنان عن ابن دهقان عن ابن تميم عن ابن هرمز عن أنس بن مالك قال: صافحت بكفي هذه كف رسول الله صلى الله عليه وسلم فما مسست خزا ولا حريرا ألين من كفه صلى الله عليه وسلم.

قال صاحب الابتهاج: ومما يحكى شائعا أن الشيخ القصار لما طالبه السلطان زيدان بعد موت أبيه المنصور في اللقاء وسار إليه لحضرة مراكش، طلب من الله أن لا يلقاه فتوفي في الطريق، فرأى بعض أهل مراكش في النوم قبرا يحفر بإزاء سيدي أبي العباس السبتي نفع الله به، فقال: لمن هذا؟ فقيل: لرجل صالح، فمن الغد أصبح ذلك الرجل يبحث عن ذلك الموضع، فوجده يحفر فيه لأحد من وسم بالظلم، ثم إنه أتي به فقيس عليه فلم يسعه وبدل له بمكان أخر، فلما ورد الشيخ القصار دفن هنالك رحمه الله ورضي عنه، وذلك في شعبان أو رمضان سنة اثنتي عشرة وألف.

هذا وقد أُعطِي الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه من القدرة على إقامة الأدلة //139// ما كان يصل به إلى الاستنباط من مسالك العلة، فتكاملت عنده أدوات الاجتهاد، التي يجب عليها في تحقيق المناط وتنقيحه الاعتماد، حتى كان لا يشق له [غبار] ([4]) في المباحثة والمناظرة، ولا يعبر له عباب في المذاكرة والمحاضرة، فإذا حضر معه أئمة التحقيق الكبار، كان بينهم كالقطب الذي عليه المدار، لا يَرى أحدٌ نفسه أهلا لمخالفته، بل حسبهم الوقوف عند ما تبديه أنوار مباحثته، مع اعترافه رضي الله عنه بالحق لأهله، وتأييده بما يحتاج إليه من عقله ونقله، ويحسن ويقبح، ويضعف ويرجح.

قال صاحب المرآة في ترجمة أخيه وشيخه الإمام الحافظ أبي العباس أحمد ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي ما نصه: وقد حدثني الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الولي الشهير سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنهما أنه لما قدم حضرة فاس أواخر سنة سبع عشرة وألف، كان يوما مجلسٌ حضر فيه شيخنا

---

1 – في المخطوط "محبيه" وعند محمد حجي في الزاوية الدلائية ص309 "محبه".
2 – ساقطة من المخطوط، ومثبتة في المصدر السابق.
3 – هكذا تبدو، ولم نتمكن من ضبطها.
4 – أضفناها ولم ترد في المخطوط.

الإمام، يعني أخاه صاحبَ الترجمة، وشيخنا الإمام أبو الطيب بن مهدي، يعني سيدي الحسن الزياتي، والشيخ الإمام أبو عبد الله محمد الهواري، والشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن محمد المغربي، والفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم، وكل واحد من الثلاثة الأخيرين ولي الفتوى بفاس، فجرى إشكال قول القائل //140// يوم القيامة "أنا ربكم" وهو بغير الصفة التي يعرفونها، فإن كان ملَكا فكيف جاز أن يخبر بغير الواقع، ولا سيما هذه الدعوى، والملك معصوم؟ فتكلم كل واحد بما حضره، فقال شيخنا أبو العباس: يجاب عنه بأن ذلك إنما يكون حينئذ في مقام الفناء والجمع، فيغيب عن حبيبه في شهود التوحيد فيقول ذلك، كما وقع للحلاج وغيره من الأكابر رضي الله عنهم. قال يعني سيدي أبا عبد الله محمد بن أبي بكر الذي حدثه بهذه الحكاية: انفصل المجلس في هذه المسألة على ذلك.

قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي رضي الله عنه بعد أن نقل كلام المرآة: وعبارته يعني صاحب المرآة في تقييد آخر: قال الذاكر أبقى الله بركته: وهذا الجواب أحسن ما يجاب به عن ذلك ([1]) اهـ من خطه.

وهذه كانت رحلته الثانية للحضرة المباركة الفاسية.

وأما أشياخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه في الطريقة، الذين انشقت في باطنه منهم أسرار الحقيقة، فأكثرهم كان أَخْذُه عنهُ على جهة التبرك والاستفادة، لا على طريق التحكيم وسلب الارادة.

منهم والده الشيخ الشهير، العارف الكبير، أبو الجمال سيدي أبو بكر بن محمد الدلائي السابق تعريفه نفعنا الله به.

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري ([2])، قال تلميذه أبو العباس أحمد أبو محلي في كتابه //141// الإصليت حين عَرَّف به أنه سمع من شيخ دهري من زعير أن سبب تسمية جدهم بزعري أنه كان يحرث على جمل وفرس، فكان يزجر الجمل بلفظ زع المعهودة لزجر الإبل، والفرس بلفظ ري المعهودة لزجره، فلما تكرر ذلك منه لقب بلفظتين مركبتين، واشتهر بذلك ونُسِي اسمه الأول وهو سليمان، والله أعلم. قال وربما سمعته من بعض أقاربه وأصحابه أنه شريف، وما تلقيته منه ولا ممن أثق به ولابد، وإن كنت قد صرحت أو لوحت بذلك في غير هذا فالتحقيق ما هنا.

---

1 – بل أحسن جواب عنه ما ذكره الغوث سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه في الإبريز في باب "الأحاديث التي سألناه عنها"، ولولا طوله لنقلناه، فليراجع في محله. وخلاصته باختصار أن المراد بالصورة الحالة، فهما حالتان للباري سبحانه: ففي حالة وهي الأولى يجهله المؤمنون، وفي حالة وهي الثانية يعرفه المؤمنون. وذلك أن الحبيب إذا أراد أن يخاطب حبيبه خرج منه إلى الحبيب مع الكلام أنوار من الحنانة والشفقة والإتصالات التي بينهما. وأما إذا خاطب الواحد عدوه فإنه لا يخرج مع خطابه شيء من تلك الأنوار، بل يخرج الكلام عاريا منقطعا عنها، وهذا أمر معلوم في العادة... فالحالة الأولى للحق سبحانه خاطب فيها مجموع الأمة أحبابَه المؤمنين وأعداءَه المنافقين، فخرج الخطاب بغير الأنوار التي يعرفها المؤمنون من ربهم، ثم يخاطب الحق جل شأنه المؤمنين خاصة ويطلق في خطابه الأنوار التي يعرفونها فإذا أحسوا بها عرفوا أنه ربهم. على أن هذا الجهل يقع لعامة المؤمنين فقط، أما العارفون به عز وجل فلا يجهلونه في حال من الأحوال.

2 قال عنه أحمد بوكاري: هو الشيخ أبو عبد الله بن مبارك الزعري، دفين تستاوت بالقرب من تاغيا (مولاي بوعزة حاليا) أسس زاويته خلال النصف الثاني من القرن 10هـ في وقت قريب من تأسيس زاوية "الدلاء" بإذن من الشيخ أبي عمرو القسطلي.

قال والدي رحمه الله في تحفة المعاصر، في ترجمة حفيد صاحب الترجمة وهو الشيخ القدوة الشاعر المفلق الولي أبو العباس أحمد بن عبد القادر بن الشيخ محمد بن مبارك ما نصه: كنا نجد فيما نرى من قصائده بغير خطه "الزعري" ثم انتسب إلى الحسن بن علي، يرفع نسبه إلى محمد بن ادريس، بل إلى بعض أحفاده من مزوار إلى حرمة، على أنه لا يُعرَف من علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن علي عقب، وإنما يذكرون كل واحد ترك واحدا إلى سيدي أبي بكر جد مولانا عبد السلام، وكل واحد منهم مُعَيَّنُ الضريح مشهور المزارة، عليه من الأسرار شارة، والله أعلم بما قال سيدي أحمد. وكنت رأيته بخطه ثم ذكرت ذلك لشيخنا العلامة الصالح سيدي محمد بن أحمد الشريف فقال: لا أعرفه ينتسب للشرف //142// ولا أحدا من أولاد سيدي أحمد بن مبارك، وإنما صدر منه ذلك مرة كان تغير علي، كنت زرت سيدي أبا يعزى فجاء زائرا سيدي عبد السلام ولم يصل إلي، ومر بالسيد محمد الحاج البقال وتلاقى معه وأقام عنده، ولما توادعا وانفصلا، ادعاه كل منهما في جهته، والله أعلم بتحقيقه وعلى ما اعتمد في ذلك، إذ لم يثبت ذلك عن الولي الصالح العارف بالله تعالى والدال عليه سيدي محمد بن مبارك نفع الله به، ولا عن الولي البركة العارف الرباني سيدي علي الحاج البقال، ولا عن أحد من أسلافهما ولا من خلفهما، عدى هذين ومن تبعهما، ولا رأيناه في تحلية لهم ممن يقتدى به. انتهى باختصار.

وأقول: إن كل واحد من هذين السيدين ولي جليل، لا يقدر على الانتساب للجانب النبوي إلا عن دليل، ولا يبعد أن يكون لهما عند اجتماعهما شهود للحضرة النبوية، فشهد لهما فيها سيد الوجود عليه الصلاة والسلام بالبنوة، وناهيك بذلك.
ومما يرشد إلى أنها دعوى عن دليل، أنها لا زالت فيهما تفشو وتشيع، حتى كادت أن تبلغ في الشهرة الحد المعتبر في الجميع.
وقال صاحب المرآة: وكان الشيخ سيدي محمد بن مبارك جليل القدر، شهير الذكر.
وقال في الممتع: كان فياض الحال، باهر الخوارق، مُدَّعًى فيه القطبانية، أخذ رضي الله عنه عن الشيخ أبي عمرو //143// المراكشي السابق تعريفه، وإليه انتسب. ويحكى أن عرب زعير لما ذهبوا إلى سيدي أبي عمرو وصحبوه قال لهم: من أتى بها كلها ذهب بها كلها، يعني المحبة، وكان سيدي محمد بن مبارك لم يعرفه ولم يصحبه، فلما رجعوا من عنده وتحدثوا بقوله ذلك سمعهم صاحب الترجمة سيدي محمد بن مبارك، فجمع جميع ماله من ماشية وغيرها حتى القدر التي يطبخ فيها، وذهب بذلك كله هو وزوجته إلى الشيخ سيدي أبي عمرو وقال له: يا سيدي قد سمعت عنك أنك قلت وقلت، وقد أتيت بها كلها، يعني جميع ما يملك، فقال له: وأنت قد ذهبت بها كلها، فامتلأ منه مددا ونورا، فلما رجع ذهبوا به يحملونه على أربعة أجمال، إذا أعيا هذا حملوه على هذا، فما أوصلوه إلا بعد جهد جهيد، من ثقل ما نزل به. اه
وأخذ عنه كثير من أكابر الأولياء، منهم الشيخ الشهير، العارف الكبير، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي الذي نحن بصدد تعريفه.

ومنهم والده الشيخ سيدي أبو بكر كما سبق في باب التعريف به، على أنه شاركه في الأخذ عن سيدي أبي عمرو المراكشي، بل قيل إن الشيخ سيدي أبا بكر هو الوارث عنه القطبانية، وكان الشيخ ابن مبارك كثير المرور إلى الشيخ سيدي أبي بكر، فكان لا يذهب إليه إلا عن إذن، ويحكى أنه كان يغلب عليه //144// الشوق إليه وفرط المحبة فيه، فكان لأجل ذلك يصعد على جبل هناك قرب الدلاء ويمد بصره لبلاد زعير، لكثرة ترددهم مع الشيخ سيدي محمد بن مبارك إلى الشيخ سيدي أبي عمرو وكثرة محبتهم فيه.
وكانت وفاة الشيخ سيدي محمد بن مبارك رضي الله عنه كما قال تلميذه أبو العباس أحمد بن أبي محلي سنة سبع بتقديم المهملة على الموحدة بعد الألْف، في الوباء الذي عم تلول المغرب واستطال فيها اه قال في المرآة: إنه توفي بتاستوت بالوباء في الثاني من شوال سنة ست وألف.
قال في الممتع وجزم بعض الطلبة من حفدته بأنه توفي عام ستة وهو الصحيح. انتهى. وزاويته بتاستوت مزارة عظمى، وله كرامات حيا وميتا كبرى.

ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي، ويعرف بابن حسون، وأصله من قبيلة سلاس، إحدى قبائل ورغة على مرحلتين من فاس، ثم استوطن مدينة سلا. أخذ العلوم الظاهرة عن جماعة من شيوخ الحضرة الفاسية كأبي مالك عبد الواحد بن أحمد الونشريسي، وأبي الحسن علي بن هارون، وعبد الوهاب الزقاق، وأبي العباس أحمد بن محمد الحبَّاك، وأبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم الدكالي، وغيرهم، حتى كان يقوم على مختصر خليل. قال أبو العباس أحمد ابن القاضي في ترجمته من درة الحجال: ذُكِر //145// إنه لا رواية له في الحديث، وما استجاز أحدا قط، انشدني:

لـولا الخلافــة لــم تـؤمن لنــا سـبل وكــــان اضــــعفُنا نَهبــــاً لأقوانـــــا

وله مكاشفات ودين متين، لا يخاف في الله لومة لائم.
ولد بعد العشرين وتسعمائة، وهو متعبد بثغر سلا المحروسة. وقال فيه: إنه الولي الصالح العالم العابد ذو المكاشفات الكثيرة، والمناقب الغزيرة.
وقال فيه صاحب الإصليت: إنه كان مشهورا بخدمة الجن والإنس والتصرف بخواص الأسماء، وهو ممن أخذ عن الشيخ الولي الكبير أبي محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي الصنهاجي، الشيخِ العالم العامل العارف، اجتمع أولا بالشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي في مرض موته وتبَرك به، ثم سَلَب الإرادة للشيخ الغزواني اهـ
قال في الدوحة: توفي سنة ثلاث وستين وقد نيف على الثمانين سنة، ودفن بإزاء زاويته بموضع يعرف بالمواهب قرب شفشاون نفع الله به، واستدركه من أشياخه صاحب المرآة حسبما نقله عنه الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي، ابن شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المذكور، ومن خطه نقلته. وقال الشيخ الإمام أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، نقلَه عن شيخه الإمام أبي عبد الله محمد المرابط، أن والده شيخ الإسلام أبا عبد الله محمد //146// ابن الشيخ العارف الكبير سيدي أبي بكر قال: قدمت على الولي الصالح سيدي عبد الله بن حسون دفين سلا، فقعدت إلى جنبه وقد مد رجليه، والأعراب يتساقطون عليه يقبلون يديه ورجليه، قال: فخطر ببالي أنه كيف أطلق هذا الرجل نفسه للناس هكذا؟ قال: فلم يتم الخاطر إلاّ وقد قال: أيها الناس، رجل قيل له من مس لحمك لم تمسه النار، أو لم تأكله النار، أو نحو هذا، أفيبخل بلحمه على المسلمين؟ قال: فلما سمعت كلامه وعلمت أنه على خاطري تكلم، تبت إلى الله تعالى في نفسي، فجعلت إذا مد إليه أحد كاغدا، وكان يكتب الحروز، تلقفته من يده وناولته الشيخ وقبلت يده، فإذا كتبته أخذته منه وقبلت يده، فيحصل لي في كل حرز تقبيلان، قال: ورأيت عنده أموراً أشكلت علي: منها أنه يؤتى بالثياب هدية وصدقة فيأمر بها فترمى في بيت وتبقى كذلك يأكلها السوس.
ومنها أنه كل يوم يصبح عليه أهل الآلات فيضربون عليه.اهـ انظر الجواب عنها في المحاضرات لمؤلفها إن شئت، ومناقبه شهيرة، ومآثره كثيرة، وسره حيا وميتا ظاهر، لكل باد وحاضر.
توفي رضي الله عنه بثغر سلا سنة ثلاث عشرة وألف، وضريحه عندهم محط رحال الخيرات، وملتمس رجاء البركات.

ومنهم //147// الشيخ أبو المحاسن يوسف بن محمد بن يوسف الفاسي ابن عبد الرحمن، قدم جد أبيه عبد الرحمن من مدينة مالقة الأندلسية على حضرة فاس، وبقي بها إلى أن توفي وترك ولده أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحمن، ثم انتقل يوسف من حضرة فاس إلى حضرة كتامة.
قال في الابتهاج: ولما صار يتردد من فاس إلى القصر في سبيل التجارة، صار يشتهر في القصر بالفاسي، وفي فاس بالقصري، ثم بهما كما هو موجود في رسومه في ذلك العهد، ثم استمر الحال على الاشتهار بالفاسي.
ونسب عبد الرحمن القادم من فاس من مالقة يتصل ببني الجد، وهو بيت عظيم في جلالة الدين والدنيا والعلم والثروة والحسب، لا يقاومهم في ذلك أحد بالقطر الأندلسي بإشبيلية ومالقة، وهو عبد الرحمن بن محمد، ويكنى أبا بكر، ويلقب بالحفيد ابن الفقيه أبي مروان عبد الملك ابن الفقيه أبي محمد عبد الله ابن الفقيه أبي زكرياء يحيى بن الفقيه أبي محمد عبد الله بن فرج بن أبي الجد.

قال الحافظ أبو العباس المقري في نفح الطيب، في نسب بني الجد المذكورين: إنما هو من محارب ابن فهر بن مالك، ثم في بني سلطان الأندلس ابن قطر الفهري، وهو عبد الملك بن قطن بن نهشل بن عمر بن عبد الله بن وهب بن سعد بن عمر بن حبيب بن عمر بن شيبان بن محارب بن فهر، فهم من قريش لأن فهر بن مالك هو جماعة قريش عند النسابين. وكانت ولادة الشيخ أبي المحاسن ليلة الخميس لتسع //148// عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة سبع، بموحدة، وثلاثين وتسعمائة، بمدينة القصر. ثم بعد أن قرأ القرآن، وحفظ من فنون العلم ما يتداول في تلك الأزمان، سافر مع أبيه لمدينة فاس لطلب العلوم الظاهرة، فأخذ بها عن جماعة من أئمتها وافرة، كالشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد اليستيتني، والشيخ أبي نصر عبد الوهاب الزقاق، والشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم الدكالي، ثم لم تطل إقامته بفاس وعاد إلى القصر، فأقام به مدة، وجدد الرحلة إلى فاس أيضا فتلافى الأخذ عمن بقي من أعيان الأشياخ، كالشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل خروف التونسي، والشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال، والشيخ أبي عبد الله محمد بن يحيى المستاري، والشيخ الزاهد أبي اليمن مبارك بن علي التازختي المصمودي السوسي وغيرهم، ثم رجع إلى القصر بعلم غزير، مصحوبا باليمن الكثير، فعقد مجالس لإقراء أنواع العلوم، تنافس الناس في حضورها على الخصوص والعموم، فنفع الله به خلقا كثيرا، وتخرج به كثير من أهل الطلب، أقام على ذلك بمدينة القصر أزيد من عشرين سنة، وكان قبل ذلك وبعده صحب الشيخ العارف أبا زيد عبد الرحمن المجدوب بن عبد القادر الدكالي الفرجي نفع الله به، وكان كثيرا ما ينوه بقدره، ويشير إلى ما يكون من أمره. وكانت صحبته له على طريق التحكيم وسلب الإرادة، وذلك مدة //149// طويلة من نحو عشرين سنة وهو يهذبه ويرقيه، حتى كان يقول في آخر أمره: سيدي يوسف الفاسي كنت أنا شيخه وهو اليوم شيخي.

ولما توفي الشيخ المجدوب بمكناسة الزيتون لم يكن سيدي يوسف حاضرا، بل كان في القصر، فترك له تراث ولايته عند الشيخ سيدي عبد الله بن حسين التمصلحتي الحسني، ثم لم يذهب إليه سيدي يوسف حتى توفي سيدي عبد الله بن حسين وأوصى له بذلك فبلغه، ولم تطل حياة سيدي عبد الله بن حسين بعد وفاة الشيخ المجدوب إلا نحو الستة أشهر.

أخذ الشيخ أبو المحاسن أيضا على جهة التبرك والاستفادة عن جماعة من أولياء عصره، وبقي بالقصر بعد وفاة شيخه المجدوب سنين، ثم حرك الله قلبه للانتقال لحضرة فاس، وطابت بنزوله فيها الأنفاس، فأقام فيها أسواقا من العلوم، وأخذ عنه جماعة من الأولياء العارفين بالله والدالين عليه.

وممن لقيه وأخذ عنه أخذ تبرك واستفادة، وبلغ من حسن إقباله عليه مراده، شيخ الإسلام وقدوة الأنام أبو عبد الله سيدي محمد بن الشيخ الشهير، العارف الكبير، سيدي أبي بكر الدلائي الذي نحن بصدد التعريف به، كما ذكره ولده العربي ابن الشيخ أبي المحاسن المذكور في كتابه مرآة المحاسن في أخبار والده أبي المحاسن، وكانت مدة إقامة صاحب الترجمة أبي المحاسن يوسف الفاسي بحضرة فاس منذ انتقل إليها //150// من مدينة القصر خمسا وعشرين سنة، إلى أن توفي في آخر الثلث الأول من ليلة الأحد الثاني عشر من ربيع الأول سنة عشرة وألف، ودفن في روضته الشهيرة به خارج باب الفتوح، أحد أبواب فاس المحروسة رحمه الله.

ومنهم الشيخ زين العابدين، وشيخ العارفين وإمام الواصلين، أبو المكارم محمد البكري الصديقي المصري رضي الله عنه، ومن بيت السادات البكريين الذين يتوارثون العلم والولاية أبا عن أب بمصر في كل حين، كبيت السادات آل باعلوي والعيدروسيين من الشرفاء الحُسينيين، بضم الحاء، باليمن، وبيت هؤلاء السادات الدلائيين البكريين بالمغرب، وقد رفع نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه تلميذه الشيخ أبو اسحاق إبراهيم بن عامر العبيدي المالكي في كتابه عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق، فقال: هو محمد زين العابدين بن محمد أبي المكارم زين العابدين بن محمد بن الحسن تاج العارفين بن محمد أبي البقاء جلال الدين بن محمد جمال الدين بن عبد الرحمن وجيه الدين بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عوض بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن يحيى بن الحسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب بن نجم بن بن عيسى بن شعبان بن عيسى [1] بن

1 - وفي كتاب "الأغصان لمشجرات أنساب عدنان وقحطان" الشهير بمشجر أبي علامة ص 392 ما يخالف قوله هنا "شعبان بن عيسى بن داوود" حيث كتب هناك "شعبان بن عوض بن داوود".

داوود بن محمد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. انتهى. ومثله عند الشيخ حسن بن علي العجيمي المكي //151// في فهرسته، ونقله عنهما العلامة النسابة أبو حامد العربي بن الطيب القادري الحسني في كناشة، قال: وذكر العبيدي له في كتابه المذكور كرامات وآيات، وأن له ديوانا أودعه أسرار الطريق، وله رسائل في التوحيد في الاسم الأعظم. اهـ
أخذ رضي الله عنه عن والده الشيخ أبي المكارم محمد المذكور، وسنده يتصل بالقطب أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه كما يأتي إن شاء الله.
ومن جملة من أخذ عنه، شيخ الإسلام، العارف الهمام، أبو عبد الله محمد بن الشيخ العارف الكبير أبي بكر الدلائي المُعرَّف به في هذا الفصل رضي الله عنه، فإنه لما حج سنة خمس وألف لقيه بمصر، ولازمه مدة إقامته بها واستفاد منه كما سبق عن المرآة. ترجم له شيخنا أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في تاريخه الكبير والصغير، غير أنه جعله فيهما ممن توفي عام تسعين بمئتاه وألف، وذلك بعيد جدا من تاريخ لقي الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر المذكور له بنحو خمس وثلاثين سنة، إذ ما أخذ عنه حين لقيه إلا وهو متأهل للمشيخة والأخذ عنه، فيكون قد عمر بما يزيد على المائة بنحو عشرين سنة، ولو كان عمره هذا العمر لوقع التنصيص على تعميره من تلميذه العبيدي المذكور، ولكني لم أقف من تآليفه إلا على ما نقلته أعلاه، والله //152// أعلم. اهـ

ومنهم الشيخ أبو مهدي عيسى بن علي البوكيلي، دفين تادلا، لقيه صاحب الترجمة وانتفع به، وهو عن الشيخ أبي محمد عبد الله الهبطي، نسبة إلى الهَبَط، بفتح الهاء، وهو القطر المعروف ومنه طنجة، وأصله من صنهاجة، وكان سلفه بطنجة إلى أن أخذها النصارى من أيدي المسلمين سنة إحدى وأربعين وثمانمائة فخرجوا منها، وهو من أكابر أهل العرفان، والعلم ورفعة القدر الواضحة البرهان، وهو، أي الهبطي، عن الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني المتوفى سنة خمس وثلاثين وتسعمائة، عن الشيخ أبي محمد عبد العزيز بن عبد الحق الحرار التباع، رحم الله الجميع بمنه وكرمه.
قال في المرآة: وكان سيدي عبد الله الغزواني من أكابر المحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: حدثنا الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنه أنه بلغه أن الشيخ أبا محمد عبد الله الغزواني كان يقول للفقراء: إذا قيل لكم من زاهدكم فقولوا سيدي عبد الكريم الفلاح، وإذا قيل لكم من عابدكم فقولوا سيدي علي بن إبراهيم، وإذا قيل لكم من مجذوبكم فقولوا سيدي محمد بن داوود، وإذا قيل لكم ما مائدتكم فقولوا سيدي رحال الكوش، وإذا قيل لكم من عالمكم فقولوا سيدي سعيد بن عبد المنعم، وإذا قيل لكم من سلطانكم فقولوا سيدي عبد الله الغزواني، //153// فهؤلاء السادات كلهم أصحاب الشيخ سيدي عبد العزيز التباع رضي الله عنهم أجمعين.

وأما الشيخ الذي أخذ عنه شيخ الإسلام وعلم الأعلام أبو عبد الله سيدي محمد بن الشيخ العارف بالله سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنهما على سبيل التحكيم وسلب الإرادة، حتى بلغ في مجال الخصوصية العظمى مراده، فإنما هو أبو عبيد مَحمد بالفتح المدعو الشرقي ابن الشيخ أبي القاسم بن الزعري الجابري ثم الرتمي.

قال في المرآة: أخذ الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه الطريقة على سبيل الإرادة والانتساب عن الشيخ الشهير البركة، البعيد الصيت، الكثير الأتباع، أبي عبد الله مَحمد الشرقي ابن الشيخ أبي القاسم المعروف بالزعري الجابري الرتمي، وأهله ينتمون إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وزاد في نزهة الحادي قائلا: بعد أن تطوَّف على صلحاء المغرب غاضا بصره وطرفه عن سيدي محمد بن القاسم المذكور، فلم يقع اختياره على أحد غيره، فتتلمذ له واتخذه شيخا، إلى أن حصل له من الحظوة الوَجاهة والعناية فوق ما كان لسائر من عاصره.
قال الشيخ المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي البكري الدلائي رضي الله عنه في بعض مقيداته ما نصه ومن خطه نقلته: والده سيدي محمد الشرقي هو الشيخ أبو القاسم بن //154// الزعري الجابري، نسبة إلى

بني جابر، حمية تادلا، وهم كما عند ابن خلدون من جشم، ثم الورديغي ثم الرتمي ثم السميري، فالزعري اسم لوالد أبي القاسم وعَلَمٌ عليه كما هو معلوم عند أهله.
وقوله في المرآة في أبي القاسم "المعروف بالزعري" يقتضي أنه لقب له لا اسم لأبيه، وليس كذلك اهـ وما وقع في المرآة مثله في الممتع.
كان الشيخ أبو القاسم رضي الله عنه ظاهر الخصوصية، ذا زهد تام وانزواء عن الدنيا، وهو من أصحاب الشيخ أبي محمد عبد العزيز التباع وارث الشيخ الجزولي، وكان مؤاخيا للشيخ أبي عثمان سيدي سعيد المسناوي نزيل الصومعة من بلاد تادلا ودفينها، أحد أصحاب الشيخ التباع، ومتعاهدا زيارته، وكانت السيدة رحمة والدة سيدي محمد الشرقي تذهب مع زوجها الشيخ أبي القاسم لزيارة الشيخ أبي عثمان، فأخذت عنه وتَلْمَذَتْ له، وكانت من القانتين. وكان الشيخ أبو عثمان فاضلا زاهدا ذا شوكة وعناية، وكان أتباعه غايه في اتباع السنة، كما أن التباع سيدي محمد بن عيسى الفهري دفين مكناسة الزيتون غاية في المحبة والأدب، فكان يقول: المحبة عيساوية والسنة حسناوية.

أخذ صاحب الترجمة رضي الله عنه أخذ إرادة وانتساب عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن ساسي البوسبعي، وأخذ أيضا أخذ تبرك واستفادة عن والده //155// الشيخ أبي القاسم الزعري، والشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر المختاري رضي الله عنه، وقال صاحب المرآة في حقه: هو من كبار المشايخ، شهير البركة بعيد الصيت كثير الانتفاع، نفع الله به خلقا كثيرا، وتخرج به كثير ممن بانت خصوصيته وظهرت بركته.
وقال صاحب الممتع: إنه كان صاحب فيض وقوة في حال، فكان لا يعتبر أحدا لسُكْرِه ([1])، لأنه إذا وَجد من هو أعلى منه أنصف له واعترف. ويقال إنه بلغ درجة القطبانية، كيف وقد شهد له شيخ الإسلام العارف الكبير، أبو عبد الله محمد بن الشيخ العارف الشهير سيدي أبي بكر الدلائي، الذي عقدنا هذا الفصل للتعريف به.
قال أبو عبد الله الصغير الإفراني في كتابه الصفوة: إنه وقع بينه وبين ولده سيدي الغزواني يوما كلام وعتاب، إلى أن قال له الولد: أأنت ترزقني؟ فقال له الشيخ نعم أنا أرزقك، فأعظم الناس هذا الكلام، فقال لهم الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي: لا شيء في هذا، فإن الشيخ هو القطب في الوقت، والقطب تجري الأرزاق على يده، فصح بهذه الإضافة أن يكون رازقا. اهـ وأصله في المحاضرات اليوسية نقلا عن شيخه أبي عبد الله المرابط بن الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر المذكور، وناهيك به، إذ هو أعرف من أي بحر اغترف، (قد علم كله أناس مشربهم)، وأهل البصائر لا يجهلون مذهبهم.

وقال صاحب الممتع في آخر //156// ترجمته، وبالجملة فهو، يعني الشيخ سيدي محمد الشرقي، من أقوياء مشايخ وقته وفحول عصره، ومشاهرهم الذين نفع الله بهم العباد، وانتشر ذكرهم وصيتهم في سائر البلاد، وفضله لا يُنكر، وعلو شأنه ومجده من النيرين أجلى وأظهر، ومفاخره أشهر من أن تنكر، ومناقبه ومآثره لا تعد ولا تحصر.
وممن أخذ عنه وحكمه في نفسه وسَلَب الإرادة إليه، ولا يعول في الانتساب إلا عليه، شيخ الإسلام العارف الهمام، أبو عبد الله محمد ابن الشيخ العارف الكبير سيدي أبي بكر الدلائي المذكور، فنفعه الله النفع المشهور، الذي اتفق عليه الخاصة والجمهور، وصحبه الزمن الطويل. وتردد إليه وحده ومع أبيه الشيخ أبي بكر الجليل، قال له الشيخ يوما: ما تريد أيها المريد؟ فقال له أريد بسطة كف استعين بها على قضاء حقوق للعُلا قِبَلِي، فأعجَب الشيخَ كلامُه وقال له: رفع الله قدرك، وأعلى ذكرك، وأعطاك خير الدنيا والآخرة. وقد سبق أنه أخذ عنه أيضا كابنه، واغترف كل واحد منهما من بحر يمنه، غير أن أخذ الوالد سيدي أبي بكر رضي الله عنه إنما كان على جهة التبرك والاستفادة فقط، لا على سبيل التحكيم وسلب الإرادة كأخذ ولده عنه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.
وكانت وفاة الشيخ صاحب الترجمة رضي الله عنه ليلة أول يوم من //157// محرم سنة عشر وألف، عن سن عالية، ودفن في جعيدان من بلاد تادلا، وزاويته هنالك من أعظم الزوايا في المغرب، نفع الله به.

---

1 – كذا في المخطوط، وقوله "لأنه إذا وجد" لعل صوابها "إلاّ أنه إذا وجد". والله أعلم.

لا شك أن أسانيد هذا الشيخ رضي الله عنه في العلوم الظاهرة، كم من فهارس بطرتها العالية والسافلة عامرة، غير أنه لا يمكن إلى استيفائها الوصول، إلا بعد الخروج عن المقصود بكثرة الطول. نعم لابد من ذكر الاتصال في أكثر العلوم، التي رواها عن أشياخه على الخصوص والعموم، مقدما سند حديث الرحمة المسلسل بالأولية، فإنه يرويه عن شيخه الإمام النظار، أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار، عن أبي الفضل خروف التونسي، عن أبي زيد عبد الرحمن سقين، عن إبراهيم بن علي بن أحمد القلقشندي، عن أحمد بن محمد بن أبي بكر المقدسي عن محمد بن محمد بن إبراهيم الميدومي، عن عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني، عن الحافظ أبي الفرج بن الجوزي، عن أسماعيل بن أبي صالح النيسابوري، عن أبي طاهر الزيادي، عن أحمد بن محمد الجزار، عن عبد الرحمن بن بشر النيسابوري، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله //158// الله صلى الله عليه وسلم قال: (الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). قال الشيخ الرحال المعمر، السيد الأستاذ الصالح، أبو إسحاق إبراهيم بن علي السباعي الدرعي في فهرسته التي جمعها والده رحمه الله، وبناها على إجازته له، ما نصه: هذا حديث حسن عال أخرجه البخاري في الكنى والأدب المفرد وغيره. ومعنى البداية بحديث الرحمة أن يعلم طالب العلم أن رحمه الله تعالى للرحماء من خلقه، فينصح للخاص والعام، المبتلى والمعافى، ويشفق على القريب والبعيد، وعلى نفسه خاصة، وذلك من أصول الدين، كما قال عليه السلام: (الدين النصيحة)، وإذا استقام للعبد هذا الأصل في الدين استقام له سائره. اهـ

وأما تفسير القرآن العظيم، فروى تفاسير الوحيدي الثلاثة عن الشيخ أبي عبد الله القصار، عن ولي الله أبي النعيم رضوان، عن عبد الله الجنوي، عن ولي الله أبي زيد عبد الرحمن بن علي سُقَّين، بضم السين وتشديد القاف المفتوحة، السفياني العاصمي القصري ثم الفاسي، عن شيخ الإسلام قاضي القضاة بالديار المصرية زكرياء الأنصاري الشافعي، عن الشيخ الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي، عن أبي علي الواصلي، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي الحسن بن المغير عن أبي الفضل أحمد بن طاهر، عن أبي الحسن علي بن أحمد //159// ابن محمد بن علي الواحدي المتوفى بنيسابور سنة ثمان وستين وأربعمائة.
ورواه أيضا عن شيخه أبي علي الحسن الدراوي، وأبي العباس أحمد بن القاضي، كلاهما عن الشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن المنجور، عن ولي الله أبي زيد عبد الرحمن سقين بسنده السابق.
وروى تفسير الكواشي من طريق الشهاب ابن حجر، عن أبي الفرج بن العربي، عن موسى بن علي العطى ([1]) عن مؤلفه.
ويرويه ابن حجر أيضا عن أبي هريرة [ابن] الذهبي، عن الصدر إبراهيم بن محمد، عن المؤيد، عن مؤلفه موفق الدين أحمد بن محمد بن يوسف الكواشي، نزيل مصر المتوفى سنة ثمانين وستمائة.
وروى تفسير البيضاوي عن طريق ابن حجر، عن أبي هريرة ابن الحافظ الذهبي، عن عمر بن إلياس المراغي ([2])، عن ناصر الدين البيضاوي المتوفى سنة إحدى وتسعين وستمائة.
وروى تفسير الفخر الرازي عن طريق القاضي زكرياء الأنصاري، عن التقي بن فهد، عن مجد الدين الفيروزآبادي، عن سراج الدين القزويني، عن أبي بكر الهروي، عن الفخر محمد بن عمر الرازي الصديقي المتوفى سنة ست وستمائة.
وروى تفسير أبي اسحاق الثعالبي عن طريق القاضي زكرياء الأنصاري أيضا، عن عبد الرحيم بن الفرات، عن أحمد بن محمد الجوخي، عن فخر الدين النجاري بنون ثم جيم، عن منصور بن عبد المنعم، عن محمد العباسي

---

1 - كذا كتبت، ولم نتمكن من ضبطها.
2 - في المخطوط "الراغي" وقد صححناها من ثبت الإمام ابن حجر الهيتمي ص 393 وكذا "قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر" للفلاني ص142

بن محمد الطوسي المعروف بعَبَّاسَة، عن أبي سعيد محمد بن//160// سعيد، عن أبي إسحاق محمد بن أحمد النيسابوري الثعلبي ويقال الثعالبي المتوفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وقيل سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.
وروى تفسير الزمخشري من طريق الفخر النجاري في السند قبله عن زينب بنت عبد الرحمن السعدي، عن مؤلفه محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.
وروى تفسير الطبري عن شيخه أبي عبد الله القصار، عن الأستاذ أبي العباس أحمد التسولي، عن ابن مجاهد، عن أبي الحسن أحمد بن السراج، عن خاله أبي بكر محمد بن خير، عن أبي علي الحسين بن محمد الغساني، عن ابن حدَّاء ([1]) عن محمد بن عبد الرحمن عن أبي زيد المصري، عن أبي محمد الفرغاني، عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة عشر وثلاثمائة.
وروى تفسير بن عطية عن شيخه أبي عبد الله القصار، عن أبي عبد الله محمد اليَسْتيتْني، عن أبي العباس أحمد بن علي الزقاق، عن أبيه أبي الحسن علي، عن أبي عبد الله محمد بن يوسف المواق العبدري الغرناطي، عن ابن عبد الله المِنْتَوْرِي ([2])، عن أبي سعيد فرج بن لب ([3])، عن أبي الأحوص، عن ابن عبد الرزاق، عن ابن حكيم، عن القاضي عبد الحق بن غالب بن عطية المتوفى سنة اثنين وأربعين وخمسمائة.
وروى تفسير أبي حيان من طريق الحافظ ابن حجر أيضا، عن التنوخي، عن أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان النفزي الغرناطي، نزيل مصر المتوفى

//161//

(... الصفحة 161 من المخطوط غير متوفرة ...)

//162//

زكرياء الأنصاري أيضا، عن الحافظ أحمد بن محمد العسقلاني صاحب فتح الباري على البخاري، عن أبي الحسن بن أبي المجد الدمشقي، وعن أبي إسحاق التنوخي، كلاهما عن أبي العباس بن أبي طالب النجار عرف بابن الشحنة، عن شيخ الإسلام الكشي وأبي عبد الله الحسين بن أبي بكر الزبيدي، كلاهما عن أبي الوقت عبد الأول الشجري، عن أبي ذر الهروي وأبي الحسن الداودي، وكلاهما عن أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه الحموي السرخسي، وأبي إسحاق البلخي المستملي، وأبي الحسن محمد بن زُرَاع كغُراب المروزي الكُشميهي بضم الكاف، كلهم عن الفرندي، عن أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ست وخمسين ومائتين.
ورواه أيضا من طريق آخر عن شيخه أبي عبد الله القصار، عن أبي العباس التسولي، عن أبي العباس الدقوي، عن أبي عبد الله المواق، عن أبي عبد الله المنتيوي، عن أبي عبد الله بن جزي، عن أبيه أبي القاسم بن جزي، عن ابن الزبير، عن أحمد بن واجب، عن أبي عبد الله بن سعادة، عن عمه أبي عمران موسى بن سعادة، عن الامام ابي علي الصدفي، عن أبي الوليد الباجي، عن أبي ذر الهروي بسنده المتقدم.
وكان شيخ الإسلام أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي يقول: رواية ابن سعادة هذه هي أفضل من الروايات التي عند ابن حجر العسقلاني، وأن ابن حجر لم يعثر عليها، وهي المعتمدة عندنا بالمغرب //163// وهي سلسلة بالمالكية.
وروى صحيح مسلم عن شيخه القصار أيضا من طريق القاضي زكرياء الأنصاري، عن الزركشي، عن محمد بن عبد الله البياني، عن ابن عساكر، عن المؤيد الطوسي، عن الفراوي، عن عبد الغافر الفارسي، عن الجلودي، عن الشيخ الصالح إبراهيم بن سفيان، عن مسلم بن الحجاج.

---

1 – كذا تبدو بالدال المهملة مع الشدة، ولم نتمكن من ضبطها.
2 – في المخطوط "المثوري" وهو تصحيف. وقد ولد المِنْتَوْرِي سنة 761هـ وتوفي سنة 834هـ وأخذ عنه المواق التوفى سنة 897 هـ رحم الله الجميع.
3 – كتب في المخطوط (عن أبي الفرج سعيد مَيلُود بن لب) هكذا، والمقصود أبو سعيد فرج بن لب المتوفى سنة 782هـ، ويتضح ذلك مما سيأتي في ص168 من المخطوط.
21:26

ومن طريق زكرياء أيضا عن الزين العراقي، عن العلاء، عن سليمان بن حمزة المقدسي، عن علي بن الحسين بن المغير، عن ابن ناصر، عن ابن مندة، عن الجورقي، عن مكي، عن مسلم.
ورواه بسند أعلى من ذلك من طريق عبد الرحيم بن الفرات السابق، عن محمد بن خليفة المنيحي، عن الشرف الدمياطي، عن المؤيد الطوسي بسنده السابق، وكذا رواه محمد بن خليفة المنيحي، عن فخر الدين بن البخاري، عن الفراوي بسنده السابق، وهذا أعلى بدرجة إلى مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة إحدى وستين ومائتين.
وروى سنن أبي داود عن شيخه أبي عبد الله القصار من طريق أبي علي الحسين بن محمد الغساني، عن القاضي أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، عن أبي عبد الله محمد بن الزيات، عن أبي بكر محمد بن أبي بكر التمار المعروف بابن داسة، عن أبي داوود.
ومن طريق القاضي زكرياء، عن ابن الفرات، عن أحمد بن محمد الجوخي، عن فخر الدين البخاري، عن ابن طبرزد، عن أبي إسحاق الكُرُّوخي بضم الكاف وتشديد الراء عن أبي بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي، عن القاسم بن عبد //164// الواحد الهاشمي، عن أبي علي محمد بن أحمد اللؤلؤي، عن أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين.
وروى جامع الترمذي وكذا شمائله عن شيخيه أبي عبد الله القصار أيضا من طريق بن طبرزد، عن أبي الفتح عبد الملك الكروخي، عن عبد الله بن طرخان، عن أبي عيسى الكروخي، عن المحبوك، عن أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة تسع وسبعين ومائتين.
وروى سنن النسائي عن شيخه أبي عبد الله القصار أيضا من طريق أبي علي الغساني، عن أبي عبد الله بن عتاب، عن أبيه، عن أبي عبد الله بن ربيع التميمي عن أبي بكر محمد بن معاوية بن الأحمر، عن أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي المتوفى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة.
وروى سنن ابن ماجة عن شيخه أبي عبد الله القصار، عن أبي الفضل خروف التونسي، عن الطويل القادري، عن الحافظ بن حجر، عن أبي المجد، عن الحجار، عن أبي السعادات، عن ابن أبي زرعة المقدسي، عن أبي منصور المقدسي القزويني، عن أبي طلحة القاسم، عن أبي المنذر، عن أبي الحسن بن إبراهيم القطان المخزومي مولاهم، عن الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني المتوفى سنة ثلاث وستين ومائتين.
وروى سنن الدارمي عن أبي عبد الله القصار أيضا من طريق الحافظ ابن حجر العسقلاني، عن التنوخي، عن الحجار، //165// عن عبد الله بن عمر الليثي، عن أبي الوقت عبد الأول، عن الداودي، عن السرخسي، عن السمرقندي، عن مؤلفه الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين قبل الإمام البخاري بسنة. ونقل ابن حجر والسخاوي عن الصلاح العلائي أنه قال: لو جُعل مسند الدارمي هو سادس الكتب لكان أولى من ابن ماجة.
وروى مسند الإمام أحمد عن أبي عبد الله القصار أيضا من طريق أبي علي الغساني، عن أبي عمرو بن عبد البر، عن أبي محمد عبد الله بن محمد عبد المومن ([1])، عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي، عن عبد الله بن أحمد، عن أبيه الإمام أحمد من حنبل المتوفى سنة إحدى وأربعين ومائتين.
وروى الشفاء للقاضي عياض عن أبي عبد الله القصار أيضا من طريق الإسلام زكرياء، عن الغاياتي، عن عمر بن علي الأنصاري، عن يوسف بن محمد الدلاصي، عن أبي الصائغ، عن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المتوفى بمراكش سنة أربع وأربعين وخمسمائة.
وروى الأربعين حديثا للنووي عن أبي عبد الله القصار أيضا من طريق الشهاب ابن حجر، عن أبي بكر بن أبي عمر بن أبي عبد الله بن جماعة، عن جده، عن أبي زكرياء يحيى بن شرف الدين النووي المتوفى سنة ست وسبعين وستمائة.
وروى ألفية الاصطلاح للعراقي عن أشياخه الثلاثة من طريق الشهاب بن حجر //166// عن ناظمها زين الدين العراقي.

---

1 – كذا ولعلها "محمد بن عبد المؤمن".

وروى عمدة الأحكام لعبد الغني المقدسي عن أشياخه الثلاثة بسندهم إلى زكرياء الأنصاري، عن رضوان العقبي، عن أبي طاهر الربعي، عن أبي محمد القاسم بن أبي محمد البرزالي، عن أبي العباس أحمد بن عبد الدايم، عن مؤلفها الحافظ عبد الغني بن سورة المقدسي.

وأما علم السيرة النبوية فروى الاكتفاء للكلاعي عن أشياخه الثلاثة من طريق أبي زيد سقين، عن الإمام أبي عبد الله محمد بن غازي العثماني، عن أبي العلاء محمد بن القاسم بن أبي زكرياء يحيى السراج، عن أبيه عن جده عن الرواية يوسف بن يحيى التسولي، عن ابن جابر الوادي آشي، عن ابن الغماز، عن الحافظ أبي الربيع سليمان الكلاعي.

وروى سيرة اليعمري المسماة بعيون الأثر من طريق الحافظ بن حجر عن أبي الحسن الفرسيسي، عن مؤلفها أبي الفتح محمد بن محمد بن محمد المدعو بسيد الناس اليعمري الأندلسي ثم المصري.

وروى ألفية العراقي في السير من طريق ابن حجر أيضا عن ناظمها.

وأما الفهارس فروى منها بالإجازة العامة عن شيخه أبي عبد الله القصار كما سبق في ترجمته جملة.

منها فهرسة أبي عبد الله القيسي المِنْتَوْرِي من طريق أبي عبد الله المواق عنه.

وفهرسة أبي جعفر بن الزبير من طريق المِنْتَوْرِي عن ابن جزء عن أبيه أبي قاسم بن جزء، عنه.

وفهرسة أبي عبد الله بن غازي من //167// طريق أبي زيد سقين عنه.

وفهرسة أبي زكرياء يحيى السراج من طريق ابن غازي عن أبي العلاء محمد بن القاسم بن أبي زكرياء يحيى السراج، عن أبيه عن جده يحيى السراج. وفهرسة القاضي زكرياء من طريق أبي زيد سقين عنه. وفهرسة الحافظ ابن حجر من طريق زكرياء عنه. وفهرسة الزين العراقي من طريق ابن حجر عنه.

وأما علم الفقه فرواه على العموم عن أشياخه الثلاثة، فأخذه القصار عن أبي زيد سقين، وأبي الحسن علي بن هارون المطغري، وأبي عبد الله اليستيتني وأبي عبد الملك عبد الواحد الونشريسي، وأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم الدكالي، وكلهم عن الشيخ أبي عبد الله بن غازي، وأخذه الدراوي وابن القاضي عن أبي العباس أحمد المنجور، عن هؤلاء الخمسة الذين أخذ عنهم القصار، عن الشيخ ابن غازي، وأخذه ابن القاضي أيضا عن الشيخ يحيى بن محمد السراج، عن ابن غازي أيضا، عن أبي عبد الله القوري، عن أبي موسى الجاناتي، عن أبي عمران العبدوسي، عن عبد العزيز القَرَوِي، عن أبي الوليد راشد الوليدي. عن أبي محمد صالح، عن أبي موسى المومناني، عن أبي محمد بن عتاب، عن أبيه، عن أبي عبد الله بن عائد، بن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، عن أبي بكر بن اللباد، عن يحيى بن عمر، عن سحنون، عن ابن القاسم، عن الإمام مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى المدونة المختلطة بهذا السند إلى جامعها الأمام سحنون.

وأخذ //168// تهذيب البراذعي، وهو الذي يطلق عليه اسم [اختصار] ([1]) المدونة، من طريق أبي عبد الله اليستيتني، عن أبي العباس أحمد بن علي الزقاق، عن أبيه، عن أبي عبد الله المواق، عن أبي عبد الله المنتوري ([2])، عن أبي سعيد بن لب، عن أبي الأحوص، عن الغافقي، عن ابن الفرس، عن أبي الحسن الطليطلي ([3])، عن أبي بكر ابن جماهر، عن عتيق، عن أبي سعيد خلف ابن أبي القاسم الأزدي البراذعي.

وأخذ رسالة ابن أبي زيد القيرواني ونوادره من طريق أبي عبد الله بن عائد المذكور في السند الأول، وأبي سعيد خلف البراذعي المذكور في السند الثاني، كلاهما عن الشيخ ابن أبي زيد القيرواني.

وأخذ مختصر خليل وتوضيحه عن أشياخه الثلاثة بسندهم السابق إلى أبي عبد الله اليستيتني، عن ناصر الدين اللقاني، عن أبي الحسن علي السنهوري، عن الشيخ عبادة الزياني بالزاي أولا بعدها ياء مثناة تحتية فَنون، عن

---

1 – سقطت كلمة "اختصار" من المخطوط، وقد اضفناها لأن تهذيب البرادعي إنما يعرف باسم "التهذيب في اختصار المدونة".

2 – في المخطوط "الميتوري" وهو تصحيف. وسبق الكلام عنه في ص160 من المخطوط.

3 – في المخطوط "الطليلي".

جمال الدين بن عبد الله الأقفهسي، عن تاج الدين إبي البقاء بهرام، عن الشيخ خليل بن إسحاق. وبسندهم إلى أبي عبد الله محمد بن غازي، عن أبي عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن السخاوي المصري الشافعي، عن بعض من حضر مجلس خليل بن إسحاق. وأخذه أيضا وتفرد به الشيخ القصار بأخذه أيضا عن بدر الدين القرافي، عن والده وأبي زيد عبد الرحمن الأجهوري، عن شمس الدين بن محمد اللقاني، عن أبي الحسن علي السنهوري، عن الشيخ عبادة الزياني، عن عبد الله الأقفهسي، عن أبي البقاء بهرام، عن //169// الشيخ خليل بن إسحاق، وانفرد ابن القاضي بأخذه عن الشيخ أحمد الرملي، عن زكرياء الأنصاري، عن أبي النعيم رضوان العقبي ، عن البدر البوصيري خاتمة أصحاب خليل رضي الله عنه.

وأما علم النحو فسنده فيه على العموم عن شيخه أبي علي الدراوي وأبي العباس ابن القاضي، عن إمام النحاة أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن مجبر المساري، عن أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الونشريسي، عن أبي عبد الله محمد بن غازي، عن فخر الدين محمد بن عثمان الديمي، عن هاجر بنت محمد المقدسي، عن أبي إسحاق التنوخي، عن أبي العباس أحمد بن غانم الجعدي، عن أبي عبد الله محمد بن مالك الطائي الجياني، عن ابن عمرون الحلبي وابن يعيش وابن الحاجب. وعن أبي علي الشلوبين، عن ابن هشام الخضروي، عن الرندي، عن السهيلي عن أحمد بن محمد بن طاهر الأنصاري، عن عبد الرحمن بن محمد المدعو بابن الرمَّاك، عن ابن الطراوة، عن الأعلم يوسف الشنتمري، عن إبراهيم الامليلي، عن أبي بكر الزبيدي، عن إسماعيل بن عبدون، عن أبي علي القادري، عن الزجاج، عن المبرد، عن أبي حاتم السجستاني ([1])، عن الأخفش الوسط سعيد بن مسعدة، عن أبي عمرو بن العلاء، عن يحيى بن يعمر ([2]) العدواني، عن أبي الأسود الدؤلي، عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأخذ مقدمة ابن آجروم عن شيخه الدراوي وابن القاضي وغيرهما من طريق محمد بن يوسف المواق، عن الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المنتوري ([3])، عن الخطيب أبي //170// جعفر بن أبي سالم الجذامي، عن القاضي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي، عن أبي عبد الله محمد بن آجروم.

وأخذ تآليف ابن مالك: الألفية والكافية والتسهيل واللامية عنهما أيضا، بسندهما أيضا إلى الشيخ زكرياء الأنصاري، عن العلم البلغيثي، عن أبي إسحاق التنوخي، عن الشهاب محمد بن سليمان، عن مؤلفهما محمد بن مالك الطائي الجياني، وبسندهما أيضا إلى أثير الدين أبي حيان السابق في سند التفسير، عن بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن النحاس، عن مؤلفهما جمال الدين محمد بن مالك.

وأخذ توضيح ابن هشام ومغنيه عنهما أيضا، بسندهما إلى الشيخ زكرياء، عن الشهاب ابن حجر، عن محب الدين محمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام، عن أبيه جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام.

وأخذ كافية ابن الحاجب وشافيته عنهما أيضا، بسندهما إلى الشيخ زكرياء أيضا، عن أبي الفتح المراغي، عن أبي طلحة الجراوي، عن الشرف الدمياطي، عن أبي عمرو عثمان بن الحاجب.

وأخذ كتاب سيبويه عنهما أيضا من طريق آخر بسندهما إلى الشهاب بن حجر، عن أبي الفرج بن العربي، عن يونس العسقلاني، عن محمد بن الفضل المرسي، عن زيد بن الحسن الكندي، عن عبد الله الخياط، عن المبارك الدَّباس، عن عبد الواحد بن برهان، عن أبي القاسم الدَّقيقي ([4])، عن أبي الحسن الرماني، عن أبي سعيد الصيرفي، عن أبي بكر بن السراج، عن أبي العباس المبرد، عن أبي عمرو الجرمي وأبي عثمان //171// المازني، عن أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، عن الإمام سيبويه بن عمرو بن عثمان بن بشر البصري.

---

1 – في المخطوط "السجتاني".
2 – في المخطوط "عمر" وهو خطأ أو سبق قلم.
3 – في المخطوط "الميتوري" وقد عوضناها بالمنتوري الذي عاصر محمد بن يوسف المواق.
4 – وردت مصحفة في المخطوط بلفظ "الدفيقي". وهو عليّ بن عبيد الله بن الدقاق، أبو القاسم الدقيقي. ولد سنة (345 هـ) من مشايخه: الفارسي، والسيرافي، والرماني وغيرهم. وكان مباركا في التعليم تخرج عليه خلق كثير لحسن خلقه وسجاحة سيرته، توفي سنة (415 هـ) ومن مصنفاته: "شرح الجرمي"، وكتاب "العروض".
انظر كتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي ج4 ص1816

ومن طريق الفخر البخاري عن أبي حفص بن طبرزد، عن أبي بكر الأنصاري، عن أبي محمد الجوهري، عن أبي علي الفارسي، عن أبي سعيد محمد بن عبد الله السراج، عن أبي العباس المبرد قال: قرأته على أبي عمر صالح بن إسحاق الجرمي وعلى أبي عثمان بكر بن محمد المازني ملفقا، قالا: أخبرنا أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش عن سيبويه.

وأما علم اللغة وما يتعلق به فأخذه عنهما أيضا بهذا السند والذي قبله كاملُ أبي الحسن المبرد، كما أخذ عنهما بالسند الأول من طرق ابن مجير المساري بسنده إلى المبرد به أيضا كتاب الأمالي لأبي على القالي، وبه أيضا كتاب مختصر العين لأبي بكر الزبيدي، وأخذ عنهما كتاب القاموس للمجد الفيروزآبادي بسندهما من طريق الشيخ زكرياء، عن الشهاب بن حجر، عن مؤلفه.

وأما علم العروض والقوافي فأخذ الخزرجية عنهما، عن أبي العباس المنجور، عن أبي عبد الله اليستيتني، عن أبي زكرياء يحيى السوسي، عن أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، عن أبي الحسن القلصادي، عن أبي العباس أحمد بن زاغُوا ([1])، عن شمس الدين محمد بن محمد بن القماح الخزرجي، عن بدر [الدين] محمد بن أبي بكر الدماميني المخزومي، عن عبد الوهاب بن محمد القَروي، عن ناظمهما عبد الله الخزرجي.
وأخذ لامية ابن الحاجب //172// عنهما أيضا بسندهما إلى الشيخ زكرياء، عن أبي الفتح المراغي، عن أبي طلحة الجراوي، عن الشرف الدمياطي، عن أبي عمر بن الحاجب.

وأما علم البيان فأخذ تلخيص المفتاح للقزويني وكذا الإيضاح له أيضا عنهما أيضا بسندهما إلى الشيخ زكرياء، عن رضوان العقبي، عن أبي إسحاق التنوخي، عن مؤلفهما جلال الدين بن أبي القاسم عبد الرحمن العجلي القزويني الشافعي. ومن طريق ابن غازي أيضا عن الحافظ ابن مرزوق، عن أبيه، عن جد أبيه الخطيب، عن جلال الدين القزويني.

وأما علم الأصول، فأخذ مختصر ابن الحاجب عنهما أيضا بالسند المتقدم إلى ابن الحاجب.
وأخذ جمع الجوامع لابن السبكي عنهما أيضا إلى الشيخ زكرياء، عن ابن حجر، عن الزين العراقي، عن قاضي القضاة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب، عن تقي الدين علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي.
وأما علم العقائد فأخذه على العموم إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري، عن أشياخه الثلاثة من طريق الفخر الرازي، عن والده ضياء الدين، عن سليمان بن طاهر الأنصاري، عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني، عن الأستاذ أبي القاسم الإسفراييني المعروف بالإسكاف، عن الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، عن أبي الحسن الباهلي، عن أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة، واسمه عامر بن //173// الصحابي المشهور أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
وأخذ تصانيف السنوسي في علم الكلام عنهما أيضا، عن أبي العباس المنجور، عن أبي عبد الله اليستيتني، عن أبي زكرياء يحيى السنوسي، عن مؤلفهما أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. وبهذا السند أخذ نظم ابن زكري محصل المقاصد الذي شرحه شيخهما أبو العباس المنجور، وانفرد أبو عبد الله الدراوي بأخذه عن أبي محمد عبد القادر بن خدة الراشدي، عن أبي عبد الله السنوسي.

---

1 – هو أبو العباس أحمد بن محمَّد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني الشهير بابن زاغو العالم العابد الفرضي المحقِّق، ولد سنة 782 هـ، كان من كبار علماء تلمسان من عائلة مشتهرة بالعلم، وتربَّع على كرسي التفسير في زمانه وشُدَّت إليه الرحال، حتى غدا عَلَمًا بارزا مشهودا له بالتبحر في هذا العلم، مذكورا فيه على كل لسان. له تآليف منها: «طليعة التنوير في مقدمات التفسير» و«منتهى التوضيح» في الفرائض، و«شرح التلمسانية» في الفرائض، و«شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي»، وفتاوى كثيرة في أنواع العلوم توفي سنة (845هـ) ترجمته في: «رحلة القلصادي» (102)، «توشيح الديباج» للقرافي (62)، «الحلل السندسية» للسراج (2/ 197)، «البستان» لابن مريم (41)، «شجرة النور» لمخلوف (1/ 254)، «تعريف الخلف» للحفناوي (1/ 46

وأخذ المواقف العضدية عنهما أيضا بسندهما إلى الشيخ زكرياء، عن عبد الرحيم بن الفرات، عن الكرماني، عن عضد الدين أبي الفضائل عبد الرحمن بن قاضي القضاة زكي الدين أحمد بن بهاء الدين بن عبد الغفار الصديقي البكري الشيرازي الإيجي الشافعي.

وأما علم المنطق فأخذ عنهما أيضا مختصر الشيخ السنوسي بسنديهما السابقين.

وأما علم الحساب والفرائض فأخذ كتب القلصادي عن شيخه ابن القاضي من طريق الشيخ السنوسي، عن مؤلفهما أبي حسن القَلَصَادي بفتحات، القرشي.
وأخذ المنية لابن غازي عنه أيضا من طريق أبي عبد الله اليستيتني، عن ناظمهما الشيخ أبي عبد الله بن غازي العثماني المكناسي. ومن طريق ابن غازي أخذ كتب ابن البناء، فأخذها ابن غازي عن أبي العباس المزگلدي، عن سيدي عمر الرجراجي ([1])، عن أبي زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي، عن أبي //174// العباس بن البناء الأزدي المراكشي، وأخذ عنه كتب الحوفي من طريق أبي عبد الله المواق، عن المنتوري، ([2]) عن ابن (جزء) ([3])، عن ابن أبي الربيع ([4])، عن الشلوبين، عن أحمد بن محمد بن خلف الحوفي.

وأما علم الوقت فأخذ عنه أيضا روضة الأزهار للجادري ([5])، وهو أخذها عن شيخه المنجور، عن سقين، عن [أبي] الحسن علي بن منون المكناسي، عن ناظمها أبي زيد عبد الرحمن الجادري. وأخذها المنجور أيضا عن شارحها أبي العباس أحمد بن عيسى بن ماواس.

وأما علم التعديل والأحكام فأخذ عنه أيضا كتاب ابن الرقاع من طريق أبي عبد الله المنتوري، عن أبي بكر بن زكرياء، عن عمه القاضي أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن علي بن الرقام الأوسي المرسي.

---

1 – قال عنه صاحب شجرة النور الزكية: أبو علي عمر بن محمَّد الرجراجي الفاسي: الولي تاج الزهاد وإمام العباد الشيخ الصالح العلامة المعظم عند الخاصة والعامة وشهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم أخذ عن جماعة من مشيخة فاس منهم أبو عمران العبدوسي وعنه جلة منهم ابن الخطيب القسنطيني وعرف به وأثنى عليه كثيراً وابن علال المصمودي، توفي سنة 810 هـ[1407 م]، والدعاء عند قبره مجرّب الإجابة. اهـ
2 – في المخطوط "الميتوري" وهو تصحيف سبق الكلام عنه.
3 – كذا في المخطوط ولم نعثر على هذا الاسم. ولن تكون مصحفة عن ابن جزي لأنه توفي قبل ولادة المنتوري.
4 – في المخطوط "ابن ربيع"، والمقصود عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله، ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني الإشبيلي (599هـ – 688 هـ) إمام النحو في زمانه. من أهل إشبيلية (بالأندلس) انتقل لما استولى عليها الفرنج إلى سبتة. من كتبه «شرح كتاب سيبويه» و«شرح الجمل» عشر مجلدات، و«الإفصاح في شرح الإيضاح» و«الملخص» و«القوانين النحوية». نقلا عن الأعلام للزركلي.
5 – كتبت في المخطوط بقاف معقودة مكان الجيم. ويقال أيضا "الجاديري" بمد الجيم. قال سيدي محمد عبد الحي الكتاني في "فهرس الفهارس: "هو العلامة المحدث الميقاتي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المديوني الجادري، بها عرف، الفاسي، ولد سنة 777 هـ بفاس، وكان بها عدلاً مبرزاً، وولي توقيت جامع القرويين بها...إلى أن قال: "مات المترجم له سنة 818هـ على ما في "الجذوة" وغيرها أو سنة نيف وأربعين وثمانمائة، ودفن داخل باب الفتوح بفاس....".

وأخذ نظم الحباك عنه أيضا من طريق الشيخ السنوسي عن شيخه محمد بن أحمد بن أبي يحيى الحباك.
وأما علم الأوفاق فأخذه أيضا عن الولي أبي الحسن علي الحارثي [عن] أحمد بن موسى [السوسي] السملالي ([1]).

وأما علم خواص الأسماء وأسماء ([2]) الحروف فأخذه عن شيخه أبي محمد عبد الله بن حسون السملالي السلوي السابق تعريفه في تراجم شيوخه في علم الباطن، وسيأتي سنده إن شاء الله.

وأما علم التصوف فأخذه إجمالا عن الشيخ أبي عبد الله القصار، وعن الأربعة من شيوخه الذين أخذ عنهم علم الباطن على طريق التبرك والاستفادة، وهم والده الشيخ أبو بكر بن محمد الدلائي //175// والشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي، والشيخ أبو محمد عبد الله بن حسون، والشيخ ابو مهدي عيسى البوكيلي، ومرجع سند القصار وأبي بكر وأبي المحاسن إلى كل واحد من الشيخين أبي عبد الله الجزولي وأبي العباس زروق، فأخذ القصار عن رضوان الجنوي، عن أبي محمد الغزواني، عن أبي فارس عبد العزيز التباع، عن القطب أبي عبد الله الجزولي الحسني، وأخذ أيضا عن أبي زيد سقين، عن القطب أبي العباس أحمد زروق. وأخذ الشيخ أبو بكر عن أبي عمرو القسطلي، عن أبي محمد عبد الكريم الفلاح، عن عبد العزيز التباع، عن القطب أبي عبد الله الجزولي. وأخذ أيضا عن أبي الطيب الميسوري، عن أبي محمد عبد الله الخياط، عن أبي العباس أحمد بن يوسف الملياني، عن القطب أبي العباس أحمد زروق. وأخذ أبو المحاسن يوسف الفاسي عن أبي محمد عبد الله الهبطي، عن أبي محمد الغزواني، عن عبد العزيز التباع، عن القطب أبي عبد الله الجزولي. وأخذ أيضا عن أبي إسحاق إبراهيم الزواوي، عن القطب أبي العباس أحمد زروق.
وأما ابن حسون والبوكيلي فإنما يرجع سندهما إلى أبي عبد الله الجزولي فقط من طريق أبي محمد الهبطي بسنده، وقد سبق في باب التعريف بالشيخ أبي بكر رفع سند كل واحد من الجزولي وزروق من طريقين مرجعهما معا إلى القطب أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وله سَنَدَان أحدهما من طريق أهل //176// التحكيم وسلب الإرادة، وهو قطب عن قطب من أبي محمد عبد السلام بن مشيش إلى أول الأقطاب سيدنا الحسن السبط بن مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سبق هناك، والآخر من طريق أهل التبرك والاستفادة وهو المراد هنا لاتصاله بشيخ الطائفة ([3]) الصوفية أبي القاسم الجنيد، وهي مسلسلة بالعلماء، فأخذ القطب أبو الحسن الشاذلي عن أبي سعيد خليفة بن أحمد الباجي التميمي عن أبي مدين الغوث، عن أبي الحسن علي بن حرزهم، عن أبي بكر بن العربي المعافري، عن أبي حامد الغزالي، عن إمام الحرمين عبد الملك الجويني عن أبي القاسم القشيري، عن أبي الحسن الدقاق، عن أبي القاسم إبراهيم النصرآبادي، عن أبي بكر الشبلي، عن أستاذ الطائفة وسيدها أبي القاسم الجنيد بن محمد القواريري، عن السري السقطي، عن معروف بن فيروز الكرخي، عن داوود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن باب مدينة العلم أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

وأما على التفصيل، فأخذ أصول طريقة الشيخ أبي العباس أحمد زروق من طريق أبي يزيد عبد الرحمن سقين وأبي العباس أحمد الملياني وأبي إسحاق ابراهيم الزواوي، وكلهم عن الشيخ زروق كما سبق.

---

1 – كتبت في المخطوط هكذا (...علي الحارثي أحمد بن موسى السنوسي السملالي) وقد صححناها اعتمادا على ما في موسوعة أعلام المغرب ج4 ص1416، وما سيأتي في ص234 من ذكر "السوسي" عوض "السنوسي". وسيدي علي الحارثي شيظمي، أرخ لوفاته صاحب نشر المثاني (ج1 ص59) في منتصف ربيع النبوي عام أربعة وألف، ودفن بالرميلة من مدينة فاس. لكن قيل في تاريخ وفاته غير ذلك، فقيل سنة 1009هـ وقيل 1010هـ وقيل 1014هـ. كما أفاده محمد الصغير الفاسي في المنح البادية في الأسانيد العالية ص280
2 – ربما كانت "أسرار الحروف".
3 – في المخطوطه "الطائفية".

وأخذ الحِكم لابن عطاء الله من طريق الشيخ زروق هذا عن شمس الدين السخاوي، عن عبد الرحمن القِبابي ([1]) بكسر القاف، عن أبي //177// الحسن بن عبد الكافي السبكي، عن تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الجذامي الإسكندري المالكي.
وأخذ الفتوحات المكية لابن العربي ([2]) الحاتمي وسائر تآليفه من طريق الشيخ أحمد زروق أيضا، عن أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي الجزائري، عن القرافي، عن المراغي، [عن] شرف الدين إسماعيل العقيلي الجبرتي، عن أبي الحسن الواني، عن محي الدين بن العربي الحاتمي الطائي.
وأخذ الإحياء للغزالي من طريق أبي العباس أحمد زروق أيضا عن أبي العباس أحمد بن طريف الشاوي، نسبة إلى شَاوَة بلد بشاطئ النيل، عن أبي المجد، عن سليمان بن حمزة، عن محمد بن عباد الحراني ([3])، عن أبي سعيد عبد الكريم السمعاني، عن محمد بن ثابت، عن الإمام أبي حامد الغزالي الطوسي.
وأخذ كتاب القوت الذي هو مدونة التصوف لأبي طالب المكي، من طريق الحافظ ابن حجر السابق غير ما مرة، عن التنوخي، عن الحجار عبد العزيز بن خلف، عن أبي الفتح البردالي، عن أبي علي الهندي، عن عمر بن أبي طالب، عن أبيه أبي طالب محمد بن علي بن عطية اليمني المكي.
وأخذ رسالة القشيري من طريق أبي حامد الغزالي عن إمام الحرمين الجويني، عن مؤلفها أبي القاسم بن هوازن القشيري النيسابوري.
وأخذ وظيفة الشيخ زروق من الطرق الثلاثة السابقة عن أبي زيد سقين وأبي العباس الملياني وأبي //178// إسحاق الزواوي، كلهم عن الشيخ زروق.
وأخذ أحزاب القطب الشاذلي عنهم أيضا من طريق الشيخين أبي عبد الله الجزولي وأبي العباس زروق.
وأخذ دلائل الخيرات عنهم أيضا من طريق أبي فارس عبد العزيز التباع، عن مؤلفه الشيخ أبي عبد الله الجزولي.
وأخذ الصلاة المشيشية من طريق الشيخ أبي الحسن الشاذلي عن مؤلفها القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش.
وأخذ الغنية للقطب محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني من طريق أبي مدين الغوث عن مؤلفها محي الدين عبد القادر بن صالح الجيلاني، فإنه لقيه بموقف مكة وأخذ عنه.
ومن طريق أبي الحسن السابق عن التنوخي، عن الحجار، عن القبيطي، عنه، وهو عن أبي الحسن الهكاري، عن أبي الفرج محمد الطرسوسي، عن أبي الفضل عبد الواحد التميمي، عن أبي بكر الشبلي، عن الأستاذ أبي القاسم الجنيد بسنده السابق.

وأما سند شيوخه الذين أخذ عنهم أسرار الولاية وانتفع بهم ظاهرا وباطنا في البداية والنهاية وهم سبعة، الذين سبق ذكر كل واحد منهم في ترجمته، أداء لبعض ما يجب من حقوق معرفته، فأخذ والده الشيخ أبو بكر الدلائي والشيخ أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري عن أبي عمرو القسطلي المراكشي، وهو عن عبد الكريم الفلاح، عن عبد العزيز التباع، عن الشيخ أبي عبد الله الجزولي بسنده //179// السابق، وانفرد الوالد الشيخ أبو بكر بالأخذ عن أبي الطيب الميسوري، عن أبي عبد الله الخياط، عن أبي العباس الملياني، عن الشيخ أبي العباس أحمد زروق بسنده السابق.
وأخذ أبو محمد عبد الله بن حسون وأبو مهدي عيسى البوكيلي عن أبي محمد عبد الله الهبطي، عن أبي محمد عبد الله الغزواني، عن عبد العزيز التباع، عن الشيخ أبي عبد الله الجزولي بسنده أيضا.

---

1 – في المخطوط "عبد الكريم" وهو تصحيف لأننا لم نعثر على من اسمه عبد الكريم القبابي، بل وجدنا سندا في كتاب صلة الخلف بموصول السلف هذا لفظه "...أحمد زروق عن الشمس محمد بن عبد الرحمن السخاوي عن الزين عبد الرحمن القبابي عن أبي الحسن علي بن عبد الكافي السبكي" وتوجد هذه السلسلة في كتب أخرى أيضا مضبوطة بكسر القاف كما هنا.
2 – الصواب ابن عربي بدون تعريف، كما وجد مكتوبا بخط يده رضي الله عنه وأرضاه.
3 – في المخطوط "ابن عماد الحرالي" وهو تصحيف، لورود سلسلة في كتاب "الكواكب الزاهرة في آثار أهل الآخرة " ذكر فيها ابن عباد الحراني عن أبي سعيد عبد الكريم السمعاني عن محمد بن ثابت كما هنا.

وأخذ الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي عن جماعة منهم أبو زيد عبد الرحمن المجذوب الدكالي الفرجي، عن أبي الحسن علي الصنهاجي، عن أبي سالم إبراهيم أفحام ([1]) عن الشيخ أحمد زروق بسنده.
ومنهم أبو إسحاق إبراهيم الزواوي عن الشيخ أحمد زروق بلا واسطة.
ومنهم أبو محمد عبد الله بن أحمد الهبطي وأبو محمد عبد الله بن ساسي البوسبعي وأبو عبد الله محمد الطالب الزمراني، وأبو العباس أحمد بن منصور، وكلهم عن أبي محمد الغزواني، عن عبد العزيز التباع، عن الشيخ أبي عبد الله الجزولي.
وأخذ الشيخ أبو عبد الله محمد الشرقي عن أبي القاسم الذي هو عمدته، وإليه في الطريقة اشتهرت نسبته، عن أبي عبد الله بن ساسي، عن أبي محمد الغزواني، عن عبد العزيز التباع عن الشيخ أبي عبد الله الجزولي.
وأخذ أيضا عن والده أبي القاسم بن محمد الزعري، عن عبد العزيز التباع، عن الشيخ الجزولي.
ثم أخذ أيضا عن أبي عبد الله محمد بن عمر المختاري عن أبي عبد الله محمد بن //180// عيسى الفهري السفياني، عن أبي العباس أحمد بن عيسى الحارثي السفياني وعبد العزيز التباع وأبي عبد الله محمد الصُّغير مصغرا، العميري بالعين المهملة، المعروف بالسهيلي، وهم بثلاثتهم عن الشيخ أبي عبد الله الجزولي بسنده.
وأخذ الشيخ زين العابدين بن أبي المكارم البكري عن أبيه أبي المكارم محمد، عن أبيه الأستاذ تاج العارفين أبي الحسن، عن أبيه الشيخ العالم الولي جلال الدين، عن أبيه الشيخ الإمام العامل العالم الكامل عبد الرحمن، عن أبيه شيخ الإسلام العارف بالله تعالى زين الدين، عن أبيه شيخ مشايخ الإسلام، رأس العلماء الأعلام، ناصر الدين، عن أستاذ الأساتيذ العظام، والقطب الجامع الفرد الغوث أبي الحسن الشاذلي اهـ
ثم قال الشيخ أبو المكارم بعد أن ذكر سنده هذا إلى أبي الحسن الشاذلي حسبما نقله عنه من خطه في إجازته له الشيخ أبو عبد الله القصار ما نصه: في الحقيقة ليس المدار إلا على الصدق والتقوى، وإن كان في الاتصال الصوري بركة عظيمة، والاتصال القلبي هو المقصود، ولي سند لسيدي عبد القادر الجيلاني وآخر لسيدي الجنيد اهـ من المرآة. وهو صريح في أن الذي أخذ عن القطب أبي الحسن الشاذلي هو الأب السابع محمد ناصر الدين.
وفي فهرسة أبي سالم عبد الله عياش ([2]) أن الآخذ عن الشاذلي هو يحيى بن الحسن، وهو الأب السادس عشر، ومثله في كناشة أبي حامد العربي //181// بن الطيب القادري نقلا عن العبيدي والله أعلم.
وأما سند الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر رضي الله عنه المعقود هذا المقصد بتعريفه في المصافحة، فقد سبق في ترجمة شيخنا أبي عبد الله القصار حسبما كتبه بخطه عقب إجازة القصار له، لكنه يحتاج إلى زيادة بيان في رجاله، وذلك أنه صافحه الشيخ أبو عبد الله القصار، عن أبي النعيم رضوان، عن عبد الله الجنوي، عن أبي زيد عبد الرحمن سقين السفياني القصري ثم الفاسي، عن قاضي القضاة بالديار المصرية الشيخ زكرياء الأنصاري، عن أبي النعيم رضوان العقبي، عن الشرف أبي طاهر أحمد بن الكويك الربعي، عن أبي إسحاق بن علي اللمطي، عن النجيب أبي عبد الله الخُوثي هكذا ضبطه بخطه بالقلم بخاء مضمومة معجمة وواو مضمومة مخففة وثاء مثلثة بعدها ياء النسب، وضبطه العلامة المحصل أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني في فهرسته فقال: بالياء المشددة بعد الواو، وهو عن أبي المجد محمد بن الحسين القزويني، عن الطائي، هكذا بخطه، وفي فهرسة شيخنا بناني المذكور مكانَه عن أبي بكر السخاوي، عن القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن أبي زرعة، عن أبي منصور عبد الرحمن بن عبد الله البزازي، عن أبي محمد عبد الملك بن محمد بن لجيم، عن عبد الكريم البغوي، عن أبي القاسم عبدان بن حُميد بن عبدان المنيحي، عن عمر بن سعيد بن سنان المنيحي، عن أبي العباس //182// أحمد بن دهقان، عن خلف بن تميم قال: دخلنا على أبي هرمز نعوده

---

1 – هو القطب العارف الهيكل الصمداني سيدي أبو إسحاق إبراهيم علي الزرهوني المعروف بأفحام بالحاء لإفحامه علماء عصره وقيل أفهام بالهاء بعد الفاء، قاله أحمد بن علي السوسي البوسعيدي الهشتوكي في "بذل المناصحة في فعل المصافحة" ونص كلامه في بعض المخطوطات: "عن الشيخ إبراهيم أفهام بالهاء تلحنه بالحاء". اهـ .وهو تلميذ البحر الدفوق سيد أحمد زروق الفاسي وأستاذ الشيخ سيدي علي الصنهاجي الدوار رضى الله عنه. توفى 926هـ ودفن بجبل زرهون.

2 – كذا، والمقصود أبو سالم عبد الله العياشي.

فصافحنا وقال: دخلنا على أنس بن مالك نعوده فقال: صافحت بكفي هذه كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما مسست خزا ولا حريرا ألين من كفه صلى الله عليه وسلم، قال أبو هرمز: فقلنا لأنس ابن مالك: صافحنا بالكف التي صافحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصافحنا، وهكذا إلى آخر السند.
وقد نظم الإمام المحقق النسابة أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني سند هذا الشيخ وسند أبيه رضي الله عنهما مقتصرا فيه على شيخ كل واحد منهما من طريق التحكيم وسلب الإرادة فقال:

الحمد لله الذي أسند له	كل ولي بالنبي أوصله
اختصه بقربه وفضَّلَه	بنيل حبه العلي منزلة
ثم الصلاة والسلام مكملة	على أجَلِّ من بوحي أرسله
محمدٍ وآله والحملة	طريق سره الهداة المكملة
هذا نظام سند الشيخين	أعني الوليين الدلائيين
محمد مع أبي بكر أبيه	الحافظي ود النبي في بنيه
الأعليين في التقى مقدارا	المحيين بالهدى الأقطارا
السار منهم اشتهار المجد	بكل غور وبكل نجد
سألنيه بعض أحفادهما	فقلت مبديا لإسنادهما

//183//

أخذ سيدي أبو بكر عن	بحر الحقيقة أبي عمرو السَّني
عن شيخه الفلاح عن قطب الورى	السيد التباع يا ما أكبرا
وأخذ ابنه عن الولي	محمد عرف بالشرقي
عن عابد الله بن ساسي عن	سميه الغزواني كنز المنن
عن شيخه التباع أعني من ذكر	وهو عن القطب الجزولي المشتهر
عن شيخه أمغارهم محمد	عن هرمُنَانِهِم (كذا) المسدد
عن شيخه الرجراجي عبد الرحمن	عن شيخه الهندي سامي الأركان
عن شيخه عنوس البدوي	عن القرافي أحمد المرتضي
عن أبي عبد الله أعني المغربي	عن الإمام الشاذلي المنتخب
عن الإمام ابن مشيش الحسني	عن عابد الرحمن أعني المدني
عن شيخه الفقير المكين	عن شيخه الإمام فخر الدين
عن شيخه الإمام نور الدين عن	الشيخ تاج الدين أي مؤتمن
عن الإمام الشيخ شمس الدين	عن شيخه محمد القزويني
عن شيخه إبراهيم الرباني	عن شيخه أحمد المرواني

عــن شــيخه أبـــي محمــد ســعيد | عـن شـيخه سـعد موصـل المريـد
عــن فــتح الســعود ذي العرفــان | عــن شــيخه ســعيد الغزوانـــي
عــــن شـــــيخه جـــــابر الأواب | عــــن الإمـــــام أول الأقطـــــاب
الحســن الســبط بــن بضــعة النبــي | وابــــن علــــي العلــــي الرتــــب

//184//

عــن النبــي المصــطفى المختــار | عنصــر مــا لهــم مــن الأســرار
بجاهــــــه العظــــــيم يــــــا الله | وجــــاه كــــل عــــارف تــــلاه
اخــتم لنــا يــا رب يــا مــولاه | بقـــــــول لا إلـــــــه إلا الله
وبالبشــــــارة التــــــي تبشــــــر | بهــا جمــيعهم إذا مــا احتضــروا
ومُــنَّ علينــا بجــوار المصــطفى | يا خير مـن أعطـى وخيـر مـن وفـى
ثــم الصــلاة مــا لهــا انحصــار | مــــع ســــلام وَبْلُــــه مــــدرار
علــى الحبيــب المصــطفى محمــد | رســـول ربنـــا العلـــي الصـــمد
وآلـــه وصـــحبه ومـــن تـــلا | مـا رحـم المـولى بـه مـن سـألا

وقد لقي شيخ الإسلام، العارف الهمام، أبو عبد الله محمد بن الشيخ العارف الكبير سيدي أبي بكر المذكور غير هؤلاء الأشياخ الذين تقدم ذكرهم في هذا المسطور، من الأولياء الأكابر، الذين انتفع بهم في الباطن والظاهر، ومن أجلِّهم الشيخ الرباني أبو عبد الله محمد بن محمد الملواني، من قبيلة ملوان التي هي إحدى القبائل اليدراسنية، فإنه صاحبه وانتفع به حتى أحرز أعظم القرب من النبي صلى الله عليه وسلم بسببه.
قال العلامة المعقولي الصالح أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولالي في كتابه مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، بعد أن ذكر له جملة من الشيوخ الذين ذكرناهم، ما نصه: ولقي أيضا الشيخ الكبير //185// الشأن، الورع العزيز المثل، أبا عبد الله محمد بن محمد الملواني، ولما لقيه طلب منه الصحبة، وكان رضي الله عنه يكلم النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، فلما طلب منه الصحبة قال له: حتى أستأذن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم استأذن فقال: يا رسول الله محمد بن أبي بكر يطلب مني الصحبة، أأقبلها له أم لا؟ فسكت هنيهة ثم قال: تعالى قد أذن لي في عقد الصحبة لك. ثم قال: جئت لسكنى تَغْيَ، وكانت بلدة ملوان تسمى تَغْيَ، بفتح التاء وسكون الغين المعجمة وفتح الياء، فقال نعم، فررنا من الفتن، فقال له: الوفود التي تأتيك في بلدك لا تسعها تَغْيَ، ارجع إلى بلدك فإن العود الذي يتعرض لك قد كسر، فكان الأمر كما أخبر، غلبت القبائل الموقرون له القبائل المتعرضين له. ثم لم يفارق شيخ الإسلام محمد بن أبي بكر الشيخ محمد الملواني حتى توفي رضي الله عنه، فصلى عليه الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر وقال قبل يوم موته: قد توفي في هذا الشعب اليوم رجل عظيم. انتهى.
ومما حدث به عنه رضي الله عنهما أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال له عليه الصلاة والسلام: صل علي أربعة آلاف مرة بين اليوم والليلة ولا تكن فقير أحد ولا يكن أحد فقيرك، وأنا ضمنت لك الدنيا والآخرة.
قال شيخ //186// الإسلام سيدي محمد بن أبي بكر، فقلت له لما حدثني بذلك: تقول العرب ضيف الكريم يضيف، وضيفك مليء وضامنك وفِيٌّ، فأريد أن تضمنني، ففعل.
وكانت وفاة الشيخ أبي عبد الله الملواني المذكور رضي الله عنه في شهر المحرم فاتح سنة ثلاثين وألف، وإنما أخرته إلى هنا وأفردته بالذكر عمن سبق تعريفه وسنده، لأن سنده محكم الرابطة، لاتصاله بالنبي صلى الله عليه

وسلم بلا واسطة، فطريقته محمدية توصل في الحين إلى الحضرة النبوية، فأحببت أن أجعله مسك الختام، في هذا المقصد الذي تعددت فيه رجال الأسانيد إلى النبي عليه الصلاة والسلام. اللهم اجعله ضيفا مع هؤلاء الأضياف، في ضيافة هذا النبي المصطفى من قصاص عبد المطلب بن مناف، اللهم صل عليه وعلى آله وصحابته صلاة تبلغنا بها ما طلبناه من ضمانته، اللهم اجعلني ممن ينتظم في سلسلتهم، وإن لم أكن فإني من أهل محبتهم، ومن أحب قوما حشر معهم، والمرء [مع] من أحب.

هكـــذا هكـــذا يكـــون الرجـــال	حـــبلهم لـــه بـــالنبي اتصـــال
لســت مــنهم لكننــي صــرت أرجــو	أن أنـــال مـــن حـــبهم مـــا قـــالوا

المقصد الرابع فيما يرجع إلى ذاته، من جميل صفاته

//187//

أوصـــافه يعجـــز عـــن وصـــفها	من كـان فـي الوصـف طليـق اللسـان
فقـــل لمـــن عنـــه غـــدا ســـائلا	قـد جمعـت فيـه الخصـال الحسـان

قالوا كان رضي الله عنه ربعة من الرجال، ليس من القصار ولا من الطوال، ولم يكن بالبادن ولا بالنحيف، وهو في قامته معتدل وفي ذاته لطيف، جميل الشكل والصورة، مليح الهَدي في الهيئة المشكورة، بهي المحيا متناسب الأعضاء، سائل الأطراف أبيضَ اللون تعلوه صفرة نورانية، كَثُّ اللحية من غير طول، حسنها منور الشيبة، يملأ العين جمالا والقلوب جلالا، عليه بهاءُ السؤدد، ورقراقُ النور، ورُواءُ العلم، وَسِيمَا الدين، وأبهة المنصب، ووسامة الوقار، وجلالة الفخار، تلحظه الأعين بالمهابة والإجلال والتعظيم، والتبجيل والتوقير والتكريم، يروق منظره، ويسر مخبره.

يزيــــــدك وجهــــــه حســــــنا	إذا مــــــا زدتــــــه نظــــــرا

وشمائله أرق من نسيم الصبح إذا سرى، مع سعة الصدر، وقوة الجأش، وخفة الروح، ورقة الطبع، واعتدال المزاج، مراكبه النعال، وإن طالت المسافة فعتاق الخيل أو سوابق البغال.
وكان رضي الله عنه مقتصدا في أمور نفسه، مجانبا لما فيه الشهرة عن أبناء جنسه، يلبس لباس المسكنة والبذلة الربانية، //188// لا لباس الشهرة والرهبانية، يلبس في كل فصل ما هو أنسب، ففي الصيف قميص وسراويل من كتان إلى الخشونة والغلظ أقرب، وقشابة قطن فوق القميص، وفي الشتاء يجعل قشابة من صوف، وربما يلبس تحتها ثوبا ذا أزرار من قطن، وسراويل من ملف أبيض، ويشتمل على ذلك بكساء من صوف، ويجعل فوقه في الشتاء برنسا غليظا من الصوف أو من القطن، وعلى رأسه دائما قلنسوة وعمامة.
وكان رضي الله عنه يجتنب كثير الحرير وقليله في ثيابه، فلا يجعل منه في كسائه شيئا أصلا، ولا يلبس القلنسوة حتى ينزع ما برأسها من نوارة الحرير مع يسارته، ولا العمامة ألا إذا لم يكن فيها علم حرير ولا صقلي، لم يلبس الملف الملون قط تورعا. وكان رضي الله عنه يستعمل ثيابه حتى تبلى، وكان رضي الله عنه مراعيا للسنة في جميع الاحوال، محييا لما اندرس منها في الأقوال والأفعال، مميتا للبدع، آخذا بمذهب الورع، كثير البحث عن الأحكام الشرعية عاملا بها، واقفا عند حدودها، كثير القيام، مجتهدا بالليل والناس نيام، قليل الأكل،

لا يتناول من الطعام إلا ما قل، ومع ذلك يصوم دائما إلا لسبب يبيح الإفطار أو يوجبه، وكان ورده في سن الشيخوخة أربعة وعشرين حزبا من القراءة، على علو سنه ونقص قوته، أخبر بذلك من عاصره. وكان معمرا أوقاته النهارية وزلفا //189// من الليل بتدريس العلوم وإقرائها، على سَنَن المحققين الراسخين من علمائها، إقراءَ بحث واستنباط، وتحصيل وارتباط، وبناء الفروع على الأصول، وجمع النظائر تسهيلا للوصول، عارفا بطرق الاستدلال من الكتاب والسنة والإجماع والقياس والإصحاب ([1])، جاريا في مسالك العلل، إلى بلوغ غاية الأمل، لم يأل جهدا في التصحيح والترجيح، والتحسين والتقبيح، مزيفا حجج أهل البدع والأهواء، مقويا لأهل الحنيفية البيضاء، مع الحفظ والضبط والإتقان، بحيث تصحح نسخ الكتب الستة من فيه ولاسيما الصحيحان، وكل من قرأ عليه شيئا من الرسائل والمقاصد، أحاط علما في الحين بالجزئيات والقواعد، ولا تكلم أحد معه في المسألة العلمية، إلا انبعثت إليه أنوار قلبية، حتى تصير عنده كأنها من العلوم الوهبية، كيف وعلمه رضي الله عنه كله مصحوب بالخشية والتقوى، وحسن المراقبة لله تعالى في السر والنجوى، مع بلوغ المقام الأسمى، في الخصوصية العظمى، والجمع بين التصرف في الكون بالعناية والولاية، والتمكن في الدراية والرواية، والتحقيق بالعرفان، والاستغناء عن إقامة البرهان، بشهود الأعيان، والسعي في مصالح العباد، ولقي الزوار الواردين عليه من جميع البلاد، وتنزيل كل واحد في محله، والمبالغة في //190// البرور به، حتى يرجع عنه راضيا مرضيا إلى أهله، ممتعا في مجالسته، مطربا في مؤانسته، حافظا للعهود والمراعاة، غريب الأحوال والمقامات، جلي المكاشفات، قوي المنازلات، كثير الكرامات، الخارقة للعادات، وكان رضي الله عنه حسن الأخلاق، دائما البشر، ممتع المجالسة، طيب المؤانسة، ولا سيما في السفر، فإنه كان يزيد على المعتاد منه حالة الإقامة، من سعة الأخلاق وكرم الطبع وانشراح الصدر، عكس المألوف من الكثير فيه، ومع ذلك كان وقورا مهابا، رصين العقل، سديد الرأي، ينزل الناس منازلهم، مراعيا لحقوق الصحبه أتم المراعاة اهـ

المقصد الخامس فيما اشتهر من مناقبه ومآثره، وانتشر من مكارمه ومواهبه ومفاخره

حدث بما شئت عن هذا الولي، فما له من المكرمات ليس ينحصر، لو شئت أجمع منها وقر راحلة، لكن ضعفي على القليل مقتصر، وفي هذا المقصد فروع تسعة:

الفرع الأول: في احتفاله للمولد النبوي، لِما لم يكن لغيره من عالم أو ولي.

قد تواتر من جملة أخباره الصحاح، التي سالت بأعناق مطاياها البطاح، أنه كان رضي //191// الله عنه يحتفل للمولد النبوي في كل عام، تعظيما لقدر المولود فيه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وتذكيرا لما ظهر ليلة وضعه من الآيات، التي هي من أعظم خوارق العادات، واستحضارا لجميل نشأته في الأذهان، حتى كأنها تشاهد بالأعيان، واقتباسا في كل سنة، من أنوار استهلاله الحسنة، كيف وقد نقل بعض العلماء الإجماع على أنها أعظم من ليلة القدر، التي هي كما قال تعالى خير من ألف شهر، ومن الدليل على مراعاة فضلها، واعتبار تكرر زمنها، ما في صحيح مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: فيه ولدت وفيه أنزل علي، وفي طريق وفيه بعثت اهـ انظر كتاب جنا الجنتين في فضل الليلتين، للحافظ أبي عبد الله بن مرزوق الجد رحمه الله.
قال الشيخ العالم الصوفي أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني في ثبت له في التعريف بشيخه الإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر، أن جده الشيخ العارف بالله أبا

1 – كذا، وربما كانت مصحفة عن "الاستصحاب".

عبد الله محمد بن أبي بكر المذكور كان يحتفل للمولد النبوي غاية الاحتفال، وكان يأتيه الناس لحضور موسمه الشريف عنده بزاويته من حواضر البلاد وبواديها، ما بين شرفاء وعلماء وأولياء وشعراء وأغنياء وفقراء وسوقة ورؤساء. وكان رضي الله عنه يطعمهم بالأطعمة //192// المنوعة على طبقاتهم بما لم يُعهد مثله عند غيره في زاوية من زوايا المغرب أصلا، وإنما يكون ذلك عند أعاظم الملوك، وكان يرفع إليه الشعراء الأمداح النبوية فتقرأ بين يديه ويجيزهم عليها بالجوائز السنية.

وحكي عن الشيخ الحافظ المحدث الصوفي أبي عبد الله المهدي بن أحمد الفاسي أن رجلا أديبا مجيدا أريبا يسمى بالفقيه عمرو الأندلسي جاء للشيخ أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي بكر المذكور في ذلك الموسم الشريف بقصيدتين، إحدهما في مدح المولود فيه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، والأخرى في مدح الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، فلما انقضى الموسم وأراد الأديب المذكور الانصراف، جاء إليه يودعه فأخرج له الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر صرة فيها مائة دينار في يده اليمنى وفي اليسرى فلس واحد وقال له: هذه المائة دينار جائزة على مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الفلس على مدح محمد بن أبي بكر إذ لا يستحق أن يمدح.

نعم كانت قصائد الأمداح النبوية التي ترفع إليه في ذلك الموسم ربما تُذَيَّلُ بذكره في آخرها بالثناء الجميل عليه، والدعاء الصالح له، فيرتاح لها ويثيب عليها بذكره بعد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الدعاء بعد ذكره عليه الصلاة والسلام مستجاب، والثناء عقبه يرجى خيره، لأن الخير كله في التعلق بأذيال الكرام //193// ولا سيما أكرم الكرماء عليه أفضل الصلاة والسلام. وممن سلك هذه الطريقة من التذييل، ويعتقد أنها السواء السبيل، شاعر زاويته، الذي أنفق في أمداحه بضائع عَروضه وقافيته، الأديب البارع أبو العباس أحمد الدغوغي ([1])، وفي ذلك يقول رحمه الله:

رحلـــوا وقـــاطن شـــوقهم لـــم يرحـــل ... وســـروا بلبـــي بـــين تلـــك الأرحـــل

فألفـــت مـــن جســـدي الـــذبول لفقـــدهم ... أســـفا ومـــن خلـــدي الـــذهول البلبَـــل

فعلـــى الطلـــول تزايـــد الزفـــرات مـــن ... حرقـــي علـــى عبـــرات دمعـــي المهمـــل

يـــا ربـــع إيـــن ظبـــاء حيـــك والمهـــا ... وجَـــآدِرٌ ([2]) بهـــم جُيَيْـــدك كَـــمْ حَلَـــى

يـــاربع ويحـــك ايـــن مَـــن بنقـــائهم ... يزهـــو نَقَـــاك كأنـــه لـــم يعطـــل

أجـــروا الضـــوامر مُـــدلجين حـــداتُهم ... متحملـــــي الأثقـــــال أي تحمـــــل

ألفـــوا السُّـــهاد مـــن الرقـــاد وحـــالفوا ... قطع الوهاد ([3]) بكل حرف هَوْجَل ([4])

وســـرت بهـــم تجتـــاب كـــل مُضِـــلة ... عِـــيسٌ لهـــا شـــرف يفـــوق ويعتلـــي

وغـــدت بهـــم تختـــال كـــل مفـــازة ... عـــن ركـــبهم حظيـــت برفعـــة منـــزل

لـــم لا وقصـــدهم الـــذي فضـــلت بـــه ... أعـــلام مكـــة كـــل مَغنـــى أفضَـــل

وبطيـــب طيبـــة حيـــث حَـــلَّ تعطـــرت ... كـــل العـــوالم وهـــو أكـــرم مرســـل

---

1 – أحمد الدغوغي: من موالي آهل الدلاء، نشأ فيهم وبرع في الأدب، وكان مداحا هجاء لا يكاد يسلم من هجوه أحد، ترجم له الإفراني في نزهة الحادي ولم يذكر له تاريخ وفاة. انظر ص404 بتحقيق عبد اللطيف الشاذلي

2 – جآذر: جمع جُؤذر بضم الجيم وضم الذال وفتحها، وهو ابن المهاة (البقر الوحشي).

3 – الوهاد: جمع وَهْدَةُ : وهي الأرضُ المنخفضة.

4 – هوجل : أرض واسعة بعيدة ليست بها علامات وأشياء يهتدى بها.

الهاشمي الأبطحي محمد هادي الأنام وسيلة المتوسل
خير الأوائل والأواخر من له نطق الجماد بأفصح مِقْوَلِ ([1])

//194//

وكذا إليه الجذع حَنَّ وأنَّ من شوق لوطأته بمحضر محفِل
ومن الزلال العذب كان محافظا من بين أنمله جرى بمسلسل
وشكى البعير إليه فرط عنائه وشكى الغزال إليه خيفة موجل
والضب أفصح معلنا بثنائه والذئب سلم جهرة بتذلل
وأرى انشقاق البدر أوضح آية لذوي الشقاق لو اهتدوا بتأمل
وبكفه صُم الحصى لأخي الحصا ة مسبحا أَبْدى العجابَ لو اجتُلي
ومن الدليل على علاه سموه ليلا على أعلى العلا شرفا عل
أَمَّ الملائكة الكرام (...) ([2]) والمرسلين وساد كل مبجل
مازال يصحبه السُّعُودُ صُعوده والله يزلفه بكل تفضل
حتى دنا من قاب قوسي الاصطفا بمنزل عنه الوجود بمعزل
لولاه ما حصل الوجود لواجد لولاه سبل رشادنا لم تُعقل
لولاه ما عُرِف الإله ولم يدِن بتَبَتُّلٍ لله حِلفُ تَبَتُّل
ماذا يحاول من ثنائك حادث بعد الثناء من القديم الأول
بك أقسم الجبار جل جلاله وعليك صلى في الكتاب المنزل
يا مصطفى الرحمن أنت حبيبه ها أنت أنجح مأمل لمؤمل
ها أنت أمنع من يلاذ به حمى ها أنت في الدارين أكرم موئل
ها أنت أوثق شافع لذوي الخطا والخلق في كُرَبٍ تَجل وهول
كن لي بحقك منقذا مما وَهَى من آجل متوقع ومعجل

//195//

وأدم لوارث سرك السر الذي أورثته أبدا يَزِيدُ وخَوِّل
محيي شرائعك الزكية حافظ السنن السنية ذو العطاء الأجزل
نعم الإمام سميك العلم الذي يسمو السماء سناؤه بك إذ حلي
وعليك من صلوات ربك دائما أهمى سحائبها السوامي الهطل
تنهل ديمتها على ربع به كملت سعادة جيلنا لا تأتلي

1 – المِقْوَلُ: اللِّسانُ.
2 – كلمة غامضة تقرأ "مُظمًّا".

وقال أيضا رحمه الله:

علـى مـن كـان يـبهج أو يسـر	بأغيـاد وأزمنـة تمـر
فمولـد خيـر خلـق الله أبهـى	لمبـتهج فسـابعه الأغـر
همـا يومـان فضـلهما جلـي	علـى الأيـام فهـي بـه تقـر
وبعـدهما وإن شـرفا مجـال	(...) ([1]) خيـل غارتـه تكـر
فمـا الأيـام مـا غـرر الملاهـي	ومـا دنيـا بزخرفهـا تغـر
ونـور حبيبـك الوضـاح يبـدو	هـدى لـدجى الضـلالة منـه فجـر
وسـيبك طبـق الأقطـار فضـلا	وأحسـب مـن بهـا عـدلا يسـر
وَجُـود يمينـك الميمـون أغنـى	وآمـن أن يخـاف لديـه فقـر
فَغُـنْمٌ لـم يَكُنْـهُ رضـاك غَـمٌّ	وعـدل لـم يكنـه قَضـاكَ جـور
وعيـد لا نـراك بـه وعيـد	ومـا احلـولى وكنـتَ سِـواه مُـرٌّ
فـلا فقـدت بـك الـدنيا سـرورا	وأنـت لأوجهـا شـمس وبـدر

//196//

ولا زالـت بـك الأيـام تزهـو	علـى روض زهـى وحكـاه ثغـر
ولا زال الزمـان أتـم عيـد	بكـم حتـى القيامـة يسـمو

وكان مرة رفع إليه قصيدة في المدح النبوي من غير تذييل، فرأى الناس ذلك ليس من الصنع الجميل، ووجهوا بالملام إليه الألسنة، فأطلق في الاعتذار عن ذلك رسنه، فقال:

مـولاي بحـر النـدى المتـدفق	يـا مـن بـه لكشـف ضـر أثـق
يـا رأس ديننـا ونبـراس (...) ([2])	يـا شـمس كـل قمـر متسـق
يـا موسـع الـدنيا بقلـب قـد حـوى	كـل المعـارف ولمـا يضـق
مـدحتكم لـو أن لـي طاقـة	لكننـي وحقكـم لـم أطـق
والله لـو أحصـيت فضـلا لكـم	وكنـت للإحصـاء ممـن رزق
لكـان لـي عـذر كفـى أننـي	فـي غشـية مـن طولهـا لـم أفـق
جلالـة أفضـت إلـى مهابـة	مـن سـادة بقلـب عبـد آبـق
كيـف وبعـض فضـلكم أبحـره	فـي لجـة منهـا الأنـام غـرق

1 – كتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".
2 – بياض بالمخطوط.

أَيُحسِـن الإعـرابَ عـن فضـلكم ... خلـق مـن الأعـراب مثلـي (...) [1]

ومـا تجـدّد بـلاءٌ فبـه ... ثـوب اصـطبار منـه بـالٍ خلـق

وفـي رهـان الـدين ثـوب لـه ... بالسـوق أمسـى هـو رهـن غلـق

وكانت عادة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه، على الدوام والاستمرار يعقد أثناء ذلك الموسم الحفيل //197// مجالس متتابعة آناء الليل وأطراف النهار لتدريس الحديث النبوي، يحضرها للتبرك والاستفادة بالأخذ عنه في تلك الأيام جميع الواردين عليه فيها من الأعلام، ويجيز منهم كل من فيه أهلية للرواية، بعد حصول ملكته في الدراية، فيرجعون عنه بالإجازة والجائزة، ويعم من عداهم من سائر الوافدين بالعطايا الجزيلة الناجزة، بل كان بحره رضي الله عنه يفيض بالعطايا الجسام، على من كان يقصده من الأعلام، والأشرف والشعراء والمنتسبين، وغيرهم من فقراء المسلمين، وفي ذلك يقول شاعر زاويته أبو العباس أحمد الدغوغي رحمه الله:

إلـى مَ أُلامُ معتـذرا وحـالي ... تحولهـا المحـاوَل كالمُحـال

أجيـل الفكـر أجلـو كـل فكـر ... عـروس فـي مـدائحك العـوالي

فكـم منـك انثنـى مـثن مجـازا ... بغانيـة فأصـبح ذا اختيـال

وكـم خـدم وكـم حلـل وجـود ... مطهمـة وهبـت وكـم بغـال

وكـم مـنن بهـا جَنَّـت وعَمَّـت ... يمينـك دون مَـنٍّ أو سـؤال

زكـي خلـق جبلـتَ عليـه فـردا ... وأعجـز أن يحـاوَل باحتيـال

ويُمنِـك إنَّ يمنَـك لـي بـيُمْن ... وايمـانٍ بربـك ذي الجـلال

وأمـر لا يخـاف لـه مَخُـوف ... ونعـم البـرء للـداء العضـال

وتيسـير وإكسـير وكنـز ... وزخـر لا يغـادر فقـد مـال

//198//

لأنـت جمـال دنيـا أنـت فيهـا ... بزهـدك راغبـا عنهـا وسـال

فتَقليهـا [2] وتـؤثر دار خلـد ... الا أوثـرت (كـذا) عـن راض وقـال

ولـولا أن دار الخلـد فيهـا ... منـاك مـن الزيـادة والجمـال

لمـا باليـت بالـدارين لكـن ... مرامـك مـن تفـرد بالكمـال

لـذلك سُـدتَّ منفـردا بمجـد ... سـما بـك رتبـةً رتـب الرجـال

تـذل بعـزة الجبـار قهـرا ... جبـابرة لعـزك كـالموالي

فمـن لـم يـأت طوعـا جـاء كرهـا ... يـؤم فسـيح فضـلك غيـر آل

ويشـهد أنـك الأهـدى سـبيلا ... وأنـك غيـر موجـود المثـال

---

1 – تقرأ "مئق" والله أعلم.
2 – قلَى يَقْلِي فلانا: أبغضَه وهجره.

فمـن يقـوى لحمـل الـبعض ممـا   بـه لـم تعـي مـن عـبء الثقـال
وسـعت النـاس حلمـا ثـم علمـا   وحكمـا كـف عـن سـبل الضـلال
وقمــت سياســة ورأســت فــيهم   أتــم رئاســة وأتــم حــال
علــى تجديــد ديــن الله تمســي   وتصــبح جاهــدا جِلــف احتفــال
وكــم ألفــت بــين قلــوب خلــق   جِمــارُ شِــقاقِها ذاتُ اشــتعال
جميـل الصـفح عـن شـنآن قـال   وواش فــاه مفتريــا بقــال
فــلا زال ارتقــاؤك ذا ازديــاد   مـد الأحقـاب فـي درج المعـالي
ونـورك فـي بنيـك وفـي بنـيهم   وإخــوان ســموا وأغــر آل
وزاد الله مـــــدتك امتـــــدادا   ودام لنــا جــداك بــلا زوال
فغيــرك مــا نــراه عمــاد ديــن   ودنيــا خلتهــا لمَعَــانَ آل

//199//

خــلا مــا راحتــاك أنالَتــاه   فمــا أزكــاه مــن دنيــا الخبــال
ومــا أهنــا وأيمــن فــي الــدنا مــا   تمــد بــه يمينــك مــن نــوال
فــدون مقــام قربــك كــم ولــي   أطاعتــه الأمــور بانفعــال
يحيـل الشـيء كيـف يشـاء منهـا   بــإذن الله مــن حــال بحــال
فكيــف بمــن كمثلــك ســاد كــلا   بكـل الفائقـات مـن الخصـال
فهــذا فارحَمنْــهُ مقــام عــاق   يمــد إلــى نــداك يــد الســؤال
تَعَــوَّده بمــنح منــك مغــن   تعــودة كمنــع أو مطــال
وحاشــا ثــم حاشــا ثــم حاشــا   لجــود أن ينــاقَض بانتحــال

الفرع الثاني في قيامه بحقوق الشرفاء الأطهار، وحقوق العلماء الأخيار.

قد تواتر عنه أيضا رضي الله عنه أنه شديد المحبة للنبي عليه الصلاة والسلام، كثير التشيع في محبة آل البيت الكرام، قائما بما يجب لهم من إخلاص المودة والإكرام، والمبرة والتعظيم والاحترام، موسعا عليهم في المهمات، مفرجا عليهم في الأزمات، حتى كان جدهم نبي الرحمة، وشفيع الأمة صلى الله عليه وسلم، يوصيه بالإحسان لهم والبرور بهم، وييسر له لقيَّهم على بعد الدار، وشَطِّ المزار.
حكى الشيخ الإمام النسابة المحقق أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني //200// في كتابه مطالع الإشراق، في الشرفاء الواردين من العراق، أن السيد الجليل، الشريف الأصيل. أبا عبد الله سيدي محمد [بن] العربي الصقلي الحسني الذي كان بدرب الدرج ودرب الخطار من عدوة فاس الأندلس، المتوفى في شوال سنة

تسع وخمسين ([1]) وألف رحمه الله، أراد خطبة امرأة من ذوات القدر والجاه فأبت عليه. فرأى الشيخُ الإمام، العارفُ الهمام، الولي الصالح، القطب الواضح، صاحب وقته، أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الولي الكبير، العارف الشهير، سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنهما النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المنام وهذا الشريف معه وهو يوصيه به، فاتفق أن سافر الشريف للزاوية البكرية وذهب إليها شاكيا بذلك، فلما رآه الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر وعرف شخصه الذي كان رآه مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن يعرفه قبل ذلك، لم يتمالك أن بادر إليه يسلم عليه، والتزمه وانكبَّ عليه وأنزله عنده وفرح به فرحا عظيما، وأعطاه عطايا جزيلة، وأرسل إلى أولياء المرأة وخطب له بنفسه عندهم فزوجوها له، والتزم الشيخ أداء صداقها من ماله، وكل ما اشترطوا عليه وبقي عنده في مواصلة ومودة إلى أن توفي الشيخ رضي الله عنه، فورث عنه ذلك السر بنوه، فكانوا يعظمون هذا الشريف أجل تعظيم وأعظم إجلال، وكان أمير الوقت منهم السيد أبو عبد الله محمد الحاج //201// رحمه الله على ذلك المهيع، يواصله بأعظم العطايا وأحسن الهدايا، في حظوة عظيمة عنده، يقبل ما جاء فيه شافعا أبدا ولو عَظُم خطره، فكان له في وقته صيت كبير. انتهى المراد منه.

وحكى غيره أنه ورد عليه أيضا بعض الشرفاء الصقليين من بني طاهر فشكى إليه حاله، وأنه خطب من بعض الفضلاء أولاد الشيخ سيدي يحيى بن بكار امرأة منهم تعلقت بها نفسه، كانت عند بعض أولاد الشامي ومات عنها، فامتنعوا من إعطائها لهذا الشريف لفقره وثروتهم، فأخرج إليه الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر ثوبا من ثياب الفراش إشاره إلى أنها تكون فراشا له، فسر بذلك غاية السرور، ثم إن الله تعالى يسر عليه أمرها فتزوجها وأسكنها دويرة غير صالحة بالحومة المسماة بجزاء برقوقة، ([2]) ثم إنه قدم على الشيخ مرة أخرى فسأله عن مسكنه فأخبره بذلك، فقال له: لا يكون هذا، بعد أن أسكنها الشامي في عرصة الريحان تسكنها أنت بتلك الدويرة، فاشترى له دارا بخمسمائة مثقال، بالموضع المسمى بدرب الخطار، وهي الآن باقية على ملك أولاده.

وحكي أنه رضي الله عنه أعطى لبعض الأشراف وقد تزوج جميع ما تحتاج إليه الدار من جليل الأشياء وحقيرها، وانفق في ذلك مالا جزيلا، فقيل له في ذلك فقال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: //202// ما قدر الدنيا حتى يبخل بها عمن لا يستحقها، فكيف بمن يستحقها.

وتواتر عنه أيضا رضي الله عنه تعظيم جانب العلم وأهله، والمبالغة في إكرام العلماء بوافر بذله، بما لم يعهد مثله لأحد من قبله، فمن ذلك ما ذكره سيدنا الوالد سقى الله ثراه، بوابل رحماه، في كتابه تحفة المعاصر، بما نصه: وكان سيدي علي بن يوسف الزعري التامگري شيخ الإمام أبي عبد الله مَحمد بن محمد بن ناصر الذرعي في العلوم الظاهرة، إذا بلغ به الاضطرار غايته، يتوجه ذاهبا لشيخه وعمدته في العلم، البحرِ الذي لا تكدره ([3]) الدلاء، أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر صاحب الدلاء، وكان رضي الله عنه ونفعنا به قد اشتهر فضلا ومنا، حتى أنسى ذِكرُه هَرِماً ومَعناً ([4])، فإذا وصل إليه في زاويته البكرية التي هي أعظم زوايا المغرب، يعطيه عطاء جزيلا يعيش فيه مع أهله، ويرجع مسرورا لبلدته، هذا دأبه معه في كل عام، أو كلما احتاج على مرور الأيام. وكان سيدي محمد بن أبي بكر يعطي عطاء لا يحد، ويفرق أموال لا تحصى ولا تعد.

---

1 – هذا خلاف ما في نشر المثاني ج1 ص248 من أنه توفي ليلة يوم الأحد متم شوال عام تسعة وأربعين وألف

2 – كذا، ويقال جزاء ابن برقوقة، وتعرف حاليا باسم "كزام برقوقة".

3 في المخطوط "تدركه" ولعله سبق قلم.

4 هرم بن سنان بن أبي حارثة المري، من مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، من أجواد العرب في الجاهلية، يضرب به المثل، وهو ممدوح زهير بن أبي سلمى. اشتهر هو وابن عمه " الحارث بن عوف بن أبي حارثة" بدخولهما في الإصلاح بين عبس وذبيان. قال الحارث ابن عوف، في قصة أوردها الأصفهاني: "فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى، فيؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير، في ثلاث سنين" وقال فيهما "زهير" قصيدته التي أولها: "أَمِن أُمِّ أَوفى دِمنَةٌ لَم تَكَلَّمِ ... بِحَومانَةِ الدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ". أما مَعنُ بن زائدة فكان من أكرم الكرماء، يقال فيه: حدث عن البحر ولا حرج.

وذكر لنا شيخنا سيدي إبراهيم بن علي الذرعي أن الشيخ سيدي محمد بن ناصر رضي الله عنه لما أراد شيخه سيدي علي الذهاب مرة للشيخ سيدي محمد بن أبي بكر، وكان يعرف ما يأتي به شيخه سيدي علي من عنده، أحب أن يبعث إليه يجازيه على فعله معه، فلم يجد شيئا إلا بيتين //203// ابتكرهما في مدح بعض أوصافه، وبعث بهما معه إليه وهما قوله:

لــــه يــــدان يـــد للظلــــم مقمعــــة	ويــد جــود تفيــد النـــاس أمـــوالا
كأنمــــا هـــــاتف الحـــــق يخاطبــــه	أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا

ولما وصل إلى الشيخ وناوله البيتين، قبّلهما وفرح بهما ودعا لسيدي مَحمد بن ناصر ونوه بقدره، وأشار إلى ما سيظهر من شأنه ويكون من أمره، وكان كذلك، وفرح بسيدي علي فرحا زائدا، وأعطاه فوق ما عهد، وتجاذبت أيدي علماء الزاوية وأدبائها إلى البيتين، وهَمَّ كل قادر بالجواب، وأجاب ولده الشيخ الإمام المفلق، فخر المغرب والمشرق، أبو عبد الله سيدي مَحمد المرابط بأبيات لم أستحضرها الآن انتهى.
وظاهر ما سبق بل صريحه، أن البيتين الذين بعث بهما الشيخ سيدي محمد بن ناصر إلى الشيخ ابن أبي بكر إنما كانا توأمين مستقِلين. ووجدت بخط الشيخ الإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أحمد المسناوي أنهما من جملة قصيدة، وأقول: إن ثبت ذلك عنده بالرواية فنعم، وإلا فمجرد افتتاحهما بضمير الغيبة الذي لابد له من معاد لا يدل على ذلك، لأن مثله كثير في كلام البلغاء، وهو من المقاصد المعتبرة عند أرباب المعاني، والله أعلم.
وفي تحفة المعاصر أيضا: وذكر لنا شيخنا سيدي إبراهيم المذكور أن الفقيه العلامة المشارك سيدي أحمد بن عمران //204// الفاسي لحقه مرة بفاس ضيق وشدة، فترك بها أهله على تلك الحال وذهب بنفسه للدلاء للشيخ سيدي محمد بن أبي بكر المذكور، فلما لقيه فرح به أتم فرح، وسر به غاية السرور، واستأذن في الإقراء بالزاوية هنالك فأذن له، وأقام بها مدرسا في نعم ومبرة، وإكرام ومسرة، فلما شرع في الإقراء بعث الشيخ رضي الله عنه مع بعض أصحابه لدار سيدي أحمد بن عمران لفاس بإقامة الدار من زرع وإدام وثياب ودراهم، وغير ذلك مما لم يَهِم به سيدي أحمد أبدا داره، ولا طمع أن تكون مواساته معشاره، ولم يعلم سيدي أحمد بما أرسل لداره، ولا ظن أنه أرسل إليها شيءٌ غير ما أرسل هو مما أعطاه الشيخ عند لقياه وابتدائه الإقراء، وأقام على الإقراء والتدريس إلى أن وصل موسمٌ وأراد الشخوص لداره بفاس لينظر حالهم وما تركهم فيه، فاستأذن الشيخ في ذلك فأذن له وأعطاه أيضا ما يلقاهم به، وكان يظن أنه يلفيهم على ما تركهم من الإقتار، فلما وصل ألفى داره مملوءة خيرا، وأهله في سرور من ذلك وغبطة، فسألهم: من أين أتاكم هذا؟ فقالوا: من عندك بحمد الله وشكره. ورجع عوده على بدئه، ووافقه أهله على العود، ولما وصل وأثنى على فعل الشيخ ذلك، ألقى عصاه واستقر مطمئن الخاطر من نفسه والأولاد، إذ دخل في ساحل إنعام وإمداد.
وأعظم من هذا في إكرام الشيخ رضي الله عنه وبروره وإنعامه، ما ذكره //205// شيخنا العلامة الحافظ أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في ترجمة الشيخ العلامة المحقق أبي العباس أحمد بن علي بن عمران المذكور في تاريخه الكبير، أن الشيخ أبا العباس بن عمران المذكور وفد على الشيخ الإمام، العارف الهمام، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي لزاويته الدلائية، وكانت دار علم ومعروف، وبالإطعام والصِّلات والبر ذلك البيت موصوف، معينا دأبا للمساكين والضعفاء، يُجلُّونهم ويكرمونهم ويعظمونهم الإكرام العام، والتعظيم التام، ففرح به وأجل مكانته، وجَلّلَ [1] وفادته، وكان أيام إقامته عنده يتعشى معه كل ليلة، ويبعث إليه بطعام آخر مخافة أن يكون لم يستوف غرضه من الأكل حياء، فلما كان ذات ليلة بعث إليه بالعشاء على العادة فلم يصله لعارض اقتضى ذلك، فذُكر بعض ذلك للشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، فدعاء أبا العباس بن عمران المذكور وسأله، فأخبره بأنه لم يصل إليه شيء، فقال له كم فيه من الحروف؟ فعدها فأعطاه بكل حرف دينارا ذهبا، برورا به وزيادة إكرام له.

---

1 – في المخطوط "أجلل".

وحضر الشيخ رضي الله عنه يوما مجلسه وهو غاص ببنيه وذوي قرابته ومودته فقال لهم رضي الله عنه: من أحبني منكم فليعط لهذا الشيخ، يعني أبا العباس بن عمران المذكور //206// فأتى كل واحد من الحاضرين بما قدر عليه، ثم بلغ ذلك النساء فأعطت كل واحدة منهن ما قدرت عليه من قرط أو سوار أو غيرهما، ثم بلغ الخبر أهل السوق وأهل البوادي فانجفلوا إليه، فكان الرجل يأتي بالفرس وغيره مما تيسر له فيعطيه له، وقامت سوق عظيمة كأنما صاح بهم صائح ودعاهم لذلك داع، شأن من كان يتكلم بالله وعن الله، وكان ذلك آخر النهار، فجعل الشيخ أبو العباس بن عمران يتلهف ويقول: ليت هذا كان أول النهار، ورجع إلى أهله مملوء الحقائب، وتلك كانت عادة الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر مع الوفود وغيرهم.

ولما أُسِر بعض أولاد الشيخ سيدي أبي عمرو، شيخ والده، وخرجوا في طلب الفداء، في دولة الأمير أبي المعالي زيدان بن الخليفة أبي العباس المنصور، وردوا على الأمير بحضرة فاس، وكان الشيخ إذ ذاك بها يطلب العلم، فلما علم بهم جمع جميع ما لديه من الدراهم وكانت معدة عنده لشراء الكتب العلمية، واستسلف دراهم أخرى من بعض أهل فاس، فخرج إليهم ووضع الدراهم بين أيديهم وقال لهم: هذه الدراهم من داركم، يعني التي أراد أن يشتري بها الكتب، وهذه قد استسلفتها، ولم يبق إلا أن تجعلوا لي حبلا في عنقي وتبيعوني، فإن لم أساو قيمة فاجعلوني عوض أحدكم، ثم بعث إلى الشيخ سيدي أبي بكر يخبره بأمرهم فجمع لهم من المال ما كان كصبرة ([1]) //207// من طعام، ولما حضر ذلك المال بين يديه قال له بعض الناس: هل أعجبك ما فعل خدامكم مجاط؟ وكانت لهم اليد البيضاء في ذلك، فقال: إنما أعجبني فعل مُقَلِّبِ القلوب.

وأما جوده رضي الله عنه فحدث عن البحر ولا حرج، فإنه كان فياض العطاء واسع المعروف، يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، ولا شيئا يرى عنه عاقه، ورفع إليه مرة أخوه العلامة الهمام أبو محمد عبد الكريم بن الشيخ الولي العارف الكبير سيدي أبي بكر رضي الله عنه بيتين من الشعر وهما:

أتــاكم أخــوكم يبتغــي الفضــل مــنكم	ويرجو من الخيرات ما ليس يوصف
فــإن أبعدتــه منــك ســوء أخــوة	فإنــك فــي حســن الأخــوة يوســف

فأعطاه مائتي مثقال ثنتين، لكل بيت مائة.

ولهذا الشيخ ووالده رضي الله عنهما وأولادهما رحمهم الله أفاعيل كثيرة، وقضايا ومعاملات أثيرة، وعطايا غزيرة، حسبما ذلك مشهور، عند الخاص من الناس والجمهور.

الفرع الثالث في إطعامه الطعام، وإفاضة بحر عطاياه على الخاص والعام.

لا يخفى أن سنته رضي الله عنه في إطعام الطعام للوارد والصادر //208// على الدوام، هي من العوائد الخارقة، التي وردت بها الأخبار الصادقة، قال أبو عبد الله محمد الصغير الإفراني المراكشي في كتابه الصفوة أن الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنه كان يطعم كل يوم خمسة وعشرين صحفة من الزرع، وربما أطعم في بعض الأيام أكثر من ذلك، وأما السمن اتخذ له ينابيع ينصب لها من قواديس جالبة له من قدور نحاس كبار معدات لذلك، وهذا أمر لم يسمع به من أحد اهـ

وقال غيره: إنه كان رضي الله عنه آية باهرة من آيات الله في إطعام الطعام، للخاص والعام، بحيث يقطع من يشاهده ويراه أن ذلك إنما يتأتى لمن ينفق من مادة الكون، وكان يجعل قيمات من النساء على الطعام، تحت كل قيمة عدد كثير من إماء الخدمة، فيدفع من يقدمه لذلك لكل واحدة من القيمات من الدقيق وما يتبعه على قدر

---

1 – الصُّبْرَةُ: الكُومَةُ من الطَّعام. ويقال: اشْتَرَى الطَّعَامَ صُبْرَةً: أي جزَافاً بِلاَ كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ.

من تحت يدها من الخدم، ويوظف عليها من أواني الطعام العدد الذي يتحمل ما دفع لها، فإذا كان وقت الإطعام حُزِر من بالحضرة من الأضياف وغيرهم، وتؤمر كل واحدة من القيمات بدفع ما عندها، فإن وجد حسنا كوفئت أحسن المكافأة، وإلا فأشد العقاب، وكانت له برمتان معدتان لطعام المساكين، لكل واحدة قيم يخصها، أقل ما قيل أنها تسع كل واحدة من اللحم بقرتين أو ثلاثا، والكسكاس الذي يوضع على كل واحدة يسع أكثر من وسق، ويلقى تحتها //209// في الدفعة الواحدة من الحطب حمل الدابة الكبيرة، والجفنة التي كان يجعل لهم [فيها] ([1]) الطعام تكفي المئين من الناس وتدعى قديحة ([2])

ومن ثم وجوده ينمو، حتى بنى صهريجا بقواديسه وعده للطعام، ولكثرة ما يصنعون من الطعام كانوا لا يعالجون تبريد ما يحتاج لتبريده كالكسكس إلا بالألواح التي يذرى بها الزرع عند الدراس، وكان على حاشية الصهريج المذكور سواري أربع وبينها خشبتان مكتوب في الأولى بخط جيد كوفي:

ألا كــل هنيئــا ولا تحتشـــم   فما الاحتشـام فعـال الكـرم ([3])

وفي الثانية:

فمـا الجـود والفضـل إلا لمـن   يجـود علينـا ([4]) بنقـل القـدم

هذا شأنه على الدوام، وفعله مع الخاص والعام، ويطعم الناس من أمواله وغيرها مما يفتح الله به عليه، ويطعم أهل الحواضر طعام الحاضرة، وأهل البوادي طعام البادية، وينزل الناس على قدر منازلهم في الدين والنسب، والحال والحسب، وكان يعول ديارا كثيرة، ويقوم بمؤن أثيرة، من أهل الحاجة والأيتام والأرامل والضعفاء والمساكين والمتفرغين للعبادة أو لطلب العلم، ويعين كثيرا منهم بحسب الحاجة والإمكان، وكان رضي الله عنه في سنة من سنين الغلاء يطعم كل يوم سبعة آلاف من أهل المرقعات، زيادة //210// على الواردين عليه والمنضافين إليه من طلبة العلم وغيرهم، ولقد أطعم في يوم واحد عمل فيه سابع المولد النبوي، على المتعارف في ذلك، سبعين ألفا بين الزائرين وبين الواردين لحضور جميع ذلك الموسم، ومن سكان الزاوية من الطلبة وغيرهم، ولم يقم من موضعه ذلك يومه لشغل قط إلا للصلوات، وهذا أمر لم يتفق لأحد غيره.

وكان رضي الله عنه تأتيه التجار بأنواع الثياب من سائر البلدان فيشتريها منهم ويرضيهم، فإذا كان فصل الخريف عند استقبال فصل الشتاء، دعا الأشراف فأعطى كل واحد ما يحتاج إليه، فمن كان ذا عيال أعطاه ما يكفيه هو وعياله، ومن كان خاليا من العيال أعطاه القدر الذي يكفيه في نفسه، فإذا فرغ منهم، أي من الأشراف، فرق على طلبة العلم ما يحتاجون إليه، كل على حسب حاله، فإذا فرغ منهم أمر المنادي أن ينادي في البلد: ألا من احتاج الكسوة فليأت اليوم الفلاني لزاوية محمد بن أبي بكر، حتى يعم النداء الناس، فإذا كان ذلك اليوم اجتمع عنده من الخلائق ما لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، فيقسم عليهم جميعا ما بقي من الثياب حتى يصدروا عن آخرهم.

وكان رضي الله عنه يبعث مواشيه إذا أقبل عيد الأضحى إلى نواحي المغرب، من فاس ومكناسة ومراكش وسلا وقصر كتامة وتطوان وتافيلالت وذرعة وغيرها، لتفرق على المحتاجين من الأشراف والطلبة وغيرهم //211// إعانه لهم على أداء سنة الأضحية، وأما عطاياه المخصوصة بالبعض، ونوافله الزائدة على الفرض، فلو أفرد لها

---

1 – إضافة يقتضيها السياق.

2 – الحرف الأول منها في المخطوط إما فاء أو باء، لكننا أثبتنا ما في نشر المثاني ج1 ص 346 وهو "قديحة" بالقاف.

3 – في المخطوط "الكرام" وقد ورد البيتان في ص41 من كتاب "مطالع البدور ومنازل السرور" لعلي بن عبد الله الغزولي البهائي الدمشقي ت 815 هـ (الطبعة العتيقة)، وفيه "الكرم" عوض "الكرام" ويبدو ذلك أنسب لأن الكريم قد يحتشم ولا يشينه ذلك أو يزيل عنه صفة الكرم، فتأمل.

4 – وفي المصدر السابق "تفضل إلينا" عوض "يجود علينا".

ديوان مستقل لم يجمع منها إلا ما ينزر ويقل، فإنه رضي الله عنه كان مُنتَجَع الوفود من مشارق الأرض ومغاربها، وكعبة حج ذوي القُصود على اختلاف طبقاتها ومراتبها، فكان يجيز كلا على قدره، ولا يدخر على أحد شيئا من بِرِّه وبشره، بل يبذل لهم ما حضر لديه، ويسوق إليهم ما ساقه الله إليه، ولا سيما كبراء الأقدار، وذوي الصيت والاشتهار، من الشرفاء والفقهاء، والأعيان النبهاء، هكذا والله يكون الجود والكرم، لا ما تسمعه عن حاتم وغيره من أجواد الأمم، فلو أدركه بعض من سلف لقال: إنما الدنيا ابن أبي بكر لا أبو دُلف ([1]).

تلك المكارم ولا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

فشتان بين من ينفق من الغيب، وبين من ينفق من الجيب، بل لا نسبة بين من يكون جوده طبعا ورحمة وتوكلا وقربة وزهدا في الدنيا، وبين من يكون طبعا ([2]) أو جَلبا أو دفعا أو لتكون يده هي العليا، وبالجملة فهذا الشيخ أحد أكابر مشايخ أهل المغرب وأكثرهم كرما وسخاء، وأوسعهم بذلا وعطاء، لم يتفق لأحد قبله ما اتفق له من الأنباء، والعطاء والجود والسخاء، زاهدا في الدنيا، يتقوت من طيب كسبه، وكل ما يفتح الله به عليه منها يصرفه في المعروف، رحيما //212// بالمؤمنين رضي الله عنه ونفعنا به.

الفرع الرابع: في ورعه وزهده، وإعراضه عن الدنيا وبعده.

كان رضي الله عنه يصرف جميع ما يهدى إليه في مصارفه الشرعية، ولا يتلبس منه لنفسه وأهله بما فيه شبهة وهمية، يحكى أنه وردت عليه مرة هدية من قبل الفقيه العابد، الرئيس الجليل الماجد، ذي الفضل الفاشي، أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد العياشي، قدس الله روحه، وبرد ضريحه، صحبة ولده الفقيه الأجل، النزيه الأفضل، أبي محمد عبد الله، إذ جاء زائرا للشيخ عن إذن والده المذكور أواخر ذي القعدة الحرام، عام ثلاثة وأربعين وألف، وكانت هديته هائلة، تشتمل على أنواع الملف والكتان، وغيرهما من الثياب الرفيعة الغالية الأثمان، فاستعظمها الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه وقال: ما هذه هدية الفقير للفقير، ثم دعا أكبر أهل بيته وهو ابن عمه الفقيه العالم العامل سيدي أبو القاسم بن إبراهيم، فشاوره في أمرها ليرى رأيه فيها، فقال: أرى أن تجعل في الصناديق إلى أن يظهر لنا ما تصرف فيه، فقال له الشيخ سيدي محمد: لا والله لا باتت عندي منها خرقة ولا أظلها لي سقف، ففرقها في الحين //213// على الضعفاء والمساكين، والعلماء والشرفاء وغيرهم من عباد الله المسلمين، ولم يتلبس منها بجليل و[لا] حقير ولا قليل ولا كثير.
وكان رضي الله عنه يقول: قفة تبر عندي كقفة تبن.
وكان يقول: إذا ارتحلتُ من موضع إلى موضع بموزونة واحدة فالله يسمرها في جبهتي. وكان رضي الله عنه لا يصر الدراهم، بل كان لا يمسها بيده، وكان يقول: الرجل إذا صارت الدنيا في كفه كحبه من خردل يقلبها كيف يشاء، كيف يحتاج إلى حمل الدينار والدرهم. وهذا يدل على قطبانيته رضي الله عنه.

---

1 – يقصد الشاعر أبا الحسن بن علي بن جبلة الخراساني المعروف بالعكوك، فهو القائل في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي:

إنمـــا الـــدنيا أبـــو دلـــفٍ بـــين مغـــزاه ومحتضـــره
فـــإذا ولّـــى أبـــو دلـــف ولّـــت الـــدنيا علـــى أثـــره

2 – جعلَ غلبة الطبع مشتركة بين الاثنين، والاختلاف فيما يتبع ذلك من نية حسنة أو سيئة.

وكان لا يذكر الدنيا ولا يدع من يذكرها بين يديه رفقا بأصحابه وحملا لهم على الجادة النافعة للقلوب. وقد سبق أنه أعطى لبعض الأشراف وقد تزوج، جميع ما تحتاج إليه الدار من جليل الأشياء وحقيرها، وأنفق في ذلك مالا جزيلا، فقيل له في ذلك فقال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ما قدر الدنيا حتى يبخل بها عمن لا يستحقها فكيف بمن ([1]) يستحقها.
وبالجملة فكان رضي الله عنه ممن له قدم صدق في الورع، مع تأييده بالعلم الكسبي والوهبي، وإمداده بالنور الإلهي القلبي، فكان لا يستعمل إلا ما علم أصل حِلِّيته، وأكثر عطاياه التي سبق ذكرها، لا يحمل إلا على الزهد والورع أمرها. //214//

الفرع الخامس في بعض ما كان يصدر عنه من الكرامات، التي لا تصدر إلا عمن كان فيه أعلى المقامات.

اعلم أن ما كان يظهره رضي الله عنه من الكرامات ويبديه، إنما هو نزر قليل في جنب ما كان يضمره ويخفيه، وما كان يصرح ولا يشير بالمغيبات، إلا عند غلبه الأحوال عليه بحسب الواردات، أو عند الاستدلال على المنكِر ليطمئن قلبه بمشاهدة ما يسهل صعبه، أو غير ذلك مما يدعو إلى الإفشاء، بطريقي الإخبار أو الإنشاء، بل أكرمه الله تعالى بأسنى الكرامات، التي من جملتها أن أحيى له بعض الأولياء الأموات، وشافهه بحسن عاقبه أمره، واشترط له شروطا تنفعه في سره وجهره.

قال أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولالي في مباحث الأنوار ان الشيخ أبا عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنه كان له مقام رفيع في التصرف بالهمة، وفي موافقة القدر لقوله، حتى روى عنه أنه كان يقول: إني لأتكلم بالكلمة هزلا فتكون حقا، وأطلب الإقالة منها فلا أجدها، وكل ما أقول فاكتبوه.
وأخبرني عنه أبي رحمه الله بأمور كثيرة من الكشف، منها أنه قال لما التقى الجمعان، أعني جمع قبائله وجمع القبائل المعترضين له، //215// اذهب إليهم وانزل في العمارة الفلانية، وكانت عمارة من جهة العدو، لتمنعها من أخذها، فإن ذلك الفريق يغلب، فذهب ونزل في تلك العمارة، فكان الأمر كما قال.

ومنها أنه سأله عن امرأة له وكانت بنت صاحب الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر، ما حالها؟ فقال له الوالد: إنها تشكو عدم الذرية، فقال له الشيخ ابن أبي بكر رضي الله عنه: أخبرها بأني ضمنت لها ثلاثة، وأشار بأصابعه الثلاثة إلى جبهته، فكان الأمر كما قال، تزايد لها ذكور ثلاثة وعاشوا حتى كانوا بأولادهم.
ومنها أنه قال لأبي: ملوية لقبائلكم أربعين سنة، فقال له: ثم لمن؟ قال: ثم تكون في أيدي السمسار، فكان الأمر كما قال، كانت لقبائلهم أربعين سنة ثم أُخرِجوا منها وصارت تتداولها القبائل. ومنها أنه أخبره أن القبائل الأعداء له ولقبائله بعد غيبتهم يعودون لعداوتهم ثم يُغلبون.

ومنها أن الشريف الأجل، العالم السني الأكمل، أبا عبد الله بن علي بن طاهر الحسني المدغري كان له ولد عزيز اسمه عبد الهادي، فغاب بفاس وهو حينئذ معه بالزاوية البكرية، والطريق مخافة، فتخوف على ولده واشتد شوقه إليه، فلما رأى الشيخ شدة شوقه لولده، وكان يعرفه ينكر وقائع الفقراء وطريق الكشف، قال له: ما تقول يا مولاي عبد الله إن أخبرتك بشيء مما يخبر به الفقراء من الغيب //216// وكاشفت لك اليوم؟ فقال له: وما ذلك؟ فقال: إن ولدك مولاي عبد الهادي هو الآن في كذا، ويأتيك قريبا في كذا، فقال له: ننظر ما تقول، فكان كما

---

1 – في المخطوط "عمن"، وسبق أن ساق العبارة بلفظ "بمن"، وهي كذلك بلفظ "بمن" في نشر المثاني ج1 ص347

قال، جاءه في الوقت واليوم الذي عين له، وسئل أين كان في الوقت الذي ذكر الشيخ أنه الآن فيه؟ فأخبر بما يطابق ما قاله رضي الله عنه، فقال له: لقد وافقك القدر، ولم يستطع أن يقول: إن ما يقوله الفقراء صحيح، حفظا على الجري على ظاهر الشرع والعادة.

وحكى غير صاحب المباحث أن الشيخ ابن أبي بكر رضي الله عنه كان ذات يوم جالسا مع الفقيه العلامة سيدي إبراهيم بن محمد والعلامة سيدي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني المذكور سابقا، وهم يتداولون الكلام فيما بينهم في العلم الخفي والسر الجهري، إلى أن بلغ وقت الظهر فقام الشيخ بن أبي بكر يؤذن، فلما قال لا إله إلا الله غشي عليه وهو واقف على رجله اليمنى حتى كاد أن يسقط، فصاح به السيد إبراهيم المذكور ظانا أن ذلك من دوران الأذان، فقال مولاي عبد الله بن علي بن طاهر المذكور: ويحك وفرحك، لما تأخرت رجله عند ذكر لا إله إلا الله انجمع بساطُ الأرض كله تحت قدمه، ولما غشي عليه بسطه من يقول للشيء كن فيكون، ثم قال الشريف بن طاهر المذكور للسيد إبراهيم المذكور: سبحان الله، قد بلغ ابن أبي بكر مبلغ من لو أقسم //217// على الله لأبره، ومنها أنه لما زار قبر الشيخ أبي وكيل دفين زيز، حين خرج من بلاده مغاضبا لآيت أمالو، خرج إليه الشيخ أبو وكيل من قبره وكلمه في شأن الذين أغضبوه، وأخبره أن الله سينتقم منهم وأن العاقبة له، فكان الأمر كذلك. وأخبر بعض الثقات من أبناء الشيخ أبي وكيل أنه دخل على الشيخين إنسان في وقت الملاقاة، فلما أشرف عليهما غاب الشيخ أبو وكيل في قبره، فدعى ابن أبي بكر على ذلك الإنسان بالعمى فاستجيبت دعوته في الحين، نسأل الله السلامة والعافية اهـ

وقد رئي غير ما مرة في زيارة ضواريح الأولياء أنهم يخرجون إليه من رواميسهم ويجالسونه ويكلمونه، ويتفاوض معهم في الأمور حتى يقوم فيرجعون لقبورهم.

ومن كرامته رضي الله عنه أن بعض المستضعفين من أهل زيز شكى إليه أيام إقامته عندهم بما فعله بعض أعيانهم، وذلك أنه أخذ من أعلى الوادي ساقية كبيرة لنفسه وترك من تحته لا يصل إليهم ماء، فكلم الشيخ ذلك الإنسان فلم يمتثل أمره، فرفع الشيخ أمره إلى الله، فأرسل الله تبارك وتعالى السيل وأجرى الوادي، والسماء صاحية ليس فيها قزعة سحاب، فأفسد محل وقع الساقية بقدرة الله سبحانه.

ومنها ما ذكره الشريف طاهر المذكور للسيد إبراهيم المذكور وقَصَّه: جلسنا معه ذات //218// يوم ونحن نخوض في إغاثه الأولياء، فقال له رجل: يا سيدي هل الأولياء الذين ماتوا بنحو خمسمائة سنة وأكثر وأقل يغيثون من ناداهم واستغاث بهم؟ فقال الشيخ: نعم، وأقول لك إن سلطان وقتنا الآن بمراكش قبض على عشر سياب لصوص، وكان كل يوم يقتل واحدا منهم بالسيوف إلى آخرهم، فحين ذهبوا به لمجزرة السوق ليقتل كان يقول: يا أهل الله يا أضيافي أغيثوني، فلما بلغ المجزرة جعل يقول: يا أهل الله يالكمَّال غيثوني، فرفعه من بينهم رجل من زيز ورجل من مراكش ورموه في السماء وقبضه رجل بتادخسالت وطرحه إلى الأرض لئلا يقتله الهواء، ثم قال له: الرجل الزيزي هو أبو وكيل، والمراكشي عياض، والذي طرحه إلى الأرض هو هو انتهى.

ومن كراماته رضي الله عنه أنه لما ارتحل لحضرة فاس بقصد طلب العلم والأخذ عمن بها من الأشياخ، اشتاقت إليه أمه ذات [يوم] (1) وهي بالدلاء فجعلت تنادي: يا محمد يا محمد، وجداً به وشوقاً إليه، فسمعها وهو نازل في مدارج مدرسة العطارين من فاس، وبيده قلة يريد أن يملأها ماء، فخرج من يومه ذلك فقدم عليها إجابة لندائها وابتغاء لمرضاتها.

ومنها أنه كان لا يهتم لغيبة أحد من بنيه وأقاربه كاهتمامه لغيبة ولده الفقيه العلامة الحافظ الدراكة المحدث الأستاذ سيدي محمد المدعو المسناوي، فإنه كان لا يقر له قرار ما دام //219// غائبا، بل لا يزال يسأل عنه

---

1 – إضافة يقتضيها السياق.

كل ساعة هل جاء أم لا، مهتما به قلقا لأجله، مع أن من أولاده من هو أحب إليه منه، وما ذلك إلا لما كوشف به من أنه يموت مقتولا، فكان ذلك بعد موت الشيخ رحمه الله.

ومنها أن الحرب وقعت بين قبيلة مجاط وأضدادهم من بني إسحاق، فقال له بعض من كان يلازم خدمته ويظهر محبته من بني إسحاق: يا سيدي إن غلبت مجاط فلا تصلح لشيء، وإن غلبت بنو إسحاق فقد أخذتك النفس، فقال له: دعها تتام، فدامت الحرب بينهما من أول النهار إلى غروب الشمس، فافترقا ولم تغلب إحدى القبيلتين الأخرى.

ومنها أنه لما أراد أن يتوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، شق فراقه على أمه وأسفت لذلك كل الأسف، فلما رأى منها ذلك قال لها: أو ما كنت وهبتني لله أيام كنت حاملة بي؟ فتعجبت من ذلك وقالت: يا ولدي كان ذلك ولكن لم يطلع عليه إلا الله تعالي. وذلك أنها لما أحست بحمله خلت بموضع وأشارت لما في بطنها وقالت: وهبتك لله، أو قالت: إن كنت ذكراً فأنت لله.

ومنها أنه كان بموضع خارج الزاوية فخرج عليه اللصوص، فدخل في غار فجعلوا ينتظرونه على باب الغار، فأخبروا أنه بالمسجد يدرس العلم، فأتوا المسجد فوجدوه فبهتوا وتابوا إلى الله على يده.
ومنها أنه كان في وجهته الحجازية في بعض المواضع فجاء //220// طائر ووقف بإزائه وجعل يترنم، فلما سمعه الشيخ رضي الله عنه بكى وقال: إن هذا الطائر نعى إلي إخوتي وأولادي، ثم قال: إن عاش لي والدي سيدي أبو بكر حتى أراه فكل مصيبة بعده جلل. فلما بلغوا مدينة طرابلس متلقى الركب [1]، وهم قافلون، أتاه نعي إخوته وأبنائه كما ذكر.

ومنها إخباره بما آل إليه أمر بنيه من الرياسة والملك، فكان يقول لهم: إن الله مبتليكم بنهر من الملك، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني. ثم يقول: قال الله العظيم (إلا من اغترف غرفة بيده) وأنا أقول: ولا من اغترف.
وقال يوما لأخته: سيجعل لكم محمد، يعني ولده المعروف بالحاج، سلما تصعدون معه فيه وتدَعون أخنيف، يعني ثياب المسكنة، فترجعون فلا تجدون أخنيف، وتلتمسون السلم فلا تجدونه، فكان الأمر كما قال، فإنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم اجعل لنا في القضاء لطفا، وفي المكتوب رفقا، وفي اللطف رحمة.

ومنها أنه أخبر يوماً بأن خيلاً بموضع كذا، معلوم لا يدرى ما هي، فقام فزعاً وقال: الله طار قلبي إلى أن كاد يخرج من فمي، ثم قال لمن أخبره لو علمتم ما يأتيكم من ذلك الموضع، فكان ورود الرشيد لأخذ زاوية بنيه من ذلك الموضع.

ومنها أن صبياً انكفأت على فخذه قدر بعدما اشتد غليانها فاحترق فخذه حتى ظهر العظم، فحمل إلى الشيخ فمسح ذلك المحل، وأمر الأمة الحاملة له أن //221// تبيته في ظهرها، ففعلت، فلما أصبح الصبح التُمس الصبي فلم يوجد به أثر والحمد لله.

ومنها أنه وقع حريق مرة بجواره، فجعل يشير إلى النار بطرف ثوبه على بعد منها، وقد اشتد اشتعالها وخشي الناس منها، فخمدت من حينها من غير سبب ظاهر والحمد لله.

ومنها أنه وقف يوما على برمة طعام وهم يغترفون منها للأضياف، فجعلوا يأخذون منها حتى أطعموا منها خلقا كثيرا يستحيل عادة أن تكفيهم، ولم ينقص ما فيها من الطعام، فضجت من ذلك بعض زوجاته التي كانت قائمة

---

1 – في المخطوط "الأركاب"، وقد أثبتنا ما في نشر المثاني.

على ذلك وقالت: حتى متى لا تفرغ هذه البرمة؟ فعنفها وقال: ها هي قد تمت، فلم يرفعوا منها بعد ذلك إلا ما لا بال له.

ومنها أن بعض بنيه جاءه يوما وقد نفذ الطعام وفرغ الناس من الأكل، فسأل: هل بقي شيء من الطعام؟ فأتى بفضلة يسيرة جدا فضلت عن بعض الآكلين لا بال لها أصلا، فأمر بها فغطيت بما يقال له في العرف المكب، فبقي كذلك مدة ثم عجلت بعض نسائه لرفع الغطاء فإذا الإناء ممتلئ طعاما، فقال لها الشيخ: لو تركته لسقط المكب وحده لامتلاء الماعون بالطعام.

ومنها أن ولده الشيخ العلامة، الإمام القدوة الصالح البركة، الحاج الأبر الخطيب البليغ، حائز قصب السبق في العلوم اللسانية في عصره، أبا عبد الله سيدي محمد الشهير بالمرابط أخبر //222// بأنه كان يعتريه في ابتداء أمره وسواس في العقائد والعياذ بالله، فشق ذلك عليه حتى كان كثيراً ما يريد أن يلقي نفسه من بعض الشواهق، فحضر مجلس والده في التفسير يوماً بين العشاءين والمجلس غاص بالطلبة والعلماء، فجلس في أخريات الناس من المجلس، وبينه وبين والده الشيخ خلق كثير، وأدخل رأسه في ثيابه وقال: يا أبت إني أشكو إليك نفسي، ثلاث مرات، والشيخ إذ ذاك في أثناء التدريس يلقي إلى الحاضرين مما لديه من العلوم والمعارف، فالتفت إليه وقال يخاطبه: قد أمناك في نفسك، ثلاث مرات، قال سيدي محمد المرابط: فلم أجد بعد ذلك ما كنت أعهده من الوساوس من ليلتي، بل شفاني الله منه شفاء تاماً.
وأخبر أيضا أنه كان يأتيه المدد ويراه عيانا من قِبَل أبيه كالنهر. انتهى.

ومنها ما أخبر به الشيخ سيدي محمد المرابط المذكور أنه كانت بإحدى عينيه سلفة كادت أن تطمسها، وخشي على بصره أن يذهب بسببها، فاغتم لذلك وهاله أمرها، فتذكر أمر الصحابي الذي كانت بكفه سلفة منعته من إمساك السيف فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وشكا له ذلك، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يلمسها بيده الكريمة حتى ذهبت واضمحلت كأنها لم تكن، فلما أن تذكر ذلك أتى والده فشكا إليه ما بعينه، فوضع الشيخ يده عليها وهو يتلو آيات قرآنية، قال وكلما أراد أن يرفع //223// يده قبضت عليها، فما انقضى يومه ذلك حتى شفاه الله منها.

ومنها أن رجلا أخذ عنه الورد، فلما انفصل عنه قال: لأرجعن إلى الشيخ فإما أن يريني بركته في الحين وإلا رددت عليه ورده، فرجع إليه، فلما رآه الشيخ كاشفه بما في نفسه وقال له: ما أعطيتك الورد حتى أذن لي النبي صلى الله عليه وسلم، وها هو، فالتفت الرجل فرأى النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع الشيخ.

ومنها أنه كان ذات يوم جالسا تحت شجرة مع بعض أصحابه فقال أحدهم: إن الجنيد رضي الله عنه قال يوما لأصحابه وهو جالس على جبل: أعرف رجالا لو قال أحدهم لهذا الجبل تحرك لتحرك، فتحرك الجبل، فقال الجنيد: اسكن، إنما ضربنا لك مثلا، فقال الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر: أعرف رجالا لو قال أحدهم لهذه الشجرة أمطري رطبا وتفاحا وذهبا وفضة لأمطرت، فأمطرت تلك الشجرة الرطب والتفاح والذهب والفضة، فقال لها الشيخ: اسكني، إنما ضربنا لك مثلا، وكانت الشجرة زيتونة، ولم يكن وقت تفاح ولا رطب.

ومنها أنه كان يوما بمجلس قراءته إذ أتى طائر ودنا منه وجعل يترنم، فكلمه الشيخ بما لا يفهم، فلما فرغ من قراءته سأله بعض أصحابه عن ذلك فقال له: إن ذلك الطائر رجل من أولياء الله أتى يخبرني بموت بعض الرجال بمكة المشرفة، وأنا سائر لأحضر الصلاة //224// عليه، فقال له الرجل: هل تعرف منطق الطير يا سيدي؟ فقال الشيخ: نعم.

ومنها أن إنسانا شكى إليه ابنة له تصرع، فقال له الشيخ: إن جاءها ذلك فقل في أذنها: محمد بن أبي بكر يقول لك: تنحى عن هذه الصبية ولا تعد إليها أبدا، ففعل أبوهما ما قال له الشيخ رضي الله عنه فشفاها الله من يومئذ ولم يعد إليها ذلك أبدا.

ومنها أنه كان يوما جالسا مع بعض أصحابه، إذ أخذ إحدى نعليه ورمى بها في الهواء فغابت عن أعين الحاضرين، فبقوا متعجبين من ذلك ولم يستطع أحد يسأله عن ذلك، فلما كان في بعض الأيام، قدم جماعة من التجار ومعهم أحمال من السلع فوضعوها بين يدي الشيخ رضي الله عنه، ففتحت بين يديه فإذا النعل في وسطها، فسُئلوا عن ذلك فقالوا: بينما نحن مسافرون إذ خرج علينا اللصوص فعزلونا عن الأمتعة وجلسوا يقسمونها، فاستغثنا بالشيخ سيدي محمد بن أبي بكر فإذا نعل من نار سقطت من الهواء بين أيديهم فأحرقتهم فقاموا هاربين وتركوا الأمتعة، فجئنا إليها فوجدناها كما هي والنعل في وسطها، فعلمنا أنها نعل الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر فجئنا بها وبهذه السلع هدية.

ومنها أن رجلا كان يطلب منه الملاقاة مع القطب وألح عليه في الطلب، فقال له: اذهب إلى الموضع الفلاني، وَعَيَّنَهُ له، تجده هنالك، فمشى الرجل مسرعا إلى ذلك الموضع فوجد الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر //225// وقد كان تركه في الدلاء، وبين الموضعين مسافة بعيدة.

فهذا ما لهذا الشيخ المبارك الجليل من الكرامات والمناقب والمآثر، والأوصاف الحميدة والمفاخر، وإلا فأوصافه الجميلة شهيرة، وشمائله الجليلة كثيرة.
قال في مباحث الأنوار: ووقائعه رضي الله عنه في هذا أكثر من أن تحصى، أو تحد وتستقصى، قال: وكان لأبي عنده مكانة بعيدة، ومنزلة رفيعة، وكان لأبي فيه نية صالحة، ربما كان يعتقد فيه المرتبة المعروفة بالقطبانية.
ومن مواصلته له ومحبته فيه المحبة العظيمة حصل منه انتفاع عظيم في الدين والدنيا، وكان أبي رحمه الله زمن شبيبته يسكن في الدلاء، في جوار الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، يلتمس منه البركة لما اشتهر أمره وفاض بحره وظهر تصدره وانتفاع العباد به، وفي بعض أوقات مجاورته له أغار بعض الظلمة على جيرانه، ومنهم أبي، فأخذوا من بيته ما وجدوا، ولما سمع به الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر جاء يسعى إليه على قدميه على كبر سنه وجلالة قدره، فلما سمع بسعيه المحاربون فروا حياء منه وهيبه له، فسأل عن أبي بعد أن تصدعوا عنه، فأتي به إليه فقال له: يا ولدي ما همني إلا خوف قتلك، فإذا سلمت بنفسك فلا أبالي، والدنيا يخلفها الله تعالى، فأخذ بيد أبي متحننا عليه كالأم تتحنن على ولدها //226// الصغير، ثم إن الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه في آخر ذلك اليوم خرج إلى أصحابه فرحا مسرورا، حتى إن أصحابه جعلوا يتعجبون من شدة فرحه فرحا لم يروا مثله منه قط، ثم سألوه عن وجه سروره فقالوا: يا سيدي ما هذا السرور اليوم؟ هتك المحاربون حرمة ولد الشيخ سيدي محمد بن يعقوب وهو بجوارك ولديك، وأنت في هذا الفرح وهذا السرور، فقال لهم رضي الله عنه: ومالي لا أفرح ومثلي من يفرح أكثر من هذا، فإن أولئك الظلمة المحاربين قد وجَدت لهم أعوانا قد صبغوا أيديهم في هتكهم حرمة ولد الشيخ سيدي محمد بن يعقوب صبغا لا ينفك عنهم ذله أبدا، ويلازمهم أمره دائما، فكان الأمر كما قال، ما مكثوا إلا قليلا حتى ذلوا وغلبوا، واستمر بهم الذل والهوان إلى الآن. ومن ذلك الوقت إلى هذا الوقت ما يقرب من مائة سنة. وفي تلك النازلة أخذوا لأبي فرسا أنثى، فلما عرفوها له ردوها إليه، وولدت عندهم مهرة ليس لها إلا عين واحدة في جبهتها، فعاشت يسيرا ثم ماتت، فتعجب الناس من أمرها، ولم يبق ممن هو قريب إلا أتى إليها ليراها، فلما سمع الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الناس يقولون: ولدت فرس فلان عجبا، قال لهم: ما يصيب الذين أخذوها منه ثم ردوها من الهلاك والذل الهوان أعجب، فغلب عليهم أعداؤهم قريبا من ذلك فقتلوهم وانتهبوا أموالهم.
//227//
وكان رضي الله عنه مع ما لَه من كمال الإيمان، وثبت له من كمال التصرف بالهمة، لما اشتدت جرأة قبائل وقته لقلة الأحكام واستقلالهم بأنفسهم يقول: ليت محمد بن يعقوب يحضر لنا في وقتنا هذا ولو ساعة. وقال فيها

أيضا عقب ما سبق من ترجمة الشيخ أبي عبد الله الملواني، في كونه حضر جنازته وصلى عليه، ما نصه: ولما توفي الشيخ أبو عبد الله الملواني رجع الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر إلى زيز، وبه ضريح الشيخ المبارك أبي وكيل، وفيه أعلم بما اتفق عليه الصالحون من أمر رجوعه إلى بلده، فروي عنه رضي الله عنه أنه قال: بعث إلي الشيخ أبو وكيل بعض الصالحين ممن توفي لأقف على قبره، فذهبت إلى أبي وكيل، فلما دخلت عليه الروضة خرج من قبره، وأولياء الله أحياء، فجلس على التابوت ودلى رجليه إلى الأرض وقال لي: قم لتعود إلى بلدك، وهات شروطك وأعرضُ عليك شروط أهل الله، فإذا قبلتها فارجع لموضعك، فقلت له: والله لا قدمت شروطي على شروط أهل الله، وقال له أبو وكيل: هي إقامة حق المساكين وابن السبيل وأهل البيت وطلبة العلم، فعدد عليه أمورا فقبلها ابن أبي بكر مستعينا بالله تعالى، وقد وفَّى بها بعد ذلك رضي الله عنه، وذكر له هو شروطه منها: أن لا ينقص دينه بمخالطة العامة، فلما رجع ألى بلده أظهر أن القبائل //228// المعترضين له يُغلَبون ويُذلون، فكان الأمر كما أخبر، وأخبرني أبي أنه لما توجه نحو المشرق طفق الناس يزورون من يظن به الخير ويشار إليه بالصلاح، قال: وجعلت لا أتوجه إلى زيارة أحد ممن يشار إليه ويزوره الناس إلا تعرض الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر في قلبي، حتى أشرفت على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فلم أجد له حسا في قلبي. انتهى.

والشيخ أبو وكيل المذكور هو من الأولياء الأكابر، الذين امتلأت بذكر مناقبهم الدفاتر، يقصد ضريحه في المهمات، فتستجاب عنده الدعوات، شاهده يتصرف كالأحياء كثير من أعيان الأولياء، واعترف له بذلك من وجد أثره في نفسه وفي غيره من العلماء الاتقياء، ولشيخ بعض أشياخنا الإمام المحقق الصالح، الأستاذ الناصح، أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي رحمه الله قصائد تشهد في أن التوسل به كثير في نيل المقاصد، منها قوله:

رفعــت إلـــى الــولي أبـــي وكيــل	شــــكاية حـــائر جـــان ذليـــل
لـــــه ومــــن يفـــزع لغـــوث	يعنـــه ويهـــده أهـــدى الســـبيل
هــو الغــوث المؤمــل فــي الرزايــا	هــو الغيــث الهطــول بكــل ســول
هــو الليــث الهصــور فمــن إليــه	آوى آواه منـــــه أعــــز غيـــل
وحســـبي إن أويـــت لـــه فِقِـــدَماً	مزايـــاه بـــدت فـــي كـــل جيـــل
عليـــه تحيـــة مـــن ذي وداد	ينـــادي فـــي الكثيـــر وفـــي القليـــل

//229//

يـــروم إغاثـــة الملهـــوف فـــورا	مــن الغــوث الكبيــر أبــي وكيــل
وصـــلى الله ذو الملـــك الجليـــل	علـــى المختــار ذي الخلــد الجميــل

واعلم أن الكرامة الحقيقية إنما هي أصول الاستقامة، والوصول إلى كمالها، ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله عز وجل، واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا، وهي إذا توبة بلا إصرار، وعمل بلا فتور، وإخلاص بلا التفات، ويقين بلا تردد، واستسلام بلا منازعة، وتفويض بلا تدبير، وتوكل بلا وهم، مُلازِمها واصل قطعا.

وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين، إذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة، ولا شك أن شيخ الإسلام أبا عبد الله محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ممن شرف الله مقامه بكمال الاستقامة، فاتصف بالكرامتين، وارتفع بالعلامتين، نفعنا الله به آمين. وأكثر ما ذكر من إطعامه الطعام، وبذله العطايا الجسام، للخاص والعام، هو من خرق العادات الذي هو مناط الكرامات، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وذلك فضل الله يأتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الفرع السادس في شدة بروره بوالده الشيخ أبي بكر، وحسن أخلاقه مع كل واحد من أهل //230// الخير والشر.

قال في المباحث: وكان الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه في حياة أبيه الشيخ أبي بكر مطواعا له خائفا أن لا يقوم بحقه. وروي عنه أنه كان يقول، مع شدة محافظته على طاعة أبيه: إني لأتفقد وجهي خوف المسخ مما أخشى من تضييع حق الوالد. وكان يشهد لأبيه بالمعرفة والولاية الكبرى، وربما يفتخر بذلك، وكان بعض فقهاء فاس يقول: لو لم يكن في سيدي محمد بن أبي بكر إلا طاعته لأبيه لكفاه.اهـ ثم قال أيضا بعد ذلك وكان الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر المذكور مع رفعة حاله يقول: لو علقنا بأشفار عيوننا ما بلغنا خصلة من خصال الوالد، يعني والده الشيخ أبا بكر، فقيل له ما هي؟ فقال الصدق، فقيل له: وأنت لا تكذب، فقال: إن في المعاريض مندوحة عن الكذب، وسيدي أبو بكر لا معاريض له.

وقال بعض العلماء رحمه الله: كان الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه شديد البرور بأبيه، مبالغا في تعظيمه ومحبته باذلا وسعه في مرضاته فوق ما يظن، حتى كان يقول بعض الائمة المعاصرين له: لو كان سيدي .محمد بن أبي بكر لصا لظننت أنه يغفر له لبروره بأبيه.

وأخبر عنه بعض خيار أهله أنه أقام سنة كاملة لم يبت بموضعه مع أهله إلا ثلاث ليال أو أربعا لكثرة تردده في حوائج أبيه، مع أنه //231// كان حديث عهد بعرس.

ويحكى أنه لما ثار أبو العباس أحمد بن أبي محلي وملك بلاد الصحراء، كان الناس يأتون للشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ليشفع لهم عنده، فشاور والده الشيخ أبا بكر رضي الله عنه في ذلك، وكان لا يفعل شيئا إلا بإذنه، فلم يأذن له في الذهاب إليه، فألح عليه المرة بعد الأخرى اغتناما لأجر الشفاعة الحسنة فامتنع، فلما رآه مصمما على الامتناع قال له: لا أرجع عن الذهاب إليه إلا إذا قلت لي انه لا يكون من أمره شيء، فقال له: إنه لا يكون من أمره شيء أصلا، فكان الأمر كذلك، وكفاه الله عاقبة لقيه ببروره بأبيه.

ومن بروره بأبيه إيثاره إخوته على أولاده، وكان يقول: ليس بفاضل ولا نبيه، من آثر بنيه على بني أبيه، ويذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن من أبر البر أن يكرم الرجل أهل ود أبيه) وهذه مرتبة فوق ذلك أيضا. وكما كان مبالغا في محبة أبيه وتعظيمه، كان كذلك في جانب أشياخه وأزيد، حتى إنه كان لا يبصق لناحيه تادلا لمكان شيخه أبي عبد الله الشرقي رضي الله عنه بها.

قال في المباحث أيضا: وروي عنه رضي الله عنه أنه لما ذهب لشيخه أبي محمد عبد الله بن حسون بسلا، وجده قد أعرى رجليه وذراعيه لمن أتاه لتقبيلهما، وكان الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر شديد المحافظة على الأمور الظواهر لفقهه وعلمه بالأحكام //232// فخطر بباله: إن هذا التعري لماذا؟ وبنفس ما خطر له ذلك قال الشيخ عبد الله بن حسون: من قيل له من مس لحمك لم تمسه النار، كيف لا يعري لحمه لمن يمسه. فجلس الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر إلى جنبه كالحاجب للشيخ أبي عبد الله بن حسون، لا يأتيه إنسان لحرز يُكتب له إلا أخذه من ذلك الإنسان فمده للشيخ عبد الله بن حسون ثم يقبل يده، فإذا كتبه أخذه من يده مقبلا له مره أخرى ثم يمده لربه، وغرضه بذلك كثرة تقبيل يده لِما سمع من قوله. اهـ

ومن مكارم أخلاقه رضي الله عنه أنه كان يَقْبَل كل بر وفاجر، ويغض عن العورات، ولا يترك التخلق بحديث "رأس العقل المداراة، والوقوف مع الظاهر، والله يتولى السرائر"، وكان رضي الله عنه يقول: الناس يقولون: "من باع صاحبه بمائة زلة وزلة باعه رخيصا"، وأنا أقول لا أبيعه أصلا. وكان يقول: من علامة العاقل بره بإخوانه، وحنينه لأوطانه، ومداراته لأهل زمانه. وكان يقول: داوا، فمن مات وهو يداوي مات شهيدا.

ففي المحاضرات للشيخ الإمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي رضي الله عنه أن رجلا يدعى بمسعود بن عبد الحق المنزول كان شديد الاتصال بالشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، حتى كان كثيرا ما يكون أول داخل عليه وآخر خارج عنه، حتى إن الفقيه الحافظ النحوي أبا عبد الله محمد بن أبي بكر (...) الكراني ([1])

1 – كلمة غامضة أما الكراني فكذا تبدو والله أعلم، وهي مكتوبة بكاف معقودة.

كان يقول //233// في ذلك: وإنما دنياك بالسعود، وإن شككت فانظر إلى مسعود، إذ كان الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه يحبه، وحدثونا عن مسعود هذا أنه كان يحضر مع الناس عند الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه مجلس البخاري، فاحتالوا عليه يوما حتى وضعوا نقطة مداد على رجله، فلما رجعوا من الغد لحظوها فإذا هي بحالها، فعلموا أنه لم يكن يصلي، أو يصلي بغير وضوء.

ومن حسن أخلاقه رضي الله عنه أنه صاحبه في وجهته الحجازية رجل ومرض له في الطريق مرضا عجز بسببه عن الركوب، فجعل الشيخ رضي الله عنه يحمله على ظهره مرات، حتى لقي من ذلك شدة آلت به إلى أن تألم لحم كتفه، ولم تسامحه نفسه أن يتركه ببعض الطريق حتى تمكنه الإقامة.

ومنها أنه رضي الله عنه سمع في وجهته الحجازية يوما رجلا ينادي: يا فلان، لشخص آخر، فدعى ذلك الرجل المنادَى بالفتح، وأضافه واشترى شاة فذبحها له وبالغ في إكرامه والبرور به غاية جهده، فلما أصبح وأراد الرجل الانصراف، قال له: بالله يا سيدي ما هذا الاحسان الذي فعلت معي ولا معرفة بيننا سابقة؟ فقال له الشيخ: لأجل صاحب لي اسمه موافق لاسمك، فقضى الرجل العجب من ذلك. فانظر هذه المحبة الصادقة إلى أين بلغت به رضي الله عنه. وقد ذكرنا فيما سبق //234// في الباب الأول أنه لما أراد ولده العلامة الأمير أبو عبد الله محمد الحاج رحمه الله السفر إلى الحج، أوصاه أن لا يتعرف للتوارك إذا لقيهم، قائلا له: إنهم قومك وأخشى أن يتكلفوا ضيافتك فتعنِّتَهم، أو كلاما هذا معناه.

الفرع السابع: في قيامه بمصالح المسلمين، بإصلاح ما فسد من أمر الدنيا والدين.

كان طلوع هذا الشيخ رضي الله عنه في سماء الولاية في زمن أطفأت فيه الضلالة أنوار الهداية، وذلك حين فسدت الدولة السعدية، فذهبت ريح سطوتها القهرية، وكثر الثوار، في غالب الأقطار، كأبي العباس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي السجلماسي القضوي ([1])، وأبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن ولي الله سعيد بن عبد المنعم الحاحي، وأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن الشيخ الولي أبي العباس أحمد بن موسى السملالي السوسي، وأبي عبد الله محمد بن أحمد العياشي المالكي الزياني، ولم ييسر الله تعالى لواحد منهم أمرا، وقد كانت عاقبة أمر بعضهم خسرا، نعم كان أبو عبد الله محمد العياشي أجملهم قصدا وأنفعهم رشدا، إذ كان أكثر توجهاته إلى الجهاد، والاستعداد له ما استطاع من حشر الأجناد، حتى كان له من الفتح المبين، ما لم //235// يكن لغيره من الملوك منذ سنين، فمن ثم كان شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المذكور، كثيرا ما يحمد سعيه المشكور، ويذيع محاسنه، ويمده من دعائه بما يقوي ظواهره وبواطنه.

قال صاحب نزهة الحادي: وكان رضي الله عنه يقول في دعائه له: اللهم جاز عنا سيدي محمد العياشي أفضل المجازاة، وكافه عنا أحسن المكافاة، واجعل مكافأتك له انكشاف الحجاب عن قلبه، حتى تكون أقرب إليه منه، اللهم لا تحرمنا توجهه إليك، وانقطاعه لخدمتك، اللهم نفِّس كربته، وأجب دعوته، وسدد رميته، واردد له الكَرَّة على من عاداه في الحق وناوأه، إنك على كل شيء قدير اهـ

قال: وقد وقفت على رسالة كتب بها الشيخ رضي الله عنه إليه أيضا ونصها:

الحمد لله الحليم العفو والرؤوف، المنزه عن صفاة من وصف بها فهو مرؤوف، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد مدينة العلم، المسورة بسور السماح والحلم، وعلى سادتنا آله وصحبه، وكل من انتظم في سلك اتباعه من أهل حزبه، هذا وإن المجلى بطلعته ظُلَم الظُّلْم والفساد، المحلي خزائنَ المعالي بموجبات النَّفَاق ([2]) على حين الكساد، المستوطن حبه في سويداء الفؤاد، من ألقت إليه المكارم أزمة الانقياد، وصلحت به بحمد الله البلاد، واطمأنت به نفوس العباد، حوطة الإسلام وحمايته، وحرز الدين //236// المحمدي وكفايته، سيدي

1 – نسبة إلى أهل زاوية القاضي، وهو دُوَّار يقع بجماعة السفلات، إقليم الرشيدية، جهة درعة تافيلالت

2 – بفتح النون من نَفَقَ: الرواج، ومنه نفقت السلعة: راجت.

محمد بن أحمد العياشي المحمود الأوصاف، بشهادة من يعد من أهل الإنصاف، زاده الله من المكارم أعلاها، ومن نفائس درر المجادة أغلاها، وتوَّجه بتاج الكرامة والرضى، وأمده بدائِم مدده السرمدي حتى يرضى، وسلم جنابه القدسي العلمي العملي المجاهدي الرباطي من جميع البلايا، وأتحفه من جميع تحفه الفاضلة الوهبية بأعلى المزايا، وأهدى إليه من طيب بركاته ورحماته ما يرضاه دينه العلي لحماته، قد شهدنا على أنفسنا بالإقرار بفضله علينا، وأن ما يسره يسرنا، وأن ما يضره يضرنا، علم ذلك منا يقينا من له معنا أدنى مخالطة، بحيث لا يمكنه أن يدفع ذلك بنوع من المغالطة، وإن الضار بالعين ضار بإنسانها، لكن النفوس الإنسائية محل لخطئها ونسيانها، ومن أقمنا لديكم مقام الخديم والولد، قد ساءنا ما ساءكم مما عنه ورد، وطلبنا من جميل أوصافكم معاملته بالصفح الجميل، فلن يزال الإنسان – إلا من عصمه الله – يستمال أو يميل، ولولا الحرارة ما عرف الظل، ولولا الوابل لقيل النهاية في الطل، وما عرف العفو لولا الإساءة، ولا يقال صَبَرَ المرءُ إلا فيما ساءَه، وما عرفنا صاحبه إلا محبا لكل من للدين ينتسب، فإن خرج عن نظركم فقد أتاه الغلط من حيث لا يحتسب.
وكتب خديم المساكين //237// وغبار نعال الصالحين، محمد بن أبي بكر الدلائي، وفقه الله بمنه.
وكان أكثر قبائل البربر في تلك الأزمان لا سعي لهم إلا في البغي والعدوان، لم تلن قناتهم لغامز، وكل واحد من هؤلاء الثوار عن الوصول إليهم عاجز، فكان شيخ مشايخ الإسلام أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه يعلمهم عقائد الإيمان والإسلام، ويبين لهم حقائق الحلال والحرام، لما كانوا عليه من الجهل والاختلاف، وعدم المعرفة بوجود الائتلاف، فكان رضي الله عنه مع ذلك يحاول أن يطفئ ما بينهم من الفتن، عسى أن يصلح ما ظهر من فسادهم وما بطن، ولما لم يزجرهم من مواعظه زاجر، وبقي البار منهم يأكله الفاجر، قام رضي الله عنه على ساق الجد في جميع القبائل الذين كانوا عند أمره، لقتال كل فريق ممن تعدى وبغى على غيره، فتكون عليهم الكرة ويهزمون، ثم يأتون إليه يهرعون أذلة وهم صاغرون، لكنهم بعد ذلك يعودون لبغيهم، ولا يبالون بما كان من أمرهم، ولما لم يزدهم زجره إلا بغيا، خرج رضي الله عنه فارا بنفسه من الفتن إلى جبل تاغية، متوجها في أمرهم إلى الله، ومن توكل على الله كفاه، وقد سبق في ترجمه شيخه أبي عبد الله محمد الملواني رضي الله عنه، وكانت تاغية منزلا له ولقبيلته ملوان، أنه قال له بعد أن شاور النبي صلى الله عليه وسلم في //238// صحبته فأذن له فصحبه، جئت لبلد تاغية؟، فقال له: نعم، فررنا من الفتن، فقال له: الوفود التي تأتيك في بلدك لا تسعها تاغية، ارجع إلى بلدك فإن العود الذي يتعرض لك قد كسر، فكان الأمر كما أخبر، غلبت القبائل الموقرون له المتعرضين له، وبقي ملازما حتى توفي رضي الله عنه. وقد سبق في الفرع قبل هذا أنه لما توفي شيخه الرباني، أبو عبد الله الملواني، رجع إلى بلد زيز وبه ضريح الشيخ المبارك أبي وكيل، وفيه أُعلِم بما اتفق عليه الصالحون من أمر رجوعه إلى بلده.
فروي عنه رضي الله عنه أنه قال: بعث إلي الشيخ أبو وكيل بعض الصالحين ممن توفي لأقف على قبره، فذهبت إلى ضريح أبي وكيل، فلما دخلت عليه الروضة خرج من قبره فجلس على التابوت ودلى رجليه إلى الأرض، وقال لي: قم لتعود إلى بلدك. انتهى المراد مما تقدم.
ولما رجع إلى بلده بذل الوسع في تعليم التوحيد وتقرير العقائد والديانات، وتغيير المناكر ومحو ما كانوا عليه من أنواع الجهالات، واتباع الفتن والضلالات، وخاطب في ذلك ولاة البلدان، وأشياخ القبائل ومن له الكلمة المسموعة فيهم في كل مكان، ووعظ ورغب، وذكر ورهب، ودعاء إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، واستفرغ وسعه في ذلك، فنفع الله به نفعا عظيما، وهدى به عالما لا يحصى، وحمى //239// به البلاد وأهلها.
قال في نزهة الحادي: وكان لبرابر ملوية فيه اعتقاد عظيم، وتعظيم جسيم، يخدمونه خدمة تامة، ويطيعونه طاعة عامة، يتبركون بآثاره، ولا يتجاوز أحد منهم كلامه وأمره في ليله ونهاره، ولا في إقامته وأسفاره، ويقفون عند حده ومقداره، وكان للزاوية في أيامه صيت عظيم، فكمل بها من الفضائل ما كان باقيا، وبدا من الأسرار ما كان خافيا، وتناقل الركبان حديث هذه الزاوية في الآفاق، وقصدها الناس من كل جهة على الإطلاق، وكان بها من معاناة العلوم والدؤوب على التدريس والإقراء ليلا ونهارا فعل جسيم، حتى تخرج بها جماعة كثيرة من صدور العلماء وأعيانهم، كالحافظ أبي العباس أحمد بن محمد المقري القرشي، والعلامة أبي مالك عبد الواحد بن عاشر الأنصاري، والحافظ أبي العباس أحمد بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي، وأخيه الإمام العلامة المحقق أبي حامد العربي، والفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد ميارة، وغيرهم من جماهير الناس وشيوخ الوقت، وكانوا

يقصدون زيارته ويتبركون به، ويراجعونه في عوائص المسائل العلمية، ويقسمون ما نالوا من بركاته على السوية، وكانت إليه الرحلة في المغرب لا يعدوها طالب، ولا يأمل غيرها راغب.

قال في //240// بذل المناصحة: وكان مجلسه يغص بالأشراف والطلبة والمحصلين للعلوم، وقام للعلم بها سوق نافقة، وسرت محبة العلم وتعلمه في الخاص والعام، وظهرت بركته ظهور الشمس في أولئك الأقوام، إذ كان علمه مصحوبا بالنور الرباني، والفتح الإلهي الرحماني، وقيامه في ذلك لله لا لغرض دنيوي ولا لحظ نفساني، وسرت المعرفة بأمور الدين حتى في عامة أهل البلد، بل سرى ذلك أيضا إلى من إلى نظرهم من أهل وولد، فاستقل في ذلك القطرِ برئاسة العلم والدين، والسلوك على سنن المهتدين، منفردا بذلك إماما فيه متبوعا، وآمرا مسموعا، في الأقربين والأبعدين، وتحقق بحالته أهل حضرته، لقوة حاله وصدق محبته، وتسري في الناس نفحته ويهتزون بها طربا، ويخضعون لها أدبا، إذ الناس ناس والزمان زمان.

قال في المباحث: ولما رجع إلى بلده أظهر أن القبائل المعترضين له يُغلبون ويذلون، فكان الأمر كما قال، ما مكثوا قليلا حتى ذلوا وغلبوا، ثم صاروا عند أمره ونهيه، وقد رجع كل واحد عن ظلمه وغيه، وما كان تصرفه رضي الله عنه إلا بالهمة التي توافقها الأقدار، من الله تعالى الملك القهار، ولم تتعلق قط نفسه الطاهرة، بشيء من أسباب الرئاسة الظاهرة، ففي المحاضرات للشيخ الإمام أبي علي الحسن بن مسعود //241// اليوسي أن أبا العباس أحمد بن عبد الله بومحلي، الثائر المذكور آنفا، كان مصاحبا لابن المبارك التاستاوتي في الطريق، حتى حصل له منها نصيب من الذوق، وألف فيها كتبا تدل على ذلك، ثم نزعت به هذه النزعة، فحدثوا عنه أنه في أول أمره هذا كان معاشرا للشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنه، وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت، وفشت في الوقت وذاعت، فقال أحمد بن عبد الله لابن أبي بكر ([1]) ذات ليلة: هل لك أن نخرج غدا إلى الناس فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونكون قد قمنا بوظيفة تغيير المنكرات، فإنها قد شاعت، وفشت في الوقت وذاعت، فأبى عليه ابن أبي بكر ولم يساعفه، لِما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر، وقال له: إن شروط تغيير المنكر لم تتوفر. فلما أصبح خرجا، فأما الشيخ ابن أبي بكر فانطلق إلى ناحية النهر وأزال شعثه، وعمر أوقاته بأوراده، وأدى صلواته في أوقاتها، وأما ابن أبي محلي فتقدم لما هَمَّ به من الحسبة، فوقع في شر وخصام، وأفضى به الحال وأداه إلى إخراج الصلوات عن الأوقات، ولم يحصل مع ذلك على طائل، فلما رجعا بعد المغرب إلى مأواهما واجتمعا بالليل وتفاوضا فيما وقع، قال له الشيخ ابن أبي بكر رضي الله عنه: //242// أما أنا فقد قضيت مآربي، وحفظت ديني، وأديت صلاتي في وقتها، وانقلبت في سلامة وعافية، وصفاء طوية، ومن أتى منكرا فالله حسيبه، أو نحو هذا من الكلام، وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه اهـ. لكن ربما كان يستغيث به بعض المستضعفين في إعانته لهم على قتال من بغى عليهم ظلما من المعتدين، فيجري في إعانتهم على مقتضى الظاهر، يبعث من يعينهم من شجعان العساكر، وقصده رضي الله عنه بذلك إخفاء الباطن بالظاهر، والله أعلم بالسرائر، وإثبات القوة لقبائله في الحروب، وأنه لا يسع الأعداء أذا رأوهم إلا الهروب، فبعث مرة ولده الأكبر، العلامة الأشهر، الأمير أبا عبد الله محمد الحاج في بعث إلى الغرب، ليقيم دعائم عوام من كان به من العجم والعرب، ولقد عصفت لولاه عواصف الأهواء على بصائر عوام المسلمين، فلا يزالون تائهين في ظُلَم الظلْم مع من قادهم إلى ذلك من رؤساء المجرمين، لكن أبى الله تعالى أن يرضى من الحق على رغم المبطلين إلا ظهوره، (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره).

وفي ذلك قال شاعر زاويته أبو العباس أحمد الدغوغي رحمه الله:

ثغــر الســرور وأي ثغــر باســم	عــن ظلمــه كشــف اللثــام للائــم
بـــاليمن والأقبـــال لاح مبشـــرا	بالنصــر بارِقُــهُ فهــل مِــن شــائم

//243//

قسـما بإقـدام الكمـاة لـدى الـوغى	والحــرب مظلمــة اللظــى بتصــادم

1- في المخطوط "لأبي بكر"، وهو سهو.

والسمر تقطر بالدماء محمرة   والبيض تغمد في طُلا وجماجم
والعاديات مثيرة في سبحها   نقعا كغيم في أشد تراكم
وخلال ذلك بندق كعوارض   من وابل المطر الأعم الساجم
وحياة أبطال الهياج الخائضي   لجج الحمام بموجها المتلاطم
لينورنَّ الحقُّ ليل ضلاله   يتألق من كل أبيض صارم
وليجبرن الدين بعد صدوعه   وليهدمن ركن الفساد القائم
ولينصرن الله جند وليه   قطب الكمال أعز نصر دائم
فالحق متضح السنا متبلج   وسواك فيه يخاف لومة لائم
وسواك تخدعه الذئاب كفيت من   راع إذا افترسَت شواردَ غانم
يا أيها العَلم الذي بوجوده   أرسى الثرى حَرَسا إلاهُ العالَم
يا رحمة لمعاشر الضعفاء من   رب قوي للبرية راحم
بك شبت الدنيا زمان مشيبها   عادت لشرخ فتائها بتمائم
والعلم أصبح من جوارك في حمى   لم تخش فيه مضرة من حائم
والمجد من علياك يورث والندى   لولاك آهِلُه كرَبع طاسم
من رام شأوك رام معتسفا مسا   بقة الصقور بلا قوى وقوادم
حاشا لقدرك أن يقاس بضرغم   أو كل ليث في الوجود ضُبارم ([1])
ويجل وجودك أن يعارِض بعضَه   جودُ الغمام فكيف جدوى حاتم

//244//

يا أحلم الحلماء أحزمَهم إذا   ما الرأي رُدَّ إلى استشارة حازم
صُلْ واغلظن في الله واسْطُ مجاهدا   بحسام عزمك ذي الذباب الحاسم
واقطع حِبال خبال كل معارض   ومعاند للحق غير ملائم
فإلى مَ تبرح في الضلال قبائلٌ   من عُرب مغربنا سدًى وأعاجم
وتروم رُومُ الشرك فرصة ماكر   بالمسلمين الغر غير مسالم
وإلى سياستك السنية ينتهي   نصح الورى ولأنت أعلم عالم
ولواء نصرتك المؤيد خافق   للدين باردُ ظلِّهِ من ناعم
والدين أنت إمامه ورئيسه   والدهر عبدك وهو أطوع خادم
فليبشر الأعداء منك نذارة   بتفرق لجموعهم وهوازم

1 – أَسَدٌ ضُبارم: محكمُ الخَلْق مُضَبَّرُه.

وليبشــــر الإســـلام منـــك وأهلـــه بحمايـــــة ورعايـــــة ومغــــانم

وعنايــــة بــــالعلم أســــس ركنهــــا وتقــى الإلــه فمــا لــه مــن هــادم

وقال أيضا في واقعة كالتي تقدمت حالا ومآلا:

إن القنابـــل والقنـــا للحـــق فـــي شـــيع الهـــوى أعمالهـــا تســـتأنف

أُذِن انتصــــــار للـــــذين يقتلـــــو ن بـأنهم ظُلمـوا فهـل مـن منصـف

أتنــازع الغوغــاء مَــن مُــنِحَ العــلا ملكـــا لـــه فيـــه أتـــم تصـــرف

أفغـرهم بـك حلمـك الأهـدى الـذي لـــولاه بالغوغـــاء لمـــا تـــرأف

ومــن المحــال نجــاة كــل معــرض لَحــظَ انتقامَــك نفسَــه مســتهدِف

يـا مـا أضـل مـن اهتـدى بسـواك يـا شمسـا بهـا اتضـح الهـدى لـم تكسـف

//245//

منـك البـرور بنـو أبـي بكـر طفـوا بطفــاوة عليــا طُفُــوَّ مــن اصــطفِي

وبــك المحامــد يــا محمــدها لهــم تبقـــى ونرجوهـــا ليـــوم الموقـــف

وقال أيضا رحمه الله:

عجبـــت للبحـــر الـــذي يزخـــر يظــلُّ مــن عجــب بــه يُفخَــر

كأنــه مــن فــي أقاصــي الثــرى تـــدفقت مـــن ســـيبه أبحـــر

مــن لــم يــزل لــولاه جيــدُ العــلا أعطــلَ مــن رســم لــه أدهُــرُ

الشـــمس مـــا راقـــت ولا أشـــرقت حتـــى تبـــدَّى وجهـــه الأزهـــر

.... (1) الـذي أنـــواره للمهتـــدين أظهـــر

ذاك الإمــام ابــن الإمــام الهمــام ابــن الهمــام الأوحــد الأشــهر

محمـــد بـــن ذي المعـــالي أبـــي بكـــر عـــلا قـــدرا فـــلا منكِـــر

عـــادَى أعـــادٍ اســـتحبوا العمـــى علــى الهــدى إذ سُــدتَ واســتكبروا

مـــازال أخـــذك الألـــيم الشـــديد المُـــر تَنكـــيلاً بهـــم يُحـــذر

ألبســـتهم مـــن بَعـــد عِـــز ثيـــا ب الـــذل لا تبلـــى ولا تســـتر

هَـــوى هَوانـــا كـــلُّ مـــن لـــم يكـــن يهـــواك إذ لـــم يهـــو مـــا يُنكَـــر

وضــل مــن قــد ظــل يرغــب عــن ســـيرتك المثلـــى ومـــا يشـــعر

1 – كلام تعذر ضبطه.

يــا منبــع الإحســـان يـــا واحـــد الـــ ـــحسن ويـــا مـــن قـــدره أخطـــر

يــا رائــق الأصــافي يــا فــائق الــ ـــعُراق يـــا مـــن عَرْفُـــهُ أعطـــر

يــا جــامع الفضــل الــذي مــا لــه مـــن منتهًـــى عَـــدا ولا يُحصَـــر

//246//

سُـــدتَ الـــورى فالكـــل عبـــد لمـــا قُلِّدتَـــه مـــن سُـــؤدد يَصـــغر

فمـــا تـــرى إلا مُقـــرا بمـــا قَلَّدتـــه مـــن أنعـــم يَشـــكُر

وهـــا ببـــاب الفضـــل عبـــد لكـــم مـــنكم ســـحاب الجـــود يســـتمطر

لا تحرمـــــــوه إنـــــــه واثـــــــق مســـــتيقن بـــــالنجح مستبشـــــر

ولما ملك الثائر أبو الحسن علي بن محمد بن الشيخ الولي أحمد بن موسى السملالي بلاد الصحراء، ولم يترك لأهلها بيضاء ولا صفراء، وكان فظا غشوما، مبيرا ظلوما، لا يحسن السير في طريق السياسة، التي توصل إلى بيت الرئاسة، وكان أول شيء فعله بسجلماسة من إساءته، أن وجه لمن بها من خيار الأشراف سهام إذايته، فوقع الاستصراخ في أمرها بهذا الشيخ الجليل القدر، ولي الله أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، بل حمله حمية المودة في القربى، وشدة الغيرة على أهل البيت التي تزيده من الله ورسوله قربا، على أن بعث إليه رسالة تقطع صوارم زواجرها أوصالَه، ينصحه فيها ويحذره، ويعظه ويذكره، ويحضه على موده من أوجب الله مودتهم، ويصده عن إهانه من عظم الله حرمتهم، وهو مع ذلك رضي الله عنه يَلين له تارة ويغلظ أخرى، عسى أن تنفع بأي وجه الذكرى، ونصها:

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

وفق الله وهدى، وسدد وأرشد إلى سبيل النجاة وطريق الهدى، ابن الإمام، وقدوة الأنام، //247// بركة الإسلام، حسنة الليالي والأيام، أبا الحسن سيدي علي بن الشيخ الشهير الذكر في الآفاق، سيدي أحمد بن موسى أفاض الله علينا من بركة السلف، وأنال سَبْيَهُ ([1]) الخلف، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، هذا وإنه تردد في الخاطر من قبل اليوم معاهدتكم ومواصلتكم بالكتب، أقدِّم في ذلك رجلا وأؤخر أخرى، خشية مقابلةً ما نخاطبكم به من النصح الذي هو من قواعد الإسلام بالإهمال، وإلقائه ([2]) في زوايا الإغفال، ثم قوي العزم على ذلك في الوقت، ولكم النظر بَعدُ في القبول والرد.

أول شيء تتعرفونه منا وتعتقدونه أن تعلموا أنَّا نعتقد أن فضل داركم بمكان لا يُجهل، وبذروة مجد شهير لا يخمل، ثم كان من قدر الله أن أقامكم في تلك الطريق ومكنكم، وبسط أيديكم، وأعلى كلمتكم، وأحد شوكتَكم، هذا كله معلوم بالضرورة، فما نافسناكم على ما أولاكم، ولا حسدناكم فيما أعطاكم، (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) وليس ببعيد منكم، وأنتم من أبناء الناس ومن أعظم بيوت مغربنا، لا ينكر هذا إلا جاحد، ولا ينازع فيه إلا معاند، لكن المرجو منكم، والمأمول من شيمكم، رحمة المسلمين، والشفقة على الضعفاء والمساكين، لأنكم دار رحمة لا دار نقمة، إن كان الملك مطلوبكم فاتوه من بابه، وتوصَّلوا إليه بأسبابه، ويسروا ولا //248// تعسروا، وبشر ولا تنفروا، وخذوا أموركم بسياسة ورفق لا بشدة وعنف، واسعوا في عمارة البلاد، برحمة العباد، ألِّفوا الشريد، واصفحوا عن الطريد، واعرف لكل قوم حقهم وخاطبهم بما يسكنهم، وول عليهم جنسهم، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وللناس في الناس أغراض، فحقك مقابلة ذلك بالإعراض، وبلغنا أن ابن السيد الفاضل الذي اشتهر في المغرب والمشرق، سيدي عبد الله بن عمر، نودي على رؤوس الأشهاد بعداوته، وقصد مضرته، فما وَجْهُ ذلك وانقباضُه عنكم لأجل الخوف، فلو وجد

1 – كذا في المخطوط، وفي ص132 من كتاب إيليغ قديما وحديثا للمختار السوسي نقلا عن كتابنا هذا "البدور الضاوية" كتب "بسببه" عوض "سيبه".

2 – في المصدر السابق "إلغائه".

الأمان وتحققه لم ينقبض عنكم ولكان لكم فيه مصالح، ويكون مفتاحا بينكم وبين الناس، أَمِثْلُهُ يُحصَر ويُطالَب ولا تراعون فيه حق النسبة؟، وهل كانت حرمتكم وعظمت إلا بنسبتكم إليه. ([1]) ووجه آخر يستدرك، ما حكم الله عندكم فيمن قاتلكم دافعا عن نفسه وقَتَل أو قُتِل في قتلاكم وقتلاه؟ ([2]) (فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ومقابل هؤلاء حُكمُكم على الضد، نسأل الله سبحانه السلامة، مما يعقبه ندامة وملامة ([3])، أيعجبكم خراب البلاد، وإهلاك الحرث والنسل وإثارة الفتن والفساد؟، فالملك يدرك بأرفق من هذا، وأقرب الناس مِن أمرِكم في حيرةٍ وأعظَمِ حسرة، //249// فمن أُطَاع أُكثِرَ عليه من التكاليف ما لا طاقة له به حتى ضاع، ومن أَبى وخشي ما وقع بمن ([4]) قبله وعصى عُلِيَ بالعصا، الناس في سجونِ حصونِهم النساءُ والرجالُ الدوابُ كأنهم في حشر، ([5]) ألا رحمة بالضعفاء، ألا شفقة ورقة تحملكم على تسريحهم من السجونات، وقد كثرت استغاثاتهم بإخوانهم المسلمين وأوجبوا عليهم بالشرع إنقاذهم واستخلاصهم مما هم فيه، الثمار تجنى وأهلها ينظرون نظر حسرة، والأشجار تقطع ([6]) وقد حرم الشارع قطع أشجار الكفار فضلا عن المسلمين، وصح بدليل الاستقراء أن قاطع الأشجار لا يعقِّب، ومن جملة من استغاثوا به وألحوا عليه هذا العبد الكاتب البائس، ومن إغاثته لهم الشفاعة لهم إلى فضلكم، وسؤالكم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم بجدكم القطب أن ترحموا محنتهم وتغيثوا لهفتهم. وبلغنا أن من لا يبالي بما يقول ولا فيمن ([7]) يقول يكاتبونكم بسوس ([8]) أن العبد الفاني العاجز عن إصلاح نفسه يريد تافيلالت يتولى أمرها، فتأمل أرشدك الله وسددك أدنى تأمل، هل لهذا الكلام وجه أو يلتفت المنصف إليه؟، هذه البلدة بينكم وبينها نحو ثلاثين مرحلة، وبيننا وبينها ست مراحل، ولضعف ملك المغرب نحو ثلاثين عاما، ما المانع لنا لو كانت لنا فيها شهوة أو رغبة؟ فمن بلغ أو قرب سنه الثمانين، والتفت للملك المحدود بالسنين، فاعدده من //250// المجانين. حاصلة ([9]) إن كانت لكم رغبة في الملك ولابد وعلمت من نفسك القدرة على وظيفها ([10])، مِن إحاطتك بالعدل والرحمة لقويها وضعيفها، ([11]) فتقدم، إن لم نعنك لم نمنعك، وإن كان مرادك جمع المال وإلغاء النظر عن مصالح العباد

---

1 – على هامش المصدر السابق ما نصه: المراد بالنسبة هنا الميل إلى طريق الله من التصوف وإرشاد العباد إلى الله، ويقصدون بها الانتساب والانتماء إلى الله. ويعنى صاحب الرسالة أن مخاطبه لم يراع في سيدي عبد الله بن عمرو حق نسبته إلى الله، مع أن هذا المخاطب نفسه لم يكتسب ماله من حرمة عند الناس إلا بكونه من المنتسبين إلى الله المتمتعين بحق نسبتهم إليه، وقد علق المؤلف على ما هنا بقوله: "أي حق النسبة، يعنى ما عظم بنسبته إلى سيدي أحمد بن موسى وإنما عظم بحق النسبة إلى الله". انتهى

2 – في المخطوط "قاتلكم دافعا عن نفسه وقَتَل وقُتل في قتلاكم وقتله"، وقد أثبتنا ما في المصدر السابق.

3 – في المصدر السابق "مما يعقب الندامة والملامة".

4 – في المصدر السابق "لمن".

5 – علق المختار السوسي هنا قائلا: "يعني يوم حصار سجلماسة".

6 – علق المختار السوسي قائلا: "يكون ذلك وقت الحصار".

7 – في المصدر السابق "فيما".

8 – علق المختار السوسي على هذا المحل بقوله: (سترى رسالة التامانارتي تدل على ذلك، وقد تقدم لنا أن ذكرنا أن رسالة القاضي أبي زيد التامانارتي هذه توجد من هذا الكتاب في آخر فصل إيليغ والدلائيون، وهي الموالية منه لفصل بودميعة والعياشي، وهناك تقدمت أيضا ترجمة ابن كانون – لا أبو كانون – كما يسبق به قلم بعض أعلام هذا الفن، انجرارا منهم في أحيان ذهولهم مع ما يسمعونه من غيرهم، وقد صدَّرها كاتبها بما يدل على أنه بلغه أن الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائي عازم على التوجه إلى تافيلالت إذ قال: "فقد ثار إلى كثير من إخوانكم في العلم والدين بهذه البلاد السوسية أنكم عزمتم على الحركة إلى تافيلالت ومنازعة من بها قبلكم فاستعظموا ذلك منكم واتفقوا عليكم...") انتهى

9 – في المخطوط "حاصلها" وما في المصدر السابق أنسب.

10 – في المصدر السابق "وظيفته" ولعل الضمير في قوله "وظيفها" راجع إلى سجلماسة بدليل قوله عبد هذا "لقويها وضعيفها"، أما في المصدر السابق الضمير راجع إلى الملك.

11 – في المصدر السابق "للقوي والضعيف".

وإلقاء أمورهم في زوايا الإهمال فأنت وذاك، فالرب عالم قادر رحيم بعباده قوي عزيز، فارحم نفسك وارحمنا معها بقطع تضرعهم إلينا مع عجزنا، وارحم عباد الله برفع الضرر عنهم. وطَرق أسماعنا على غير يقين منا أنك تقصد اغرس ([1]) لرفع ما لنا من الزرع فيه، فإنا غير قابلين لذلك، وإن صح ولابد فدونك وإياه وكف عن المسلمين، وابعث إليه من يرفعه إليك بلا كلفة وأنت في حل منه، وإن شناعة قصدك لذلك غير لائقة بمقامك، فلنا نسبة إلى جدكم من طرَف ([2])، والنسبة التباعية أيضا تجمعنا، فيجب على الكل وصل رحمه والسلام، عبيد الله تعالى خديم المساكين، وغبار نعال الصالحين، محمد بن أبي بكر وفقه الله بمنه.

فأجاب كساه الله ثياب الغفران، بما يقتضي القبول والإذعان، والتلطف في الاعتذار على قدر الإمكان، حسبما أعربت عنه رسالة أخرى بعث له بها شيخ الإسلام المذكور، جوابا عن فصول جوابه المسطور، وهي هذه:
الحمد لله، وصلى الله على مولانا محمد وآله، وعلى الرئيس المقدام //251// المطاع ابن الإمام حجة الإسلام، [حسنة الليالي والأيام] ([3]) سيدي علي بن الشيخ الفاضل، ذي الفضائل والفواضل، سيدي أحمد بن موسى أفضل السلام، والرحمة والبركة تترى وعلى الدوام.
وبعد، فقد ورد علينا كتابكم الفصيح، وخطابكم الفسيح، انتهى الكلام فيه على أصول، واشتمل على فصول، يطول شرحها كلها، ونشير إلى مواضع منها أو جلها، من جملة فصولها أن قصدكم الأول إخماد نار الفتن، وإذهاب الضغائن والإِحَن ([4])، وردهم عما اقتحموه من المحرمات، وانتحالهم ([5]) كبائر السيئات، وكف إذايتهم عن ساداتنا وموالينا أهل بيت نبينا، فهذه مقاصد صحاح، مثمرة بحول الله لنجاح السعي والصلاح، وفقكم الله وسددكم وأعانكم على إتمام المقاصد، ورزقكم وزير ([6]) خير يعين على الخير ويساعد.
أما المقصد الأول الذي هو الزجر عن الفتن وارتكاب المحرمات وإذاية الشرفاء فهو سر التمكين في الأرض، قال الله تعالى (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)، وأما السادات الشرفاء فقد أوجب الله حقهم، وعظم حرمتهم، كتابا وسنة وإجماعا، يعظمون ويحترمون ولا يهانون، وعلى غير ما جاءت به شريعة جدهم لا يعانون، فمن أهانهم فقد سلك سبيل المعتدين، ومن أعانهم على غير ما يرضي جدهم فقد أعان على //252// هدم الدين، وكيفية تعظيمهم وتوقيرهم قَدَّرَتْهُ شريعة الجد، وشرحته بالرسم والحد، والإفراط في الأمور كلها كالتفريط، فمن زاد وحاد فقد ورط نفسه أي توريط، ومن فصول الكتاب، ودليل الخطاب، إجابتكم لداعينا، واستماعكم لمنادينا، في قبولكم شفاعتنا في الرفق بالعباد، ورحمة البلاد، جزاكم الله خيرا، ووقاكم ضيرا، فأنتم والحمد لله لذلك أهل، والفضل على من سهله الله عليه سهل، والفضل لا يستغرب إن خرج من معادنه، وإنما يستنكر الشيء إذا وجد في غير مظانه، وقد قيل قِدماً: "إن المعادن ولو طمست محالها، وتنوسيت دلائلها، لابد لها يوما من الظهور، ولو طالت السنون والدهور". والشيخ جدكم رضي الله عنه وأرضاه ورزق كلا منا ومنكم متمناه، أحد الطوافين في الأرض، الجائلين لسهلها ووعرها بالطول والعرض، لا أضاع الله تبارك وتعالى له سر تلكم الحركات، ولا قطع من تلكم الدار البركات.
ولنلوِ العنان إلى شرح حال تلكم البلدة السجلماسية حتى كأنك تشاهدها بالعيان، فهي قاعدة القرى الصحراوية، فبصلاحها يصلح كلها أو جلها، وبفسادها يفسد غيرها، وقد كانت فيما قرب من تاريخ وقتنا دار علم ودين وصلاح، ومستراح القاصدين والواردين ومتجر الرباح، //253// فتعاقبت عليها أيدي الولاة والعمال، ونظر إليها ملوك وقتنا نظر إهمال، ثم أعقب ذلك سنين الغلاء والشرور، ودام عليها ذلك الأعوام والدهور، فكان دخولكم

---

1 – في المصدر السابق "اغريس" وهو اسم واد يطل على تافيلالت.
2 – كذا في المخطوط بفتحة على الراء، وفي المصدر السابق "طرق" جمع طريق، ويقصد أن كلا من الدلائيين وسلالة سيدي أحمد بن موسى يجتمعون في الانتساب إلى الطريقة التباعية الجزولية الشاذلية.
3 – إضافة من المصدر السابق، كما أن في مخطوطنا بضع كلمات قليلة لم ترد في ذلك المصدر، تركنا التنبيه عليها اختصارا.
4 – الإِحْنَة: الحِقد والضِّغْن. والجمع إِحَنٌ.
5 – في المخطوط "وامتحانهم" وقد أثبتنا ما في المصدر السابق.
6 – في المصدر السابق "مزيد" عوض "وزير".

إياها على حين ضيقة وافتراق أهلها، واضطراب أحوالها وتزلزلها، وألزموا قوة المطالب، وأُخِذ الحاضر ناجزا بالغائب، فزاد الأمر ضيعة، والخرق سعة، وكان المأمول من فضلكم، والمرجو من أصلكم، أن تجعلوها كبستانكم، فيُجنَى اليانع، ويُرحم الضائع، فيعمر بكم الخالي، ويستجد بكم البالي. وأما ما أنهى إليكم بعض من لا يبالي بأكل لحوم الناس، ولم يتفطن لما يتعرض له من الضرر والبأس، أننا نروم مزاحمتكم على بلدة سجلماسة، وأنه حملنا على ذلك أنفة ونفاسة، كلا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما خطر لنا ذلك قط ببال، ولا طاقة لنا ولا قدرة على تحمل ما في تقلد أمرها من الوبال،تَنَافُسُ العقلاء في مُلك لا يبلى، وتَزَاحُمُهم في عز لا يفنى، ولا يتطاول إلى الملك إلا أحد الرجلين، رجل علم من نفسه القدرة على القيام بحقه، فهذا لا بأس به، أو رجل آثر دنياه على أخراه واستبدل رشده بغيه، فالويل لأمه، لعظيم حمقه، فلسنا من رجال الأول، ونسأل الله العصمة من الثاني وعلى فضله المعول، وقد تولى قبلكم في زمانكم الأوغاد والأعلاج ([1]) //254// فما نافسناهم ولا زحمناهم بل نعالج أخلاقهم المعوجة بما أمكن من العلاج، حتى انقضت دولتهم، وانكسرت صولتهم، فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره، والسعيد من سعد به غيره، والشقي من شقي به غيره، وإذا مَنَّ الله تعالى بسماعكم لكلامنا سماع قبول، وإن كان كل كلامٍ غير كلامِ المعصوم فيه مردود ومقبول، فأتموا فضلكم وخيركم برفع الأجناد، عن تلكم البلاد، وتخيُّركم رجلا من أصحابكم صالحا يخلفكم في البلاد، ييسر ولا يعسر، ويؤلف ولا ينفر، لعل الله سبحانه أن يجبر على يدكم كسرها، ويفك من أيدي الفتن أسرها، فارحموا تُرحموا، الراحمون يرحمهم الرحمن، لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء، من لا يَرحم لا يُرحم، وأنتم أعرف بأصحابكم من يليق ولا يليق، والفظ والغليظ واللين والرفيق، وأهل مكة أدرى ([2]) بشعابها، فاجتهد بنظرك، واختبر بفطنتك، فلك النظر والاختبار ([3])، وربك يخلق ما يشاء ويختار. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من ولي على قوم رجلا وهو يعلم أن فيهم خيرا منه فقد غش)، وقال صلى الله عليه وسلم: (اللهم من شق على أمتي فاشقق عليه)، ولا شك أنه طرق سمعنا قبل اليوم أن خديمكم الأنجد القائد حمُّو بن بلَّة واسع الصدر ذريع الحلم في نصحكم ونصح رعيتكم، فإن ظهر لكم أن تستخلفوه فإنه واللهُ //255// أعلم – من ميل قلوب الناس إليه – يليق لجمع مفترقها، ويلم ([4]) شعثها، وأوصِه بالرفق والرحمة، (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، أولئك أصحاب الميمنة). وما ذكرتموه عن ابن السيد الصالح المتبرك به سيدي عبد الله بن عمر ([5]) وهو سيدي الطيب وأن ما بلغنا لم يخطر قط ببال، ولا سدَّدتم إلى جانبه بنادق الإضرار ([6]) ولا النبال، فهذا بحمد الله عين المطلوب، والمرجو منكم والمرغوب، فقد صدَّقناكم في نفي ذلك، وعذرناه في انقباضه عنكم لكثرة الناقلين له من هنالك، ولعل أن يطرقَ سمعكم تحرك القبائل، ويترك في ذلك قولُ القائل ([7])، قال صلى الله عليه وسلم (أحب الحديث إلى الله أصدقه) لا شك أنا لما كثر الإرجاف وشاع وذاع، وتواردت أخبارهم على ما تمجه الأسماع، وترددت الأنظار، في القبول والإنكار، والخبر من حيث هو يحتمل الصدق والكذب، والحكم له بأحدهما من غير

---

1 – علق المختار السوسي على هذا المحل بقوله: يشير فيما نرى إلى الزيدانيين وأعلاجهم، وقد ذكروا مرارا في رسائل الدلائيين، والمقصود بهم الترك الداخلون عن طريق الجزائر، فقد جاء في رسالة من الدلائيين إلى محمد الشيخ الثالث: «وأنت تمتثل تدبيرا بإشارة الأعلاج المجبولين على طباع الخدائع والغش، على تل ملككم المخرج من عريش العش، ومن الدليل والشاهد والبرهان، فتكهم بأخيك مع مشورة النسوان، على غيب من الجند والديوان، غرضهم نشر سبة البأس التي نشروها في الشرق بعد المعتصم من بني العباس» ... «وهم سلبوا روح جدك السمي من غمد الجسد، وحموها في مخلاة من مسد»، الخ، وكل ذلك صريح في أن المراد بهم الترك. انتهى كلامه.

2 – في المخطوط "أعرف"، وما في المصدر السابق أنسب.

3 – في المصدر السابق "الاختيار".

4 – في المصدر السابق "ولِلَمِّ".

5 – في المصدر السابق "عمرو" بدل "عمر".

6 – كذا تبدو في المخطوط، وفي المصدر السابق "الإصرار" بالمهملة.

7 – علق المختار السوسي هنا قائلا: (يعني يترك في قلوبكم تأثيرا بكونه هو الذي حرك القبائل) اهـ أما في المخطوط فقد شكلت اللفظة "يُتْرَك" بالبناء للمجهول وهو ما لا يناسب السياق.

دليل جور، وقَوِيَ العزمُ، على أن العزمَ في الدَّفع مشروع، والزائدَ عليه ممنوع، حتى ورد علينا أصحابنا من مقامكم صحبة الشريف، الزكي العفيف، مولانا سعيد بن عبد الرحمان مع ولد خديمكم القائد حمو بن بلة، فأخبر الجميعُ عنكم، بما يليق بمحلكم، فاطمأنت بذلك النفوس، وذهب عنها ما تداخلها من إلقاء الشرور والبؤس، فحمدنا الله تعالى على ما أولى من النعم، وشكرناه على ما دفع من النقم، فثق بما تسمعه منا وتَلَقَّه //256// باليمين، وشُدَّ عليه يد الضنين، فإنا لا نحب لكم ولكافة المسلمين إلا الخير، ولا نجد في نفوسنا حينما ([1]) نسمع ما يسوؤهم أو يضرهم صبرا، وترى مع أصحابنا التافه من الطعام، والنزر من الصابون والإدام، وجهناه إليكم لنذيقكم طعامنا بعد إسماعكم كلامنا، فاقبلوه وإن كنتم عنه أغنياء، والمقصود به صلة أبناء السادات الأولياء، والله يخلص المقاصد، وهو لكل قول وفعل وضمير بالمراصد، والسلام.
عبيد الله تعالى خديم المساكين، وغبار نعال الصالحين، محمد بن أبي بكر وفقه الله بمنه.

وكان رضي الله عنه لما حاصر هذا الثائر قرى من الصحراء محاصرة طويلة الأمد، في عَدد كثير من القبائل الضالين معه وعُدد، حشر رضي الله عنه لمدافعته، ما لا يقدر أحد على محاربته، ما بين فرسان ورماة، أنصار للدين وحماة، ثم إنه اتفق أن أصابه رضي الله عنه رمد في عينيه، فعلم بذلك أن الله أرشده إلى حسن التوكل عليه، فصرف العنان عن توجه تلك الجنود إليه، ثم دافعه برفق وسياسة، ومراسلةٍ زواجرُها أمضى من سيوف أولي الحماسة، حاقنا بذلك الدماء ودافعا لما عسى أن توهمه بعض الجهلة من طلب الرئاسة، بعد أن عوفي رضي الله عنه من رمد العينين، فأعقب ذلك فرحتين، وأذهب الله عن قلوب أهل الدين ترحتين، //257// شفاءَ وَلِي قد عَمَّ المسلمينَ من الرحمة، وصرف ما غم قلوب المظلومين من كيد ولي الملحمة، وفي ذلك يقول شاعر زاويته أبو العباس أحمد الدغوغي أيضا:

حـــوتِ الأمَــانِي والأمـــانَ العافيــة	فـالجفن عـوفي جفـن سـيف العاميـة
هـو سـيف عاميـة الـورى فـي راحـة	فيهـا انتضــى مُضـنى أطـاعَ معاميـه
ولطالمـا انتضـيت وأغمـدكم ظُبَـا ([2])	هـــرجٍ فسُـــلَّ فأُغمِـــدت لتُصـــافِيَه
كــم أضــرمت لــولاه مــن حــرب ولا	حرب البسوس لصوصُ سوس الباغية
كــم (...) ([3]) لــولاه فــي كــم بلــدة	يتمــت وغــودرت المــواطن عافيــة
ولكــم بــه عمــرت مــواطن طالمـا	أَقـوَت ([4]) وتألفهـا الـذئاب العاويـة
ولكــم هــدى مــن أنفــس آباؤُهــا	فــي قعــر هاويــة يَهُــودٌ هاويــة
بـك كـم أتـى الإسـلام بالإسـلام مـن	آياتِــه نصــرٌ دَهَــى ([5]) نصــرانية
يـــا أيهـــا المـــولى الـــذي آياتـــه	أولــى بــأن تُتلــى كمــا هــي تاليــة
يـــا مـــن مواهبـــه كســـحب هاميـة	يـــا مـــن مذاهبـــه كشـــهب هاديـــة
يـــا مـــن مناصـــبه يجـــل أقلهـــا	ولــه تقـل مناصـب هـي مـا هيـه

1 – في المخطوط "ما" عوض "حينما" وقد صححناها من المصدر السابق "إيليغ قديما وحديثا" ص140
2 – الظُّبَةُ: حَدُّ السَّيْفِ والسِّنَانِ والخَنْجَرِ وما أَشْبَهَهَا.
3 – كلمة غامضة.
4 – أقوَتِ الدَّارُ: خَلَتْ مِنْ ساكِنِيهَا.
5 – دهاه: أَصابه بداهية.

رقَّـــت شـــمائلك الحســـان وإنهـــا ... لأرق معنـــى مـــن شـــمول صـــافية
وَصَـفَتْ صِـفاتك فاتصـفتَ لوصـفها ... لانَـــت فويـــل للقلـــوب القاســـية
أَبِهِـم عمـــى أم عـــاقهم صـــمم أمـــا ... لـــذوي الجهالـــة مـــن قلـــوب واعيـــة
وهـــذا لســـان الحـــق ينشـــد أنَّمَـــا ... شـــمس الهـــدى للمهتـــدين دلائيـــة

//258//

بكريـــة الأبـــراج مشـــرقُ ســـعدِها ... بمحمـــديٍّ الرُّشـــدِ غربـــا باقيـــة
تزهـــو كواكبهـــا الزواهـــر زينـــة ... منهـــا ســـماء المجـــد فخـــرا حاليـــة
هـذا وكـم غمـر الثـرى وكفـى الـورى ... ســـببا إذا كـــف الســـماء غواديـــه
ولعلمِـــــه ولحلمِـــــه ولِحُكمِـــــه ... حكـــمٌ تفـــوق الحصـــر لا متناهيـــة
(...) ([1]) فـــــــي قلبـــــــه ... مـــن كنـــز أســـرار تصـــان إلهيـــة
بهـر العقـول بـبعض مـا منهـا بـدا ... ويرى الحواضـر منـه مـا فـي الباديـة
مـن حسـن سـيرته التـي مـا سـادها ... إلا الصـحابة فـي القـرون الماضـية
فهـــو المجـــدد للشـــريعة والـــذي ... مـــن جـــده البـــدع الجديـــدة واهيـــة
يحيـــي مـــن الســـنة الســـنية خافتـــا ... سَـــنَنَا ســـنيا ثـــم يرشـــد قافيـــة
فـــالعجز غايـــة مادحيـــه لـــو أنهـــم ... جـــاؤوا بكـــل بليغـــة مـــن قافيـــة

الفرع الثامن: في وقوفه مع ظاهر الشريعة، إلا إذا ظهر وجه الجمع بينها وبين الحقيقة

يحكى أن بعض إخوته رضي الله عنه وأرضاه صدر منه أمر أوجب تأديبه، فقام إليه الشيخ وأغلظ له في القول، وأراد تأديبه بالفعل، وكان ذلك بمحضر والدهما الشيخ الشهير، العارف الولي الكبير، سيدي أبي بكر رضي الله عنه، وكان شديد الحنانة على عباد الله كلهم طائعهم وعاصيهم، وكان ولده شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، سيدي محمد بن أبي بكر شديد الشكيمة //259// جدا في الحق، فلما رآه والده عزم على تأديبه بالضرب حال بينه وبينه ومنعه من ضربه، فقال له شيخ الإسلام سيدي محمد رضي الله عنه: (هانتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) فاعترى الشيخَ سيدي أبا بكر نفع الله به حالٌ وقال له رضي الله عنه: أنا أجادل عنه وعنك وعن قوم آخرين، فبات سيدي محمد يبكي مخافة أن يكون فيما قال اعتراض على الشيخ، وبات الشيخ سيدي أبو بكر يحمد الله تعالى، فلما أصبح أُخبِر بما بات عليه ابنه سيدي محمد من البكاء والحزن، فقال: سبحان الله، وأنا بت أحمد الله لِأَن أخرج من صلبي من إذا رآني زغت عن الحق ردني إليه انتهى.

وقال الإمام أبو حامد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي في كتابه المرآة ما نصه: حدثني الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن الشيخ الشهير، العارف الولي الكبير، سيدي أبي بكر الصنهاجي دفين الدلاء رضي الله عنهما، أنه كان مع الولي الشهير أبي عبد الله سيدي محمد الشرقي في خباء، فأقيمت الصلاة والإمام والناس

---

1 – كلام تعذر ضبطه.

خارج الخباء، فقام الشيخ للصلاة فتيامن كثيرا، قال فتياسرت لما أعتقد أنه الصواب في القِبلة، فأنكر ذلك الفقراء، قال: ثم إنني زرت بفاس الشيخ أبا المحاسن، فبعد خروجي عنه ووصولي إلى الشماعين لحقني //260// رجل من أصحابه وقال: إن الشيخ يقول لك: كيف اتفق لك مع سيدي محمد الشرقي في القبلة؟ قال: فحدثته بذلك. ثم قال صاحب المرآة: والرجل المبعوث المذكور هو سيدي علي البيطار، وكان الشيخ أبو المحاسن قد سمع بذلك واستحسنه وعاب إنكار المنكرين عليه، فإن الشيخ لا يرفع التكليف بالوظائف الشرعية التي القِبلةُ من جملتها، والمشايخ قد تصدر منهم أمور تُؤوَّل وتُسَلَّم ولا يُتَّبعون فيها، وإنما هم بشر يجوز عليهم السهو وما يجري مجراه. وسمعته، يعني أبا المحاسن رضي الله عنه يقول: إن الشيخ المجذوب كان يقول لأصحابه: اتبعوني ما سلكت الجادة، فإذا خرجت فقفوا حيث أنتم حتى أعود إليكم، ومن تبعني منكم في ذلك تلف، أو كلاما هذا معناه.
قلت: وقد يُؤَول ما فعله الشيخ أبو عبد الله الشرقي من التيامن بأن يكون قد أزيلت له عن الكعبة الأستار حتى رأى مع بُعد الدار، محل القبلة منها بالأبصار، ولا يستبعد مثل هذا من الأولياء الأبرار، لكنه لم يكن منه بذلك إخبار فوجب الوقوف مع مقتضى الظاهر، والله يتولى السرائر.
نعم كان هذا الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المذكور، ممن صَدرُه بالجمع بين الشريعة والحقيقة معمور، فربما يُجرِي ما أشكل في ظاهر الشريعة على ما يتحققه من باطن الحقيقة، وذلك //261// مثل ما سبق في ترجمة شيخه هذا أبي عبد الله محمد الشرقي رضي الله عنهما، نقلا عن كتاب الصفوة، أنه وقع بينه وبين ولده سيدي الغزواني يوما كلام وعتاب، إلى أن قال الولد لأبيه الشيخ أبي عبد الله الشرقي: أأنت ترزقني؟ فقال له الشيخ: "نعم أنا أرزقك"، فأعظم الناسُ هذا الكلام، فقال لهم الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنه: لا شيء في هذا، فإن الشيخ هو القطب في الوقت، والقطب تجري الأرزاق على يده، فصح بهذه الإضافة أن يكون رازقا. اهـ ونحو ما سبق في ترجمه شيخه أبي محمد عبد الله بن حسون رضي الله عنه، وذلك أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن أبي بكر لما ذهب لشيخه ابن حسون المذكور وجده قد أعرى رجليه وذراعيه لمن شاء تقبيلهما، فخطر بباله أن هذا التعري لماذا؟ فبنفس ما خطر له ذلك قال الشيخ عبد الله بن حسون: من قيل له: "من مس لحمك لم تمسه النار"، كيف لا يعري لحمه لمن يمسه، فجلس الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر إلى جنبه كالحاجب عليه، فلا يأتيه إنسان بحرز يكتبه له إلا أخذه من ذلك الإنسان فمده للشيخ ثم يقبل يده، فإذا كتبه أخذه من يده مقبلا لها مرة أخرى ثم يمده لربه، وغرضه بذلك كثرة تقبيل يده لِما سمع من قوله. اهـ فأنكر أولا ذلك التعري لأنه مشكل في ظاهر الشريعة، حتى //262// ظهر له وجه الجمع بين الشريعة والحقيقة، فسلم حينئذ واستسلم، وقبَّل تلك اليد واستلم، وأحرز فضيلة ذلك المس واغتنم، حرم الله جسومهما على النار، وجعل أعلى الفردوس لنا دار القرار، آمين.

الفرع التاسع: فيما كان له من العناية بأداء ما تحمله من العلوم على جهة الدراية والرواية.

كان أحب الأعمال إليه رضي الله عنه تدريس العلوم، لمن يستحقها على الخصوص والعموم، فيجيب كل من دعاه للإقراء، سواء كان من أهل الابتداء أو الانتهاء، ولا يرد سؤال سائل لا في المقاصد ولا في الوسائل، من الأجرومية إلى التفسير، مع إفصاح المعنى وفصاحة التعبير، حافظا محققا، ضابطا مدققا، مبينا لما أشكل، مفصلا لما أُجمِل، مستجمعا للشوارد، مستحضرا للشواهد، مستدلا بالحجج اليقينية، عن الأحكام الدنيوية والدينية، جاريا في سنة التعليم، على ما كان عليه السلف الصالح في القديم، لا يتعرض في مجالس الإقراء، لتقرير شبه أهل البدع والاهواء، بل لا يَرُوج عنده إلا المذهب المصفى من مذاهب أهل السنة الغراء، لم تخل مجالسه في غالب الأزمان، من تحقيق //263// بعض المطالب من عقائد الإيمان، على وجه تنشرح معه الصدور بأنوار الإيقان، جامعا بين الدليل البرهاني، والشهود العياني، وما أفتى أحدا قط إلا بالمشهور، أو المعمول به عند الجمهور، نعم ربما كان يرخص للمعذور، في غير ما هو من حكم المحظور.
كان رضي الله عنه ذاهبا في علوم الحديث على أمثل سَنن، كأنه واحد من أهل الصحيحين أو السُّنن، ولم يكن أحفظ منه في البوادي والأمصار بعد شيخه أبي عبد الله القصار.

وكان يُعَدِّل ويُجَرِّح في حفاظ زمانه على التعيين، ولا يبالي في الحق كأنه يحيى بن معين، فقد روينا من طريق خاتمة العلماء الراسخين، من أعقاب الشيخ الإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي ابن شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر رضي الله عنهم قال: حدثني الثقة الصدوق أبو عبد الله محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي رحمهم الله قال: كان حدثني أبو عبد الله البجيري ([1]) المكناسي أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنه كان يقول: حفاظ المغرب في زماننا ثلاثة: حافظ ضابط ثقة وهو أبو العباس أحمد بن يوسف الفاسي، وحافظ ضابط غير ثقة وهو فلان، وعين الثاني، وحافظ غير ضابط ولا ثقة وهو فلان، وعين الثالث، رحم الله الجميع ([2]) اهـ قلت //264// وهكذا كانت طريقة المحدثين الأثبات، يعدلون ويجرحون في الرواة وإن كانوا ممن بلغ النهاية في الشهرة بالعلم والولاية، فقد قالوا في أهل الطبقة السادسة من المجروحين إنهم قومٌ الغالب عليهم الصلاح والعبادة، لم يتفرغوا إلى ضبط الحديث وحفظه والإتقان فيه فاستخفوا بالرواية. وكان خلف بن سالم يقول: من استخف بالحديث استخف الحديث به. ثم الجرح وإن كان فيه خطر فلابد منه، فالنصح في الدين حق واجب كحفظ الحقوق من الدماء والأموال والأعراض، ولكون ذلك نصيحة لا يعد غيبة فيهم. وقد أجمع المسلمون قاطبة بلا اختلاف بينهم أنه لا يجوز الاحتجاج في أحكام الشريعة إلا بحديث الصدوق العاقل. قال أبو عبد الله الحاكم: ففي هذا الإجماع دليل على إباحة الإبانة عن حال من ليست هذه صفتَه اهـ

وإذا عرفت هذا فكل ما ذكره شيخنا العلامة الصالح أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري الحسني في تاريخه الكبير ([3]) في رد هذا التقسيم، مشنعا على قائله بالتشنيع العظيم، فهو خارج عن قصد قائله السابقا الذكر وهو شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، لأن قصده رضي الله عنه إنما توجه إلى اعتبار مصطلح المحدثين القديم، وحاشى لله أن يتوجه إلى مجرد الوقوع في هؤلاء الأئمة، الذين كانوا في وقته من خيار //265// علماء هذه الأمة، فما فَرَّ منه حينئذ شيخنا أبو عبد الله القادري المذكور، من الوقوع في مثل هذا المحظور، فقد وقع فيه من ظنه السوء بهذا الإمام ([4])، الذي اتفق على رسوخه في العلم والدين جميع الأنام، وإنما أخفى ذكر اسمه لئلا يتوجه إليه في حقه الملام ([5])، وما نقله عن الشيخ أبي عبد الله المسناوي من كونه تعوذ من هذه المقالة، يكاد أن يكون في حكم الاستحالة، كيف وقد نقلتها من خطه مسندة برواية هي عنده معتمدة، وما تعوذ من شيء منها ولا تعرض إليه فرَدَّه، مع أنه رضي الله عنه كان لا يزيغ عن الحق ولو كان في جده، والظن بالجميع جميل، والله على ما نقول وكيل.

وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر رضي الله عنه يختم صحيح البخاري في كل سنة، لا تأخذه عن تدريسيه غفلة ولا سنة، وكان يحضر مجلسه جمع كثير من الأئمة الأعلام، ويحتفل ليوم الختم بما لم يسمع مثله

---

1 – في المخطوط "البيجري"، وقد أثبتنا ما في نشر المثاني ج1 ص323

2 – قال في المصدر السابق: (فحكوا عن محمد البجيري المكناسي أن بعض من ينتسب إلى العلم كان يقول: حفاظ المغرب في زماننا ثلاثة: حافظ ضابط ثقة وهو أبو العباس أحمد بن يوسف الفاسي، وحافظ ضابط غير ثقة وهو أحمد المقري، وحافظ غير ضابط ولا ثقة وهو أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر الشريف السجلماسي رحم الله الجميع. قال الشيخ أبو عبد الله المسناوي: وأنا أقول: أعوذ بالله من ذلك). انتهى ما في النشر، وقد بين مؤلفه أن البجيري هذا مجهول الحال لا يُعرَف له ذكر مع أهل العلم، وأتى بحجج تثبت كذبه في مقالته هذه، منها كونه رأى أسئلة كثيرة لسيدي محمد بن أبي بكر يسأل فيها هذين الإمامين ويبالغ في تعظيمهما فيها، وأن المحققين من معاصريهما متفقون على وصفهما بالحفظ والثقة والظبط، فليراجع ذلك في محله.

3 – يقصد نشر المثاني، وقد أشرنا إلى ما ورد فيه باختصار، انظر (ج1 – ص323)

4 – لم يشنع سيدي محمد بن الطيب القادري في نشر المثاني على سيدي محمد بن أبي بكر، وإنما كذَّب البجيري المكناسي فيما نسبه إليه، وهذا نص كلامه بالحرف: (فالذي أراه أن هذا الكلام مكذوب، كذبه محمد البجيري المكناسي على من نسبه إليه وهو سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي. ومما يدل على كونه كذب عليه ويصححه هو أني رأيت أسئلة كثيرة موجهة من سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي إليهما أي إلى مولاي عبد الله وإلى أبي العباس المقرى، وبالغ في تعظيمهما فيها.) انتهى ج1 ص324 بتحقيق حجي.

5 – نعم أخفى ذكر اسمه أولا، ولكنه صرح به بعد ذلك واضحا كما نقلنا عنه من المصدر السابق.

من أنواع الطعام، ويأتيه الناس للتبرك والاستفادة من بعيد الأمكنة، تنطلق بالثناء عليه نظما ونثرا جميع الألسنة، وفي ذلك يقول شاعر زاويته أبو العباس أحمد الدغوغي رحمه الله:

بُخـــارَى مِــــن تأرُّجهـــا الهبـــاء ... بُخَـــارٌ دون مَخبَـــرِهِ الكِبـــاء [1]

ولـــيس المســـك والكـــافور إلا ... شـذى وهـو مـن تضـوعها شـفاء

أمنكـــر فضـــلها أحسَـــدت أرضـــا ... تقـــر لهـــا وتحســـدها الســـماء

//266//

تنبـــه وَيـــك إن إلـــى بخـــارى ... لِجـــامِع جـــامعٍ صـــح انتمـــاء

أميـــر المـــؤمنين أولـــي انتقـــاد ... بـــه حســـن انتقـــاء واتقـــاء

كـــأنَّ كتابَـــه والكتـــب منـــه ... تمـــد سَـــميَّه والأوليـــاء

فمنـــه بـــه ســـميا بـــل سَـــريًّا ... تُمَـــد الأوليـــاء بمـــا تشـــاء

ونفـــس وجـــوده إمَّـــا ادلهمَّـــت ... ديـــاجي النـــازلات هـــو الضـــياء

وِقـــاءُ عُـــلاك مـــن بـــالأرض طـــرا ... فأنـــت مـــن الشـــقاء لهـــم وِقـــاء

مميـت الجهـل محيـي العلـم نصـحا ... كمـــا أحيـــا ممـــات القحـــط مـــاء

فـــلا وعُـــلاك مـــا اعتـــاص ارتيـــاد ... علـــى مـــن منـــك ظلـــه لـــواء

فمـــن عـــن حَجَّـــةٍ أقصـــته منـــا ... قائمـــــة وأقعَـــــدَه القضـــــاء

بمكـــــة حَجُّنـــــا ومِنًـــــى مُنانـــــا ... وكعبتنـــــا وزمزمنـــــا الـــــدلاء

وإن لطيبـــــة الغـــــراء لطيـــــب ... يعطـــــر منـــــه ناديـــــك الهـــــواء

علـــى أنَّـــا بجاهـــك وهـــو بـــاب ... مفاتحـــــه لبُغيتنـــــا الرجـــــاء

نُأمِّـــــل أن نبلـــــغ لا حُرِمْنـــــا ... هنـــا وهنـــاك يُغتـــنَم الـــدعاء

وقال أيضا في ختمه أخرى:

بَـــــرقُ المُعَـــــرِّسِ (...) ... لـــيلا مُعَـــرس (...) [2]

وللمشـــــــام بشـــــــام ... أهـــدى النســـيم بشـــامة

مـــــالي وللشـــــام سِـــلْعا ... سـل عـن مرامـي ورامـة

واســـتنجدن عـــرب نجـــد ... وحَـــيِّ حَـــيَّ تهامـــة

//267//

واكظـــم بكاظمـــة مـــا ... جـــر الفـــؤاد احترامـــهْ

---

1 – الكِباء: بكير الكاف، عود البخور. والهباء: الغبار.
2 – كلمة غامضة.

ودمعـــك انثـــر عقيقـــا واقطعـــه يلـــف نِظامَـــهْ
حجـا طحـى لـي حجـازا حجـى هـوى مسـتهامة
وبالغضـا كَـم غضـيض يُصْلي القلوبَ اضطرامَه
غزالـــة منـــه لاحـــت ترعى وترعى على خزامة
مـن مسـكها مسـكة ودَّ هـــا اللثـــام لفامـــه
طابــت وطــوبى شــذاها مــن طابــةٍ مســتدامة
حيــث الثــرى لــو تراهــا تعلـــو الثريـــا فخامـــة
حيــث البســيطة مثــوى لجســمِ كُــلِّ وَسَــامة
حيــث النــدى منــه تنــدى وَطْفــاء كــل غمامــة
هنالـــك الفخـــر لكـــن واتـــى وحيـــة القيامـــة
هنالـــك الجـــاه لكـــن جـــاه العـــلا والزعامـــة
هنالـــك الـــيمن لكـــن لا غـــنم إلا اغتنامـــه
هنالـــك الأمـــن لكـــن لا مـــن أذى لا ســـآمة
هنالـــك البحـــر لكـــن بـــرا ببـــر انتقامـــة
وغـــائص فيـــه عـــاني دون اللآلـــئ انتظامـــه
فصــــادفت صَــــدَفيا يمنـــاه ســـنى استنامة
وذي أُوام بِــــــــــرَيٍّ لـم يشْـفِ منـه أُوامَـه ([1])

//268//

أتـــاه شـــوقا فلمـــا دانـــاه هـــاب اقتحامـــه
ورام الســـلامة منـــه ولات حـــين ســـلامة
فبـــات حِلْـــفَ تَلَـــظ والبحـــر عـــذب أمامـــه
نـــال البخـــاري منـــه سَـــبحا وغوصـــا مرامـــه
فنـــاب فـــي السبح عنـــه وقـــام غوصـــا مقامـــه
سَـــمِيُّه القطـــب أســـمى مـــن حـــاز أســـنى كرامـة
فـــأطْلَعَ العلـــمَ شمســـا بليـــل جهـــل وأقامـــه
وأنهـــر الجـــودَ نهـــرا نهـــارَ ليـــل وصـــامه
لـــم يخـــش فـــي الله لومـــا ممـــن لَحـــاه ولامـــه

---

1 – الأُوامُ: حرارة العطش.

والصـــــبر أمنـــــع درع	قـــد انتحـــاه ولامـــه
أكـــرم بســـوقٍ بـــديعٍ	لِلمَكْرمـــــات أقامـــه
فيــــه الثنـــــاء عليـــه	وقــف إذا الغيــر ســامه
فجـــوهر الفضـــل فـــرد	تــأبى المعــالي انقسـامه
وصـــــفا لفــــردٍ إمـــامٍ	كـــان الرســـول إمامـــه
صـــلى الإلـــه وأبقـــى	دأبـــا عليـــه ســـلامه
مــــا لاح بـــدر وأبـــدى	فـي جـنح ليـل تمامـه [1]

ولم يتصدر هذا الشيخ رضي الله عنه للتأليف في شيء من الفنون، لا بالحواشي ولا بالشروح ولا بالمتون، جريان على سنة أعظم شيوخه //269// الإمام النظار، أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار، وشيخه ولي الله الإمام أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي، وولي الله أبي زيد عبد الرحمن بن علي سقين العاصمي نفع الله بهم، فكانوا يرون صوابا، أن لا يؤلفوا كتابا، ولهم في ذلك أسوة، بكثير من السلف الصالح الذين كانوا في العلم والعمل قدوة، نعم كان رضي الله عنه جمع أربعين حديثا نبوية، اغتناما لما ورد في ذلك من خير البرية، وذكر خلف كل حديث حكاية، وجمع أيضا مسائل مختلفة الأجناس والفصول، من مهمات الفروع والأصول، وجعلها في صورة أسئلة، كأنها عن مسائل مشكلة، وبعث بها لتلميذه الإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن محمد المقري الآتي تعريفه إن شاء الله لما ارتحل إلى البلاد المشرقية، واستقر بعد طول الإقامة بالشام بالديار المصرية، وأمره أن يكتب على كل واحدة منها ما ظهر له من موافقة ومخالفة لينظر ما حصل له في البلاد المشرقية، زيادة على ما ذهب به من البلاد المغربية، وليزيده من رفعة القدر، ما يسمو به على علماء مصر، لأن شيخ الإسلام أبا عبد الله محمد بن أبي بكر كان هناك شهير الذكر في الجمع بين الشريعة والحقيقة، والسير الجميل على مثلى الطريقة، فكان من انتسب إليه يُعَز ويعظم، ويوقر ويحترم، وليتيقن فيه التصديق //270// في كل مطلب من التصور والتصديق. ثم لما وصلته تلك المسائل وهي مما يفتخر به الأواخر على الأوائل، قبلها ووضعها على رأسه، وعلم أن يومه بسببها أعظم من أمسه، ثم كتب عليها ما ظهر له بقدر الإمكان، مما تقر به من شيخه العينان، وأبرزها في صورة تأليف حسن الوضع، يحصل به لمطالعه عموم النفع، ووجهها مغربة كأنها عروس في منصة الإجادة مجلوة، وهي بأنواع من حبائر التحرير مكسوة، إلى ديار شيخه من الزاوية الدلائية البكرية، حيث يبلغ كل من حط بها رحال قصده أمانيه، فلما وصلته سر بها سرور الشيخ ببلوغ مناه، من طلوع تلميذه في سماء علاه، ولتصديق الخُبْر الخَبَر، وتكذيب قولهم لم يَدَعْ من مضى للذي قد غبر، وهل هذا إلا سنبلة من فدانه، أو شجرة من جنانه.

(نص رسالة "إعمال الذهن والفكر" لأبي العباس أحمد بن محمد المقري)

وهذا نص ما كتبه وهو في غاية التحقيق والإتقان، وليس الخبر كالعيان:

الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة المحمدية طائفة لا تزال قائمة على الحق أكرِم بها من طائفة، وعرَّف أولياءه عوارف معارفه، ولطائف مننه، فحصل لهم التنوير إذ شهدوا طائفَه، وأمدهم بعنايته الربانية فلم يزالوا يستمدون من سحائبها الواكفة، ففئتهم لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ما يرضي الله ورسوله عاكفة،

---

1 – هذه القصيدة قد اجتهدنا في إخراج نصها ولسنا على يقين من بعض ما أثبتناه، فلتراجع.

والصلاة والسلام //271// على سيدنا محمد نبيه المصطفى الذي جمع له تالد الفضل وطارفه، وحبيبه المقتفى الذي أضفى عليه حلل التخصيص ومَطارفه، والرضى على آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، الذين اهتدوا بنوره وتعرفوا عوارفه، وتفيؤوا ظلال درجة سنته الوارفة، صلى الله عليه وعليهم صلاة وتسليما ننال بهما خير الدنيا والآخرة، ونأمن من بركتهما مخاوف الزمان ومصارفه.

أما بعد فيقول العبد النادم، على ما أسلف في الزمن المتقادم، المتعلق بأذيال أهل الله، أفقر الورى إلى رحمة الله، أحمد بن محمد المغربي أرجح الله أعماله، وأنجح أغراضه وآماله، بمنه ويمنه، إني لما مَنَّ الله علي بلقاء الفقيه الصالح النبيه، وارث مقام أبيه، الصدر الأوحد العظيم الأخلاق والشمائل، السَّني السُّني الذي ذكا عَرفُ مَا له من الفضائل فأوفى على زهر الخمائل، ذي المآثر المتنوعة الأفنان، والمآثر التي لم يختلف فيها اثنان، المحدث الحاج الراوية الرحالة، البركة الذي جعل هجيراه الانتماء إلى الخير وانتحاله، أبي عبد الله سيدي محمد بن الشيخ الشهير الكرامات، الكبير المقامات، سيدي أبي بكر بن محمد وصل الله لهم خير الدنيا والآخرة، وألبسهم حلل العافية الصافية الفاخرة، لم يزل يلاحظني بعين الإجلال مع أني حقير، ويظن أن لي نصابا من العلم وأنا المسكين الفقير، وكأنه أدام الله علاءه //272// وأفاض عليه آلاءَه، عمل بما اقتضاه كرمه الوضاح الجبين، وفضله الظاهر الباهر المبين، فكان من جملة الظنون، توجيهه إلي ببعض ما أشكل من الفنون، لاعتقاده أكرمه الله أن لدي بها خبرة، إن في هذا لأعظم عبرة، متى احتاج البحر إلى الوَشل ([1])، أو بَارَى البَطلَ المُمارِسَ الثابتَ الجأشِ ذُو الخَوَرِ والفشَل، لقد ذهبت النفس في الاستغراب أي ذهاب، وحُقَّ أن تتمثل بقول المالكي أبي نصر القاضي أبي محمد عبد الوهاب، صبَّ الله عليه شآبيب رحمته:

مَتَـى تَصِـلُ العِطَـاشُ إِلَـى ارْتِـوَاءٍ	إِذَا اسْـتَقَتِ البِحَـارُ مِـنَ الرَّكَايَـا
وَمَـنْ يُثْنِـي الأَصَـاغِرَ عَـنْ مُـرَادٍ	وَقَـدْ جَلَـسَ الأَكَـابِرُ فِـي الزَّوَايَـا
وإِنَّ تَقَـدُّمَ الجُهَّـالِ يَوْمًـا	عَلَـى العُلَمَـاءِ مِـنْ إِحْـدَى الرَّزايَـا
إِذَا اسْـتَوَتْ الأَسَـافِلُ والأَعَـالِي	فَقَـدْ طَابَـتْ مُنَادَمَـةُ المَنَايَـا

رويدك أيها الفاضل فإني بنفسي أعرف، ولا عَلَميَّةَ ولا مَعرفةَ تمنعاني أن أُصرَف، فإن كان أحمد ممنوعا فقد يُصرف للضرورة أو التناسب كما تقرر، ولكن كثر الطلب ممن لا ترد رسائله وتكرر، فإن أجبت لم آمن من الخطأ والخطل، وإن أمسكت وهو الصواب المطلوب فُسِخ عقدُ الرجاء وبطل، وهذا ميدان يكبو فيه جواد كل فارس وبطل، فكيف بِمن جيده من حلى تحقيق العلوم قد عَطل، ولما كان الفكر عليلا، والذهن كليلا، بكثرة فتن الزمان //273// التي تلاطمت أمواجها، وتزاحمت عليَّ وإلى الله المشتكى أفواجها، صرت أقدم رجلا وأؤخر أخرى، ثم عزمت بعد أن أُفحِمتُ لعلي أجد صالح دعائكم ذخرا، فإن صادفتُ صوبَ الصواب فمن بركتكم أصبت، وإن كان غير ذلك فهو المعهود مني إذ تصديت لما لست له بأهل وانتصبت، والنمل يعذر في القدر الذي حملا، والله المسؤول أن يبلغنا من حسن القبول أملا، ومنه سبحانه أستمد العون، والحفظ والصون، ووسمت هذه الأوراق، التي تحلت أجيادها العاطلة بجواهر أسئلتكم التي جلبت كل حسنٍ بديع رق أو راق، بما يناسب القضية المسطورة، والنفوس على حب من أحسن إليها مجبولة مفطورة، وهو: "**إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس، الواردة من الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر بركة الزمان وبغية الناس**".

فأقول وعلى الله أعتمد، ومن بحر كرمه وجوده أستمد، سألتم أبقى الله للمسلمين وجودكم، وأدام كرمكم وجودكم، عن عدة مسائل، سَمَتْ إلى مطالعها بخير الوسائل:

أولها الأمر بالإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، إلى آخر ما جلبتم //274// فيها من الكلام.

---

1 – الوَشَلُ: الماءُ القليلُ يتحلَّب من جبل أَو صخرة ولا يتَّصل قَطْره.

والجواب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب، أنه ورد في كتاب الله العزيز الأمر بالإيمان بالرسل عليهم السلام، وظاهر كلامكم أبقاكم الله أنه لم يرد ذلك إلا في السنة، وقد قال الله تعالى: (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله) وقال تعالى: (ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل ءامن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله) الآية، وقال سبحانه: (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة)، وقال جل جلاله: (والذين ءامنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) الآية، فبعض هذه الآي من باب الطلب الصريح، وبعضها أخبار تضمنت المدح والثناء على من تحلى بمضمون ذلك الوصف الحسن وتخلى عن ضده القبيح، فإذا ثبت هذا كان السؤال واردا بين هذه الآي وبين الآي التي فيها الإيمان بالنبيئين، وإنْ قُطِعَ النظر عما ورد من ذلك في السنة حتى يقال هنا: عموم القرآن هل يخصصه الحديث؟ بل ما ظاهِرُه التخصيصُ وارد في القرآن أيضا كما ذكرنا، وعليه فيقال: هل الآي التي فيها الإيمان بالرسل مخصِّصَةٌ للآي التي فيها الإيمان بالأنبياء أم لا؟، على أنه وقع في الحديث أيضا الإيمان بالأنبياء، كما في حديث جبريل عليه السلام في رواية أنس وابن عباس رضي الله عنهم: (أن تؤمن بالله والملائكة //275// والكتاب والنبيئين) وكذا في رواية النسائي عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما، وفي البخاري "ورسله" بصيغة الجمع عند أكثر الرواة، وعند الأصيلي ([1]): "ورسوله" بالإفراد، فقد بان أن الأحاديث فيها الإيمان بالرسل وبالرسول وبالنبيئين على اختلاف الروايات، كما أن القرآن وقع فيه ذلك.

أما الإيمان بالنبيئين فهو ما بنيتم عليه سؤالكم، وأما بالرسل فما قدمناه من الآي، وأما بالرسول فكقوله تبارك اسمه: (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا)، ولا شك أن سياق الآي في ذلك كله عند المفسرين يدل على الإيمان بالرسل حتى في الآي التي ذكر فيها النبيؤون، وما ذلك إلا لأن بعض من كفر كان يفرق بين الرسل فيقول: نؤمن ببعض ونكفر ببعض كفلان دون فلان، فأمر الله سبحانه بالإيمان بجميعهم وعدم التفريق بينهم، والواجب علينا الأيمان بالأنبياء والرسل، فما كان من الآي والأحاديث فيه النبيؤون فظاهر، وما لم ينص فيه إلا على الرسل يدخل فيه الأنبياء بطريق اللزوم، لأن الإيمان بالرسل يستلزم الإيمان بالانبياء كالملائكة، وليس ذلك من باب تخصيص العام على ما لا يخفى. فلا يقال إن الآي التي فيها الرسل مخصِّصة لآي النبيئين، وكذلك الأحاديث التي فيها الرسل مع التي فيها النبيؤون، كما لا يقال إن ذكر الرسول //276// في الآية أو حديث مخصِّص لما فيه منهما الرسل بالجمع. قال بدر الدين العيني رحمه الله في شرحه على صحيح البخاري رضي الله عنه: فإن قيل الإيمان أيضا بالكتاب واجب ولِمَ تركه؟ وأُجيبَ بأن الإيمان بالرسل مستلزم للإيمان بما أنزل عليهم، على أنه مذكور في رواية الأصيلي هنا، إلى أن قال: وَمِنْهَا ([2]) مَا قيل ظَاهر الحَدِيث يدل على أَن الْإِيمَان لَا يطلق ([3]) إِلَّا على من صدق بِجَمِيع مَا ذُكر، فَمَا بَال الْفُقَهَاء يكتفون بِإِطْلَاق الْإِيمَان على من آمن بِاللَّه وَرَسُوله؟ وَأجِيب بِأَن الْإِيمَان بِرَسُولِهِ هُوَ الْإِيمَان بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ من ربه، فَدخل جَمِيع ذَلِك تَحت ذَلِك اهـ. وقال أيضا في قوله "وملائكته": أَي الْإِيمَان بِجَمِيع مَلَائِكَته، فَمن ثَبت تَعْيِينه كجبريل وَمِيكَائِيل واسرافيل [وعزرائيل] ([4]) عَلَيْهِم السَّلَام وَجب الْإِيمَان بِهِ وَمن لم يُعرف اسْمُه آمنا بِهِ إجمالا، وَكَذَلِكَ الأنبياء. ثم قال العيني: والإيمان برسل الله عَلَيْهِم السَّلَام هُوَ بِأَنَّهُم صَادِقُونَ فِيمَا أخبروا بِهِ عَن الله تَعَالَى، وَأَن الله سبحانه أَيّدهُم بالمعجزات الدَّالَّة على صدقهم، وَأَنَّهُمْ بلغُوا عَن الله رسالاته وبينوا للمكلفين مَا آمَرهُم ببيانه، وَأَنه يجب احترامهم وَأَن لَا يُفرق بَين أحد مِنْهُم اهـ وعليه فالإيمان بالأنبياء اعتقاد عصمتهم وكمالِهم ووجوب توقيرهم واحترامهم

---

1 – الأصيلي: شيخ المالكية وعالم الأندلس، أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي. نشأ بأصيلا من بلاد العدوة، وتفقه بقرطبة. توفي في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وشيعه أمم.

2 – هنا في المخطوط زيادة عبارة "الأسئلة الموردَة على الحديث" حذفناها لما يبدو من أنها كُتِبت لتوضيح المعنى فقط، إذ هي غير موجودة في كتاب العمدة المنقول عنه. انظر ج1 ص292

3 – في المصدر السابق "يتم" عوض "يطلق"

4 – سقطت من المخطوط.

وتفضيلهم //277// على غيرهم ممن لم يحصل له ذلك حسبما أشار إلى ذلك الشيخ ابن زكري ([1]) في شرحه لعقيدة ابن الحاجب والله أعلم. وبعد الوقوف على هذا كله لم يبق إن شاء الله في المسألة إشكال، وعلى الله الاتكال.

الثانية من المسائل التي وجهتم بها سلك الله بنا وبكم سبيل الأخيار، وحرس حوزتكم من الآفات والأغيار، فيمن ادعى النبوة دون الرسالة هل يفتقر في دعواه إلى معجزة تُتِم ما ادعى وتوفيه، إلى آخر كلامكم فيه.

والجواب أن صدق النبي يثبت بالمعجزة لأنها تظهر على يد النبي بلا مرية، وممن صرح بذلك ابن الحاجب في العقيدة المنسوبة إليه، ونصه: "وأن جميع ما جاء به حَقٌّ دَلَّت المعجزة على صدقه وصدق جميع الأنبياء والرسل"، قال ابن زكري في شرحه لهذا المحل: "يعني يجب تصديق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر به جملة تفصيلا لدلالة المعجزة على صدقه، وكذلك يجب تصديق الأنبياء والرسل في كل ما أخبروا به"، ثم قال بعد كلام: "وأما قوله: وصدق جميع الأنبياء، فيحتمل أن يكون معطوفا على المجرور المتعلق بدَلَّتْ، ويحتمل أن يكون مرفوعا على الابتداء والخبر محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي وصِدقُ جميع الأنبياء كذلك، أي لدلالة المعجزة، وعطف الرسل على الأنبياء من باب عطف الخاص على العام لما تقدم //278// من أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ([2])" انتهى وهو صريح في ذلك خصوصا على رواية الخفض، فتدبره فهو في غاية الوضوح، وبالله التوفيق.

الثالثة: سؤالكم أقر الله بكم عين الدين، وأجراكم على منهاج المهتدين، عن تعلق السمع والبصر إلى آخر ما ذكرتم فيه.

والجواب، أنه لا خفاء أن للسمع والبصر تعلقا تنجيزيا قديما وهو تعلقهما بذاته تعالى وصفاته الوجودية في الأزل، وتنجيزيا حادثا وهو تعلقهما بالحوادث فيما لا يزال. ووقع في كلام بعض الناس أن لهما تعلقا صلاحيا ([3]) وهو تعلقهما بالحوادث قبل وجودها، فإنه صلاحي لأنها – أعني الحوادث – لما استحال وجودها في الأزل لم يكن معنًى لتعلقهما بها إلا ذلك. وقد اعترضه بعضهم بأن الصالح أن يسمع ويبصر غير سميع ولا بصير في الحال، بخلاف الصالح أن يقدر، وقد يقال في جوابه: إنهما لما تعلقا في الأزل تنجيزا بذاته تعالى وصفاته الوجودية لم يحسن أن يقال غير سميع ولا بصير في الحال. ورأيت في بعض الحواشي للشيخ المنجور رحمه الله عند قول الشيخ في شرح الصغرى: "ويسمع ويرى تبارك وتعالى ذوات الكائنات" ما نصه: قوله "فيما لا يزال" هذا هو التعلق التنجيزي للسمع والبصر، فلا تعلق لهما صلاحي، لأنهما لا يتعلقان بالمعدوم حال عدمه. فإن قيل جعلتم التعلق وصفا نفسيا للصيغة وهو ما //279// لا تتعقّل بدونه، والصفة موجودة في الأزل من غير تعلّقٍ

1 هو شيخ الإسلام الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري المغراوي (نسبة إلى مغراوة وهي قبيلة عظيمة من زناتة) المانوي (نسبة إلى بني مانو وهم من قبائل زناتة البربرية) التلمساني(نسبة إلى مدينة تلمسان) المالكي، لقب بشيخ الإسلام وبالحافظ، عالم كبير من علماء تلمسان ومدرسيها المشهورين. ولد بمدينة تلمسان ما بين عامي (820هـ و 827هـ) وتوفي رحمه الله عام (899 هـ).

2 – قال القاضي عياض في كتاب الشفا: والصحيح والذي عليه الجم الغفير أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا؛ واحتج بحديث أبي ذر، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم. اهـ والشاهد فيه قوله (وأن الرسل من الأنبياء) فخص البعض من الكل.

3 – قالوا في ذلك إن لكل صفة من الصفات معنى ذاتياً قائماً بذاته تعالى لو كشف الغطاء عنا لرأيناه، بقطع النظر عن وجود متعلقات هذه الصفات. فهذا هو معنى الوصف الصلوحي لهذه الصفات، وهي بهذا المعنى صفات قديمة قائمة بذات الله تعالى قدم ذاته، فإذا تعلقت هذه الصفات بالمخلوق، كتعلق السمع بالمسموع مثلا، وتعلقت القدرة بالمقدور بإيجادها فتلك هي مرحلة الانجاز لهذه الصفات، وتسمى لدى هذا التعلقِ صفاتٍ تنجيزية. والله أعلم.

لها بذواتها، إذ كانت معدومة. والجواب أنهما تعلقا في الأزل بما كان موجودا وهي الذات وصفاتها الوجودية، فلم يوجد السمع والبصر إلا متعلقا، ولا يلزم وجود جميع متعلقاته اهـ وهذا في غاية الوضوح، على أن الأئمة اختلفوا في معنى التعلق، فذهب الفخر ومن تبعه من الأعاجم إلى أنه أمر إضافي، وما ذلك إلا أنهم استشعروا مثل سؤالكم وغيره، وعلى هذا المذهب فلا إشكال، وذهب أكثر المحققين إلى خلافه وأنه وصف نفسي، وهو طلب الصفةِ أمرا زائدا الخ، وحيث كان حادثا ليس بنفسي فهو كالإماتة والإحياء ونحو ذلك مما ينشأ عن القدرة، والنفسي منه هو التنجيزي في العلم، إذ ليس له تعلقٌ سواه، والسمع والبصر باعتبار تعلقهما بذاته سبحانه وصفاته الوجودية، والصلاحي باعتبار القدرة والإرادة، وإن كان ابن التلمساني ([1]) وجماعة جعلوا للإرادة تعلقا تنجيزيا في الأزل حسبما أشار إليه الشيخ المنجور في حاشيته، والقرافي فيما أظن، إذ لم تمكني الآن مراجعة ذلك، والصلاحي باعتبار السمع والبصر على ما عند بعضهم، وقد عرفت أن الصواب والتحقيق خلافه، وحيث كانت التعلق حادثا بعد أن لم يكن، فلا ينبغي أن نعبر بقولنا "طرأ على الصفة القديمة"، إذ هذه العبارة غير لائقه. ولقد اعترض على//280// إمام الحرمين حيث عبر عن الجائز بقوله: "ما يجوز عليه تعالى"، حتى رفض السنوسي تلك العبارة وقال: "الجائز في حقه تعالى"، وعلى القول بأن السمع والبصر من جنس العلم فيشكل الأمر في تعلقهما، لأن العلم كما تقدم ليس له إلا تعلق تنجيزي قديم لا غير، وكُنْه الذاتِ وسائر بالصفات محجوب عنا، وتَعَقُّل التَّعَلُّقِ من ذلك النَّمَط عند التأمل، والعجز عن الإدراك إدراك، وما أشكل عليكم أشكل على غيركم والله المستعان.

الرابعة: سؤالكم أدام الله وجودكم وأدامكم، وثبت في معرفته أقدامكم، عن قولكم لو كان وجود العالم بالطبيعة والعلة الخ.

وجوابه: أنه لا منافاة بين الأمرين في الجملة، لأن إمكانه أو كونه مفعولا بمعنى أن وجوده لم يكن بالذات وإنما هو من حيث الغير، فإن فُرِض أن ذلك الغير قديم لزم قدمه لا محالة، إذ العلة لا تفارق معلولها، بمعنى أنا لو نظرنا فيه من حيثية إنه لم يكن الوجود له من ذاته وإنما كان من جهة استناده إلى غيره، كان مفعولا أو ممكنا، وإذا نظرنا باعتبار كون ذلك الغير قديما واجبَ الوجود من حيث ذاته وحصل التلازم بينهما، كان هذا الذي لم يجب له الوجود من حيث ذاته واجب الوجود بتبعيته لغيره القديم من ذاته، فلا منافاة والله أعلم.

الخامسة: سؤالكم رفع الله مقامكم وأعانكم على ما فيه //281// أقامكم، عن قولهم التعلق نفسي للصفات الخ.

فجوابه: ما أشرتم إليه آخر كلامكم من أن ذلك في غير العلم، فما فهمتم صحيح، وكذا السمع والبصر وتعلقهما بذاته تعالى وصفاته الوجودية تنجيزي نفسي قديم، وقد نص عليه غير واحد، إذ تعلق العلم تنجيزي قديم نفسي لا محالة ولا تعلق للعلم غير ذلك كما قدمناه.

السادسة: سؤالكم سَنَّى الله أعمالَكم، وزكى أقوالكم وأفعالكم، عن تعلق ([2]) القدرة الخ.

وجوابه: قريب مما قدمناه في الجواب عن السؤال الثالث، وقيسوه على ما ينشأ عن القدرة على الإحياء والإماتة وغير ذلك، فإبراز الأشياء إلى الوجود حصل بعد أن لم يكن، ولو تذكرتم في الشاهد الفرقَ بين ما بالقوة وما بالفعل لانزاح غَيهَب ([3]) ذلك، والله أعلم.

---

1 – شرف الدين ابن التلمساني (567 – 644 هـ) (1172 – 1246 م) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الفهري المصري، المعروف بابن التلمساني، فقيه أصولي متكلم شافعي، قرأ على العز ابن عبد السلام وابن الحاجب وغيرهما.

2 – في المخطوط "تعلقي".

3 – الغَيْهَبُ: الظُّلْمَةُ.

السابعة: سؤالكم زاد الله في معناكم، وعمر بالمسرات مغناكم، عن إجماعهم على كفر نفاه المعنوية الخ

فجوابه: أن هذا الإجماع إنما يتجه في حق من أنكر المعنوية على وجه يَستَتْبِع إنكار المعاني، كأن يقول بنفي كونه قادرا، على معنى أن لا قدرة أصلا، ولا شك أن الشيخ رضي الله عنه لا يقول بهذا، على أن الإجماع على هذا الوجه لم يُسَلمه بعض الشيوخ، بل حكى فيه الخلاف أيضا باعتبار المعتزلة.

ولنذكر جواب إمام الحرمين ([1]) في المسألة، وكل الصيد في جوف الفرا، قال رضي الله //282// عنه في بعض أجوبته عن حكم إنكار النفسية بل جهلِها، بعد كلام: (فأما الصفات المعنوية، وهي العلم والقدرة والحياة، وسائر الصفات القديمة، فهي منقسمة: منها ما اختلف أهل القبلة في إثباتها وإثبات الأحكام الثابتة للذات منها، ومنها ما اتفقوا على إثبات الأحكام واختلفوا في إثبات الصفات الموجبة لها.

فأما الصفات التي اختلفوا فيها وفي حكمها، فمنها الإرادة، فإن الكعبي ومعتزلة بغداد نفوا كونه تعالى مريداً على التحقيق، وقالوا: إن سميناه مريداً أردنا به كونه عالماً أو آمراً، على تفصيل لهم. ومن هذا المعنى حكم المعتزلة بخلق الكلام، وصرفُهم الكلام إلى صفات الفعل، فإن ذلك تصريح منهم بنفي الكلام ونفي اتصاف القديم به في ذاته، فإن الفاعل لا يتصف بفعله. فما جرى هذا المجرى قطع شيخنا ([2]) فيه بالتكفير، ونزل نفي اتصاف الذات بالصفات الثابتة قطعاً بمثابة نفي الصفات النفسية.

واختلف جواب القاضي في ذلك، وتردده [في هذا القسم فوق تردده] ([3]) في القسم الأول – وهو الجهل بالصفة النفسية –، فإنه إن صح رجوع صفة النفس إلى غير ([4]) الوجود مع نفي الأحوال، ولزم الجهل بالموصوف مع الجهل بالصفة، فلا يتضح ذلك في صفة المعنى، فإنها زائدة على وجود الذات.

وقد أجاب القاضي رضي الله عنه في غير //283// موضع بموافقة شيخنا في هذا القسم. فهذا وجه الاختلاف في الصفات وأحكامها.

فأما الاتفاق في الأحكام مع الخلاف في الصفة فهو نحو اتفاقنا مع المعتزلة على أن الله قادر عالم حي مدرك، مع إثباتنا الصفات ونفي المعتزلة إياها.

فمذهب شيخنا أن نافي الصفات بمثابة نافي أحكامها، وقد أجمعت الأمة على أن من نفى كون القديم عالماً قادراً حياً فهو كافر، ونفي العلم بمثابة نفي كونه تعالى عالماً.

هذا ما ارتضاه شيخنا رحمه الله، وذلك أن من مذهبه نفي الأحوال وإبطال القول بها، وأن كون العالم عالماً عين العلم.

والقاضي يميل إلى القول بالأحوال، ويزعم أن كون العالم عالماً حال زائدة على الذات والعلم، وربما ينفي الأحوال في بعض أجوبته.

واستقام قول شيخنا على ما اقتضاه أصله، وإنما تردد القاضي لما أشرتُ إليه، فإنه لم يستفد العلمَ بكون العالِم عالماً مع عدم العلم بثبوت العلم. واستدل على ذلك بأن من يعتقد نفي الأعراض يعلم ضرورة كونه متألماً ومتلذذاً، ويجهل أن كون الألم واللذة صفتين زائدتين على الذات.

واستقصاء القول في ذلك يتعلق بأمر عظيم من الكلام.

---

1 – إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجُوَيْني الشافعي الأشعري (419-478هـ)، فقيه وأصولي ومتكلم شافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين، وذهب إلى المدينة المنورة فأفتى ودرس، جامعاً طرق المذاهب، ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فيها، وكان يحضر دروسَه أكابرُ العلماء. توفي بنيسابور.

2 – المراد به الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

3 – عبارة ناقصة أضفناها من كتاب أجوبة الجويني على أسئلة عبد الحق الصقلي بتحقيق سعيد فودة ص 18

4 – في المخطوط "عين" عوض "غير" وصححناها بناء على ما في المصدر السابق، وكذا النوازل الجامعة للونشريسي بتحقيق د.شريف المرسي ص230

والصحيح عندي الحكم بتكفير نافي الصفات، مع القول بالأحوال، وقد أجاب عنه ([1]) القاضي في الهداية.
وأما ما ذكره القاضي عند //284// امتناعه من التكفير: فإن ذلك يفضي إلى تكفير كثير من أئمتنا !! وهذا من أعظم الغصص، فإن الله قد عصم أهل الحق عن اختلاف يفضي إلى التكفير [والتبري] (2)، ومآل اختلافهم إلى عبارات لا يعظم موقعها في المعاني. وخص الله بالخلاف المتهافت المعتزلةَ، فلم يستمر اثنان من رؤسائهم على مذهب، بل قطع كل منهم بتكفير صاحبه. واطرد لأهل الحق الاتفاق إلا في مسألتين: إحداهما: أن القاضي يميل إلى أن الباقي باق لنفسه، مع قطع شيخنا بأن البقاء صفة للباري، ونفي البقاء بمثابة نفي العلم.
وكذلك أثبت ابن كُلاَّب (3) للقدم (4) معنى، وصرفه شيخنا إلى صفات النفس.
فينبغي أن يقال: فأما القاضي فلم يَقطَع بقوله بنفي البقاء، بل رَدَّد فيه كلامَه، وهذا دأبه في الأصول، وقد أثبته في مواضع). اهـ محل الحاجة منه والله أعلم.

الثامنة: سؤالكم أطال الله رعيكم، وشكر على المسلمين سعيكم، عن الكتابي الذي أسلم وله كتب الخ.

وجوابه: أن ابن رشد صرح بمنع بيع التوراة والإنجيل للكفار، وقال بعض شراح مختصر بعد نقله ذلك عن بن رشد: انظر بيع كتب الحديث منهم. انتهى.
وأقول: لا نظر والحمد لله، فقد صرح الأئمة بالمنع، ففي المعيار: وسئل هل يجوز مبايعة أهل الكتاب فيما يجوز تملكه أم لا؟ فأجاب: أما دراهمهم فمباحة //285// لنا، وأما الطعام ونحوه فذلك جائز، بخلاف المصحف والخيل وما فيه مضرة للمسلمين، وأما أخذهم لدراهمنا التي فيها اسم الله فلا يجوز على المشهور. انتهى. فإذا منعت الدراهم فكيف الكتب، وأصرح من هذا ما للدماميني في مصابيح الجامع الصحيح في حديث الصحيفة إذ قال في كتاب الحج: قال ابن المنير: وهذا دليل على احترام أسماء الله تعالى وإن كتبت في أثناء ما تجب إهانته كالتوراة والإنجيل بعد تحريفهما، فيجوز أحراقهما وإتلافهما ولا تجوز إهانتهما لمكان تلك الأسماء، خلافا لمن قال: يجوز الاستنجاء بهما لأنهما باطل لما فيهما من التحريف، ولكن حرمة أسماء الله تعالى لا تتبدل على وجه، ولهذا منع الكافر من كتب اللغة والعربية لما فيها من أسماء الله وآياته، وذلك حجة المازني حيث امتنع من إقراءِ كتاب سيبويه الكافرَ. انتهى. يعني بقضية المازني ما ذكر صاحب المغني عن المازني حين امتنع من إقراء يهودي كتاب سيبويه، فاتفق أن غنت جارية الواثق العباسي ابن المعتصم: أظلوم إن مصابكم رجلا ... البيت فلحنها بعض الحاضرين. الحكاية بطولها فراجعوها فيه إن شئتم ([5]).

---

1 – في المخطوط "أجاب به" وقد أثبتنا ما في أجوبة الجويني على أسئلة عبد الحق الصقلي بتحقيق سعيد فودة ص18 والنوازل الجامعة للونشريسي ص 231
2 – إضافة من المصدرين السابقين.
3 – أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) القطان البصري المعروف باسم ابن كلاب، كان من علماء الدين السنة، وأبرز المتكلمين بالبصرة في زمانه، وكان يلقب كُلاَّباً لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته. وأصحابه هم الكلابية، وكان يرد على الجهمية والمعتزلة. ألف ابن كلاب ما يزيد عن 200 كتاب، غير أنها اندثرت وضاعت، وإن كان منها موجود في بطون كتب أخرى مثل "مقالات الإسلاميين" للأشعري. اختلف في تحديد مكان وفاته وتاريخه، فقد ذكر الذهبي أنه كان باقيا قبل الأربعين ومائتين، وقد حددها البغدادي بعام 241 هـ.
4 – في المخطوط "القدم" وتصحيحه من المصدرين السابقين.
5 – أظلوم إنّ مصابكم رجلا ... أهدى السّلام تحيّة ظلم
ولهذا البيت حكاية شهيرة وقعت في مجلس أحد خلفاء بني العباس تدور حول خلاف الحضور حول «مصابكم رجلا» حيث صدحت به المغنية ناصبة فردّها أحد الحاضرين إلى الرفع «مصابكم رجلٌ» وجرى في هذا مناظرة في حضرة الخليفة. وهي قصة جميلة، فيها فوائد جليلة من النواحي التاريخية والأدبية واللغوية. وهي موجودة في معجم الأدباء في ترجمة أبي عثمان المازني. وفي كتاب «شرح أبيات المغنى» روايات متعددة منها (ج 7/ 158)، وانظر «الشذور»، والعيني/ 2/ 502 والتصريح/ 2/ 64، والهمع/ 2/ 94، والأشموني/ 2/ 288.

هذا غاية ما عندي في المسألة، وإن صدر مني جواب يخالف هذا فقد رجعت عنه إلى هذا لوضوح الدليل //286// وعلى الله قصد السبيل.

التاسعة: سؤالكم وفر الله أعدادكم، وقوى أمدادكم، عن المتهم بالسرقة هل يجوز ضربه وسجنه الخ.

وجوابه: أن ذلك جائز سائغ جرى به عمل القضاة، ذوي السيرة المرتضاة، وصرح بجوازه غير واحد من الأعلام، هداة الإسلام، وفيما جلبتموه عنهم كفاية، وقد نقل صاحب المعيار وغيره عن أصبغ فيمن كان معروفا بالشر والسرقة يسجن أبدا وهو الصواب.
وفي المعيار أيضا أثناء جواب لفقيه الجزائر ما نصه: والسارق الذي إن فُطِن به فر ولا يقاتِل لا يجوز قتله، نعم إن اشتهر بالسرقة وعُرف بها سجن أبدا حتى يموت في السجن. وسئل أيضا عمن ادُّعِيَ عليه بسرقة فجحد وقال إن ظهر له مال فكل ما ادُّعِيَ عليه حق، ولا يُعلَم له دينارٌ ولا درهم، ثم بعد ذلك بيسير قامت بينة بأنه صَرَفَ دينارا هل يلزمه بكلامه شيء أم لا؟ وكيف إن ظهر ذلك بعد طول أو ظهر له مال وقال اكتسبته، هل يُقبَل منه أم لا؟.

فأجاب: ما أشهد به على نفسه ضعيف، لكن إن اتُّهِم وهو من أهل الريب يشدِّدُ عليه القاضي بالسجن والضرب إن رآه لعله يُظهِر ما اتُّهِم به، وفيه أيضا: وسئل عمن سُجن في تهمة دم أو سرقة ولم يثبت عليه ما يوجب غرما ولا قودا أو دية، على من تجب أجرة السَّجَّان؟
//287//
فأجاب: أجرة السجان في مسألتنا على من قام في طلب الدم وعلى مدعي السرقة انتهى. فهذه النقول كلها تدل على ما ذكرناه، ولولا أن الطول مملول لجلبنا من كلام المتقدمين ما يؤيد ذلك لمن علم، وفي الإشارة ما يغني عن الكلِم.

العاشرة: سؤالكم أطال الله بقائكم، وأدام ارتقائكم، عمن يوقع الضرب والسجن الخ.
وقد جعلتموه من تتمة ما قبله والخطب سهل.

الجواب: أن الموضع إن كان فيه إمام أو نائبه من قاض أو وال لم يجز لأحد إقامة الحدود والتعزيرات مع وجودهم، إلا إن كانوا لا يقيمون الحدود ولا يهتبلون بها فيُجعلون كالعدم وتُقام الحدود وغيرها دونهم.
ولنشر إلى ما يؤيد ذلك وغيره من كلام الأئمة، فنقول: اختلف الشيوخ بالأندلس في أحكام ولاية الكور (1) مثل القواد، فأمضاها أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم (2) ولم يجزها اللؤلؤي (3) حتى يجعل الإمام إليه مع القيادة

---

1 – قسمت الأندلس إداريا إلى كور، جمع كورة، وهي لفظة يونانية الأصل (Curia) وكانت تقابل كلمة Pagarchie في النظام البيزنطي، ويعرف ياقوت الكورة بأنها كل صقع يشتمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم كورة. وظهر اصطلاح كورة في الأندلس لأول مرة في عهد الوالي أبي الخطار بن ضرار الكلبي (125–130هـ/742–747م) وذلك عندما أراد أن يجد حلاً للجند الشاميين.
2 – أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن مسرة التجيبي الكتاني الطليطلي شيخ المالكية بقرطبة في عصره، فقيه ومحدث أندلسي. قال ابن عفيف: «كان من أهل العلم والفهم والعقل والدين المتين والزهد والبعد من السلطان، لا تأخذه في الله لومة لائم». قال ابن الفرضي: "كان أبو إبراهيم حافظا للفقه، صدرا في الفتيا، وقورا مهيبا، لم يكن له بالحديث كبير علم. اهـ توفي سنة 352هـ.
3 – اللؤلؤي الإِمَامُ المُحَدِّثُ الصَّدُوْقُ، أبو عَلِيٍّ، مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ عَمْرٍو البَصْرِيُّ، اللُّؤْلُؤِيُّ. سَمِعَ مِنْ أَبِي دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيِّ، وَيُوْسُفَ بن يَعْقُوْبَ القلوسِيِّ، وَالحَسَن بن عَلِيِّ بنِ بَحْرٍ، وَالقَاسِمِ بنِ نَصْرٍ، وَعَلِيِّ بنِ عَبْدِ الحَمِيْدِ القَزْوِيْنِيِّ. وتُوُفِّيَ سَنَةَ 333هـ.

النظر في الأحكام، واستحسن ابن أبي زمنين (1) إذا كان للعمالة قاض قد أفرد للنظر في الأحكام أَلاَّ يجوزَ حكم الولاة، وإن لم يكن لها قاض أن يجوز حكمهم، لما في ذلك للناس من الرفق والإنصاف.
وسئل أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي (2) دفين تلمسان وشارح صحيح البخاري عن امرأة أرادت النكاح وهي ثيب ولا حاكم بالبلد وأوليائها غُيَّبٌ، أترفع //288// أمرها إلى فقهاء الموضع فيأمرون من يزوجها؟، وكيف إن لم يكن في البلد عالم ولا قاض، أترفع أمرها إلى عدول البلد في البكر والثيب؟.
فأجاب: إن لم يكن في البلد قاض فيجتمعوا صالحوا البلد ويأمرون بتزويجها.
وسئل سيدي خلف الله عن مسألة امرأة غاب زوجها للحج وترك بنيه تحت ضَيعة، فرفعت أمهم الأمر إلى جماعة المسلمين، فقدم الجماعة عم الصبيان وباع أملاك الرجل، مع وجود السلطان وكونه في بلدتنا له فيه الأحكام.
فأجاب بأن البيع ماض لأن الجماعة فعلت ما يفعله الإمام أو مقدمه.
وسئل الداودي أيضا عن بلد المصامدة ربما لم يكن عندهم سلطان وتجب الحدود على السراق وشَرَبة الخمر وغيرهم من أهل الفساد، هل لعدول ذلك الموضع وفقهائه أن يقيموا الحدود إذا لم يكن سلطان وينظروا في أموال اليتامى والغُيَّب والسفهاء؟.
فأجاب بأن قال: ذلك لهم، وكل بلد لا سلطان فيه أو فيه سلطان يضيع الحدود أو سلطان غير عدل فعدولُ الموضع وأهلُ العلمِ يقومون في جميع ذلك مقام السلطان.
وسئل أيضا عن بلد لا قاضي فيه ولا سلطان، أيجوز فصل عدوله في بيوعهم وأشريتهم ونكاحهم؟
فأجاب بأن العدول يقومون مقام القاضي والوالي في المكان الذي لا إمام فيه ولا قاضي.
وقال أبو عمران الفاسي ([3]): أحكام الجماعة الذين تستند إليهم //289// الأمور عند عدم السلطان نافذ منها كل ما جرى على الصلاح والسداد في كل ما يجوز فيه حكم السلطان، وكذلك كل ما حَكم فيه عمار المنازل من الصواب ينفذ. وقال غير واحد أقام (كذا) في المدونة في مسألة الحالف ليقضينك حقك إلى أجل شيوخ المكان مقام السلطان عند فقده لما يخاف فوات القضية ([4]).
وعن مطرف وابن الماجشون فيمن خرج على الإمام وغلب على البلد فولى قاضيا عدلا فأحكامه نافذة. ابن عرفة ([5]): لم يجعلوا قبوله الولاية للمتغلب المخالف للإمام جرحة لخوف تعطيل الأحكام.
وسئل المازري عمن توفي وهو غائب وترك وقفا وزوجة وأولاد صغارا فطلبت المرأة مهرها، فسلم لها عامة الموضع الربعَ في مهرها بغير نداء ولا تعريف ولا حكم حاكم، فكبر الأولاد وطلبوا حقوقهم من الربع فمنعتهم المرأة نحو ما ذكرنا.
فأجاب: إذا لم يكن بالموضع حاكم واجتمع وُجوه الموضع وعُدولُه وأشادوا الموضع وطلبوا الزيادة في مظانها ولم يشيدوه ولكن قوموه بقيمة مستوفاه بحيث لا تمكن فيه الزيادة لرشيد، فهو ماض ولا مقال للورثة.

---

1 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زَمَنِين (324 هـ – 399 هـ) فقيه مالكي، ومحدث ومفسر أندلسي.
2 – شيخ الإسلام أَحْمَدُ بْنُ نَصْرٍ الدَّاوُدِيُّ الْأَسَدِي، الأموي، المسيلي، التلمساني الجَزائِري المالكي، من أئمة الحديث الشريف وحفاظه، وأحد فقهاء المالكية المشهورين، ويكني بأبي جعفر، يعد أول من شرح صحيح البخاري وثاني شارح لموطأ مالك توفي سنة 402 هجرية.
3 – أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي المعروف بأبي عمران الفاسي (ولد بفاس 356 هـ / 975–976، توفي بالقيروان 13 رمضان 430 هـ / 7 يونيو 1039). فقيه وحافظ ومحدث وأصولي مالكي ومن أبرز أعلام هذا المذهب، ترك أثراً كبيراً في تاريخ بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، حيث أسهم في إحداث تغييرات جذرية في انتماءات بلاد المغرب الفكرية والمذهبية.
4 – كذا وردت العبارة وهي مشوشة.
5 – أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الوَرْغَمِّيُّ، فقيه مالكي أشعري المعتقد، ولد في مدينة تونس سنة 716هـ وتوفي فيها سنة 803هـ كان إمام جامع الزيتونة وخطيبه في العهد الحفصي. برز في الأُصول والفروع والعربية والقراءات وغير ذلك، وصار المرجوع إليه في الفتوى ببلاد المغرب.

وقال المواق عند قول المختصر: ولزوجة المفقود الخ ما نصه: لأن فعل الجماعة في عدم الإمام كحكم الإمام، فقد ظهر بما جلبناه حكم المسألة وبان، ولنمسك العنان.

الحادية عشرة: سؤالكم أبقى الله عزتكم، وحرس //290// حوزتكم، عن حكم الضمان بعد الإذن، والجواز إن كان بالشروط المقدرة الخ.

وجوابه: أن تعلموا أن هذا الأصل فيه خلاف مبني على قاعدة وهي أن من فعل فعلا يجوز له فآل أمره إلى العطب فلا ضمان عليه عند جماعة، ويضمن عند أخرى.
ومنهما في المدونة في السفينة تغرق بمد النواتية، إذا صنعوا ما يجوز من المد والعمل فيها لم يضمنوا، وإذا تعدوا في مد أو علاج ضمنوا ما هلك فيها من الناس والحمولة.
وقال في الجواهر: التعزير جائز بشرط سلامة العاقبة، فإن سرى ضمنه عاقِلة [1] المعزِّر، بخلاف الحد اهـ
وقال صاحب الشامل [2]: وللإمام التعزير لمعصية الله تعالى ولحق آدمي باجتهاده بقدر قول وقائل ومقول له، بسجنٍ ولَومٍ وإقامةٍ ونزْعِ عمامةٍ وضربٍ، وإن زاد على حد على المشهور، أو أتى على النفس، وهل على العاقلة أو لا شيء عليه، قولان، وقيل أقصاه عشرة أسواط، وقيل خمسة وسبعون وقيل مائتان وقيل ثلاثمائة.
وعن أشهب لا يزيد مُعَلِّمٌ على ثلاثة وإلا اقتُص منه، وللسيد أدب رقيقه كزوج فيما يتعلق بحقه، وأب في صغير لا كبير، ومعَلم بإذنه. اهـ بلفظه. [3]
وسئل اللخمي عن معلم صبيان ضرب أحدهم ثلاثا أو أقل أو أكثر فمات، هل يقاد منه؟، وهل للضرب محل لا يعدوه كالأرجل والظهر أو لا؟، وكيف لو ضربه ضربة على العمامة فمات أو أصاب طرف //291// السوط عينه ففقأها هل يقتص منه أم لا؟.
فأجاب: الأدب غير محصور، وليس كل الصبيان سواء من القوة والضعف، فمنهم من يخاف فيَردُّه أقل الضرب، ومنهم من جُرمه أشد من غيره فيكون أدبه أشد، فحال الصبيان مختلفة، فيوقع به من العقوبة ما يستحقه مما لا يخاف معه موت ولا مرض، فإن قدر موته فلا قود، وتستحسن الدية على العاقلة، وإن أصاب عينه فعليه ديتها. انتهى. وهو مبني على أحد القولين في الأصل المتقدم.
وقال القابسي: إن ضرب الزوج زوجته أدبا ففقأ عينها فهو من الخطأ تحملُه العاقلة إن بلغ الثلث، ثم قال بعد كلام: ولا يتجاوز في أدبها كالمعلم لصبيانه، سالما من الغضب والحمية، لأنه يؤدبها لمصلحتها ونفعها، وتأديبه لولده الصغير مأذون فيه، ويكون بغير غضب عدلا، وليس له حد حتى يظهر منه الظلم والعدوان فيُزجَر عنه ويُنهى كما يجب، فإن الله يحب الرفق في الأمور كلها.
وسئل رحمه الله عما إذا جاوز المعلم ضرب الأدب، فأجاب: هذا معلم جاف جاهل لأني قدمت أنه لا يضرب الصبي وهو غضبان، وضرب الصبي إنما هو بالدرة الرطبة المأمونة لئلا يؤثر أثر سوء، ويجتنب ضرب الوجه والرأس. وفي كتاب ابن سحنون: لو ضرب صبيا ففقأ عينه أو كسر يده فإن ضربه بالدرة على الأدب وأصابه //292// بعودها فالدية على العاقلة، إذ فعل ما يجوز له، فإذا مات الصبي فالدية على العاقلة بقَسَامة وعليه الكفارة، وإن ضربه باللوح أو بعصا فقتله فعليه القصاص لأنه لم يؤذن له أن يضربه بعصا ولا لوح، وإنما كانت الدية على العاقلة في الأول لأنه لم يقصد إليه المعلم، فهو من الخطأ، وفيه القسامة لأنه إنما عُلِمَ بإقرار المعلم على أحد الأقوال، ولو حضر شاهدان ومات في مقامه فلا قسامة والدية على العاقلة، وضربُ الصبي بالعصا واللوح المعلمُ فيه مُتَعَدٍّ وليس له عذر إلا أنه غضب فتعدى فاستحق القود، وهو مأخوذ بإقراره في ذلك بلا قسامة.

1- العاقلة: العصبة أي الأقارب الذكور، وسميت كذلك لأنها تعقل الدية عن القريب إذا جنى خطأ، وعقل: أي أدى الدية
2 - أي "الشامل في فقه الإمام مالك" لبهرام الدميري
3 - الشامل لبهرام ج2 ص947 طبعة مركز نجيبويه.

وفي المعيار أثناء بعض الأجوبة ما نصه: والقاضي إن أخطأ في الحكم وجبت الدية على عاقلته، وقيل لا شيء عليه إلا إن تعمد الجور. انتهى.

وقال مطرف فيمن وجب عليه الأدب ممن هو معروف بالشر والفساد: يضرب المائتين والثلاثمائة، وقد ضرب عمر رضي الله عنه من نقش على خاتمه نحو مثل ذلك العدد أو أكثر منه، وضربَ صاحبُ الشرطة رجلا وجد مع صبي في خلوة ولم يشكوا في المكروه أربعمائة سوط، فانتفخ ومات فما أنكر مالك ذلك من فعلهم ولا استعظمه. وقضية سحنون في ضربه ابن أبي الجواد معلومة في كتب الفقه والتاريخ ([1]).

وبالجملة //293// فمشهور قول مالك وأصحابه أن الأدب لا حد له، وأنه موكول إلى الاجتهاد بقدر جرم الفاعل وشهرة فسقه، ونحوُه عن محمد ابن الحسن قال: وإن بلغ الألف. الأبي ([2]): كان في أيام وصول أمير المغرب أبي الحسن إلى تونس رجل يعرف بابن تكرومت، شديد الجرأة والإذاية، وحكم بأدبه فجُعِل فيه مجلسٌ في قدر ما يستحق من الأدب. قال ابن عرفة: لو زيد في أدبه على الثلاثمائة سوط لكان أهلا لذلك اهـ

وقال البرزلي ([3]): قد تكون الجريمة كبيرة أعظم مما ذكر الله فيه الحد فيكون الأدب على قدرها.

وعن البرزلي بعد كلام ما نصه: وكذا معلم الصبيان يضرب أحدهم فيما يجوز له ضربه فيه فيصيبه بعود الدرة أو بطرف شراكها فيصيب عينه فيفقؤها أنه لعقل ذلك ضامن، ولا قصاص عليه إن تعمد ضربه الذي جاز له من تأديبه.

وقال ناقلا عن سحنون: إذا ضرب المعلم الصبي بما يجوز له فمات أو أصابه منه شيء فلا شيء عليه إلا الكفارة، وإن جاوز ضمن الدية في مالِه مع الأدب، وقيل على العاقلة مع الكفارة، فإن جاوز الأدب بما يُعلَم أنه أراد به القَتلَ أقسم الأولياءُ وقتلوه به، وإن لم يُجاوز بما يُرى أنه أراد القتل إلا على الأدب فجهل فتجاوز، أقسم الأولياءُ واستحقوا الدية قبل العاقلة وعليه الكفارة.

//294// القابسي ([4]): قوله "ضرب الصبي ما يجوز له" معناه ضربه بالدرة ثلاثا، أو أكثر لاستحقاقه أكثر وطاقتِه عليه، ولم يجاوز الواجب، كمن مات في جلد وجب عليه، ولو جاوز الواجبَ عن غلط بيِّنٍ فهذا الذي تحمله العاقلة، وإن كان في تجاوزِه إشكالٌ فالدية في مالِه، ويحتمل أن يكون على العاقلة إذ كل شيء يُستطاع القود منه يَمنع منه مانعٌ كالجائفة ([5]) فالدية على العاقلة.

---

1 – كان القاضي ابن أبي الجواد معتزليًّا، وكان يقول بخلق القرآن، وقد قال سحنون لمحمد بن الأغلب لَمَّا عزل ابن أبي الجواد: "أيُّها الأمير، أحسن الله جزاءَك! فقد عزلت فرعون هذه الأمة وجبَّارها وظالمها". قال ابن عذاري في البيان المغرب ضمن أحداث سنة 234هـ: (وفيها مات عبد الله بن أبي الجواد في سجن سحنون وكان ورثته ابن القلقاط يطلبونه بخمسمائة دينارا وديعة واستظهروا بخطه. فأنكر الوديعة والخط. فكان سحنون يخرجه كل جمعة، فإذا استمر على الإنكار، ضربه عشرة أسواط. وأرادت زوجته فداءه بمالها، فامتنع سحنون إلا أن يعترف ابن أبي الجواد بأن هذا مال الأيتام أو عوضا عنه. فأبى ابن أبي الجواد. فما زالت تلك حاله إلى أن مرض، فمات. فشنع الناس على سحنون أن قتله).اهـ

2 – أبو عبد الله محمد بن خليفة بن عمر التونسي الوشتاني الأبّي المالكي (ويعرف أحيانا بالأبّي المالكي) (؟؟ – 827 هـ) عالم بالحديث وفقيه ومفسّر من أهل تونس. نسبته إلى (آبَهْ) من قراها. ولي قضاء الجزيرة سنة 808 هـ. من أشهر مؤلفاته كتاب "إكمال إكمال المعلم بفوائد مسلم" في سبعة أجزاء، وهو شرح لصحيح مسلم جمع فيه بين شروح المازري والقاضي عياض والقرطبي والنووي مع زيادات من كلام شيخه ابن عرفة.

3 – الإمام البُرْزُلي المالكي أبو القاسم بن أحمد بن محمد البَلَوِي القيرواني، المعروف بالبرزلي: أحد أئمة المالكية في المغرب، سكن تونس، وانتهت إليه الفتوى فيها. وكان ينعت بشيخ الإسلام، ولد في حدود سنة 741 هـ الموافق 1340 وعمر طويلا، قال السخاوي: توفي بتونس عن مائة وثلاث سنين. من كتبه جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا للمفتين والحكام، والديوان الكبير، في الفقه توفي سنة 844 هـ الموافق 1440.

4 – القابسي هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المالكي المعروف بالقابسي، نسبة إلى مدينة قابس بالقرب من القيروان. ولد سنة 324 هـ وتوفي سنة 403 هـ

5 – جائفة : طعنة تبلغ الجوف.

وسئل ابن أبي زيد ([1]) عن المعلم ربما أراد أن يضرب صبيا فتقع يده على آخرَ، أو جَذبَ الدرة على صبي فجاءت في آخرَ، وربما ضرب الصبيَّ على شيء ثم تبين خلافُ ما اعتقد، هل يتحلل من ذلك الصبيِّ أو الأب أم لا؟

فأجاب: إن فعل ذلك على وجه الخطأ فلا شيء عليه من ذلك في الحكم، ما لم يكن جُرحا، ومن جهة التنزُّه يتحلل الصبيَّ من ذلك، وهو حسنٌ وليس بلازم.
البرزلي: يجري ذلك على الخلاف في المجتهد [يجتهد] ويخطئ هل يُعذر في خطإه أم لا؟ وذلك في مسائل مشهورة.
وللشيخ ابن مرزوق في شرح المختصر ما معناه أن المعزر إذا أدى اجتهاده إلى حد يظن معه السلامة فلا ضمان عليه إن حصل عنه الموت، وإن كان يغلب على ظنه عدم السلامة فهو ضامن، وهو معنى قوله: "وضمن ما سرى". انتهى. ونحوه لبعض من تأخر من شراح المختصر، قال: وبهذا يندفع قول ابن عبد السلام: "في هذا صعوبة"، إذ الولاة مأمورون //295// بالتأديب والتعزير، فتضمينُه ما سرى إليه التعزيرُ مع أمرهم به كتكليف ما لا يُطاق، وأشد من ذلك الإقادة منهم، وعلى إشكاله فقد كان بعضهم ينشد:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

انتهى ما تيسر جلبه مما يناسب ما نحن فيه.
وأما اللعب فحَصَّلَ فيه في المقدمات ثلاثةَ أقوال: الأول أنه خطأ وهو مذهب ابن القاسم وروايته في المدونة عن مالك، ثم ذكر القولين الأخيرين. ولقد أحسن صاحب الشامل اختصارها إذ قال: (فإن كان في لعب فخطأ على الأصح، وثالثُها إن تلاعبا معاً فكذلك، وإن ضربه ولم يلاعبه الآخر فالقود).
وبعد وقوفكم حفظ الله علاكم، وأعانكم على ما أولاكم، على ما جلبناه من النقول يلوح جواب ما بنيتم عليه الفصل الثاني بأجمعه والله أعلم.

الثانية عشرة: سؤالكم أنار الله قلوبكم، وبلغكم من خير الدارين مطلوبكم، عن حكم التوكيل والضمان وغير ذلك مما سطرتم، وبعضه يؤخذ جوابه مما قدمناه آنفا فأغنى عن إعادته.

والجواب:عما عدا ذلك بالوقوف على ما نذكره.
قال في الإكمال عند قوله: "قم يا علي فاجلده" ما نصه: فيه تولي أهلِ الفضل إقامة الحدود بأنفسهم لأنها من أفضل القربات، ولا يجب عند جميع العلماء أن يختار //296// لإقامتها إلا أهل الفضل والعدل خوف التعدي في الأقامة، ولذلك كان جِلَّة الصحابة يقيمونها بين يدي الخلفاء انتهى.
قال النووي: عثمان رضي الله عنه كان الإمامَ، وإنما آثر عليا بذلك تكرمة له بتفويضه الأمر إليه في إقامة الحد عليه، لأن المعنى: "قم يا علي فأقم الحد عليه بأن تأمر بذلك من ترى"، فقبل علي فأمر الحسن فلم يقبل، فأمر عبد الله بن جعفر.

الأبي: تأمل كلام القاضي، فإنه يعطي أن عثمان إنما أمره بأن يتولى الضرب بنفسه، وكلام النووي يعطي خلاف ذلك، فإن كان العُرف عندهم حينئذ ما ذكر القاضي من أن أجلة الصحابة كانوا يقيمونه بين يدي الخلفاء، وأن ذلك من أفضل القربات، فلا يحتاج إلى تأويل، ولعل كلام النووي بحسب عرف زمانه أنَّ تولِّي أهل الفضل الضربَ مرجوح، وكان الشيخ، يعني ابن عرفة، يقول: إن تولي الضرب مرجوح، قال: ولم أر من فعله،

1 – ابن أبي زيد القيرواني هو عبد الله أبو محمد بن عبد الرحمن أبي زيد القيرواني، ولد بالقيروان بتونس سنة 310 هـ وهو من أعلام المذهب المالكي. وقد لُقِّب بمالك الأصغر، وكان إمام المالكية في وقته، وأشهر مصنفاته كتاب الرسالة. توفي سنة 386 هـ.

وإنما العادة أن يُحضِر القاضي على حد الخمر كبارَ الموثقين، قال: وطلبَ مني ابن عبد السلام ([1]) أن أقف على ضرب مخمور فأبيت وقلت: إنما العادة أن يحضره الموثقون، فقال: استنكفت، فقلت: لم أستنكف، وإنما استندت للعادة في أنه لم يَلِه إلا الموثقون. وقول النووي: "فقبل علي ذلك"، كان الشيخ يقول: إن عليا لم يقبل ذلك، إذ لو قبل لم يأمر غيره، لأن الوكيل ليس له أن يوكل غيره، فقلت //297// له: علي إنما هو حاكم لاستنابة عثمان له حسبما تقدم للقاضي، والحاكم يستنيب غيره، فقال: ليس هو بحاكم، قلت: يلزم إذا كان ليس بحاكم أن لا يستنيب غيره لقول مالك: وإذا دعاك الإمام العدل لإقامة حد فإذا علمت عدالته البينة لم تسقط مخالفته، أو كما قال، فقال: إنما امتنع عليٌ وأمر غيره لمنافسة كانت بينه وبين الوليد فاتقى التهمة. اهـ

وقال البرزلي: إذا دعى القاضي العدول للجمع إما في كتاب أمر عام كالبيعة ونحوها، أو قضية أشكلت، أو يريد الإعانة في الأحكام لأمر عرض له إشكاله، أو للوقوف في إقامة حد من الحدود يُشهد عليه، أو برؤية هلال في رأس الشهر، أو غير ذلك من الوظائف العامة التي يحتاج القاضي فيها إلى غيره ممن له أهلية لذلك، فتجب طاعته ولا يجوز اجتنابه لذلك وتبرمه، لأنه من باب الإعانة على الدين والتقوية في نفوذه، وهذا إذا كان منتصبا للشهادة بين الناس، فإن كان منقطعا عنهم ولا يشهد إلا في النادر فلا.

وحدث ابن عرفة رحمه الله عن شيخه ابن عبد السلام أنه كان قدم شاهدا بالقيروان، فكان القاضي متى عرض له أمر بعث إليه في ذلك، فتبرم في ذلك وكرهه (واستفدا) (كذا) بالشيخ المذكور فكتب إليه يتشفع في //298// إعفائه من ذلك، فكتب إليه: إن كان يجلس للناس ويأخذ الأجرة فيجب عليه الإجابة ولو بغير نعل عاري الرقبة، وإن كان لا ينتصب فلا يجيب، ويَرِدُّ بأدنى وجه مما يُمتنَع به، قال وكذا جرى لي مع قاضي الجماعة، دعاني مرة إلى حد من الحدود نحضره فأجبته، ثم دعاني مرة أخرى وكان بجواره متيسرا فامتنعت، واحتججت عليه بقول حسن بن علي رضي الله عنه حين دعا عثمان رضي الله عنه [عليا] ([2]) لإقامة الحد على الوليد ابن عقبة، فأمر علي رضي الله عنه ولدَه أن يقيمه ذلك ويتولاه، فقال: والله لا أفعل، يتولى حَرَّها مَنْ تولَّى قَرَّها، فكأنه أخذ عليه، وطلب ابنَ أخيه عبد الله بن جعفر يتولى ذلك ففعل اهـ

قال البرزلي: ولو وليَ غيرُ المعلمِ الفعلَ بأمرِه، فالمعلم حكمُه ما تقدم، ولا شيء على المأمور، فلو كان بالغا فمن أصحابنا من رأى الديةَ على عاقلة الفاعل والكفارةَ على الفاعل، ومنهم من يرى الدية على عاقلة المعلم اهـ

ومن هذا يُعلم حكم الأعوان المسؤول عنهم، ولو كان يَعلم الآمرُ بأنهم يتجاوزون الحدَّ فهو عاص لا محالة، ويجري على الحكم في المباشِر والمتسبب، ولها تعلق بمسألة (...) ([3]) وأموال الظلمة التي ذكرها ابن عرفة وغيره، والواجب عليه والحالة هذه أن يوكل من يوثق به، ولا يكل ذلك إلى من ليس بثقة، وقد أشرنا إلى كلام //299// الإكمال فيما سبق بالشطر الثاني على هذا الصفح، وقف على قوله في السطر الثالث "خوف التعدي في الإقامة".

وقال البرزلي عن مالك: الضرب كله سواء. وعن ابن عبد الحكم: ينبغي إقامة الحدود بحضرة القاضي خوف التعدي، قال: وكنت أسمع: "يُختارُ له العدل". انتهى.

ونحن وإن أطنبنا في النقل في هذه المسألة فإن الفائدة فيه حاصلة وإن زاد على محل الحاجة، وقد أعجلني حامله عن تنقيح ذلك وتلخيصه وتهذيبه، وماذا يصنع من ترمي المقادير تهذيبَه وتهدي به، وفضلكم كفيل بذلك وتقريبه.

وأما قولكم: إن ظاهر كلام شارحي المختصر أن ذلك خاص بالإمام وأنه مقصود، فلو عزر غيره لتعدى، فإن عنيتم بالغير النائبَ عنه كالقاضي والوالي فهذا لا يصح قطعا، ولذا اعتُرِض على البساطي قوله: "الإمام لا

---

1 – هو شيخ ابن عرفة أبو عبد الله محمَّد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير الهواري، قاضي الجماعة بتونس، ولد سنة 676 هـ. قال عنه ابن فرحون: (كان إماماً عالِمًا حافظًا متفنِّنًا في علمي الأصول والعربية، وعلم الكلام والبيان، فصيح اللسان، صحيح النظر، قوي الحُجَّة، عالِمًا بالحديث، له أهلية الترجيح بين الأقوال، لم يكن في بلده في وقته مثله، وولي القضاء، فكان قائمًا بالحقِّ، ذابًّا عن الشريعة، شديدًا على الولاة، صارمًا مهيبًا، لا تأخذه في الحقِّ لومة لائم) اهـ. توفي في أوائل الطاعون الجارف سنة 749هـ.

2 – إضافة يقتضيها السياق.

3 – بياض بالمخطوط.

غيره"، وإن عنيتم أن غير الإمام في بلد لا إمام فيه لا يفعل، فقد ذكرنا آنفا مما يشهد بالجواز من كلام الأئمة ما فيه كفايةٌ، ومن حَفظَ حُجَّةٌ على من لم يحفظ.
وليكن هذا آخر ما قصدناه من أجوبة المسائل المذكورة، الموجهة من السادة المشكورة، فإن كتبت في صحائف القبول فهو المطلوب وإلا فذلك جُهد المُقِلِّ، والله مطلع على القلوب، وأنَّى بالإصابة لمن بضاعته كاسدة، وقريحته خامدة فاسدة، وأعداؤه مستأسدة، //300// وفئة البشاشة على غير شيء حاسدة، مع ما انضم إلى ذلك من فتن كقطع الليل أبطأ فجرها، وأشغال كان الأليق رفضها وهجرها، فلو أوتِيَت النفوسُ هُداها لانخرطت في سلك عصابة رَبح تجرُها، وكل شيء بقضاء وقدر، والصفو لابد له من الكدر.
نسأل الله من بركاتكم أن ييسر علينا جميع الآراب، وأن يقينا شر الأعداء والأضراب، ويسكن هذا الاضطراب، ويلطف بنا في هذا الاغتراب، ويسهل علينا ما نحن بصدده من قصد البيت الحرام، وبلوغ المرام، من أماكن الرسول عليه عليه الصلاة والسلام، ما نبلغ ببركته كل أمل وسؤل.

أتعبت فكري في جواب مسائل	وافت وقد تمت بخير وسائل
ورفعت للعلياء خير تحية	من طالب حسن القبول وسائل
لما نأت عني ديار جلالكم	ضمنت أسراري قلوبَ رسائلي
قد غاص فكري في بحر الجواب فلم	أظفر ببدر عظيم القدر يأتلق
لكن (...) [1] الله يقبله	دامت معاليكم والسعد يتَّسِق

ولابد أن يكتب سيدي على الأنصاري حفظه الله هذه المبيضة بخطه ويخرجها عما هي فيه، من الإصلاح وغيره، لأني لم يمكني شيء من ذلك والله مطلع، فقد كاد حامله أن يذهب بدونها لولا أن اللهّ مِن بركاتكم مَنَحَ المرادَ فله الشكر، وإذا عُدَّت هذه من بركاتكم فما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، والله يبقي لنا ولجميع المسلمين النفع بكم بجاه سيدنا //301// محمد صلى الله عليه وسلم.
وأما نظم الشعر فلم تتوجه همته إليه رضي الله عنه أصلا، وقوفا مع اتباع السنة تركا وفعلا، ولم يُعرَف له في الحديث والقديم، إلا بيت واحد يتيم، وهو:

نعم لاح برق الحسن فاختطف الحشا	فلَبَّيْته من بعد ما كنت آنيا

أنشأه رضي الله عنه جوابا عن بيت من كلام الأوائل، أرسله إليه متمثلا به بعض الأفاضل، وهو:

عهدتك ما تصبو وفيك شبيبة	فمالك بعد الشيب أصبحت صابيا

وذكر له في دوحة البستان بيتين آخرين وهما:

بادر إلى التوبة مذ أمكنت	فالمرء مأخوذ بما قد جناه
وانتهز الفرصة في وقتها	ما فاز بالكرم سوى من جناه

---

1 – كُتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".

على أنه رضي الله عنه بلغ في علوم اللسان، ما لم يبلغه إنسان، واجتمع عنده من الكتب خزائن لا تنحصر، لم يتفق مثلها إلا للحكم المستنصر، لكنه ترك ما يخل بمروءته في الظاهر، على مذهب الشافعي في قوله الجاري مجرى المثل السائر:

ولـــولا الشـــعر بالعلمـــاء يـــزري   لكنـــت اليـــوم أشـــعر مـــن لبيـــد

انظر إلى إخوته وأعقابه، وغيرهم ممن اغترف من بحار آدابه، لم يدرك أحد شأوهم من فرسان البلاغة ولا أبو فراس، ولا يأنس طبعٌ //302// إلا باختراعهم لا باختراع أبي نواس، وسيأتي في تراجمهم من ذلك ما يبهر العقول، ويعلم أنهم في الشعر وغيره من فحول الفحول.

وكانت أوراده من الأذكار، التي كان يوظفها على الفقراء في الليل والنهار، استغفر الله العظيم، اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلِق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، لا إله إلا الله، كل واحدة من هذه الكلمات مائة مرة صباحا ومساء. وتؤثر عنه رضي الله عنه أدعية صالحة، أنوار الاستجابة عليها لائحة.

روي عن الشيخ العارف أبي عبد الله محمد بن عبد الله معن الأندلسي ([1]) رضي الله عنه قال سمعت شيخ الإسلام، القدوة العارف الهمام، سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما بجامع الدلاء ([2]) يروي عن القطب الجامع أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي نفع الله به أنه قال: من أراد أن يدعو بأمر فليقدم قبل غرضه هذا الدعاء وهو: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ ([3]) منك الجَدُّ، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى جنتك مصيرنا ومآلنا، وتقبل بفضلك أعمالنا، واجبر برحمتك أحوالنا، واجعل في طاعتك اشتغالنا، إلاهَنا قطرة من بحار جودك تكفينا، وغرفة من بحر إحسانك تغنينا بها، نحن أسارى الذنوب بين يديك واقفون، وعلى ما عودتنا //303// من فضلك وإحسانك معولون. انتهى.

قال وله أيضا رضي الله عنه هذا الدعاء وهو: اللهم لا تقطَع عنا بفضلك من فضلك ما عودتنا، وزدنا بفضلك من فضلك يا ربنا، ولا تخيب بفضلك من فضلك رجاءنا يا أرحم الراحمين.

قال ورأيت بخطه أفاض الله علينا من بركاته آمين، وقد ذهب راجلا مع تلميذه سيدنا ابن ولي الله تعالى سيدي أبي عمرو المراكشي رضي الله عنه يودعه لبلده من مراكش، فوصلنا معه القرية التي تسمى عبيد الله، فأراني بطاقة وفيها ما نصه: اللهم بحرمة رسولك الذي رفعت قدره على جميع الأقدار، واخترته على كل مختار، وجعلته مظهرا للأنوار ومخزنا للأسرار، سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار، صلاة وسلاما دائمين بدوام الليل والنهار، احفظ سيدنا وابن سيدنا في ظاهره وباطنه وعرضه بنفحاتك القدسية، ولا تكله إلى الأصدقاء، ولا تُسلِمه إلى الأعداء، وكن له بما كنت به لأحبائك وأصفيائك، وأحيِ به ما اندرس من أسرار القوم، وأذهِب به ما ستر أسرارهم من الغيم، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين اهـ

---

1 – محمد بن محمد بن عبد الله معن الأندلسي (978هـ – 3 جمادى الآخرة 1062 هـ) هو عالم وشيخ مسلم من أعلام الإسلام في بلاد فاس.

2 – هو الجامع الذي في أعلى الجبل قرب ضريح الشيخين أبي بكر وابنه مَحمد، أما الذي في آيت اسحاق فبناه مُحمد الحاج بعد وفاة المترجم سيدي مَحمد بن أبي بكر رحم الله الجميع.

3 – الجد: المشهور فيه فتح الجيم وهو الحظ والغنى والعظمة والسلطان. قال النووي رحمه الله "أي لا ينفع ذا الحظ في الدنيا بالمال والولد والعظمة والسلطان منك حظه، أي لا ينجيه حظه منك وإنما ينفعه وينجيه العمل الصالح، كقوله تعالى: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك)[الكهف:46].اهـ

ومن العلماء من ضبطه بالكسر، ومعناه: الاجتهاد. أي لا ينفع ذا الاجتهاد منك اجتهاده، إنما ينفعه وينجيه رحمتك. والصحيح المشهور أنه الجَد بالفتح.

قال ثم إنا استحسنا هذه الدرة المكنونة للدعاء، فاستبدلنا الاسم الظاهر بضمير المتكلم فصار الدعاء هكذا: اللهم احفظنا في ظاهرنا وباطننا وعرضنا بنفحاتك القدسية، ولا //304// تكلنا للأصدقاء، ولا تُسلِمنا للأعداء، وكن لنا بما كنت به لأحبائك وأصفيائك..الخ.اهـ
قال ورأيت بخطه أيضا رضي الله عنه مكتوبا في لوح الفقيه الصالح إمام المسجد الأعظم بالزاوية البكرية أبي الحسن علي بن أبي القاسم الحمادي رحمه الله ونفع به، وقد ختم السلكة عليه ما نصه: اللهم أسألك برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما بين سورة الحمد وسورة الناس، كن لي دائما وخصوصا آخر الأنفاس اهـ
قال وسمعته رضي الله عنه ويقول: جرى على لساني وأنا ساجد هذا الدعاء وهو: اللهم أصولَ توحيدك، بمحمد وحيدِك.
وسمعت من الثقاة من حفدته وهو الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي رضي الله عنه: كان من دعاء الشيخ رضي الله عنه: اللهم إن حاجتي أعظم من سؤالي، وكرمك أعظم من حاجتي وسؤالي، فأعطني بقدر كرمك لا بقدر سؤالي اهـ
قال وسمعت من سيدنا شيخ الإسلام نفع الله به أنه قال: من قال اللهم صل على سيدنا محمد وآله كما لا نهاية لكمالك وعدِّ كمالِه، مرة واحدة كأنما صلى على النبي صلى الله عليه وسلم بغيرها عشرة آلاف مرة. وكنت سمعت منه أن الواحدة منها بستة آلاف مرة.
وسمعت منه رضي الله عنه أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بها سبعَ //305// مرات فقط فدية، لأنها سبعون ألفا. قال وحدثني الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن رحمون الحسني نفع الله به أن الشيخ رضي الله عنه قبضه ذات مرة من أذنه وقال له: قل: "اللهم احملني وحِملي بما حملت به العرش وحامليه"، قال: فكنت أقوله فوجدت له بركة عظيمة اهـ وهذا السيد، وهو ابن رحمون المذكور، رأى سيدُنا شيخ الإسلام في شأنه رؤيا فقال حسبما حُدِّثنا بذلك: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال لي: أحمد هذا ولدي، وشهد له صلى الله عليه وسلم بأنه من ذريته. انتهى.
وقال له بعض الفقهاء: أوصني، فقال له رضي الله عنه: أوصانا الله تعالى بقوله في كتابه العزيز (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) ثم قال له: وإياك أن تكون طالبا صِرفا، يشير رضي الله عنه إلى الاقتصار على معرفة جزئيات ظاهر العلم، وقصور الهمة عن طلب ما عند الله، بالتعرض لنفحات الله، والتعلق بأهل خصوصيته، والتملق بين أيديهم، والتخلق بأخلاقهم، فهم القوم لا يشقى جليسهم، قلوبهم سليمة، ومعرفتهم غنيمة، قد صفت قلوبهم من الأغيار، وطهرت من دنس الأكدار، التصديق بهم ولاية والاعتراض عليهم جناية، والإيواء إليهم عناية وذكرهم في الأهوال وقاية، من رآهم ذكر الله، ومن أحبهم أسعده الله //306//

المقصد السادس فيما وصفه به الواصفون ومدحه به المادحون

كان هذا الشيخ رضي الله عنه يستمد من سبعة بحور، بحر الشريعة، وبحر الحقيقة، وبحر الاستقامة، وبحر الولاية، وبحر المودة في القربى، وبحر الكرم، وبحر الغِنا، فاحبه لذلك مولاه، وقربه واجتباه، وإذا أحب الله يوما عبده ألقى عليه محبةً في الناس، كيف وكلٌّ من بحاره غرف، بما علم مشربه وعرف، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وطبيعت النفوس على شكر ما حصل من النعم لديها.

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ... حتى يروا عنده آثار إحسان

وثناء الأكابر، من أهل العلم الباطن والظاهر، على هذا الشيخ رضي الله عنه أمر شهير، ومدحُهم إياه بالمنثور والمنظوم كثير، فوصَفه شيخه إمام السنة والجماعة في وقته، أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار في صدر إجازته بقوله: كان من نعم الله لقاء الفقيه المتفنن الصالح، مربي طلبه العلم والدين، الكثير الإحسان إلى

الضعفاء والمساكين، حاج بيت الله الحرام سيدي محمد ابن ولي الله باتفاق، والشهير ذكره في الآفاق، سيدي أبي بكر بن محمد الدلائي، أبقاه الله فخرا للإسلام، ونفعا للفقراء والأيتام، آمين. اهـ مِن //307// الله عنه، وأكرم به وصفا جميلا، من هذا الإمام الذي لا ترى له العين مثيلا، وقال في حقه الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن ناصر الدرعي مانصه: هو السيد الذي اشتهر اشتهار حاتم وفاء وجودا، وكان لكل من يرد من البلاد المشرقية والمغربية مستقرا ومقصودا، يأتونه أفواجا، وأفرادا وأزواجا، فيجزل لهم في العطاء، ويوالي لهم في الحباء، ويجل مقدارهم ونزلهم، ويعتمد إكرامهم وبرهم.

وقال في حقه الإمام المحقق النسابة أبو حامد العربي ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي في كتابه مرآة المحاسن ما نصه: خاتمة مشايخ المغرب، انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا، واستقل بسياسة الأمور الجليلة والرتب الجميلة العليا، عالمٌ حافظٌ متوسعٌ في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام والعربية واللغة، حسن المشاركة فيها وفي غيرها، رصين العقل، سديد الرأي، جميل المعاشرة، مراع لحقوق الصحبة، كريم النفس عالي الهمة فياض العطاء واصل المعروف، لو تفرغ متفرغ لجمع فضائله في ديوان مستقل لم يجمع منها إلا ما ينزر ويقل، ولو صنف في أنواعها أصنافا، وألف من أعدادها آلافا، صحبته سنين في محبة خالصة ومراعاة تامة، وجالسته مجالس خاصة وعامة، وانتفعت منه فيها منافع كثيرة، وجرت لي فيها من الفوائد الشهيرة، والنكت //308// العديدة، ما لا يُحصى، ولا يحد ولا يُستقصى، نفع الله به وببركاته آمين. انتهى.

قال في حقه الشيخ الإمام الرحالة، الذي لم تجتمع خصال العلم والدين في المغرب والمشرق إلا له، أبو الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السلوي ([1]) في رسالة كتبها للشيخ الحافظ القدوة أبي العباس أحمد بن محمد المقري حين استقر بمصر القاهرة، وقد أثبت هذه الرسالة في نفح الطيب ونص المراد منها: ومحبكم الأكبر، ووليكم الأطهر، سيد أهل المغرب وشيخ الطريقة، والمربي في سلوك أهل الحقيقة، العارف بالله تعالى الشيخ الرباني ذو الكرامات العديدة، والمقامات الحميدة، أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، يحبكم ويعظم قدركم ولسانه لكم ذاكر، ولخيركم شاكر، ولفضلكم ناشر، وهو على خير وعافية.

وقال في حقه الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن طاهر الحسني السجلماسي حسبما في المباحث ونصه: قد بلغ ابن أبي بكر مبلغ من لو أقسم على الله لأبَرَّه.
وقال الشيخ العلامة الأستاذ أبو عبد الله محمد بن محمد البوعناني الحسني في فهرسته: وممن أخذت عنه من المشايخ، شيخ المشايخ والشيوخ، وإمام ذوي القدم الثابتة الرسوخ، البدر الزاهر التام، فريدة تفصيل العقد ومسك الختام، مَنْ عَبَقَ نَشْرُ ورده وضاع بين الضّال والسَّلَم ([2]) شذاه، وقصرت الحلبة بأسرها عن //309// مطاولة يده وأياديه فقصرت عن شأوه ومداه، محيي سنة آثار السلف الصالح بعد دروسها، وابن منير هالاتها، والجامعُ الكبيرُ للصحيح والحسن من طروسها، ذو الفضائل والفواضل والكرامات الواضحة في حياته وبعدما مات، فرقد ثريا شيوخ العلم والدين وقطب منطقتها الذي لاح نوره بأعز المطالع فشعشع الآفاق وانتشر، ونجمُها الثاقب، شهير المناقب، الذي كمل به عد نجومها الزاهرة فكانت في نظر ذي البصر والبصيرة أحد عشر، سر أسرار الأولياء، الذي يذهل في اعتبار آياته الفكر وإكسير الشفاء، العارف الجلي سيدي محمد بن أبي بكر.

---

1 – هو أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد بن سراج السجلماسي الجزائري الأنصاري، ولد عام 1594 في تافيلالت لعائلة تنتسب إلى الصحابي سعد بن عبادة، ونشأ في سجلماسة. تتلمذ في فاس عند عفيف الدين عبد الله بن علي بن طاهر الحسني ومحمد بن أبي بكر الدلائي والشهاب المقري. حج ودخل مصر عام 1634م وأخذ عن علمائها في تلك الفترة، مثل الشيخ أحمد الغنيمي والشيخ أحمد بن عبد الوارث البكري والنور الأجهوري وغيرهم. عاد إلى المْغرب واستقر في فاس، ثم صار مفتيا في الجبل الأخضر. دخل وعائلته مدينة الجزائر بين 1635 و1638 وزوج إحدى بناته لتلميده عيسى الثعالبي، وبقي بها إلى وفاته بالطاعون عام 1647.
2 – الضَّالُ: السِّدْرُ البَرِّيُّ. والسَّلَم نوع من النباتات يتبع جنس السنط من الفصيلة البقولية. وهي شجيرة أو شجرة صحراوية شوكية طويلة.

وقال في محل آخر: قرأت على الشيخ الإمام العلامة، الحبر البحر الرَّاوية، الرُّحْلة الناسك الورع الزاهد الخير الصالح المحب في آل البيت النبوي، وروض النسب الطاهر العلوي، قطب الطريقة، وسر الشريعة والحقيقة، أبي المواهب والبركات، وأبي عبد الله جامع الخيرات، سيدنا محمد بن ولي الله الخاشع الناصح الصالح الشيخ العارف الرباني، الغوث الصمداني، سيدي أبي بكر وَصَلَ الله كمالهما، وأدام علاهما. اهـ المراد منه.

وقال في حقه الشيخ العلامة الصالح الورع أبو العباس أحمد بن علي البوسعيدي السوسي في كتابه بذل المناصحة ما صورته: الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر العالم المعقولي، الجهبذ الأصولي، العلامة //310// الإمام العارف الهمام، الذي امتدت أعناق الخلائق للعطاء منه شرفاءَ وعلماءَ وغيرهم، وقد بسط رحمه الله يده في ذلك ما استطاع إلى أن كان يعرف صحيح البخاري ويتقن ضبطه، لقيته وتذاكرت معه عقيدة الإمام الواحدي، لا يثنيه فعله اهـ

وقال في وصفه الشيخ العلامة أبو مالك عبد الواحد بن عاشر الأنصاري: هو شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى، مربي المريدين، ومرشد السالكين، وعمدة المحققين، وقدوة الناسكين، الورع الزاهد، الناصر للشريعة والمجاهد، العالم العامل المكمل الكامل، ملحِق الأصاغر بالأكابر والأواخر بالأوائل، ذو الأخلاق الرضية المرضية، والأفعال السُّنية السَّنية، المشهور علمه وإمامته، وزهده وورعه وعفته وصيانته، المعرض عن الدنيا وعن زينتها وعن أهلها ونعيمها ولذاتها، لم يزل طول عمره متنزها في رياض العلوم والمعارف، مقتطفا من أورقها ثمارَ الحكم واللطائف، حريصا على طريقة أهل السنة والجماعة، مواظبا على الخير لا يصرف منه ساعة في غير طاعة. اهـ

وقال في وصفه الشيخ العلامة الراوية الرحالة أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر عياش في رحلته ما نصه: هو صالح العلماء، وعالم الصلحاء، ووارث الطريقتين، شمس الملة، وسراج الأمة، مَنْ //311// أزال الله بشموس علمه ظلمة الجهالة، وأخمد بينابيع عدله نيران الضلالة، إمام العلماء ورئيس الحكماء، حامل راية العلم، ودافع سطوة الجهل بالحلم، سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنهم وعنَّا بهم، لا زالت فضائلهم موقوفة في صفحات الدهر، متلوة بألسنةِ الخلق في السر والجهر، فقد كان ما بينه وبين والدي رحمهما الله من المحبة وصفاء المودة واستعمال أخلاق الفتوة أشهر من أن يذكر، وأجل من أن ينكر، وكتب كل واحد منهما لصاحبه شاهدة بذلك، مفصحة عما هنالك، وكان والدي رحمه الله يحذو به حذو والده في التعظيم والتوقير عند ذكره، والتشريف بعلي قدره، وكتب إليه والدي رحمه الله مرة كتابا حلاه فيه بأوصاف جليلة هي في الحقيقة دون ما يستحقه من الإجلال والتعظيم، فأجابه رضي الله عنه بما معناه وبعض لفظه: لا نقيلك البيع فيما صدر منك من تحليتك للعبد بأوصاف هو عنها بمعزل، وما قط طاف بساحتها فضلا عن منزل، وقد سر العبد بذلك لأنكم عندنا من عدول الوقت، الذي عمَّت على غالبه أسباب المقت، وأطال في أمثال ذلك النفس رضي الله عنه، وذلك يدل على قوة الارتباط بينهما والألفة والمحبة، نفعنا الله بجميعهم آمين اهـ كلام صاحب الرحلة الشيخ أبي سالم رحمه الله.

وقال في وصفه العلامة المعقولي أبو العباس أحمد //312// ابن محمد بن يعقوب الولالي في كتابه المباحث: كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنه إمام وقته معرفة وعلما وعملا، فقيها عالما عاملا عارفا بالله، له فهم خاص ثاقب في علم الحديث، وكانت له محبة عظيمة في أهل البيت، وكان له مقام رفيع في التصرف بالهمة وفي موافقة القدر لقوله، حتى روي عنه أنه كان يقول: لو اهتممت بهذا الجبل لانهد، ويقول: أني لأتكلم بالكلمة هزلا فتكون حقا، وأطلب الإقالة منها فلا أجدها، وكل ما أقول فاكتبوه اهـ

وقال في وصفه العلامة الأديب المؤرخ أبو عبد الله محمد الصغير الإفراني في كتابه نزهة الحادي ما نصه: هو واسطة العقد، وغرة السعد، خاتمة مشايخ المغرب، انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا، واشتغل بالأمور الجليلة والرتب

العالية الجميلة، بلغ في الولاية مبلغا لم يكن لأحد غيره، من أهل وقته ودهره، وشاع له من الذكر وحسن الصيت ما لم يشع مثله لغيره. ثم قال: وكان رحمه الله عالما حافظا درَّاكا متوسعا في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام والعربية واللغة، حسن المشاركة فيها وفي غيرها.

وقال في حقه أبو العباس أحمد بن محمد بن القاضي: هو الشيخ الكامل، العارف الواصل، الولي الصالح، الزاهد الناصح، قبلة الصلاح وكعبته، وصفا النجاح ومروته، قطب رحى السيادة، وكوكب المَجادَة في فلك السعادة، //313// يتيمة العقود في لبة النحور، وتاج مفرق رؤوس أرباب الصدور، المنتصر لإعلاء كلمة الله، المنتصب لترغيب كل عنيد في طاعة مولاه، الذي عمَّ أبناءَ السبيل نداه، ومنحت سائر السالكين يداه، الذي ليس لفضائله ومناقبه حصر، أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر.

وقال في حقه الإمام أبو العباس أحمد المقري في رسالة كتب إليه من مصر القاهرة صحبة ولده الشيخ العلامة الأمير أبي عبد الله محمد الحاج حين لقيه بها في حجته المبرورة ونصها:
الحمد لله وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه.

ربـــي وفقنـــي فـــلا أعـــدل عـــن	ســـنن الســـاعين فـــي خيـــر ســـنن
خليلـــي إن جئـــت الـــدلا وجـــرى ذكـــري	لدى حضرة الشيخ الرضي بن أبي بكر
نتيجـــــة ســـــر الأوليـــــاء محمـــــد	معَـــرف كليـــات فضـــل بـــلا نكـــر
فـــأخبره أنـــي لـــم أحـــل عـــن وداده	ولـــم يـــوهن البـــين الملـــم قـــوى شـــكري
ولا مـــا أقاســـي فـــي اتقـــاء غوائـــل	يكيـــد بهـــا ظلمـــا ذوو الضـــغن والمكـــر
أنـــاسٌ نســـوا صـــد الزمـــان وفتكـــه	بمـــن راح مِـــن راح القوامـــة فـــي ســـكر
فســـل ســـيدي حُســـن الخـــلاص لحـــائر	وختمـــا بحســـنى كـــي ينيـــر بهـــا فكـــري

يا مفردا علما اهتدى الجمع السالم بلألائه، وتثنت في رياض ولائه غصون آلائه، وروى مسدَّدُ رأيِه، عن جابر سعيه، عن عطائه، ما يُسنِدُه في مجالس إملائه، أهدي إليك يا بركة الزمان، وبقية //314// الناس بهذا الأوان، الذي حار فيه من يروم الأمان، وغلقَتْ فيه الرهان ([1])، ولم يُثَق لولا وجودُك بضمان، من ارتاب في حال غَريمه وَمَان، تحيةً تنافح خِلالك، وتصافح –أبقى الله جلالَك– ظلالَك، وتؤدي بعض حقك الذي راق مرأى اجتلائه. وأُنهِي إلى مَعاهدك الشريفة، ومشاهدك المريعة الوَريفَة ([2])، على بُعد الديار، وجري بعض الأغراض على غير الاختيار، أن العبد المخلص على ما تَعهَد، من الود الذي به القلب يشهد.

ســـلوا عـــن مـــودات الرجـــال قلـــوبكم	فتلـــك شـــهود لـــم تكـــن تقبـــل الرشـــا

---

1 – غَلِقَ الرهنُ، غَلَقًا، وغُلُوقًا: لم يَقْدِرْ راهنُه على تخليصه من يد المرتهِن في الموعد المشروط فصار مِلْكًا للمرتهن، وكان ذلك في الجاهلية فأبطله الإسلام.
2 – في المخطوط "المُريفَة" وصححناها من كتاب الزاوية الدلائية لحجي ص313 طبعة 2

وقد مهد في ديار الغربة فرشا، وسلم لأحكام الأقدار، في هذه الديار، الكثيرة الأكدار، ولم يسلك منهج من عاندَ الدهرَ وقصد به تحرشا والدهر ذو ألوان، ولِبَعض أفعاله على غيرها عنوان، في إمراره وإحلائه، فأما الشوق إلى سيدي ووليي فلا يستوفي حقه القلم واللسان، وحدث عن مسندات أحمد بما شئت من طرق هي مع غرابتها حسان، وأما الحال في الحل والترحال، فلقد لَبِسَتْ من الصبر أحسن بزة، (كبارق حالة وفراق أحباب أعزة) ([1])، مِحَنٌ لو أن أقلها رُمِي به جبل لهزَّه.

اللهم غفرا وشكرا لا كفرا، حج الفقير مرارا خمسا، وأضحى في بعضها مجاورا وأمسى، واستجلى من طيبة المشرَّفة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام في سبع مرارٍ بدرا وشمسا، وجاور //315// هنالك، ودرس وصنف وأضاء فكره الحالك، ونطق لسانه في الحضرة النبوية، بالمطالب الدنيوية والأخروية همسا، ومما من الله به عليه أنه ألف بالحضرة فتح المتعال في مدح النعال، وأزهار الكمامة في أخبار العمامة، وكل منهما في مجلد كبير، فاح منه عنبر وعبير، وحاز إن شاء الله الشرفين، بالتصنيف في هذين الطرفين، الذين أحاطا بالذات الطاهرة، وكان تصنيف العمامة تجاه الرأس الشريف لمناسبة باهرة، وكان قصد العبد أن يرسل بهما إلى سيده قبل هذا التاريخ، فقرر الله أن بعض كبراء الدولة أخذهما فلم يبق والله عندي إلا الأصل فقط، وكانت إقامة ابن سيدي بمصر قليلة لم يمكن في مدتها كتبهما، ولعل الله ييسر في ذلك بعدُ، وقد ختمت كتاب العمامة برجز اشتمل على زبدته، وقد وجهته إليكم صحبة هذا المكتوب، وهو مكتوب بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، ثم زرت بيت المقدس ثلاث مرات، ومواطن الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين لهم بإحسان بالشام كرَّات، ثم عدت في هذا الوقت إلى مصر بقصد الرحلة بالعيال إلى الشام، والله المسؤول في تيسير الأمر، ورفع الأصر، وما ذكرت بعض هذا إلا على وجه التحدث بنعم الله ذي الامتنان، لا على وجه المفاخرة //316// الذي ينبغي للموفق أن يصرف عنه العنان ([2])، وما أظهرت لسيدي إلا لعلمي أنه الثقة الواثق الألوف، بل سيدي واحد العصر المعروف بالألوف، ولا يُفتى ومالك بالمدينة، اللهم احفظ مقام سيدي ودينه، فليكن ما سطرته على شريف علمه، وإن أسأت فليلحفني سيدي برداء حلمه، فلا عطر بعد عروس، والمشاهدة قد ينوب عنها ما في سطور الطروس، وقد أوصيتهم أن يكتبوا ما بقي من الكتب في زمام، ويرسلوه لسيدي لعله يختار منها ما يراه وهو الإمام، الذي به الائتمام.

---

1 – كذا كُتِبَت العبارة، وفي المصدر السابق (كِبَرٌ ورِقَّةُ حالةٍ وفراق أحبة أعزة)

2 – هنا كلام طويل لم يرد في المخطوط ننقله من الزاوية الدلائية لحجي ص314 ونصه: (نعم بقلبي يا سيدي حسرة جلت، وحيرة حلت، سلمكم الله، خَلَّفه في كربة في بلاد غربة وتخلت، وهي أمر البنت التي بفاس، وقد ضاقت وحق هذا من أجلها الأنفاس، إذ لم يمكن إليها الوصول، وتعسر مجيؤها إلي على وجه محكم الوصول، والقصد من بركات سيدي شمولها بالنظر، والإعانة على تزويجها بلائق ممن حضر، وهذا غاية المقدور، بل ومنتهى المرام ونفثة مصدور، وكم حسرات في نفوس كرام، وقد أرسلت إليها مع النجل الأجل سيدي محمد شكر الله سعيه، وأدام صونه ورعيه سبعة وثلاثين ريالا كبيرة، جهد مقل تراكمت عليه لولا تثبيت الله أمور مبيرة، والقصد إرسالها إليها بفور بلوغه في السلامة، وإذا أبرم القدر شيئاً فلا عتاب ولا ملامة، وقد أرسلت إلى الأصهار والفقيهين سيدي عبد الواحد (بن) عاشر وسيدي محمد بن سودة ببيع الكتب على طريقة الإذاعة والإظهار والنداء عليها في محل الرغبات، ومظان الطلبات، ودفع ثمنها في مؤن هذه البنت، التي بوجودكم عليها أمنت. وأما أمها فقد كنت ملكتها أمرها قبل فلم ترض، والآن وقد غلب الظن أني لا أقدر على القيام بما لها من فرض، إذ قدومي متعسر، والعكس غير متيسر، ولا يليق تأخير العصر إلى الاصفرار، ولا الهروب من مواقف الأبطال والفرار، ولا ضرر ولا ضرار، والحزم عدم الاغترار، فلها طلقة مملكة إن شاءت، وقد صدرت منهم فعلة أحزنت، وفلتة ساءت، وهي بيع بعض الكتب التي تعبت في تحصيلها، وجعلت تصحيحها نتيجة العمر، ومن جملتها ابن غازي والعيني على الألفية وغيرهما مما لا يجهل فضله حتى الغمر، وأخبرني بعض الجوراريين والتواتيين بحضرة النجل أنها عنده بتوات، وذكر لي علامات في هذا الكتاب بخطي والدهر بردها غير موات، فهل يعدل الكتب شيء، وما بعد الرشد إلا الغي، وإذا كانت نفائس الكتب تباع خلسة، فبيعها بالملأ أنفى للدلسة.)

لا أبرح الباب وهب أنني   أردت أن أبرح أين البراح

والله المسؤول في الخلاص من أسر النفس والسراح حتى نصرف الهمة إلى ما أُمِرنا به، وننقطع إلى خدمة من يلوذ بجنابه كل خامل ونافه ([1])، صلى الله عليه وسلم، ومجد وكرم وعظم، ولسيدي أن يقول: ما بال فلان لا يجاور بالمدينة، ويكمل بالحلول فيها دينه، وما له من أرب بمصر والشام، وهل يقاس الحنظل بالبشام ([2])، فأقول في جوابه، مهتديا لصوابه، هذا مقام قد رمته وبعت له ما اشتريته، بعدما سمته، فإذا به متعذر متعسِّر، وما لا يعمل فيما قبله لا يفسِّر، وذلك أنه محتاج إلى مؤن كثيرة، وما كان يأتي من مصر إلى طيبة المشرفة الأثيرة، قد مُنِع أكثره //317// وجله، أو جميعه وكله، والأعراب تنهب ما في ذلك المقام جهارا، وتأتي إلى الباب غلبة واستظهارا، والناس يشاهدون هذا متحيرين، وليسوا بمغيرين، وللضرورة أحكام معروفة، يا سعادة من كانت همته إلى قطع جميع العلائق مصروفة، وأيضا هنالك مانع عظيم، وهو أنهم يتحققون أن المغربي المجاور بمكة والمدينة هنالك يُصَبُّ المال عليه مطرا، ولو فرض أنه أعطاهم الألوف ما قنعوا بذلك ولا رأوه وطرا، بل يتفاقم الأمر إلى زيد من الحكام وعمرو، فلا ينجو من ورطه هذا الوهم، أو يرمي بألف سهم، وقد كنت في سري أنتقد على أبناء ولي الله تعالى سيدي أبي عمرو ونفعنا الله ببركاته، وأقول كيف ارتحلوا من ذلك المحل الشريف ورضوا بالمغرب وحركاته، حتى جاورت وعرفت العذر الذي من أجله فعلوا ما فعلوا، وأوقدو نار الفراق وشعلوا، هذا مع كون زمن مجاورتهم كان إلى الخير أقرب، وأما هذا الوقت فالأمر فيه أغرب، ولو تُرِك القطا لنام، وهل يكون ذو دِينٍ معادِلاً شيئا بسيد الأنام، فهو مع الموانع العريضة مشتاق إلى دياره أي شوق، وقد صرح جماعة منهم الشيخ الشعراني بأن الأولى عدم القرب حتى تبقى الهيبة والتوق.

رجعٌ إلى ما كنا فيه من التلذذ بخطاب سيدي، ومقلدي في رِبْقَة كرمه ومقيدي، فنقول بعد أزكى //318// سلام على من شملته تلكم الآكام من ولد وقرابة وصلحاء وطلبة علمٍ، بلغ الله كُلاًّ آرابه، إننا تشرفنا بحضور النجل الأجل الكبير، وأنبأنا بما كان حصل مما لم نسمع مجمله فضلا عن تفصيله ولا ينبؤك مثل خبير، والعاقبة للمتقين، ولا يرتاب في ظهور أرباب اليقين، وتلاشي أمر المستريب.

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها   ويأمـــل أن يـــأتي لهـــا بضـــريب

والعود أحمد، وماء التوكل لنيران الفتنة أخمد، وليس لما تبني يد الله هادم، إيه (وَاهَني) ([3]) سيدي بتحفة القادم، فقد حصل له من المواهب ما أثمرته دعواتكم في الأسحار، وظهر رفقه برفيقه عند التوغل في المَهامِه ([4]) والأصحار، وظهر له في الحرمين من الخيرات ما لا يقابل إلا بالشكر، وما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر، فلو رأيتَ سيدي عطفه على التوهم، وفهمه حاجةَ من معه قبل التفهم، ومبدأ رفعه قبل الاستغاثة والنداء، لعلمت أن خبر خيره مُسنَدٌ إلى ذلك الجناب الذي لم يكن في مناقب الأريب مُنْفَدا ([5])، وهذا نوع من الاختصاص، والفاعل المختار يخص من شاء بما شاء، ويلهم الابن الموفق الاقتداءَ بآثار الوالد التي ينجو بها من له في مناهجها اقتماص (كذا)، //319// هكذا هكذا تكون المعالي، طرق الجد غير طرق المزاح، فزده سيدي من نظرك ما يشتد به ساعده، إذ لكل زمان واحد يقتدى به وهذا زمان لا شك أنت واحده، فهو سهم من كنانتك،

---

1 – نافه: فاعل من نَفَهَ: أي جَبُن وضَعُف قلبُه.
2 – جمع بَشامَة: شجر طيِّب الرّائحة والطعم يُسْتاك به.
3 – كذا كتبت، ولم نتمكن من ضبطها. على أن "واها" كلمة تعجب من طيب الشيء: فتقول عند التعجب «واها له، واها به»، فلعل المقصود: جَعلني أقول واها، والله أعلم.
4 – المهامِه: جمع مَهمَه: مفازة بعيدة، بلد مقفر، صحراء بعيدة لا ماء فيها.
5 – كذا تبدو مشكولة بالقلم، والله أعلم.

ونتيجة من قضايا ديانتك، وسر من أسرار أمانتك، فنتضرع إلى واهب المنح والمنن، أن يطيل له ولإخوته وللمسلمين عمرك ويوفق الجميع إلى أقوى وأقوم سنن، وينفعنا بكل عالم مثلكم عامل، فكل ينشد:

بقيتَ بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل

والله يبقيك لنا سالما بُرداكَ تبجيل وتعظيم

آمين آمين آمين إنه كريم، ولا يؤاخذني سيدي في مد أطناب الإطناب، وتطويل الأقاويل والإكثار من النشار، فمثل ذلكم الجناب، مما يُفتح فيه الباب، فأكرم بذلكم الخطاب، الذي ملأ الوطاب ([1])، ولا يُغفلني سيدي من دعواته، في خلواته وجلواته، بصلاح الأحوال، وكفاية الشرور والأهوال، فكم رأيت بعد مفارقتي سيدي من أمور لم تنسج على منوال، في البلاد المختلفة العروض والأطوال، ولم تجر بها فيها أحوال، كما قلت:

كم رأينا من سرور وشرور مذ نأينا

فكأنا ما سمعنا وكأنا ما رأينا

//320//

ولقد قَدَّرتُ أشياءَ فلم يُفد التقدير، وخالف فيها التعجيز والتصدير، ولم يساعد التيسير، كما قلت:

أقدر في ذهني أمورا كثيرة أسلي بها نفسي فيُعكس خارج

فيا ربي ما لي غير بابك ملجأ وليس لباب الهم غيرك فارج

وكيف يقر قرار من فارق مَربَعه، وبلي من الكبر بالغربة ([2]) والحسد وفساد الزمان بهذه الأربعة:

إني أبثك من حديثي والحديث له شجون

فارقت موضع مرقدي ليلا ففارقني السكون

قل لي فأول ليلة في القبر كيف ترى أكون

---

1 – الوِطاب: جمع وَطْبُ: سِقاءُ اللَّبن، وهو جلدُ الجَذَع فما فوقَه.
2 – تقرأ في المخطوط "الغرية"، وقد اجتهدنا في وضع ما يبدو أنسب والله أعلم.

([1]) والواصل لسيدي العقيدةُ التي مَنَّ الله عليَّ بنظمها، وهي إضاءة الدجنة، بعقائد أهل السنة، وقد كُتِبت من هذه العقيدة بالحرمين الشريفين واليمن والشام ومصر أكثر من ألفي نسخة، كَتَبْتُ بخطي على أكثرها ودرستها بمكة وبيت المقدس ودمشق ومصر والإسكندرية ورشيد وغزة ولله المنة، والعزم الآن على شرحها متوفر. وأما قصيدة العمامة الموجهة مع هذه فهي خاتمة أزهار الكمامة، وأرسلتها مع ما فيها من الإصلاح تبركا بكونها كتبت بحضرته صلى الله عليه وسلم في تلك الأوراق غير الورقة الأولى فإنها كتبت في مصر بدلا من التي كتبت بالمدينة //321// لعذر اقتضى ذلك، والقصد استمطار الدعاء، من تلكم الحضرة –علم الله– لا التبجح بذلك على وجه الرياء، والأعمال بالنيات. ولم نر من سيدنا رضي الله عنه مكتوبا مع النجل العزيز أعزه الله، ولا ندري ما سبب ذلك.

إذا كـــان المحـــب قليـــل ســـعد فمـــــا حســـــناته إلا ذنــــوب

وكل ما يفعل المحبوب محبوب، أستغفر الله فسيدي أجل من أن يعاتَب، وما الفرق بين العبد ([2]) في باب الشهادة والمكاتب، وقد أكثرت على سيدي فليصفح وليسمح، والسلام مُعادٌ على حضرة مقامه والرحمة والبركة، وكتب عن عجل أواخر شهر ربيع النبوي سنة إحدى وأربعين وألف، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

(نص المقامة الزهرية لمحمد بن أحمد المكلاتي)

وقال في وصفه الشيخ العالم الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي رحمه الله مقامة سماها المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية ([3])، وهي في حسن بلاغتها وعذوبة براعتها تزري ببلاغة سحبان، وبراعة بديع الزمان، فكان إثباتها هنا مما يُحمد، وما كان برهانه لا يُجحد، ونصها:

حدثنا بشر بن مسرور ([4])، عن سهل بن ميسور، عن الضحاك بن بَسَّام، بسنده عن نسَّام ([5])، قال: تراءت لي من الأماني الوجوه الوسام، وأنا من //322// نشاط الشيبة وافر الحظوظ والأقسام، لم يفتني من قواعد اللهو إلا الحج، فأقمت من قول القائل وظائف العَجِّ والثج ([6])،

أحجـج إلـى الـروض لتحظـى بـه وارْمِ جمــــار الهـــــم مســــــتنفراً

---

1 – سقط من نص الرسالة التي أوردها حجي في كتاب الزاوية الدلائية كلام طويل في بضع صفحات يبدأ من قوله (وهو الإمام، الذي به الائتمام) إلى هذا الموضع. وبالنظر إلى ما سقط من المخطوط أيضا وهو كثير، فإما أن يكون في كلا النسختين بتر صفحة أو أكثر وهو احتمال ضعيف، لإشارتهم في الغالب إلى كلمة البداية من الصفحة الموالية، مما يمتنع معه إثبات نص مبتور دون التنبيه عليه، وإما أن يكون المؤلف قد تصرف في الرسالة وعدَّلها فبقيت منها نسخة مخالفة للمبعوثة، والله أعلم

2 – في المخطوط "العهد" وصححناها من كتاب الزاوية الدلائية لحجي.

3 – أثبتها كاملة عبد الله كنون في النبوغ المغربي ج2 ص504 الطبعة الثانية، وفيها بعض السقط وبعض الاختلاف في الألفاظ مقارنة بالنسخة التي أثبتها المؤلف هنا، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك بالهوامش. وقد سبق التطرق لترجمة المكلاتي في ص99 من المخطوط.

4 – في كتاب النبوغ "سرور".

5 – في كتاب النبوغ "عن الضحاك بسنده عن بسام".

6 – العج رفع الصوت بالتلبية والثج إسالة دم الهدي وذلك في الحج.

مـن لـم يطـف بـالروض فـي زهـره   مـن قبـل أن يحلـق قـد قصـرا

فلبيت داعيه، وأصغيت إليه بأذن واعية، وأزمعت المجاز، إلى المشاعر التي ليس بينها وبين اللذات حجاز ([1])، وأعملت يعملات العزم، وأدخلت على معتل التواني عوامل الجزم، فتخيرت من السَّحر ([2]) أطيب أوقاته، وأحرمت مع حجيج الأنس من ميقاته، وسرت والنسيم معتل، وخَدُّ النسرين ([3]) بمدامع الأنداء مبتل، فأتيت روضا قد تولاه الولي، ووسمه الوسمي ([4]) وأظلته رايات الصباح، وباكرتِ الصَّبا تقبيل نَوْره من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الأقاح، فأقمت (لديه، وقمت بين يديه، وأثنيت عليه، بما منه وإليه) ([5]).

جِئـت ([6]) الغـديرَ وقـد أجـادت نقشَـه   كـف النسـيم ومرُّهـا فـي جَوشـن

وغصـون أدواح الريـاض تهزهـا   نغَـم القُمـاري بالغنـاء المحسَـن

مـا بـين ثغـر للأقـاح مُفَلَّـج   وجبـين نهـر بالنسـيم مُغَضَّـن

ووجـوه هاتيـك الريـاض سـوافرٌ   غِيـدٌ تـزان مـن الميـاه بـأعين

//323//

والأرض تُجلَـى فـي رداء ([7]) أخضـر   والجـو يبـرز فـي قنـاع أدكـن

وما زلنا بين تلك المنازل نرمي جمار الفوائد، ونَرِد من ذلك أعلى ([8]) المصادر وأعذب الموارد، إلى أن ارتقت الشمس درجة العُلا، [واستوت] ([9]) لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلا، فترامينا على تلك الظلال، مستحسنين قول من قال:

حَلَلنـا دوحـة فحنَـى علينـا   حُنُـوَّ المُرضـعات علـى الفَطِـم ([10])

وقانـا لَفحـة الرمضـاء واد   سـقاه مضـاعفُ الغيـث العمـيم

يراعـي الشـمس أنـى قابلتنـا   فيحجبهـا ويـأذن للنسـيم

وأسـقانا علـى ظمـأ زلالاً   ألـذ مـن المدامـة للنـديم

تـروع حصـاه حاليـة الغـواني   فـتلمس جانـب العقـد النظـيم

1 – أي فاصل.
2 – في كتاب النبوغ "السمر".
3 – في كتاب النبوغ "الثرى".
4 – الوسمي أول مطر الربيع والولي المطر الذي يليه.
5 – ما بين القوسين ساقط من كتاب النبوغ، وكتب مكانه "منه".
6 – في كتاب النبوغ "حيث".
7 – في كتاب النبوغ "رياض".
8 – في كتاب النبوغ "أحلى".
9 – إضافة من كتاب النبوغ .
10 – لم يرد هذا البيت في كتاب النبوغ.

فبينما نحن كذلك إذ برق الجو فسل علينا سيوفه المذهبة، وارتفعت للغمام فساطيط مطنَّبة، وجعل السحاب يسوق المراكب، وأخذ الرَّباب ([1]) يرتب الكتائب، فتصبب عرقاً، ونادم الروض فغنى وسقى، فما أغمد سيف ذلك البرق، ولا انقشع ذلك الوَدق، إلا والمساء قد طفَل، والروض في ثوب الأصيل قد رفل

ورب عشـــــية فيهـــا طفقنـــا	نَـــرُودُ ([2]) الظـــل والمـــاء القراحـــا
وقـد ضــرب الضــريب ([3]) بهـا قبابـاً	علـــى البطحـــاء أبهجـــت البطاحـــا

//324//

وكـــان جنابهـــا المخضـــر ([4]) آســـاً	فأصـــبح وهـــو مُبـــيَضٌّ أقاحـــاً
كـــأنَّ الخَضْـــر ([5]) جـــرَّ بهـــا يمينـــاً	ومـــدَّ عليهـــا جبريـــل جناحـــاً

فبتنا ([6]) جيران دولاب يهدل، وأغصان تنثني وتعتدل، وستر الظلام ينسدل، فانجلى الأفق عن روضة غارت منها الرياض، ينساب من مَجرَّتها ما يُفعِم الحياض، فأنستنا ما طوى النهار عنا من المحاسن، ووردنا من بقية أنسنا ماءها غير كدر ولا آسن.

تحسـب الـنجم فـي دجـى الليـل زهـراً	فـــي رباهـــا وتحســـب الزهـــر نجمـــاً

فمتعنا الطرف في روضتين، وحصلنا من الأنس على جنا الجنتين، حتى إذا عبث الابتسام بالوجوم، وفاض نهر المجرة على حصباء النجوم، وكاد جُرُف الليل ينهار، وسمعنا من بين جلبة الطيور والأزهار:

هـــات المـــدام إذا رأيـــت شـــبيهها	فـــي الأفـــق يـــا فـــرداً بغيـــر شـــبيه
فالصـــبح قـــد ذبـــح الظـــلام بنصـــله	فغـــدت حمائمـــه تخاصـــم فيـــه

قال الراوي فأوجست خيفة في نفسي، واعتضت الوحشة ([7]) بدل أنسي، وقمت مذعوراً لفرط الدهش، والجو بين الضياء والغبش، «يقلب الله الليل والنهار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» فتراءت لي وجوه الرياض تَثْعَب دماً، كأنما اكتست الآفاقُ من حمرته عَنْدَما، فتوهمته من بقايا الشفق أسفر عنها ضوء //325// الفلق، فإذا هو ينادي بلسان طليق: أنا أخو الرياض الشقيق، كم كسوته جمالاً، وأكسبته من ورق ورقي مالاً، من وجهي تُعرَف نضرة النعيم، ومزاج كأسي من تسنيم، فدع قول عياض ([8])، ووصفه إياي بين الرياض ([9])، وخل من الألوان المخضر، واسمع ما قيل الحسن أحمر، فالأزاهير عساكر وأنا لها أعلام، فحسبي ما قال علماء الشعر الأدباء الأعلام:

---

1 – السحاب الأبيض.
2 – في المخطوط "تَروضُ" ولعل ما في كتاب النبوغ أصح.
3 – الثلج.
4 – في المخطوط "يخضر"، وأثبتنا ما في كتاب النبوغ.
5 – هو بكسر الضاد ويخفف بالسكون، أي خضر موسى عليهما السلام.
6 – في المخطوط "فبينما"، صححناها من كتاب النبوغ.
7 – في كتاب النبوغ "الخيفة".
8 – يشير إلى بيتي القاضي عياض في الشقيق الآتيين بعد.
9 – في المخطوط "من الرياض".

وكـــأن محمـــر الشـــقيق إذا تصـــوب أو تصـــعد

أعـــلام يـــاقوت نشـــر ن علـــى رمـــاح مـــن زبرجـــد

فصاح به (النَّمام)، أقصر فلي بحضرتكما إلمام، متى جَمَّلت الرياض، ومتى أغنَيت الحياض، وأنَّى لوجهك النضرة، وقد أبدى صفحة، ليس لها عرف ولا نفحة، أما ذكرت سواد قلبك، وقضاء ربك، وقد جَرَّح القاضي ([1]) شهادتك، ورَدَّ نداءك وإشادتك:

انظـــر إلـــى الـــزرع وخاماتـــه تحكـــي وقـــد ماســـت أمـــام الريـــاح

كثيبـــةً خضـــراء مهزومـــةً شـــقائقُ النعمـــان فيهـــا جِـــراح

نعم صِبغُك مستحيل، وأعلامك مُؤذِنة ([2]) بالرحيل، عن الرسم المحيل، فما النَّضرة، إلا للخضرة، أَوَ مَا علمت أن بها يُشبَّه العِذار، إذا استدار، ما أحسن الريحان في الجلنار، فإن قلت نمام فما نَمَّ إلا بأمره، ولا باح إلا بسره، في نظمه أو نثره ([3]):
//326//

لَـــوْ كَـــرِه النَّمـــام أهـــل الهـــوى أســـاء إخـــواني ومـــا أحســـنوا

إن كـــان نمامـــا فمعكوســـه مـــن غيـــر تأديـــب لهـــم مَـــأْمَنُ

فناداه (البان)، وقد ظهر له ([4]) وبان، أيها المفتخر بفيه، المتحلي بما ليس فيه، تسرق السمع بأُذُنَيْ فرس، فشأنك كله خُلَس، أما علمت أن النمام في النار، أما كفاك هذا العار، بغيض الذات، هادم اللذات، تطير من اسمك الناس، وما لك في الثِّقَل من باس ([5])، ولو أُلقيت في الكناس ([6])

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلينـــا ([7]) وللنمـــام حَـــولِيَ إلمـــامُ

أيـــا رب حتـــى فـــي الحـــدائق أعـــين علينـــا وحتـــى فـــي الريـــاحين نمـــام

ما الحسن إلا للقضيب الممشوق، والقد المعشوق، المكتسي فاخر الملبس، الزاهي في الديباج الأطلس، إلي تنسب القدود الملاح، وعلى قامتي يَعذِل العاذل ويلحي اللاح.

تبســم زهــر البــان عــن طيــب نشــره وأقبــل فــي حســن يجــل عــن الوصــف

هلمـــوا إليـــه بـــين قصـــف ولـــذة فـإن غصـون البـان تصـلح للقصـف

---

1 – يريد به القاضي عياض وما في بيتيه من تشبيه الشقائق بالجراح.
2 – في المخطوط "مأذونة".
3 – سقط من كتاب النبوغ قوله "في نظمه أو نثره".
4 – في كتاب النبوغ "عليه".
5 – في كتاب النبوغ "من ناس".
6 – عبارة غير واردة في كتاب النبوغ.
7 – في كتاب النبوغ "إلي".

فأجابه (البهار)، البادي فضله بُدُوَّ [1] النهار:

نفش غصن البان أذنابه ... ومَاسَ [2] وقت الصبح عُجباً وفاح

//327//

وقال هل في الروض مثلي فقد ... تعزى إلى قدي قدود الملاح

فحدق النرجس يهزأ به ... وقال حقاً قلت ذا أم مِزاح

بل أنت بالطول تحامقت يا ... مقصوف [3] عجبا بالدعاوي القباح

فقال غصن البان من تيهه ... ما هذه إلا عيون وِقاح

أما راقك الياقوت الأصفر، وسط الدر الأبيض على الزمرد الأخضر، يشهد بمنافعي البينة، في فصول الأزمنة، شموا النرجس ولو يوماً في السنة، فأنا غذاء الروح، لمن يغدو علي ويروح، لطيف المزاج، أصلح للعلاج، وأزيل من الدماغ مضرة دخان السراج، وأخف على العشاق، يوم التلاق.

يا رب إن قدَّرتَه لِمُقَبِّلٍ ... غيري فلِلمسواك أو للكؤوس

وإذا حَكمتَ لنا بصحبة ثالث ... يا رب فَلْيَكُ شمعةً في المجلس [4]

وإذا قضيت لنا بعين مراقب ... يا رب فلتَكُ من عيون النرجس

فنهض إليه (البنفسج) وثار، وتكلم بألسن كأنها أوائل النار، وقال لا يظهر لك أمر، ولا يسلم لك فخر، إلا على الورد، فما لك عليه من رد.

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلاً تورُّدُها عليه شاهد

للنرجس الفضل المبين وإن أبي ... آب وحاد عن الطريقة حائد

فضل قديم، يعرفه المدام والنديم، وأما أنا فبهجة لازوردية، //328// ونسمة عنبرية، ريحانة الجيوب، المحببة للقلوب، المبرأة من العيوب [5]

يا مُهدياً لي بنفسجاً أرِجاً ... يرتاح صدري له وينشرح

بشَّرني تصحيفه عاجلاً ... بأن ضيق الأمور ينفسح

فأقبل (الورد) في جنوده، ناشراً لراياته وبنوده، محمرَّ الوجنات، منكراً على البنفسج ما جاء به من الترهات.

---

1 – في كتاب النبوغ "البادي فضله على فضل النهار".
2 – مَاسَ السَّيِّدُ: اِخْتَالَ فِي مَشْيِهِ، تَبَخْتَرَ.
3 – في المخطوط "مَعْصُوفُ" ولعلها تصحيف لمقصوف، أما في كتاب النبوغ فكتبت "مَقصودَ عُجْب".
4 – لم يرد هذان البيتان في كتاب النبوغ.
5 – لم يَرِد قوله "المبرأة من العيوب" في كتاب النبوغ.

ولقـــد رأيـــت الـــورد يلطـــم خـــده ... ويقـول وهـو علـى البنفسـج محنـق

لا تقربــــوه وإن تضـــوَّع نشـــره ... مـــن بيـــنكم فهـــو العـــدو الأزرق

كيف يفخر النرجس من بين الرياحين، على نخبة الملوك والسلاطين.

إن كنـــت تنكـــر مـــا ذكرنـــا بعـــدما ... وضَـــحَت عليـــك دلائـــل وشـــواهد

فـــانظر إلـــى المصـــفَرِّ لونـــاً منهمـــا ... وأفهـــم فمـــا يصـــفر إلا الحاســـد

ألم تسمع ما قيل، مما سيُلقِي عليك القولَ الثقيل.

مَـــن فضَّـــل النـــرجس فهـــو الـــذي ... يرضـــى بحكـــم الـــورد إذ يـــرأس

أمـــا تـــرى الـــورد غـــداً قاعـــداً ... وقـــام فـــي خدمتـــه النـــرجس

أنا مشَرِّف الربيع، ومُظهر ما له من البديع، أنعش الأرواح، فأنا عروس الأفراح، نوافحي ذكية، وروائحي مِسكية ([1])، أبديت ألواناً لأهل الأدب، يقضون لها بالعجب، فمني الأبيض والأسود //329// الحالك، ومني ما هو وراء ذلك، الأصفر الفاقع، وما نصفه قاني ونصفه ناصع، وبالهند مني شجر مكتوب فيه ([2]): لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فأنا للرياحين ملك ملوكها، ووسط نظمي عقودها وسلوكها.

فمـــن ذا يضـــاهيني بوصـــف فضـــيلة ... وفضـلي علـى كـل الريـاحين ظـاهر

زمـــاني علـــى الأزمـــان بـــي متشـــرف ... وفخـري لمـن يبغـي التفـاخر قـاهر

فرام (المنثور)، أن يراجعه بالمنظوم والمنثور، ويذكر له من ذلك ما هو مأثور، فأسكته، ورد عليه وبكَّته، وتحامل عليه، ولم يصغ إليه، فأما الأبيض فاستسلم، وأبى الدعاء على من ظلم، وكل من الأصفر والأزرق [باح] ([3]) بالشكوى، إلى عالم السر والنجوى، فلم يزل يسيل مدامعه، ويمد إلى الله كفه وأصابعه، وعنده سبحانه وتعالى تجتمع الخصوم، وإليه تعالى ينتهي أمر الظالم والمظلوم.

حـــاذر أصـــابع مـــن ظلمـــت فإنـــه ... يـــدعو بقلـــب فـــي الـــدجا مكســـور

فـــالورد مـــا ألقـــاه فـــي جمـــر الغضـــا ... إلا الـــــدعا بأصـــــابع المنثـــــور

---

1 – في كتاب النبوغ "نوافحُ ذكية، وروائح شذية" وليس هذا بأول اختلاف بين النصين ولا آخره، فلعل صاحب المقامة عدَّل فيها بعد أن انتشرت نسخها، والله أعلم.

2 – في كتاب النبوغ "وبالهند مني شجر تخرج ورداً عليه مكتوب".

3 – إضافة من كتاب النبوغ.

قال الراوي، فبينما هي في مطارحة وجواب، ومفاخرة //330// وإعجاب، إذ أقبلت مُطَوَّقَةُ الرياض، ولها من الجو انصباب وانقضاض.

ورقـاء قـد أخـذت فنـون الشـوق عـن | يعقـــوب والألحـــان عـــن إســـحاق
وأنـا الـذي أملـى الهـوى من خـاطري | وهـــي التـــي تملـــي مـــن الأوراق

فباحت بشجنها، وتكلمت على فَنَنِها، وقالت كل يحاول جهده، ويقول بما عنده، إني لكم الفخَار، وأنتم لنا أعشاش وأوكار، وفروعكم لخطبائنا منابر، ولقياننا ستائر، أليس رؤوسكم لأقدامنا خاضعة، ولنا كلما نزلنا بها ساجدة وراكعة، وإنا على ما زعمتم بنا من الجوى وتَبَاريحه، آخذون في ذكر الله وتسبيحه، شغلنا ذلك بالأسحار، والعشي والإبكار.

قال الراوي: فبينما أنا أعجب مما سمعت، وأهم بتقييد ما رويت، إذ نشأت غمامة تصافح أهدابُها الأرض، وتَسُدُّ الأفق على الطول والعرض، يَحدُوها الرعد، ويَستنجِز منها الوعد.

وكـأن صـوت الرعـد خلـف سـحابة | حـــاد إذا وَنَـــتِ الركائـــب صـــاحا
أخفـــى مســـالكَها الظـــلامُ فأوقـدت | مـــن برقهـــا كـــي تهتـدي مصـــباحاً
جادت على البطحاء ([1]) فاكتست الربى | حلـــلا أقـــام لهـــا الربيـــع وشـــاحاً

فنثرت الأرض جواهر تغار منها البحور، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللبات والنحور، فاختفت بعد ما تجلت، وألقت عَلَيَّ //331// البطاح ما فيها وتخلت، ثم قالت يا ذوات الأطواق، البائحات بالأشواق، المفتخرات على الأدْواح، بالغدو والرواح، بكاؤكن كذب، وتَوَجُّعكن ([2]) لعب،

لـو كـان حقـاً مـا ادعيت مـن الجـوى | يومـاً ([3]) لمـا طـرق الجفـون كـراك
أو كـــان روعـــك الفـــراق إذا لمـــا | ضَـــنَّت بمـــاءِ جفونِهـــا عينـــاك

ما الفضل إلا لمن أحيا الأرض بعد أن كاد زرعها يهيج، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فقلائدها مُدَبَّجة، ورؤوس أشجارها متوجة، فلولاي لم يكن لكن مرعى، ولا مسرح في الأرض ولا مسعى.

قال الراوي: فبينما هي مَطلِق اللسان، وتعد مالها من الحسن والإحسان، إذ طلعت الغزالة، وهي في حسنها مختالة، (ولها من الكمالات حال، يشغل الفكر ويشطُن البال، وفي ذلك ينشد ويقال) ([4]):

---

1 – في كتاب النبوغ "التَّلَعات".
2 – في كتاب النبوغ "ونوحكن لعب".
3 – في المخطوط "حقا" وقد أثبتنا ما في النبوغ.
4 –ما بين القوسين ساقط من كتاب النبوغ، والظاهر أنه مأخوذ من نسخة أقدم من النسخة التي نقل عنها الحوات هنا.

مــرآة تبــر لــم تُشَــح ([1]) بصــياغة   كـــلا ولا جليـــت بكـــف الصـــيقل

حتـى إذا بلغـت إلـى حيـث انتهـت   وقفـت كوقفـة سـائل عـن منـزل

وهي قائلةٌ: أعمالٌ كسراب، وعارضٌ مُنجاب، إذا طلعت عليه الشمس ذاب، ألم تسمعوا بأني يوح ([2])، أغدو في مصالح العالم وأروح، فلولاي ما جرت الأنهار، ولا تفتقت الأزهار.

قال الراوي: فلما رأيت إفراط اللجاج، والتمادي على الحجاج، //332// قلت الحق أبلج، والباطل لجلج، هلا أعطيتم القوس باريها، وأسكنهم الدار بانيها، فمن كلام من يعقل. إذا فاض نهر الله بطل نهر معقل ([3])، ألم تعلموا أن جامع هذه الفضائل وإمامها ومالكها الذي أحكم انتظامها، عالم المسلين، محيي سنة الفضل في العالمين، الماجد الفاضل، والسحابُ الهاطل، السَّنِي الأشهر، السُّنّي الأطهر، فخر المغرب الأكبر، محمد بن أبي بكر الدلائي الأغر، الكريم الجواد، الكثير الرماد، كافأ الله إنعامه، وجازاه خير جزائه عن مقام الدين الذي أراد [جداره] ([4]) أن ينقض فأقامه، فهو الممدوح بكل لسان، والماجد ([5]) الذي لم يختلف في فضله [اثنان]، والسخي الذي إذا ملأ بالحمر الراحة خف عليه التعب، وإذا ذكر القدر الذي ارتفع هان عليه الفكر الذي انتصب، كم ساجلت جوده الغمائم، فأمست على افتضاحها ثنايا البروق وهي بواسم، متى طرقتَ حِماه والليلُ قد سجى، تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا.

تلوح في غرة الأيام بهجته   كأنه ([6]) ملة الإسلام في الملل

فاعترفت الأزهار بأن شذاها من نسماته، وأقرت الشمس بأنها من قسماته، وسلم الغمام بأنه من صِلاته، وقال الحَمام لا أتغنى إلا بمدائحه، ولا أرد إلا موارد منائحه.

قال الراوي: فلما وقع التسليم لمعجزاته المحمدية، ومناقب أبيه البكرية، قضيت //333// المناسك، وودعت المسالك، وطفت بتلك البقاع، طواف الوداع، فلما أردت الخروج، والرجوع على خضرة تلك المروج ([7])، نادتني الأزهار من كمائمها، والثمار من أغصانها، سمعاً لهذا الماجد الذي صار إجماعاً، وأحببته أنت عياناً ونحن سماعاً، ونحن نقسم عليك بمواهبه التي كاثرت النجوم عدا، وطالت البحار مددا، إلا ما خدمت بهذه الفكاهة جنابه الفسيح، وأعنت بها المساكين الذين يعملون له في كل بحر ([8]) من أشعار المديح، فقلت قد أجبت هذا القسم الكريم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، فيا له من حج مبرور، وعمل متقبل مشكور، فرائد الفوائد في سلكه منظومة، وصحائف لذاته بالمسك مختومة.

انتهت المقامة الزهرية، في مدح المكارم البكرية، بحمد الله سبحانه وتعالى، وصلوات الله وسلامه على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه تتعاقب وتتوالى.
وبعدها قوله:

---

1 – في المخطوط "لم تُسَم" وقد أثبتنا ما في النبوغ
2 – يوح علم جنس للشمس.
3 – هو معقل بن يسار ينسب له نهر بالبصرة وهو الذي يضرب فيه هذا المثل.
4 – إضافة من كتاب النبوغ.
5 – في المخطوط "والواحد".
6 – في كتاب النبوغ "كأنها".
7 – في المخطوط "البروج"، وقد أثبتنا ما في كتاب النبوغ.
8 – قال في كتاب النبوغ: هو تلميح إلى قوله تعالى: (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر...)

جبت الديار على مرور زمان | وسلكت منها ما نأى والداني
وسألت أهل الغرب عن فضلائه | وخَبَرت أهل الجود من ثهلان
وبلوت كل الماجدين فلم أجد | لمحمد في جوده من ثاني

إلى أن قال:

يا ابن الذين رووا أحاديث العُلا | عن خير خلق الله من عدنان

//334//

قوم إذا دجت الخطوب وأظلمت | ودهى البرية فاجئ الرجفان
تركوا سيوف الهند في أغمادها | وتقلدوا سيفا من القرآن

انتهى ما وجد منها ([1])

ومن ذلك ما للإمام العلامة الهمام، خاتمة أعلام المغرب، وفاتن الألباب بأدبه المضطرب، أبي حامد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي مادحا له أيضا، ومستمطرا من غيثه فيضا، بعد إيراده مقامة رائقة، مشتملة على معان فائقة، ضمنها بعض أحواله، وفتن الوقت وأهواله، عرف فيها بنفسه، ومن في معناه من ذوي جنسه، وتخلص فيها لمدح أهل الدلاء، ونص المحتاج منها على الولاء، ولله تعالى علينا في عصمة الدين والدماء، والنجاة ولو بالرِّفق والدعاء ([2])، نعمةٌ تُعرف ولا تُنكر، وتُشكر ولا تُكفر، فلله الحمد كفاءَ نعمته، وما مَنَّ به من عصمته، ثم اقتحمت المضِيق، وركبنا ظهر الطريق، نطوي عرض البسيطة، ونحط قطر دائرتها المحيطة، في مفاوز لا يمر بها السهم إلا من عجل، ولا يخطو فيها الوهم إلا على وجل، يتفقد السائر فيها كل حين رأسه، ويسائل جسمه هل يستصحب نفسه،

وعيني إلى أدنى أعز كأنه | من الليل باق بين عينيه كوكب

وسحائب الفتنة تصب حوالينا لا علينا، وأعينها عُميٌ عنا //335// وعين الله ناظرة إلينا، إلى أن أفضت بنا تلك المعاسِف ([3]) البُهم، في الأيام الدهم، إلى حيث لاحت لنا مطالع الفرج مسفرة بالصباح، وافْتَرَّتْ ([4]) لنا ثغور الجود عن وجوه المجد الصِّباح، فقلت الله أكبر، هذا الصبح قد أسفر، والليل قد أدبر، قد شارفنا بلاد الدلا، حيث المورد العذب الذي لا يستنزر فيه الورد والدلا، ولا تكدره الدلا.

وبشرت آمالي بشيخ هو الورى | ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

وهذا آخرها، وفي بعض تقاييدها انتهى ما وجدت منها وهو جار على أن منشئها لم يتفق له إكمالها، ويحتمل أن هذا كمالها وأن الوقوف عن التصريح بالممدوح مقصودٌ، ادعاء أنه مما يُعجز عن مدحه، والبيت الذي ختم به يرشد إليه.

---

1 – انتهت المقامة في كتاب النبوغ عند قوله "بالمسك مختومة" وفي هذه الزيادة ما يثبت تأخر نسخة الحوات.
2 – تصعب قراءتها وربما كانت "بالريق والدماء" والرِّبْق: حَبل ذو عُرًى، أو حلقة لربط الدوابّ.
3 – سَارَ عَسْفاً: سَارَ سَيْراً بِغَيْرِ هِدَايَةٍ.
4 – افتَرَّ فلانٌ: ابتسم وبدت ثناياه.

وأما ما قيل في مدحه بالأشعار، فلو وجد لم يكن لعده انحصار، لكن ذهب أكثره أدراج الرياح، وتفرقت ذخائرهم شذر مذر، حين أخرجهم من أرضهم غالب القضاء والقدر، فلم أعثر بعد البحث الطويل إلا على النزر القليل، فمن ذلك ما للإمام أبي حامد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي المذكور:

أدار بذات السدر في الجانب الشرقي ... سقاك الحيا مادام صوبُ الحيا يسقى

//336//

وإني لمِن عيني عليك سحائب ... تَسحُّ إذا شَحَّت بها أعين الودق

وقفت على الرسم المحيل فشاقني ... فأبكي وأستدعي العهادَ وأستسقي

ما بَرِحَت مُزرُ الغمام حواملا ... لحمل من الوفعي في وفعها تلقي

تساجلني أني لها دون حامل ... ولي حامل الذكرى ولأهلي والشوق

وتذكرني لو كنت أنساهم الصَّبا ... تهب بمسراها ومُؤتلِق [1] البرق

وساجعة تَفتَن في نغماتها ... على الفَنَن [2] اللُّدن الوريف من الوُرق

وأحسبها مثلي إذا قلت قد بكت ... وأين بكاؤها من بكائي على لفق [3]

فما أذرَت الدمعَ السَّفوحَ وشملُها ... جميع وفرخاها لديها على لحق

ولي مقلة تهمي كأن شُؤنها ... شآبيب قد فاضت من الشرقي

ودون أفراخي تنائف [4] نيفت ... على العشر للساري من أفق إلى أفق

وشمل على حُكمِ الشتات مبددٌ ... وقلب على تلك التفاريق في فَرَق [5]

وعندي أفراخ هنا وسواهم ... كم فلق لقلبي وكم فِرْق [6]

فعندهم شق وآخَرُ هاهنا ... وما إن يكاد الشق يبلغ بالشق

تناءت بنا الأقطار حتى كأننا ... حروف بأقطار البيوت من الوفق

وأنَّسني ضرب من الفأل أنها ... لجمع وهل جمع يحاوَل بالفَرق

ولم يُبِن مني الشوق إلا حشاشة ... وللشوق ما يفني وللشوق ما يبقي

وهان علي ما لقيت ولم يهن ... على الذي لاقى الأحبةُ من ضيق

يعز علي أن يُروَّعَ سِربُهم ... أو يشربوا بعد الصفاء من الرَّنق [7]

//337//

---

1 – ائْتَلَقَ البرقُ: لمع وأَضاءَ.
2 – الفَنَنُ: الغُصْنُ المستقيم من الشجرة.
3 – لَفَقَ فلان ولَفَّق: أي طلب أمراً فلم يدركه.
4 – تَنائفُ: جمع تَنُوفَةُ: الفَلاة لا ماءَ فيها ولا أَنيسَ.
5 – فَرَق: بفتح الفاء والراء جمع أفراق، الفزع الشديد.
6 – فِرْقٌ: فِلْقٌ، قطعة منفصلة، قسم من الشيء إذا انفلق.
7 – رَنَقَ الْمَاءُ وَرَنِقَ: كَدِرَ.

وإنـــي بـــأحوال الزمـــان لعـــارف فآونـــة يحلـــى وآونـــة يعقـــي ([1])

ولســت علــى أبنائــه الــدهرَ عاتبــا وإن وَكَسوا حظـي وإن غَمصُوا حقي

وإنـي أنـا الطـاوي علـى اليـأس كشـحَه إذا بـان لـي أن الرجـاء مـن الحمـق

وأهجـر نفسـي أن تميـل فـي وصـلها علـى ظمـإ منـي إلـى المـورد الطـرق

ولا أنثنـــي إن صـــمَّم العـــزمُ جانحـــا إلـــى وطـــن أو ســـاكن فيـــه أو علّـــق

وإن سِـــرتُ عمـــن لـــي عليـــه ولادة كفـــاني فيـــه مالـــك الخلـــق والـــرزق

إذا لـــم تكـــن بـــالغرب أرض تقلنـــي بعـــزة نفـــس كانـــت الأرض بالشـــرق

ومـــا قيَّـــد الـــنفسَ الشـــرودَ ســـوى الـــذي أجـــار وأجـــرى ســـيبَه دائـــم الرفـــق

فـــنفّس عـــن نفســـي وأنّـــس غربتـــي وفَـــرَّج لـــي كربـــي وحـــل عـــرى خنقـــي

وســـنّى لـــي الآمـــال حتـــى حســـبتها تُـــزَفُّ إلـــي مســـرعات علـــى طَـــرق

فيجمـــع لـــي الشـــملَ الشـــتيت ويـــلأم الـــ ـــبَتِيتَ ويلقَـــى اللهَ بَـــرا بمـــا يُلقِـــي

وناهيـــك بالشـــيخ الإمـــام محمـــد إمـــام الهـــدى الهـــادي الأنـــام الحـــق

بحيـــثُ تُـــوافِي الحلـــمَ والعلـــمَ والنـــدى وحيث تساوي القول والفعل في الصدق

مقلـــــد أعنـــــاق الرجـــــال قلائـــــدا مـــن العـــرف تقليـــد الحمـــام بـــالطوق

إليـــه طـــوى عـــرضَ الـــبلاد مشـــرَّدٌ نجـــى بـــدماه مســـتجيرا مـــن البـــوق

إليك إليك آبِيَ العارِ حـاميَ الذِّمارِ مجيرَ الجـــــار مـــــن كـــــل مـــــا يُشـــــقي

فـــأنتم بنـــو الشـــيخ أبـــي بكـــر الـــذي حمـــى وسَـــمَا بالمجـــد والـــدين والخلـــق

ومـــا كـــان ذاك الشـــيخ يُســـلِم جـــارَه ولـــو لامـــه الأمـــلاكُ مـــع ســـائر الخلـــق

//338//

وقـــد كـــان حقـــا عنـــده نصـــر جـــاره وأنـــتم لعمـــري وارثـــوا ذلـــك الحـــق

بقيـــــتم وذاك الإرث فـــــيكم مؤبـــــد ولله ســـــر فـــــيكم دائمـــــا يلقـــــي.

وقال أيضا رحمه الله يخاطبهم ويستجير بهم حين حل بحماهم المنيع، ولاذ بجنابهم الرفيع:

لا ذقـــتم طعـــم ضـــيم وذلـــة بعـــد عـــزة

---

1 – أعْقَى الشيءُ: صارَ مُرًّا.

ولا عَـــرَتكُم خطـــوبٌ	مِــن أمـــنكم مســـتفزة
ولا تتــــاءت فـــراخ	عـــنكم وللبـــين أزَّة
حـــل حمـــاكم غريـــب	قـــد بَـــزَّه الـــدهر بَـــزة
وهـــو بكـــم مســـتجير	ممـــا دهـــاه وهـــزَّه
لا يُســـلَم الجـــار فـــيكم	لضـــيعة أو لحـــزة
أيُستضــــام مُجـــار	لأهـــل مجـــد أعـــزة
مـــن حفـــظ الجـــار يومـــا	فـــالعزم يلـــزم غـــرزه

ومن ذلك ما خاطبه به ابنه العلامة النحرير، والبارع الشهير، أبو نصر عبد الوهاب الفاسي رحمه الله مادحا له ولذويه بقوله:

نهـجُ الهـدى فـي اسـتقامة	لمـــن يـــروم مرامـــه
إن تبغـــي نجـــدا وتهـــوى	عَــــرَارَه وثمَامَـــــه [1]
أهـــلُ الـــدلا أهـــل نجـــد	وأرضـــهم أرض رامـــة

//339//

لمـــا ارتقـــوا فـــي المعـــالي	وخلفـــوا كـــل هامـــة
واســـتتبعوا المجـــد لمـــا	ألقـــى إلـــيهم زمامـــه
وخيمـــــوا فـــــي ذراه	دون الأنـــام خيامـــه
جعلـــــتهم لزمـــــاني	أَجَـــلَّ دِرعٍ ولامـــة
وحقّهـــم وهـــو عنـــدي	أبـــر كـــل قَســـامة
لَهُـم علـى النـاس أنـدى	مـن حـاتم وابـن مامـة [2]
فضـــلهم لـــيس يُحصـــى	ولـــي علـــى ذا علامـــة
مـــن حـــل يومـــا حمـــاهم	فـــدهره فـــي اســـتقامة
لا يختشـــي منـــه ضـــيما	ولا يخـــاف انتقامـــه
ولـــيس فـــيهم عيـــوب	غيـــر النـــدى والشـــهامة
تخـــالهم كبـــدور	مكانـــة ووســـامة

1 – العَرَارُ: نَبَاتٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، أَصْفَرُ اللَّوْنِ. والثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية.

2 – كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، ويُكَنّى بأبي دؤواد، عربيٌ عاش قبل الإسلام وأصبح شخصيةً عربيةً شهيرةً ضُربت بها الأمثال في الجود وحُسن الجوار. كان كعب بن مامة إذا جاوره رجلٌ قام بما يصلحه وأهله، وحماه ممن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه، حتى صارت العرب إذا حمدت جارًا قالوا: «كجار أبي دؤواد».

وكالسيوف مضاء … وحدة وصرامة

وكالأسود ولكن … مهابةً وزعامة

وكالبحور ولكن … سماحةً وضخامة

نوالهم كلَّ آن … يحكيه صوبُ الغمامة

وكيف لا وأبوهم … من قد عرفتم مقامه

قد امتطى الليل دهرا … والصبح أمَّ امَامَه

ناهيكم بإمام … صام الزمان وقامه

//340//

قد وَجَد الفضلَ نثرا … فكان هو نِظامه

أحرزه وحماه … وما أباح اقتسامه

وإذ وآكم بنيه … فضَّ لديكم ختامَه

ومن يشابه أباه … فما عليه ملامه

حزتم مدى الدهر فخرا … ورفعة وفخامة

لن يبرح المجد فيكم … حتى تقوم القيامة

قد حسد الوقت فيكم … ما خلْفه وأمامَه

كأنما الدهر وجه … وجيلكم فيه شامة

قد فاخر الغرب شرقا … حتى العراق وشامه

حتى غدا الشام قالٍ … مَرْوَانَه وهِشَامَه

خريدة من محب … أهدت إليكم سلامه

قد صانها عن سواكم … محبة وكرامة

إن ظفرت بقول … نال المحب مرامه

أو لوحِظت بسواه … فلا أقول: على مَه؟

وهي قصيدة رائقة، في حلبة الأدب سابقة، سلكت في مدح ذويه الأسلاف، منزعا دونه السُّلاف، دلت على نسبتهم القحطانية، وجرثومتهم اليمانية، ومن أراد ذلك ورامه، فلينظر إلى قوله رامة، فإنها من أرض العراق، محط رحال بعض //341// الرفاق، ممن خرج، من اليمن ودرج، وقد مر في هذا المسطور، أن نسبهم في عقد صنهاجة من حِميَر مشهور، وفيها إشارة إلى أنهم حازوا ما به كمال النوع الإنساني، وما به تعمر الديار وترتفع المباني، من جود وكرم، ومجد وهمم، ووقار وعلم، وشجاعة وحلم، ومروءة وحسب، وسماحة ونسب، ولا شك في شهرة هذه الأوصاف في منازلهم، حتى صارت في حيز التواتر على لسان نازلهم، ولذلك بقوا في جنة المجد مخلدين، قاطفين من ثمار المِلة والدين، وذلك أمر لا يُبْليه الحديث، (إذا مات ابن آدم انقطع عمله) الحديث، وهذا مراد ناظم القصيدة المذكور، لا ما نقل عنه من غير هذا المسطور، من أنه لما تم الأمر من يد ولد

صاحب الترجمة الشيخ الإمام العلامة الأمير، أبي عبد الله محمد الحاج، قال بعض الملوك [1] لصاحب القصيدة كيف تقول: "لن يبرح المجد فيهم"، فقد برح المجد، وانقطع الجد، فأجابه بأن من مات قامت قيامته، واستدل له بالحديث الوارد في ذلك، لأن ذلك اقتضاه الحال للخلوص من يد السلطان، فهو من قبيل المغالطة.
ومما يدل على أن ليس مراده بقاءَ الكلمة الأمريَّة، أن الخطاب بهذا المديح، في صاحب الترجمة صريح، وهو رضي الله عنه لم يكن له اهتمام، بالتملك على الأنام، بل كان في مقام الخلافة العرفانية، والاصطفاءات الرحمانية، ومن كان بهذا //342// المقام المستطاب، فكيف يجاهر بهذا الخطاب.
ومن ذلك قول أخيه الشيخ الإمام، الجهبذ الهمام، العارف بالله الفقيه المحدث أبي العباس أحمد الملقب بالحارثي ابن الشيخ سيدي أبي بكر مادحا إياه، ومستمنحا من فضل عطاياه:

عطاؤك يروي عن عطاءٍ حديثَه ... وسيبُه يروي عن ابن المسيب

وَجُودك ما جادت سواكب جَوْدِه [2] ... ولا وكفت نعماه إلا وحَلَّ بي

ولي فوق هذا مطلب تعلمونه ... فلا تجعلَنْه حائلا دون مطلبي

فإني أمس الناس منك قرابة ... وما لي سواكم في التجائي ومهربي

أبوك الذي يحنو عليك تعطفا ... ويوليك برا لست تنكره أبي

ورُميتُ في حِجر المَجادة حِجرِكم ... أما كان هذا قاضيا بتقربي

ومن كان مثلي لاجئا في احتياجه ... لمثلك إن تَعرَى النوائبُ يَغلب

وما قلت هذا جاحدا لجداكم ... أتُجحَد شمس أو سنا بدر غيهب

كيف وقد حُمِّلت ما لا أُقِلُّه ... وأُسكِنتُ ربعا مخصبا أيَّ مخصب

وخصَّصتني من الأقارب جهرة ... بثوب إخاء أرتديه وأحتبي

بفضلك فارحم عيلتي واشف علتي ... حنانيك واجعل بارقي غير خلَّب [3]

ومن يجمع الحسنيين فإنني ... أخاف على نفسي حديث ابن تغلب

من ذلك ما مدحه به ولده الشيخ الإمام، الحبر الهمام، تاج المفرق، وفخر المغرب على المشرق، العلامة الضابط //343// أبو عبد الله محمد المرابط رحمه الله:

لذ بالذي لاذت به المشرقان ... واقتبست من نوره المغربان

وانفتح الكون له زاهرا ... مذ ناله من جوده الهمعان

وغرد الطير على غصنه ... من كل بادي الشجو سحر البيان

يشدو بلحن رائق مطرب ... يُسعِده سجعٌ بَهِي المعان

1 – هو المولى رشيد، ففي نزهة الحادي ص406 أنه عاقبه على ذلك وحرمه من عطائه وقال له: إن هذا المدح لا يليق إلا بآل البيت.
2 – الجَوْد: المطر الغزير الذي لا مَطَرَ فوقه.
3 – بَرْقٌ خُلَّبٍ: خادع لا يتبعه مطر

وعــاد أفــق الجــو مــن عطــره | مــؤرج الأرجــا أثيــر المبــان
وقــد ســما الــدهر بــه فغــدا | يَرفُـل فـي بـرد غـوال حِسـان
مــن بعــد مــا اغبــرت جوانبــه | وراح حِلفــا للأســى والهــوان
وذاك أبــو المجــد إمــام الــورى | ومن لـه فـي الفضـل أسـمى مكـان
سـمي خيـر الرسـل نجـل سَـمِيِّ | صـديقِهِ الأوحـد ([1]) رحـب الجنـان
مـا إن رأينـا مثلـه فـي الـورى | وهـل يـرى للبـدر يـا صـاح ثـان
شـمس المعـارف وموِرثهـا | ومطلـع الجـود وقطـب الأوان
رب النـدى غـوث الـورى والـذي | غـدا وحيـدَ الفخـر فـي كـل آن
ناهيـك مـن شـيخ عـلا مُصـعِدا | حتـى سـما فـوق العـلا فاسـتبان
شـيخ الشـيوخ الأقـدمين ومـن | قـد شـهدت بفضـله الـثقلان
مـن نيلـه يُـزري بجـود الحيـا | ونـوره منـه اسـتمد السـوان ([2])
صـوبُ غواديـه علـى مُتـرفٍ | مُرسَـلةٌ تَهمـي ومـن هـو عـان
كهـف الخليقـة وواحـدها | ومـن لـه ألقـى السُّـراةُ العنـان

//344//

أحيـى دروس العلـم فابتسـمت | أزهارهـا وقـد عفـت مـذ زمـان
كمـا جـلا طالعـه السَّـعدُ مـا | ذَوَى ([3]) زهره من المجد الأثيل فبان
فيـا مـلاذ الخلـق يـا أملـي | ومـن لـه فـي كـل خطـب يـدان
ومـن إذا طمـت دواهـي الـورى | ألفَـوه مالكـا لِسَـبق الرهـان
إنـي امـرء دجـت غياهبـه | فظـل خـدن لوعـة وهـوان
فـلا تغـض الطـرف عنـه وجـد | بصـفوة البـاري لـه بالأمـان
صـلى عليـه الله مـع عتـرة | وصـحبه مـا اختلـف الملَـوَان

وممن له الباع المديد، والقول العديد، في مدح صاحب الترجمة القطب الكبير، العارف الشهير، أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، هو الأديب البارع، شاعر الزاوية البكرية أبو العباس سيدي أحمد الدغوغي بقصائد كثيرة، فلنثبت منها ما يشرب العقول، ويذهل كل الذهول، فمن ذلك قوله يهنيه بقدوم ولده الأكبر، العلم الأشهر، الأمير أبي عبد الله محمد الحاج الأبر، تقبل الله منه ومن كل أشعث هنالك أغبر:

بـذل النفـوس أحـق وهـو قليـل | لطلـوع بـدر طـال منـه أفـول

---

1 – يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه.
2 – كتب فوق هذه الكلمة "كذا".
3 – ذَوَى النَّبَاتُ: ذَبُلَ، نَشَفَ، يَبِسَ.

هل قائلٌ مني المبشِّر مهجتي ... يا حبذا إن صح منه قبول
يا شمس حسن في سماء علائها ... بالحمل من شوق السعود حلول

//345//

هذا لعمر الله قلب حقيقة ... قد صح منك وإن أبَتهُ عقول
هو منك بدر أم مغربُه الذي ... هو مَشرِق بالسعد منه كفيل
أوَلَم يَمرْ أمْرُ امرِئٍ بِمُروءة ... هو منك شوقا للرسول رسول
لقد اقتدى بك ما اعتدى لما اقتدى ... يطوي مَهامِه خَطبُهن جليل
من كل بَهماء يَحار دليلها ... فَيَحور بعد العز وهو ذليل
كم ضل خِرِّيتٌ فظل بخرقها ... خرقا فقال وقال صَحبِيَ قِيلوا
متيمما ذات الجمال ومن لها ... زَجرُ الجِمال من الرجال جَميل
ولَكَم كفاه خيالها حتى اشتفى ... من خالها باللثم منه غليل
فكأنه غصن النقا مترنِّحا ... لنسيم يثرب بعد ذاك يميل
طابت بطيب نسيم طيبة روحُه ... وشفى الغليل من النسيم عليل
فطوى المراحل بالرواحل مسرعا ... طي السجل بالمطي نُحُول
(حثا) إلى خير الورى ومَن الثرى ... سَمَت السَّما بثراه فهي تطول
فغدا وقد نال الأماني آمنا ... متضمنا لليمن منه قبول
هُنِّئْتَهُ من مقتدٍ بك مهتدٍ ... حاكى أباه فساد منه سليل
وبنيك ثم بني أبيك فقد زكت ... وسمت فروع منهم وأصول
تِيهي دَلالا يا دِلا فعلى العلا ... في الكون للأعلين منك دليل
يا هل لأربعك الشريفة عودة ... فيظلنا ظل هناك ظليل
أم هل إلى قبر ثوى بك زورة ... يُشفَى بها للمستهام غليل

//346//

أم هل بمسجدك المعظم وقفة ... أم هل لنا بك يا دلاء مقيل
أم هل يُنَظَّمُ باجتماع أحبة ... شمل تفرق والوشاة غُفول
من لي بلثمِيَ راحةً في طيها ... كل المنى للراغبين حفيل
يا من إذا تربت يميني كان لي ... نَشرِي ثَناهُ غِنًى فلست أعول
ما المال من أمَلٍ إليك أمالَني ... حسبي رضاك فهل أليه وصول
فرضاك كُلُّ غنيمةٍ في ضِمنه ... حتى الثراء به رضاك كفيل
فلأنت ذو كرم لكل فضيلة ... بحر من استقصاه فهو جهول

ولقـــد أفـــادني الفصــــاحةَ جـــودكم   وكـــذا ســـواي فمـــا عســـاه يقـــول

وقال أيضا في مدح الشيخ رضي الله عنه:

لا ألـــوم دهـــري أم بنـــي دهـــري   جـــاروا وجـــاروا أيمـــا جـــور
وأحقهـــم بـــاللوم نفســـي وامـــرء   جمـــع الدمامـــة وهـــو ذو كبـــر
أهـديت مــن مــدحي لــه دررا أزرت   حســـنا بـــأزهر كوكـــب دري
فبـذرتُ منـه بسَبخة ([1]) وأضعتُ ما   هــو زاهــر كالبــدر مــن بــذري
فــأقول حــين سـبرت غـور عيوبـه   مــن مجــدها كشــفا عــن الســر
الشــــعر أضـــيع فيـــك مـــن دُرٍّ   فـــي جيـــد خالصـــة فهـــل تـــدري
مـــا كنـــت أحســـب والعقائـــد ربمـــا   جـــاءت بعكـــس حقيقـــة الأمـــر
إنـــي أقلّـــد نظـــمَ دُرِّي جِيـــدَ مَـــن   مَـــددي يُعـــد لديـــه كالـــدُّر

//347//

وإعانــة الشــعراء غــوصُ مــديحهم   أســـنا جـــوائزه علـــى الشـــعر
حتـــى امتـــدحتُك والمـــدائح إنمـــا   تُهـــدى لكـــل أخـــي نـــدى حـــر
فـــإذا الـــذي يرجـــوك أخيـــب آمـــل   راج وأكـــــذب مـــــادح مطـــــري
فحلفــت لا أطربــت بعــدك حادثــا   ولا هجوتـــــك ســـــائر العمـــــر
حاشــا إمــامَ الماجــدين وخيــر مــن   يرجـــى لـــدفع العســـر باليســـر
العـــالم العلـــم الـــذي أمنـــت بـــه   أعـــلام ملتنـــا مـــن المـــور
المرتجــــى أبـــدا لكـــل ملمـــة   مـــا للضـــعيف ســـواه مـــن ذخـــر
صـــدر تضـــاءلت الصـــدور لعلمـــه   لله در أبيــــه مــــن صــــدر
الســـيد الأســـمى ســـمي نبينـــا   ابــن ســمي صــاحبه أبـــي بكـــر
غــوث العبــاد حيــا الــبلاد مــلاذ مــن   أوهـــت قـــواه شـــدائد الـــدهر
فلآتيَنَّـــــه مـــــؤملا مـــــن بابـــــه   (...) ([2]) لكـــل فضـــيلة مُثـــري
ولأبقـــــينَّ وإن بقيـــــت بمدحـــــه   عمـــرا يخلِّـــد طيـــبَ النشـــر
مـــن ذا يعـــارض أو يحـــاول شـــأوه   شـــتان بـــين الشـــعب والبحـــر
ســـفه المعانـــد والمنـــازع نفســـه   ومـــا للبغـــاث وفتكـــة الصـــقر
شـــهدت وحـــق لهـــا ببـــاهر فضـــله   حتـــى الوحـــوش بمـــوحش القفـــر

---

1 – سَبَخة: منطقة مستنقعيّة لا تصلح للزراعة لملوحتها.
2 – كلمة تعذر ضبطها. ولعلها "بيتا".

عَمـري لقـد شـهد العُـداة بفضلـه ... حتـى أقـر بـه ذوو الكفـر
بالنصـر خصـك جـل خالقنـا علـى ... زمـر العـدا وعلـوت بـالقهر
حـزت الكمـال فـلا منـازع فـي الـورى ... ولـواء عـزك دائـم النصـر

//348//

كـم مـن محامـد حزتهـا مشـفوعةً ... فـي ألسُـن الفضـلاء بالشـكر
ولكَـم دعـوا لـك مخلصـين ولـم تـزل ... فـي الجهـر مـوئلهم وفـي السـر
يـا مـن مواهبـه وبـاهر فضلـه ... بالشـعر أنطقنـي وبـالنثر
خـذها فـديتك ذات طـوقٍ قاصـر ... عمـن سـواك ألوفَـةِ الخـدر
زفـت إليـك تلـف وجـه قصـورها ... خجـلا لأنـك شـامخ القـدر
فعسـاك رضـاك عـن المسـيء وليهـا ... بـدلا يكـون لهـا مـن المهـر
وعسـى ولاء قرابـة يحظـى بـه ... مـنكم وحسـن عواقـب الأمـر
خـذها وإن كنـت الغنـي برتبـة ... عنهـا تجِـل وعـن صـوى الحَصـر
فـالبحر وهـو عـن الزيـادة فـي غنـى ... لا يسـتقل هديـة النهـر
جهـد المقـل كمـا علمـت قبولُـه ... حسـنٌ ومثلـي واضـح العـذر

وقال أيضا:

أعجِـب بمـا أتحامـاه وأُحسَـد بـه ... هـلا تحامـاه عـارٍ مـن حُلـى أدبـه
أمـدَّعي الأدب اخسـأ لا أبالـك مـا ... أنـت بكـفء لمـا أصـبحت تفـرح بـه
مـا لـي وللشـعر لـولا مـا كُلِّفـت بـه ... مـن مـدحي ابـن أبـي بكـر علـى رتبـة
محمـد القطـب مـا أغنـى شـمائله ... عـن وصـفه فهـو مصـباح علـى لهبـه
لكنـه الشـمس نـور بـل لـه شـرف ... مـن فـوق ذلـك لا يُرمَـى لمكتسـبه
العـالم العلـم الهـادي الأنـام إلـى ... أهـدى سـبيل وذاك الـبعض مـن قربـه
حـامي النزيـل مزيـل البـؤس مُنزِلُـه ... علـى وفـاق رضـا الجبـار أو غضـبه

//349//

أحيـا الشـرائع بـل أفنـى البـدائع بـل ... سـد الـذرائع منـه الجـد عـن لعبـه
وربمـا ارتـاح طـورا للمـزاح وكـم ... أزرى بـذي الجـد مرتاحـا علـى تعبـه
أمـا ومعطيـك مـن كـل الفضـائل مـا ... لـم يعطَـه طالـب قـد جَـد فـي طلبـه
لَـبَعضُ مـا حُـزت كـل المكرمـات حَكَـى ... كـالبحر فالـدُّر والعقيـان مـن حَصَـبه
أمسـى حمـى العلـم ذا العليـاء فـي حـرس ... لـولاك أصـبح يَـومُ الجهـل فـي خرَبـه

كـم نـال منـك غنـىً مسكينُ مَتربـةٍ وآل ذو سـغب للخفـض مـن سـغبه

وكـم فككـت أسـيرا لا نصـير لـه وكـم جبـرت كسـيرا هِـيض مِـن نَوبِـه

وكـم أخـي كـرب خلصـته فنجـا ممـا دهـاه ونـال الأمـن مـن كربـه

وكـم سـليب مـن الـدنيا وآخـر مـن ديـن يـرى بِـك كـلٌّ رَدَّ مُسـتلبِه

وكـم ظلـوم ومظلـوم أجـدتَ لِـذَا نصـرا علـى ذاك مـع رد لِمنتَهبِـه

وكـم دفعـت ولا دفـع الغضـنفر عـن أشباله الرخص عن ذي الحيل من عطبه

حتـى كـان لـم يكـن للمسـلمين أَبٌ سـواك والنـاس كـل يَعتـزي لِأَبـه

مازلـتَ مـذ كنـتَ أتقـى النـاس أكـرمَهم وأكـرمُ النـاس أتقـاهم علـى رهبـه

وأنـت أحـزمهم رفقـا وأعـزمهم إذا احتـاز ذو سـبق مـدى قَصْـبِه

نعـم وأرسـخهم علمـا وأصـونهم عرضـا وأرسـنهم حلمـا علـى حسبه

بـل أنـت أجـودهم كفـا وأرشـدهم كفـا لهـم عـن أذى يُخشـى وعـن سـببه

يـا ليـت شـعري لـو جـاء الأوائـل مـن قُـسِّ البيـان ومـن سُـحبانَ أو خُطَبِـه

هـل يسـتطيعون أن يثنـوا إذا اعتسـفوا علـى كمالـك بالمعشـار مـن نخَبِـه

//350//

مـن مرتضـى كملـت أوصـافه وزكـى أصـلا وفرعـا إلـى حيـث انتِهـا نسبه

وقال أيضا:

ألا أيهـا الغيـث الـذي دام سـائلا ويـا غـوثُ مـن إنعامـه أمَّ سـائلا

ويـا أيهـا الكنـز الـذي حـال دونـه عفاريـت إنـس حيـث لا جِـنَّ حـائلا

إليـك يـد التسـاؤل مُـدَّت لعلهـا تُمَـدُّ بفضـل منـك يحسـب عـائلا

فـلا تسـلمني حيـث أسـلمني الألـى تَخـذتهم دهـرا إليـك وسـائلا

ويـا ليـتهم إذ أسـلموا سـالموا امـرءا سـليم الحشـا مـن سـمهم ذاب ذابـلا

ولكـنهم شـوك بـلا ثمـر فيـا لـه شـاكيا يشـكي ولـيس مُشـاكِلا

فلـو لـم يَسُـد فيهم أبـو القاسـم الـذي سما مجده انصار (كذا) منك فضائلا

لكـانوا لبـاب الله قفـلا ومـا سـوى أبـي القاسـم المفتـاحُ لا زال كـاملا

ولا زايلتـه مـن رضـاكم مواهـب تُـديم غُـدوًّا وَصـله وأصـائلا

ودام ولاء الألـي مـن كـل ماجـد سـما أصـله موصـول فـرع وواصـلا

وقال أيضا تهنئة بعيد أقبلت فيه وفود كثيرة لزيارته:

مـــا أقـــرب الســـير ومـــا أعســـره   مـن تعـب العسـر لخفـض الدَّعـة

كـم مِـن عَنًّـى أفضـى لفـيض الغنـى   إفضـــاء ضـــنك بـــالفتى للسَّـــعة

كـم أعقـب الحـزنَ السـرورُ وكـم   ســـهلٍ ويُلفِـــي حزنُـــه مهيعـــه

مـــا ألطـــف اللهَ بعبـــد ومـــا   أرأفَـــه والعبـــد مـــا أجزعـــه

//351//

هـــذا هـــو الإنســـان مـــن أصـــله   خلقـــا وخلقـــا جـــل مـــن أبدعـــه

إن مســـــه شـــــر جزوعـــــا وأن   أصـــبح ذا خســـر فمـــا أمنعـــه

إلا المصــــلين الألـــي فـــي المعـــا   رج صـــــفات فضـــلهم مودَعـــة

أولئـــك القـــوم الـــذين حـــووا   مـــن كـــل مجـــد بـــاذخٍ أرفعـــه

المتحلـــــون كمـــــالا غـــــدا   نجـــل أبـــي بكـــر الرضـــا مَجْمَعـــه

وأوســـــعَ الـــــدنيا وأبناءَهـــــا   عـــدلا فيـــا لله مـــا أنفعـــه

وعَمَّهـــــم فضـــــلا فعـــــاريَهم   كســـا ومطـــويَّ الطـــوى أشـــبعه

ورَدَّ للخيـــــرِ الشَّـــــرُودَ وقـــــا   د الصـــعبَ حتـــى انقـــاد للمنفعـــة

أمـــا النـــدى والعلـــم فهـــو الـــذي   يضـــع كـــلا منهمـــا موضـــعه

أقســـمت لـــو قـــدر أن الهـــدى   بـــدر ســـواك لـــم تـــزل مطلعـــه

أو كـــان شمســـا لـــم تَكنْهـــا لَمَـــا   عـــدى مُحيَّـــاك المحيَّـــا معـــه

لكنـــك الشـــمس ولكـــن بـــدا   منـــك هـــدى للعمـــي مـــا أســـطعه

فاهنـــأ بعيـــد أنـــت عيـــد لمـــن   ضـــحَّى وأضـــحى فيـــه بـــادي الدَّعـــة

وعيـــدُ مـــن عـــاد وعيـــدٌ لـــه   فهـــو البعيـــد النـــاس مـــا أضـــيعه

واحلـــل بـــرغم منـــه عَليـــا العُـــلا   ودَع لِأعصـــى مـــن قَلـــى أطوعَـــه

فمـــن رحيـــق القـــرب ســـاقٍ غـــدا   يســـقيك كأســـا كلمـــا دَعدَعَـــه

يُهـــدي نســـيمُ الأنـــس مـــن قُدسِـــكم   طيبـــا لأهـــل الـــود مـــا أضـــوعه

بـــك لمغنـــاك الوفـــود اهتـــدت   مـــن كـــل فـــج أقبلـــت مســـرعة

//352//

تطـــوي مطاويحـــا ([1]) مطايـــا الهـــوى   بهـــم إليـــك مـــا لهـــم أمتعـــة

إلا قلـــوبٌ فزعـــت مـــن سِـــوى   حـــبٍّ ملكتَهـــا بـــه مولعـــة

يـــا حجـــة الله علـــى خلقـــه   يـــا حـــجَّ نَجْـــح ضـــاع مـــن ضَـــيَّعه

1 – المطاويح جمع مِطْوَاحُ: وهو ما يرمى به الشيء في الهواء. طَوَّحَ بِهِ بَعِيداً: أَلْقَاهُ بَعِيداً.

يـــا ملجـــأ العـــاني ويـــا ذخـــره يـــا مـــأمن الجـــاني ويـــا مفزعَـــه

يـــا واحـــد الفضـــل ويـــا بحـــره يـــا منهـــل الصـــادي ويـــا مكرعـــه

أمـــــا لِمَصــــــدوعِ الفـــــؤاد الــــــذي يـــدعوك مـــن جبـــر لمـــا صـــدعه

حتـــــى مَ يشــــكو عبـــد آلائكـــم مـــــا لا يـــــؤودُكم وكـــــم أفظعـــــه

أدقعــــــه الأمــــــر ومــــــا ضــــــركم أن لـــو أزلـــتم عنـــه مـــا أدقعـــه

فالفضـــــل فضـــــل الله أنـــــتم لـــــه بـــــاب وفضـــل الله مـــا أوســـعه

لازلــــتم الــــذخر لنــــا أو نــــرى مـــنكم لـــدى الأخـــرى لنـــا أنفَعَـــه

وقال أيضا:

صــــفاءُ فــــؤاد مُــــذ ألــــمَّ مَشــــيبُ به اعتمَّ فَوْدي (1) اغتمَّ فهو مَشوب

قُلَيــــب لــــه يــــا للرجــــال تَقَلــــبٌ بمــا منــه أصــلاد الصــخور تــذوب

وشــأن قــريح عــن جــريح حديثُــه صـــــحيحٌ رواه ســـــائل ومجيـــــب

وكـم غيهـبٍ سـامي الكواكـب سـاهرا يراقبــــه طــــرف كــــراه سَــــليب

كـأنَّ الكـرى والطـرفَ والـنجمَ باديـا ممنــــوع ومشــــغوف بــــه ورقيــــب

أرى لـــي ومِـــن حـــولي قبـــابٌ قبيَّـــة إليهـــا فريـــدا بيـــنهن أثـــوب

كـــأني وإياهـــا وهـــن ومـــن ثـــوى بهـــن ومـــا أرى بهـــن نَسِـــيبُ

//353//

قَطـاةٌ عـن الألأَّف فـي قفـصٍ حـوى ركـــون مكـــان ثَـــمَّ منـــه قريـــب

تَـرى مـن خـلال القفـص دابًّـا قطاتُـه طيـــورا رعاهـــا بـــالركون دَؤوبُ

وَعَـن إلفِهـا المفقـود لـم يُلـفِ وَجدُها سُــــلُوًّا لِمَوجُــــود فكيــــف يَنــــوب

تـروح وتغـدو فـي انفصـال ومـا بهـا شـديد اتصـال مِـن جَـواه شـحوب

تسـاوَى لـديها طائـل الحـبس وحـدَها وأن لـو غـدت تطـوي الفَـلا وتَجـوب

وإن لهـــا لـــو تأتســـي بِـــيَ أُســـوَةٌ يصـير بهـا مـا ضـاق وهـو رَحيـب

لعمري لـو أن الـريح فضـلا عن القطـا بها بعـض مـا بـي مـا أُحِـسَّ هُبـوب

ولـو أن مـا بـي لابـس البحـر لَالتظـى فأبـدى فسـادَ الكـونِ منـه لهيـبُ

ألا بـــي ذَوُو شَـــجْوٍ وشـــكوٍ لِيَأْتَسُـــوا ولابـــن أبـــي بكـــر لِتُشْـــكَ خُطـــوب

إمـــام لنفـــع الخلـــق والـــدفع عـــنهم مغيـــثٌ وغيـــثٌ مـــانعٌ وسَـــكوب

1 – الفَوْدُ : جانبُ الرَّأْس مما يلي الأُذن.

سجاياه إحياء الرَّجا كلما سَجَى　　وقتل هوًى للنفس فيه نصيب

وإنهار أنهار نهارا كأنها　　بحار ندى تتهَل منه سُيوب

وتشييد أركان السيادة في ذُرىً　　من المجد منها المكرمات ضُروب

ولا مَجد فوق ذاك إلا وحازَه　　جديرا وما ذُيَّاك منه عجيب

له عادةٌ إن قال فالقول صادقٌ　　وكم زاعمٍ للصدق وهو كَذوب

وكم قام يدعو الله للناس رحمةً　　ويدعو إلى الله الورى ليتوبوا

على حين لا داعي إلى الله هاديا　　ولا ذو اجتهاد ما خلاه مصيب

إلى أن بدا الدين الإلهي ساطعا　　ovواراه شُهبٌ قبل ذاك مَغِيب

//354//

وَتُكرِم منه مُهجةٌ مُهَجَ الورى　　فداءً وإن قَلَّت لها وتطيب

فيبذلها في الله والكونَ لو حوى　　وهل هو إلا في الإله وَهوب

فمن ذا سواك اليوم يُشكى ويُشتكى　　إليه ومن ذا يرتجيه كئيب

وأنت الذي ألقت إليك قيادَها　　جيادُ المعالي ثم لهي ركوب

وأيُّ حِمًى أم أي حام جِوارَه　　مجير سواك ينتحيه لبيب

أقامَ الندى منك الندى أن إلى الهدى　　هَلُمُّوا فلم يُحرَم نَداك مُجيب

فيَمَّمْتُ بابَ الفضل منك مُلَبِّيا　　ليشملني مما تُنيل ذَنوب

وقد عم منك الفضل من لم يَؤمَّه　　فكيف براج أمَّ كيف يخيب

أبا العزِّ يا كهف الورى أنت غوثهم　　وإني امرؤ وسط القباب غريب

فلا تسلمني والسلام عليك ما　　شدا ساجع بين القصور وطروب

وقال أيضا:

أطيفٌ سَرى أم شِمْتَ بارقَ شام　　تراءى به وَسْمٌ عفا كَوِشام

فأبدلك البرقُ التنائي وما به　　تراءى من السلوان كل هُيام

وتَذكارَ إلفٍ قد ألِفت لفقده　　سُهادَ جفونٍ عن سِواه قِيامِ

على مَ تحاميك التنائي ورو　　مُك الدُّنوَّ من النائين دون تحام

وما بال دمع كلما رُمتَ صونه　　تُرقُهُ وكم أَرِقْتَ ليلَ تمام

وتهتز للأوتار مهما سمعتها　　وتهتاج وجدا عند سجع حمام

أجل بان من أهواه فامتحش الحشا　　بذكراه وجدا بالحشاشة نام

//355//

أثـار جـوًى بـين الجـوانح وقعـه ... ألـيم يبـاري وقـعَ كـل سـهام

وأورى أوارا قـد تـوارى لهيبُـه ... زمانـا فمـا منـه الجفـونُ هَـوام

فللـه صـبري والوُشـاة تواطـؤوا ... ضـلالا علـى رميـي بـزور كـلام

وقـد زعمـوا أنـي خَلِـيٌّ ولـم يـروا ... لكتمـي مـا بـي مُثخنـات كِـلام

رأونـي مقيمـا بـالثرى وكأنمـا ... هـوائي جـو جـاذِبٌ بزمـام

دؤوبا يجـوب الجـوُّ بـي لا وجـودَ لـي ... ومـالي سـوى اسـم بـالثرى وعظـام

ذهـولي ذبـولي رقتـي وإراقتـي ... دمـوع أسـى تحكـي انسـكاب غمـام

كفى بعضُها في هتك ستري وما أرى ... لِمكنـون سـري فاضـحا كهيـام

وإنـي لَصَـاحٍ اغتـدي وكـأنني ... لِمـا حـل بـي أُسـقَى كـؤوس مُـدام

ذمائي ([1]) وَهَـى، دائي تناهى ولم يفد ... دوائـي ولات حـين بُـرْء سَـقام

وبينـي وبـين الوصـل للبـين جُـدِّدَت ... صـوارمُ حتـفٍ بالـدوام دوامـي

ولـو حل ما ألقاه بحرا غطمطما ([2]) ... لغـاض بـه واعتـاض كـل قتـام ([3])

فيـا قاتـلَ اللهُ الهـوى ولَحَـى النـوى ... فكـم أضـرما مـن لوعـه وغـرام

وكـم أبكيـا إذ أذكيـا ثـم أصـليا ... قلوبـا سـباها الحسـنُ كـل ضـرام

وكـم عـذبا صَـبًّا صَـبا زمـان الصِّـبا ... وكـم سـلبا مـن نهمـة لِكِـرام

وأفـرطَ قـومٌ إذ رأوا فـرط لـوعتي ... يسـومونني سـوم ارتكـاب أثـام

فـلا ويمـين الله أسـلو وِداد مَـن ... سـروري بهـم فـي يقظتـي ومنـامي

//356//

أأسـلوا وِدادي قـرةَ العـين بُغيتـي ... وغايـةَ قصـدي فـي الـورى ومـرام

أيا سائلي ما الناس؟ ما الناس غير من ... سِـواهم ذواتٌ زورت بأسـامي

هـم آل مَـن مِـن جوده أبحـر صـفت ... لسـقي الظـوامي بالـدلاء طـوام

فليـت الـورى عنـي تـوارى بحيـث لا ... أراهـم وهـم مثـل البـدور أمـامي

ومـا بـي اغتـراب إذ بقلبـي حُلـولهم ... بمـا لهـم مـن أربـع وخيـام

إذا غـاب عـنهم نـاظري ظـاهرا فلـي ... فـؤاد يـراهم باطنـا بـدوام

فـؤادي لـديهم وهـو بعضـي ولَيـتَهم ... قضـوا بالتِـآمي عنـدهم بتمـام

عسـى يُجمـع الشـمل المعنـيُّ بوصـلهم ... فما الوصـل فـي جنـب الهـوى بحـرام

---

1 – الذَّماءُ: بقيَّة الروح في المذبوح وغيره – قُوّة القلب. / وهَى: ضعُف.
2 – الغِطَمُّ: البحر العظيم الكثير الماء.
3 – القَتَامُ: الغبارُ الأسود، الظَّلاَمُ كَثِيفُ السَّوَادِ.

إذا لم أكن للوصل أهلا فهم ذوو … ندى وأيادي لا تُحد جسام

جَنى كل راج نداهم وإن جَنى … عليهم جنَى أثمار كل مرام

إلا أن مِنهم عامَ وصل كساعة … وليلةَ هجران عليَّ كعام

أيجمل صبري أو تُوارى مصيبتي … وقد طال عنهم بالبعاد مقامي

أنادي بنادي عزلي كلما سطوا … وسَلُّوا ظُبَا إيثارهم لخصام

بروحي مَن روحي به حان حينها … وتحيى به لوشاء وسط وِجام

وقد جل قدرا أن أصَرِّح باسمه … ولم يخفَ وهو الشمس دون غمام

أيخفى سناء ويح من أنكر الضحى … أأعمى فَعَمَّا عَمَّ أم متعامي

له اسم وسيم أنَّى سَامَ وهِمَّة … سَمَت فوق ما فوق السما هو سام

أجل وأجلى من جلاء بمن كمن … أناديه والطَّرف المؤرَّق هام

//357//

أمولاي ذخري كيف يَهدم ما بنَى … سدادك لي بهتانُ إفكِ كلام

مولاي إن كنتُ اقترفت جريرة … فقد سُدتَ من يرجى لرعي ذمام

أمولاي هل يوما من الدهر أوبة … إليكم بها أحيى نزيل كرام

أمولاي قل لي ما احتيالي فليس لي … غنًى عنك بل شغلي غنًى بك نام

إذا كان حظي الصَّدُّ عن بابك الذي … به بحر جود من بحورك طامي

ومن بعد ما أدنيتني وأذقتني … رضاعَ ثدي الوصل شُدَّ فطامي

وجودك عم الآمِلين ولم يزل … وَجُودُك فيه رَيُّ أوامي

ولما يُفِدني فيك ظن تخذتُه … بِحَال ارتحالي عُدَّة ومُقامي

فوا ضيعتي وأطول حزني ليتني … إذا كنت نِسيا أو خِلا لشؤام

بمن أحتمي لا كان أم مَن لِبابِه … من الناس أسعى في اقتحام زحام

سواك وأنت سيدي ووسيلتي … ومولاي حرزي ملجئي وإمامي

وإني إذا عُد الأرقا أرَقُّ مِن … رقيق عريق من سلالة حام

دغوغِيٌّ آباء دلائي سادة … مَوالٍ كرامٍ ماجدين عظام

أفي الله شك لا وربك إنه … لحق وأنت القطب خير همام

شهدت بأن الله ربي وأنه … حباك علوما من لدنه نوام

لقد فاق شِعري فيك سِعري لِأن حوى … جواهر حسن من علاك سوام

وجاهي وإن كنت الوضيع فنسبتي … لعلياك يا أسمى الأكابر برسام (كذا)

ثوى مذ أوى في فتية الكهف كلبهم وآمِنهم ما خاب جارُ كِرام

//358//

فيا كهف أمن ألزمَ الخوفُ كلبَه وما مثله كاف لمثلي حام

ويا سيفَ عدل قام لله منتضًى لقطع حبال البغي غير كَهام

عياذي بفضل منك من أن تصيبني عقوبةُ عَدل لو بعَذل لئام

خلا ما خلا مما حلا وهو علقم وفيكم ومنكم طاب كل طعام

تزودتُه للبعد عنكم إجابة لِداعي النوى في جوف كل مَرام

هنالك مني الروح حارت بشوقها إليكم وراح الجسم حِلف سقام

فكم خَر خرِّيت بفيفاء هولها فظيعٌ بكم فيها سبرت معامي

فهذا إليكم بعض بثي شكوته لتشفوا بماء الوصل غلة ظامي

قد غرني من سيدي كرمٌ نَما وعمَّ وفضل جمَّ أي جمام

فصرت لِعَيٍّ لا أبالي أصبت أم بدا خطل للحازم المتحامي

فمن هاهنا أتيت حتى أجيد لي عن إثم ارتكاب الغي كشفُ لثام

فمُرْ غير مأمور بِردِّي إلى حمَى حمايتك الأحمى قبيل حِمام

تُرَنِّحني ريح التهاني بشوقها سحابَ قبول منك غيرَ جَهام

لِيُحيِي حَيَاكم بعد موتٍ حديقتي فتزهو بأزهار المنى وثُمام

بهيجة غرسٍ ثابتِ الأصل طيبٍ زكي فروع في السماء سوام

وتؤتي بإذن ربها أكلها كما أتى كل حين لم تُصَب بحطام

ولا تحرمَنِّي الفضل إنك رحمة رُحمنا بها من راحم للأنام

ولا تسلمن مَن ضل لازلتَ آية بها النِّد يُهدَى مِن عَمًى وتَعام

//359//

وغوثا لأنواع الكمالات جامعا وشمسا بها ينجاب كل ظلام

وبوئت من كل المعالي مهنئا وقد حزت أعلى صهوة وسنام

وتترى من الله الصلاة عليك في ألوف سلام ألف ألف سلام

دواما وصلى الله ما دام ملكه على فاتح أبداه مسكَ ختام

محمد الهادي شفيعي وآله وأصحابه من كل بدر تمام

وقال أيضا يمدحه وقد سماها القافية الكافية الشافية:

كفـت ولعمـري إنهـا لمـن اللقـا … محاسنُ سـار مِـن حمـاهم تأنَّقـا

وإن الـذي أبـدى لمـا العـين إذ بـدا … لَمَـا العـين مسـكا خـاتم الـدر طُوِّقـا

فـلا تعجـبن مـن أن همـا مـاء عينـه … فبالحسـن بَـرْق الحُسـنِ هَـام تشـوقا

وإنَّ سـناه إذا سـقى أربـع الحِمـى … لـنعم الجـزا مِـن أهلهـا أجـرَ مـا سقى

فكـم ظمـإ أروى ليـروي عـن الظمـا … حـديثا لِظلـم لا لظلـم ملفَّقـا

لَمَبكـاه ثغـر الأقحـوان لأنـه … (شـنين) أقـاح الثغـر سـر مفتَّقـا

لَـئِن راق إيماضـا ورق إشـارة … وإيمـاء مغـرٍ بـالغرام وأرَّقـا

وفيـه مـن أوصـاف المِـلاح ملاحـةٌ … تلـوح وتكسـوه متـى لاح رونقـا

فَشِـمْه إذا مسـتمتعا منـه قانعـا … بمـا لاح فيـه للعيـان محققـا

عـلا حـينَ لا لاحٍ ولا حاجـب ولا … رقيـب ولا واش حسـود فيُتقـى

كفـت نظـرة قـرَّت بهـا العـين نضـرةً … إذا سُـلِبتها فـي الضـمير لهـا البقـا

//360//

وسُـر النسـيم إذ سَـرى مـن سَـراتها … بنشـر حيـاة الميـت فيـه تنشـقا

فحـل فـؤاداً منـك حَلَّـوْه بالأسـى … وخـل الأسـى مـا أنـت أوَّل فرقـا

ولا تـأل حفظـا للـدلاء إليـه أُل … هـو الـرحم الأولـى فصِـله موفقـا

وَلاؤُهـم الأعلـى فـآلاءَه اسـتدم … ولاً لـم يكـن لـولاه عـودُك أوراقـا

ولا تعـدُ عـنهم صـارفا عـين مِدحـة … علـى محنـة إن شـئت للمحنـة ارتقـا

فيـا رُبَّ فـرع فـارع الأصـل عَرفُـه … ذكـي ولـم يعـرف إلـى حـين أحرقـا

فلـذ بـالموالي فالمعـالي لهـم وهـم … علـى كـل حـال حـائزوا الفضـل سُبَّقا

وهـم هـم بحيـث المجـد يَعلـم أنـه … لَينـزل مـن عَليـائهم كلمـا ارتقـى

فـإن (...) [1] فهـم الحيـا … حِبـاءً ورعـدا بالصـواعق أبرَقـا

حيـاة الـورى هـم غيـر مقصـورة الحيـا … وممـدودة مـنهم محيـاه ذو النقـا

وجَلـوا بحـورا أن تُكـدَّر بالـدلا … وغيـر الـدلا مـنهم صـفا وترقرقـا

ولـولا لـزوم كـل بحـر مكانـه … وَرَش الحيا من أجل ذي العرش أطرقا

وكانـت دلاء الجـود منفجـرا لهـا … بحـورا طمـى تيَّارهـا وتـدفقا

لمـا وَسِـعَ الأقطـارَ فـيضُ عبابهـا … فيـا برَّهـا والبـرَّ والبحـرَ طبَّقـا

أمَـا وجِفـان كـالجوابي يُدعـدِعو … نهـا وقـدور راسـيات لتنفقـا

---

1 - كلام تعذر ضبطه.

وحسنِ مبانٍ من معانٍ سمت بها مغاني معالٍ أسستها يد التُّقى

وسَير اعتدال لا اعتداءَ أحلَّهم محل اعتلاء دونه النجم أشرقا

ويُمن وأمن عمَّ كل مجاور لهم تلك أيماني فمن شاء صدقا

//361//

لَهُم خيرَتي الأَدنُون حقا وإن نأت بي الدار أو شَطَّ النوى عن اللقا

وما إلفُهُم إلا أليفي وحِلفُهم حليفي وإن أغرى العِدا بي فأغرقا

فأحرى إذا أغرى الأحبة كيف لا يُحبُّ وهم منه استفادوا تخلقا

وواش به إبليس باهى جنودَه فقالوا فديناه أخا منك أصدَقَا

فقال ومضنى غيره قال عدكُم أخا مَن به بُوهيتم إن تفسَّقا

بنيَّ اعلموا أني أره مصادِما لحكمة جبار السماوات أخرقا

يجرد شيئا أخلقته سفاهةٌ يرى غلق باب كان بالفتح أخلَقا

وهل يَغلقُ البابَ الإلهيّ وَشْيُ ذي فِرا كلُّ بابٍ دونَه صار مغلقا

سوى السبعة الأبواب فهو لأيِّها سعى سار في مقسوم جزء إلى الشقا

عفا الله عنه من عَفاف عَفَت له طلول ولَمَّا تُغن بالأمس بالنقا

وعِيفت وقد وارَوا وارِيَ بغيِها عَفاء اغبرار لا نقاء ولا نقا

بغى فابتغى أن انقض العهد ناكثا لقد خاب إن العهد ما زال أوثقا

لئن ساءه ماساءه متمسِّكٌ بحبل اعتلاق باعتلاء تعلَّقا

فهم رفقتي في فرقتي وجَمَّالُهم وروحي فداهم لم يزل بي محدقا

وما سفري إلا إليهم وقد كفى سفورُ محيَّا الحال مرءًا ومنطقا

ولما اثر عنها ترى اليمن مؤثرا عليها ثراءً من تعطاه أملقا

.... ([1])

وإني على أنسي بهم صرت آمنا من أن يسأموا أنسي بهم لست مشفقا

//362//

وإني ابن دهر من بنيه أبان لي حقائق كُلٍّ مِن أعادٍ وأَصدِقا

فريقان إمَّا آل مَن ذكرهُ إلى ([2]) فذِكرُ سِواهم ذكر آلٍ تألقا

أآل سَراب لا شَراب كآل مَن شراب الصفا يسقيه صرفا معتقا

ثوى موئلا للعجم والعرب معربا وأصبح للإحسان والحسن مشرقا

---

1 – بيت تعذر ضبطه.

2 – كذا كتبت، والله أعلم.

وَضَاعَ ([1]) به الأفق الدلائي مَندَلا ([2]) فعنه اختيارا من دلا ضاع كاللقا
وعَمَّ به الخِصب المُقِلِّين واغتدى به الخطب والجذب المظلِّين والشقا
فحثَّ أولوا العزم العزائم نحوه شفاءً لِما أعيى العزائم والرقا
فحكمُ اضطرارٍ مانعٌ من جَماله بما ناظري لا خاطري ثَمَّ أرقا
فمالي أراني كلما رُمتُ قربَه بعدتُ وأي مُبعِدٍ عنه عَوَّقا
فإن كنت لم أصلح له فهو صالح لإصلاح شَيْني لو رأى كان أليقا
فما سر إكسير سرى في مخلطٍ فخلَّصه كالسر من خير مُنتقى
ألا هي أسرار بَهَرنَ بديعة تدين لها الأعيان بالقلب مطلقا
لها في انفعال الكائنات عجائب ومازلن للعادات في الكون أخرقا
وكم غير داعٍ لم يدع إلي كأنه ([3]) فما بال داع غير عاد تقلقا
فإياكَ أدعو قطبَ كل حقيقة بدعوى رجائي فيك كي يتحققا
فعدني بالمرجو إن كان مُرجَأً حِذارَ قنوطٍ كم بمن ضل أُلحقا
لآنسَ نار الأنس من صَعق وحشتي بوعدٍ جميل لم يزل فيك أصدَقا
فإن تَرَني أرنُو إليك أفِق وإن تَقل لن تراني أُلفِها لي أصعَقا

//363//

لفضلك يا غوث العباد وقطبَهم تُمد يدا راجي الأيادي تملُّقا
فمثلك بابٌ ما قرعناه مُدنيا لخالقِنا مسترزقين لنرزقا
فنفسي ومن بالأرض حيا وكلهم عيال عليك من همام لك الوقا
وكم ملحدٍ لا مُلحد فيك آية هُدَاها يراه أكمَه الحِسِّ مشرقا
رضاك له روض أريض تُنيله عوارض وَطْف من دعائك ريقا
وهذي لمولًى من عُبَيد هدية عليه بها غنيا تصدقا
وهل هي إلا مِن معاليك آيةٌ أعيدَ بها مَيْتٌ حياة فأنطقا
فإن سَعِدت حتى بفصلٍ تقبَّلتْ بفضلٍ لفضلٍ عمَّ كم حي رتقا
وإلا فهذا لا يزال تشبثي بذكر علاكم وهو حسبي من اللقا

وقال أيضا:

1 – ضَاعَ العِطْرُ: فَاحَ، إِنْتَشَرَ.
2 – المَنْدَلُ: العُودُ الطيِّب الرائحة.
3 – كتب فوق هذا الشطر "كذا".

أبـى اليـوم إلا الشـعرَ ويـحَ لسـاني ويـا ليـت شـعري هـل يفـوه بشـأني

فيثـــور فأحميـــه فيطغـــى كأنـــه جمـــوح جنـــوح للـــوغى بجبـــان

فأرســـله أنظـــر إلـــى أي منـــزع ينـــازع منـــذ اليـــوم طلـــق عنـــان

فيـا مِقـولي إن كنـت لابـد قـائلا فـدع غيـر مـا يعنيـك غيـر مُعـاني

وقـل رب صـلِّ أزكـى صـلاة مسـلما علـى مصـطفاك مـا عـدا المَلَـوَان

وبالمصـطفى أسـمى الخلائـق صـورة تُـرى دونهـا الأمـلاك والـثقلان

تـول برعـيٍ منـك صَـوني ووالِ مـن حفـائظُهم حِفظـي لحسـن أمـان

وهـب لـي عفـوا لا يغـادر شـقوة وتوبـة صـدق طالمـا أنـا جـاني

//364//

فكـم ذا يرانـي خـالقي غيـر مقلـع وكـم ذا أواري والإلـه يرانـي

وحتـى مَ ألهـو فـي تَـوان مسـارعا إلـى موبقـات اللهـو دون تـواني

عفـا الله عنـي كـم أقلـب فـي الهـوى بقلـب وخـيم اللهـو منـه عفـان

أأصـبو وأيـن اليـوم مـن زمـن الصـبا شـبابي تـولى والمشـيب علانـي

أما كان لـي فـي الدهر لو كنت أكتفي بزاجـر وعـظ مـا شـفى وكفـاني

وأما رسائله رضي الله عنه على وجه النصح والوعظ إلى الجهات والبلدان، والنواحي القاصية منها والدان، والقبائل والأكابر منهم والأعيان، فقد بلغ من الشهرة والكمِّ والسَّعة والكثرة ما لا مطمع لأحد في حصره وإحصائه، ولا قدرة له على استحضاره واستقصائه، ونحن نورد من ذلك ما وقفنا عليه، وصحت نسبته إليه.

فنقول: كتب رضي الله عنه إلى بعض الفضلاء المجاورين بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ما نصه:

الحمد لله وحده، صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

مَقَام الأفاضل السرَر (كذا)، الحسباء النجباء الأصلاء الغُرَر، المتجلين في مزايا العوارف والمعارف، المُتحلِّين في سرادقات المطارف، فتَبَلَّجَت ([1]) لهم وجوه السعادات، وانكشفت لهم عن براقع المَجادات، وكيف لا وَهُم في خفارة سيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، ومجاورو مسجده //365// الشريف، ومحرابه الوريف، سيدي فلان وسيدي فلان وسيدي فلان سلام عليكم ورحمه الله وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته، هذا وقد كتبناه إليكم والبين قد سدَّد سهامه، وأثار نيرانه وضرامه، والجوانح تتصعَّد زفراتها، وتتجدد حسراتها، والنفس لِعَليِّ مقامكم مستشرفة، ولشآبيب انعطافكم متشوفة، فارحموا صبا نازحا، وغريبا نأت به الأوطان وحقكم ما حاد عن الوداد ولا كان عنه جانحا.

إن غـاب شخصـك عن عينـي فلم تـره فـإن ذكـرك مقـرون بإضـماري

فاذكرونا بالدعاء في الأسحار، فنحن عطاش وأنتم ورود، وقولوا بلسان خاشع، وفؤاد خاضع، يا نبي الهدى، ويا بحر الندى، عبيد من عبيدك شط به المزار، ونأى به القرار، قد استضافنا ونحن أضياف حِبائك، مستمطرون من

---

1 – تبلَّج الصُّبحُ: بلَج، أشرق وأضاء.

سماء علائك، وضيف الكرام يُضيف ويُقري، والفضل إلى سواه فيؤول ويسري، ولا أحد أكرم منك على الله، ولا أحظى منك بزلفاه وقرباه، فأنله قصار أمله ومتمناه، وأتحفه برضاك فهو أربه ومناه، //366// وأقرؤوه السلام كل صباح، وغدو ورواح، تغنموا الأجر، وتظفروا بالفوز والذخر، والسلام.

وكتب أيضا رضي الله عنه إلى الشيخ الإمام الصالح المجاهد المرابط أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد العياشي المالكي الزياني المتقدم الذكر ما نصه:
الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، حفظ الله رئيس هذا الدين ونقيبه، المنصور الراية المبارك الأمر الميمون النقيبة ([1])، المثابر على فضيلتي الرباط والجهاد، والدؤوب ([2]) على إظهار العزم في ذات الله والقوة والجلاد، الأخ في ذات الله ونعم الأخ والولي، والوفي بعهد الله والصفي، وناهيك من ولي ووفي وصفي، سيدي محمد بن أحمد العياشي أصلح الله أعماله، وأنجح من خير الدارين آماله، سلام عليكم ورحمه الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته، عن تمام الخير والعافية، وما عوده ذو الفضل العظيم من ألطافه الخفية الوافية، ونعمته الجمة المتوافية، وقد انتهى إلينا أن تلكم القبائل المحيطة بسلا، حسبما نقله الرواة حديثا صحيحا مرسلا، ما قاموا بواجب شكر الله في نعمه التي أسداها إليهم، وأسبغها عليهم، وهي ذاتكم التي نابت عن الأمة المحمدية في أداء هذا الفرض، الذي حمدت سعيكم فيه أهل السماوات وأهل الأرض، ولبست قلوبها فوق //367// دروعها، ولم يضق على العدو بالمساء والغدو رحب ذروعها، وصينت الدماء وحفظ الذِّمار ([3])، ووَفَت بعهد الله في رعاية دين النبي المختار، وإن من أولئك الأعراب مُثَبِّطا ومتربصا، ومستهزئا ومنتقصا، وخادع وخاذل، وماكر وعاذل، وطالما دعوتَهم إلى ذات الله سرا وجهارا، وليلا ونهارا، فما ازدادوا إلا فرارا وذمارا ([4])، ونفورا وإصرارا، حتى قامت بك الحجة، وبانت لكل الناس المحجة، ويحهم ألم يعلموا أن الله سبحانه لهم محاسب وسائلٌ، وأن اتباعك والائتمار بأمرك، والانقياد لكلمتك والتعلق بأذيالك، والإذعان لحجتك وإجابة دعوتك، هو لهم عند الله عز وجل من أرجح القربات وأعظم الوسائل، لأنك ما دعوت إلا لله، ولا قطعت يومك وأمسك إلا فيما يرضي رسول الله، صلى الله عليه وسلم ما دام ملك ([5]) الله، يا ليتني كنت لك ثانيا، لا كسلا ولا متوانيا، ويا ليتهم عرفوا أن الله تعالى أنعم عليهم بك، ونظر إليهم بجودك وسيبك ([6])، [فسيذكرون هذا ويندمون، إذا وجدوا ما عليه يقدمون] ([7]). ولا أعجب من قبيلكم الوافر، المتظاهر المتظافر ([8])، قبيل بني مالك، بطن من شعب سوَيد الأحرار، العرب العاربة الصرحاء الأخيار، ما كنت أظن أنهم يملكون معكم أرضا ولا جدارا، ولا درهما ولا دينارا، ولا أحسب إلا أنهم يحكمونك في رقابهم، فضلا عن أموالهم، ويُصرِّفونك في //368// ذواتهم فضلا عن أحوالهم، ويشكورون نعمة الله عليهم ويعترفون بالعجز عن شكرها، ويلقون إليك مقاليد أمورهم في حالي خيرها وشرها، وإذا كان عادة القبائل الأول، يردون أمورهم لمن فيه خصلة واحدة من رأي أو شجاعة أو جود أو دين ويجعلونه المعول، فكيف لا يرده قبيلكم لمن جمع الله له هذه الخصال وزيادة، وأحله بجهاده على الرتبة العليا من الرئاسة والسيادة، وسلك بهم مسالك الطاعة، وشيد لهم فخرا تبقى مناقبه إلى قيام الساعة، فآها لهم لقد والله أخطؤوا الطريق، ولا وفقوا إلى مساعدة أفضل رفيق، وأسعد فريق فأكرم به من رفيق وفريق، وإلى هذا فلا يهمنك شأنهم إن لم يجيبوا لطرق المراشد، فأعرض عنهم وعدهم كرجل واحد، وإن كانوا أوفر من حصى البطحاء، وأكثر عددا من رمال الدهناء ([9])، الله وليك وناصرك وعباده المؤمنون،

---

1 – هُوَ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ: مَحْمُودٌ مُخْتَبَرٌ.

2 – في كتاب الحركة العياشية لعبد اللطيف الشاذلي ص213 "والوقوف" بدل "والدؤوب".

3 – في المصدر السابق "وصانت الذمام وحفظت الديار".

4 – في المصدر السابق "فما زادوا إلا ازورارا".

5 – في المصدر السبع "لك" عوض "ملك".

6 – في المصدر السابق "بجهودك وسيبك".

7 – إضافة من المصدر السابق.

8 – في المصدر السابق "المتواتر".

9 – الدَّهْناءِ: الصَّحْراءُ، الفلاةُ.

وربك وليك وأولياؤه المحسنون، وأحسبهم كالعدا، ولهم من الله موعدا، (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكه بعد ذلك ظهير)، فبالله النصرة ومن فيه غيرة إسلامية، وحمية دينية إيمانية، لا يسلمك ولا يخذلك، ورضي الله عن أم المؤمنين خديجة الصديقة الكبرى، كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتكسب المعدم، وتعين على نوائب الحق (يا أيها //369// الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فيا ليت أهل الوقت خاصتهم وعامتهم، فقيرهم [وغنيهم] وفقيهم [وغير فقيههم] ([1]) أنصفوا، وبالحق اتصفوا، وبالإذعان إليه اعترفوا، لمن سد عنهم باب العصيان، وتحمل ما يورطهم في غضب الملك الديان، [يا أيها والذين ءامنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم] (يا أيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض) (يا أيها الذين ءامنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) الآية فثق بربك وشد يدك على الاعتصام بحبله والاستنصار به وبأوليائه المؤمنين [الراغبين في كرم الله وفضله، الساعين في طلب أعلى الدرجات الجهادية ونيله].

ومـــن تكـــن برســـول الله نصـــرته إن تلقــه الأســد فــي آجامهــا تجــم

ومن حرمه الله من الانخراط في سلك المجاهدين، وتأبَّى عن نصرة الدين، فتلك عقوبة ومحنة له من الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إذ هو العالم بالطويات، المسؤول في بلوغ المأمولات والأمنيات، بمنه وطوله، والسلام. وكتب عبد ربه تعالى، خديم المساكين وغبار نعال الصالحين، محمد بن أبي بكر الدلائي وفقه الله.

فكتب إليه سيدي محمد العياشي رسالة يخبره بورود كتابه عليه المتضمن تهنئته بغزوة العرائش، ويعلمه فيه أيضا بغزوة المعمورة، ويستمنح منه الدعاء ويشكره على ما كتب به //370// إليه ونصها:
الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.
أبقى الله تعالى للمسلمين بركة الحبيب في ذات الله، الولي في مرضاة الله، حسنة الزمان، وقدوة الأوان، مقيم سور الكتاب والسنة، ومُعَظِّم المنة بذلك على المسلمين وله المنة، سيدي محمد الشيخ القدوة الشهير، القطب الكبير، البركة الأسوة سيدي أبي بكر الدلائي، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته، عن الخير والعافية والحمد لله، وما تعوده العبد من فضل مولاه، وما تعهدونه من المحبة التي ثبتت المصافاة فيها ابتغاء رضاه، والتماس دعاء يستعين به المحب في صلاح دنياه وأخراه، وقد ورد علينا المعظمُ كتابُكم أثير المحل لدينا، كريم الورود علينا، مهنئا بغزوة العرائش أعادها الله، ومتضمنا سروركم بذلك وما كيَّفه الله تعالى للإسلام وسنَّاه، وقد سمعتم رضي الله عنكم خبر هذه الغزوة التي كيفها الله تعالى على المعمورة، وامتثلت أمره في رقاب الكفرة السيوف المأمورة، وبلغكم من شرحها ما لم يحتج إلى إعادة، ولا افتقر إلى زيادة، وقد قوي الأمل في الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها، ومقدمة تستلزم لعزائم الإسلام نتيجة نجحها، فالمسلمون الآن نازلون بقعر دارها، ومرسلون الصواعق على أسوارها //371// حتى تغرق إن شاء الله بكفارها، ويأذن الله سبحانه ببوارها، وتطهيرها من أدناسها وأوضارها، وعودها إلى ملك الإسلام بعد إباقها وفرارها، هذا الذي انعقدت عليه النية، وانطوت عليه الحنية، لكن أين المساعد، والأمر لا ينهض به الواحد، والمسلمون جبر الله صدعهم، ويسر على ما يرضيه جمعهم، لا يتفق لهم رأي، ولا يثبت لهم حفظ لحمى الإسلام ولا وعي، حتى إن افتراق كلمتهم أضر على الإسلام من اجتماع كلمة عدوه، وبعدهم عن نصرته شر من قرب الكفر ودنوه، وقد ذهب الإسلام ضياعا، وفاضت نفسه شعاعا، يستغيث فلا يغاث، ويستصرخ فلا يكون لمستصرخه انبعاث، لو صور الإسلام شخصا جاءهم مستصرخا، يا إخوتي يا معشري في الشدة والرخا، والمشتكى بذلك إلى الله، وإلى أمثالكم أهل الله، والأمر أظهر من أن يشار إليه، والنهار أجلى ([2]) من أن يستدل عليه، وحامل هذا الولد الأحظى، الخاصة البار الأرضى، سيدي الحسن يشرح لكم الحال على ما هي عليه، بما في علمه ولديه، وقد آنستمونا في كتابكم عن

1 – كل ما كتب بين معقوفتين في هذه الرسالة أضفناه من كتاب الحركة العياشية لعبد اللطيف الشاذلي ص215
2 – في المخطوط "أجدى".

الغربة التي أوحشتنا، ونفَّستم كربة تخاذل المسلمين التي أدهشتنا، وما غاب عنكم أكثر وحسبنا الله، والحول والقوة بالله، والاعتماد على الله، ولا أكثر، والله تعالى يبقيكم وللمسلمين //372// منكم الركنُ الذي لا يُهدم، ومن أدعيتكم المباركة الجيشُ الذي لا يهزم، والسلام.

وكتب إليه أبو حامد سيدي العربي الفاسي أيضا رسالة نصها:
سيدنا الإمام الأوحد، القدوة [البركة] المعتمد شيخ الإسلام، رافع لواء سنة النبي عليه الصلاة والسلام، سيدي محمد بن الشيخ القدوة سيدي أبي بكر الدلائي أبقى الله تعالى للإسلام ظلكم المديد، حتى يبلى الجديدان وهو بفضل الله جديد، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، [رضوانه الأعم وتحياته، ما قامت بالجرم سكناته وحركاته]. عن الخير والعافية، [والنعم الشاملةوالضافية]، لله الحمد ومنه المنة، [وإليه الإسكان وهو الجنة، هذا] ولا زائد إلا تعريفكم باتفاق كلمة الكفرة وافتراق كلمة المسلمين فأسلموا الإسلام في أيدي الكفرة وقعدوا، وانتدبت فرق أنصف الله منها، وصرف يد العناية عنها، فأوضعوا خلال المسلمين [يبغون بهم الفتنة] ([1]) واجتهدوا، فهم رمد في عين الدين، وكمد في نفوس المهتدين، يقابلون الحق الواضح بالبهتان المبين، ويعارضون دين المصطفى الأمين، بقول مهين لا يكاد يبين، والمداهنة تضرب دون الضرب على أيديهم حجابا، وتلقي على [أشعة] شمس الحق سحابا، وتمهد لهم إلى الاسترسال في طغيانهم أسبابا، وتفتح لهم إلى الأعذار المستغلقة أبوابا، حتى شرق الدين بريقه، وشكا إلى الله تعالى بفريقه، فإن كنتم رضي الله عنكم لم ينته إليكم عن ذلك خبر، ولا نظرتم إلى ما وضح منه وظهر، فقد جاءكم //373// جهينة، ينفض بين أيديكم الجراب والجوينة، وها أنا ذا برئت من عهدة التنبيه، [وأعلمت بنكتة التشبيه]، وأحلت على صاحب البيان والتحصيل، والتوجيه والتعليل، [والتقسيم] والتفصيل، والله تعالى يبقيكم للإسلام عونا، ويوليه منكم حفظا وصونا، والسلام عليكم ورحمه الله تعالى وبركاته، وكتب أحب خلق الله إليكم وفيكم عبد الله محمد العربي الفاسي لطف الله به آمين.

وكتب أيضا صاحب الترجمة رضي الله عنه للأجل الأرضى أبي زيد سيدي عبد الرحمن العايدي رسالة ذكر فيها سيدي محمد العياشي أيضا، ونصها بعد الحمدلة والتصلية المطلوب تقديمها:

حفظ الله بمنه مقام الفاضل المعظم، المبجل المكرم، سلالة السادات الصالحين، أبي زيد سيدي عبد الرحمن العايدي أجرى الله بمواسم الخير عادته، وأدام علاه وسيادته، سلام عليكم ورحمه الله وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته، عن تمام الخير والعافية، ودوام نعمه المتوافية، والسؤال عنكم كيف هو الحال، في المقام والترحال، أجراها الحق سبحانه المتعال، على وفق المقصود والآمال، هذا وإنكم كبراء أهل المغرب ([2]) ولكم على قبائله رئاسة دينية فعرِّفوهم بأن ما هم عليه الآن من الإذعان للحق والانقياد له وإصلاح السابلة والجهاد في سبيل الله هو الإسلام المنجي في الدنيا والآخرة من النيران، وما سلف ما هو //374// كفر ولا إيمان، إنما هو ظلم وطغيان، وفسوق وعصيان، وتمرد على الله تنهد منه الجبال، وتتزلزل منه الأرض وتتبدل منه الأحوال، نسأله سبحانه أن لا يفضحنا به في القيامة على رؤوس الأشهاد، إنه الرؤوف الكريم الجواد، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، واشرحوا لهم أصل الهداية فما هي إلا من النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أهل المدد من نوره المعظم، وكل هداية غيرها ضلال، وعلى متبعها ومبتغيها وبال، واستدعوا من الله تعالى بقاء هذا السيد الولي الصالح، المرابط في سبيل الله العالم العامل الناصح، العارف بالله المحقق الصوفي الرباني، أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد العياشي المالكي الزياني، أعز الله أنصاره، وأجرى على سبيل الحق أقواله وأفعاله وأخباره، فله مدد من هذا النور وإليه فيه سند ([3]) عال ينتهي من أستاذه المنقطع إلى الله، العارف بالله الإمام أبي محمد سيدي عبد الله بن حسون أفاظ الله علينا من بركاته، إلى وارث القطبانية والنور الشعشاع، أبي محمد

---

1 – كل ما و ضعناه بين معقوفتين في هذه الرسالة فهو مضاف مما ورد في كتاب الحركة العياشي لعبد اللطيف الشاذلي ص212 وما بعدها.
2 – في كتاب الحركة العياشية لعبد اللطيف الشاذلي ص216 "الغرب".
3 – في المخطوط "سندُه".

سيدي عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتَّبَّاع، إلى القطب الجامع لأشتات الكمال مولانا الشريف أبي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه وعن آبائه الطاهرين، قد أرشد الناس وهداهم به، فقام بما وجب //375// عليه من حفظ دين ربه، والدعاء إلى الله وذكر العامة والخاصة على حين غفلة منهم، وما ترك مصلى إلا بلغه. أما نهي القبائل عن قطع الطريق والظلم، ففيه صلاح دنياهم ومعاشهم، وأما الآخرة فما شعروا بها ولا عرفوها، ولو عرفوها ما احتاجوا إلى هذا، فالظلم يخلى الخيام، ويعمرها بالأيتام، ويقصر الآجال، ويفسد الأعمال، ويسحت المال، ويوقع في سخط الله ذي الإكرام والجلال، كان الملالقة إذا نهوا عنه وقيل لهم اتركوا الظلم وقطعَ الطريق يضحكون ممن يقول لهم ذلك ويستخفون به، بالله يا سيدي أين حلتهم ([1]) اليوم؟، وهل بقي لهم قبيل يذكر، (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا). وأما أمره إياهم بدفع الأعشار والزكوات فلا يتم الإيمان إلا بذلك، قال الله تعالى (وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة) فما بعد الصلاة إلا الزكاة وببركاتها أُمطِروا، وعمهم الخير وحيروا ([2])، وإلا فأهل هذه الجهات يبس زرعهم واشتعلت نار الفتنة بينهم فهم في أشد العذاب، لقد صرفها في مصرفها الشرعي المؤكد، وأعان بها المجاهدين، فهم أكلوا الأعشار ودعوا لأهلها بالخير والخلف، وأما دعاؤه الناس لأمر الجهاد واستنجادهم واستجماعهم عليه فبه قهر العدو الكافر، وبه رد الله كيده في نحره، مات والله الإسلام، قطع العدو الكافر البحر وهدم المسلمين في بلادهم وتَخطَّف //376// الناس وأسرهم من بين خيامهم، وعدمنا من يعين عليهم ويبكي على هذا دهرَه، وهذا السيد المجاهد جمع كلمة الإسلام وأمرهم فما وجد معينا، وتحققناه يقينا، فوالله لو كان في ملة النصارى من يفعل في المسلمين مثل فعله في النصارى لملَّكوه رقابهم ولأولادهم وولوه أمرهم وحكموه فيها، ولكن دينهم المعوج قائم وديننا المستقيم مات ومات أهله، وأخبِروهم بأن العدو الكافر لا يُطرد بهذا ولا بأعظم منه، وناره لا تظن بها أنها تطفى، هيهات من طال عمره يرى كيف تؤدَّى له الجزية، ها جزيرة الأندلس كان ابتداء قتاله أهلَها من المائة الرابعة، وكانت عليه [فيها] هزائم مشهورة، في كتب التواريخ مسطورة، وفي الألسنة مذكورة، حتى ابتدأها بهزيمة العقاب ([3])، كانت على المسلمين وتم له في المائة التاسعة ملكها كلها، على قوة أهلها وكثرة حشودهم وجموعهم وجنودهم، والسلام. وكتب في أواسط ذي القعدة عام ثلاثة واربعين وألف خديم المساكين وغبار نعال الصالحين محمد بن أبي بكر الدلائي كان الله له آمين.

ولما طال على أهل سجلماسة أمر صاحب الساحل، ولم تفده معه وسائل، التقوا مع الأعراب المجاورين لهم دخيسة وذوي منيع والصبَّاح والمعاضد وأولاد غنام وحميَّان وأضرابهم واتفقوا //377// معهم على نبذ طاعته، وعدم موافقته، وبايعوا مولاي محمد بن الشريف فبلغ الخبر إلى السيد علي أبي حسون صاحب الساحل، فجمع جموعه وقصد سجلماسة ونزل عليها وحاصر أهلها وطال القتال، ثم إنه أعطى مالا إلى بعض من هو من ناحيته من أهلها فخادعوا مولاي الشريف وقبضوه ومكنوه منه، فأوثقوه في الحديد وحاصر من كان شيعة له من أهل سجلماسة حتى دخلوا تحت طاعته كرها، وارتحل عنهم وذهب بمولاي الشريف إلى الساحل، فبلغ الخبر لصاحب الترجمة الشيخ الإمام سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه فكتب إليه كتابا يطلب منه أن يسرحه ويترك ولده ببلاده، فأجابه السيد علي بوحسون ([4]) بكتاب يتضمن أن أهل سجلماسة بايعوه ثم نقضوا بيعته وبايعوا غيره فحلَّ له أن يحكم فيهم باجتهاده، وأما ما قلت من أن نترك سجلماسة للشريف المذكور كغيريها من

---

1 – في المصدر السابق "حللهم".

2 – كذا في المخطوط، وفي المصدر السابق "وببركتها أُمطِروا وعمتهم الخيرات".

3 – علق المؤلف في المصدر السابق قائلا: موقعة العقاب 609هـ/1212 انهزم فيها الأمير الموحدي الناصر لدين الله ابن يعقوب المنصور.

4 – علي بن محمد بن محمد بن أحمد بن موسى المعروف بأبي حسون السملالي وبودمعة وبودميعة أو أبو دميعة (توفي 1070 هـ / 1659م) أمير بلاد السوس وزعيم الإمارة السملالية وشيخ زاوية إيليغ. كان أحد العناصر الرئيسية التي اقتسمت السلطة في المغرب بعد سقوط السعديين: حيث سيطرت إمارة الشبانيين بقيادة الحاج كروم الشباني على مراكش عاصمة الجنوب، وأبو حسون السملالي على بلاد السوس، وإمارة العياشي على سلا، ومحمد الحاج الدلائي صاحب الزاوية الدلائية على الأطلس والسهول الغربية، ومحمد بن الشريف العلوي على تافيلالت. انظر العدد 96 من مجلة دعوة الحق.

البلاد التي بأيدي غيره فلا أتركها، لأنهم رضوا بي وبايعوني ورضوا به وبايعوه، فإن بعضهم معي وبعضهم معه، كأهل العراق مع الحسين بن علي الذين خرجوا على اليزيد بن معاوية، وانظر ما فعل بهم وبه، وأنا لم أفعل بهم وبه شيئا، وقد سلم ابن العربي في فعل يزيد بالحسين في كتاب القواصم والفواصم ([1])، وقولك إن لي فيه مرادا //378// بالامتحان، فليس لأحد منا فيه اختيار، وإنما فعلنا به ذلك أدبا لغيره، ثم ذكر أمورا لا ينبغي ذكرها ولا يوصف بها أهل البيت.

فأجابه الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه برسالة نصها:
الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، حفظ الله سيادة الخيِّر الفاضل، الماجد الواصل، الفقيه النبيه، السيد الجليل، المباري الأصيل، المتفرع من الشجرة العرفانية، والدوحة السنية النورانية، سليل السادات الكبرا، الأفاضل السررا، الذين سما في المآثر فخرهم، وطار في المكارم مجدهم وذكرهم، أبو الحسن سيدي علي بن سيدي محمد بن ولي الله سيدي أحمد بن موسى روّق الله درايته، وأضاء في المكرمات سرايته، سلام عليك ورحمه الله تعالى وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته، أما بعد، فقد ورد علينا من سيادتكم ومُحيًّا مكانتكم، كتاب بالتواصل وافي، فائت المدارك والتصافي، مخائل الوداد على طالعته تطلع، ومعارفها على أساطيره تلمع، فشكرنا الله على عافيتكم، وحمدناه على ما أولى من سلامتكم، إذ كنا بحمد الله على ذلك العهد، السليم من الرد، فقرأناه فإذا مضمنه السؤال على حال الكتابين، وارتسامهما في أي البابين، أكملا بالنسخ، أم //379// حالهما في الفسخ، وسألتم أن نُحمِّلهما حاملَ الكتاب، ونصاحبهما حالة الإياب، إن ساعد الوقت للتيسير، ووسع البعث والتسيير، أما كتاب الاستيعاب فقد أمرنا به فنسخ وكتب وسلخ، وبعثنا به لفاس، إذ لم نرتض سوى تسفيره لفاس، فإن وفانا وجهناه إليكم وقفلناه عليكم، وأما القسطلاني، فقد أجهد أمره المعني به والمُعاني، فليس فيه إلى سبيل تُسلك، أو حيلة تدرك، لا بالبيع ولا بالشراء، ولا بالنسخ بالكراء، وقد ذكر كتابُكم، وأفصح خطابكم، بأن أهل سجلماسة على الطاعة، وأنكم قد تخيلتم فيهم التئام أمر الجماعة، والفضلاء القادات سهامهم للقتال مفوقة، مع أن أعناقهم بالبيعة مطوقة، هذا وللبيعة شروط، وطريق مفروط، ومحامل ووسائط، وشعائر وسبائط، فانظروا فيها أين أنتم، وعلى أي شرط منها حصلتم، من أداء حقوقها، واطلاع كتائبها وخفوقها، وليت شعري من أوجب هذه البيعة وأمضاها، وأوقعها مواقعها وأرساها من العلماء المتقنين، وأهل الصلاح المهتدين، الذين إليهم الحل والعقد، والتشمير والجد، أين مَن تبين مِن نفسه ارتقاءها، وعرف قضاءها وأداءها، وفرق بين خاسرها ورابحها، ونافعها //380// وعائبها، وإلا فمن تقلدها من غير أهلها فقد تقلد زورا، وضلالة وفجورا، وأوقد نار الفتنة، وأوقع نفسه في مهاوي المحنة، وحق به وعيد الحديث، والنكال الحثيث، وحقت مكافحته، ووجبت مدافعته، واستخلاص من حصل في حباله، وتحت نكايته وصيالته. وأما ما وقع بمولانا الشريف بن علي فلم يُعهد لأحد من هذه الأمة، ولا سُمِع أن أحدا اقتحم ذلك الشنيع وأمَّه، بعد الأيمان التامة، الموثقة العامة، وإعطائكم له ([2]) كراء الأموال، ليأخذوا الشريف بالاحتيال، لا جانب الشرف يُحتمَى، ولا مقام آبائه الكرام يُستمَى ([3])، وليس لكم بهذه الفعلة ارعواء، أولم يبلغكم قوله صلى الله عليه وسلم (يُنصب لكل غادر لواء) وهل هي إلا سبة تحتوي على سبتين، ومعرة تحتوي على معرتين، وقولكم "ليس لأحد منا فيه اختيار، ولا له

---

1 كذا كتب العنوان ولا ندري إن كان مصحفا من الناسخ أم في أصل الرسالة فتركناه، والمعروف حاليا أنه "العواصم من القواصم". قال ابن خلدون في تاريخه ج1 ص 271 ما نصه: (وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الّذي سمّاه بالعواصم والقواصم ما معناه: "إنّ الحسين قتل بشرع جدّه"، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء) اهـ

2 – كذا وردت العبارة وما قبلها، ولا ندري إن كان في الكلام سقط. قال في الاستقصا ج7 ص14 (...وَكتب إِلَى عَامله بسجلماسة واسْمه أَبُو بكر يَأْمُرهُ أَن يحتال على الْمولى الشريف حَتَّى يقبض عَلَيْهِ وَيبْعَث إِلَيْهِ بِهِ حَبِيسًا فامتثل أمره وتقبض على الْمولى الشريف غدرا بِأَن تمارض ثمَّ استدعاه لعيادته والتبرك بِهِ ثمَّ قبض عَلَيْهِ وَبعث بِهِ إِلَى السوس فاعتقله أَبُو حسون فِي قلعة هُنَالك مُدَّة إِلَى أَن افتكه وَلَده الْمولى مُحَمَّد بِمَال جزيل)اهـ

3 – اسْتَمَى الشيءَ: نظَرَ إلى سَماوَتِهِ.

عليه اقتدار" مذهب خارج عن الاعتدال، موزون بميزان الاعتزال، بل فيه صراحة بمذهب أهل الجبر، الذي ليس لانصداعهم من جبر، وحسبك ما ذكر فيه علماء السنة من الطعن بالألسنة والأسنه، وأحاشيكم أن تتخذوا بين ذلك مذهبا، وتنتحلوه مطلبا ومركبا، على عَلِيِّ نسبتكم، وعظيم رتبتكم، هذا وقصدنا بهذا الكلام، النصيحة لا الملام، يعلم ذلك عالم الخفيات، المطلع على السرائر والطويات //381// والسلام عائد عليكم ورحمة الله، وكتب خديم المساكين، وغبار نعال الصالحين، محمد بن أبي بكر الدلائي وفقه الله. انتهى.

ومع هذا كله لم يشرح الشريف المذكور من قيد اعتقاله ومكث عنده معتقلا مدة مديدة، من شهور وسنين عديدة، وبعد قبضه بايع باقي أهل سجلماسة وما والاها من عرب بلاد الصحراء كلها مولاي محمد بن الشريف المذكور، ووقعت بينه وبين السيد علي أبي حسون المذكور حروب كثيرة عجز فيها الفريقان، وبعد ذلك بمدة سرح الشريفَ المذكور من الاعتقال في حديث يطول جلبه، ولا حاجة لنا به إذ لسنا بصدده.

وكتب رضوان الله عليه إلى الفقيه الأجل مولاي عبد القادر بن علي الحسني القادري يعزيه في والده رحمه الله ما نصه:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

المقام الذي خلعت عليه السيادة جلبابها وأفاضت عليه المكرمات عبابها، وانجابت إليه المكارم والمآثر، واستدارت به المفاخم والمفاخر، فترقى في سماء السعادات، وتحلى براية المجادات، الذي قطع في مرضاة مولاه زمنه، وأطار هجوعه فيها ووسنه، وحَسَر عن ساعد الجد والحزم، وسامر في ذلك القصد والعزم، حتى صار شأوه لا يدرك، ومكانه لا يُشرك //382// الفقيه النبيه، القدوة البركة الوحيد، مولانا أبو محمد عبد القادر بن مولانا علي الشريف القادري الحسني سليل السادات الأجلاء، السرراء (كذا) الفضلاء، لا زالت آثارهم ومآثرهم دائمة التعالي، مدى الأيام والليالي، سلام على سيادتكم ورحمه الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته، هذا وقد كتبنا إليكم والبين قد فرق سهامه، ونصب راياته وأعلامه، والنفوس إلى ذلكم المقام طامحة، والجوانح بلواعجها طافحة، لينوب عنا سيدنا في تعزيته في والده مولانا علي وفي تعزية عامة الإخوة، الأجلة الصفوة، بالصبر على هذا الخطب الذي هال العقول ودهاها، ودهم الأسماع وبراها ([1])، إذ لله ما أخذ وله ما ترك، وكل عنده لأجَل مسمى، وليعلم سيدنا أنه كثُر التشوف لوفوده، والتشوق ([2]) لوروده، فإن رأى في القدوم رأيه. أعمل فيه سعيه، فذلك المنى وأقصى أملنا والسلام.

وكتب إليه أيضا بما نصه: الحمد لله، وحده وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

أقسمت بمن أنزلك مني منزلة النياط من الفؤاد، فلم تندثر المودة ولا انصدع حبل الوداد، بالغيبة والبعاد، وعيل صبري بتمنيك، وكثرت لواعجي فيك بتجنيك //383// فغدا سهم هجرك لهيامي راميا، وسلواني متلاشيا، إذ راح السحر فيه ناميا، لقد تصدعت زجاجة قلبي بطول النوى، وعَدَت عليَّ لوعات الهوى، فأوهنت مني القوى، ولعمري أن صبري لميت والغرام ضريحه، وفؤادي بسهم الجفاء كليمه وجريحه، جلابيب سلواني بالبين متمزقة، وأجفاني بالبكاء متأرقة، فهل أوبة أم حفرت لي ضريح التباريح بفاس هجرك، أو قليت محبك ورميته بسهم غدرك.

منـا الوصـال ولا يكـن منكم الهجـر	حتــى يفــرق بيننـا الــدهر
تــالله لا أســلوكم أبــدا	مــا لاح نجــم أو بــدا فجــر

1 – بَرَى المرضُ أو الجوعُ الشَّخصَ: هَزَله وأوهنه وأذهب لحمَه.

2 – كتب "التشوف" و "التشوق" بدون نقط على الفاء والقاف، وقد اجتهدنا في اختيار موضعيهما.

ما كنت أخال أنك على طريق المحبة يامس، ولا لذوي الصواب والجد رامس، فإذا بك علينا شاح وبارع، وإلى نبذنا إلفٌ مسارع، ضنينا بوصولك، بل بكتابك ورسولك، كأن لم يكن علينا من الحقوق جسيمها، ولا بيننا من المكافآت جليلها وعظيمها، عظم الله قدرك، وأرقى في سماء المعالي ذكرك، والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

وكتب رضي الله عنه إلى بعض الأمراء ونصه: الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه. ايد الله مولانا وأعانه، سلام عليك ورحمه الله تعالى وبركاته، هذا وقد كتبناه إليكم //384// نجدد ما سلف من العهد، ونذكر ما انبرم من العقد، وإن كان سيدنا للعهد أرعى، وللوداد أوعى، ولسنا منه على غرة، غير أن للبين كأسا مرة، كثيرا ما تجرعنا غصتها، وتدرعنا حلتها، ولا عيب في التذكار، والإلحاح والتكرار، مع انتظام العقد، والوفاء بالعهد، ووفور المبرة، وتنكيب المضرة، وذكر أن مولانا بلغه أيده الله تعالى أن الفاضلين الكريمين الناشئين في العفة والصيانة، والطهارة والديانة، (...) [1] وعبد الكريم، وافيا دار الكريم، وبلغا قصارى آمالهما ومنتهى آجالهما، فليحتسب مولانا أيده الله، وليجعل بدلهما جميل الصبر، وجزيل الأجر، فليس المصاب، سوى من حرم الثواب، وجمعنا للفناء يصير، وما لبثُنا بعدهما إلا يسير، وعما قليل راحلون، وعلى آثرهما سائرون، وما أحسن ما قاله البديع، في كلامه البديع [2]، لينظر المرء في الدهر وصروفه، والموت وطُفوفه، هل يرى في عمله، تقديما لأمله، وتأخيرا لأجله، وأحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، والموت خطب قد عظم حتى هان، وخشن حتى لان، والدنيا قد تنكرت، حتى صار الموت أخف خطوبها، وخبثت //385// وتكدرت، حتى صار أقلَّ عيوبها، ولعل هذا السهم آخر ما في خزانتها، وأنكى ما في كنانتها، ولم نبدأ مولانا بهذا الأمر الفظيع، والخطر الشنيع، كراهة أن ندخل عليه ما يغم قلبه، ويشطن باله ولبه، لا لنزول حظنا فيه، ولا لأمر يناوي الوصول أو ينافيه، والسلام.

---

1 – كتب على هامش المخطوط "بياض بالأصل".

2 – جاء في زهر الآداب للحصري ج2 ص508: كتب أبو الفضل بديع الزمان إلى أبى عدنان بن محمد الضبي يعزّيه عن بعض أقاربه:

إذا ما الدهر جرّ على أناس ... حوادثه أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجفلى إذا ساء، ويخصّ بالنعمة إذا شاء، فليفكّر الشامت؛ فإن كان أفلت، فله أن يشمت، ولينظر الإنسان في الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، إلى خاتمة عمره؛ هل يجد لنفسه، أثرا في نفسه؟ أم لتدبيره، عونا على تصويره، أم لعمله، تقديما لأمله، أم لحيله، تأخيرا لأجله؛ كلا، بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا؛ خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويهلك صبرا، وليتأمّل المرء كيف كان قبلا؛ فإن كان العدم أصلا، والوجود فضلا، فليعلم الموت عدلا، فالعاقل من رقّع من جوانب الدهر ما ساء بما سرّ، ليذهب ما نفع بما ضرّ، فإن أحبّ ألّا يحزن فلينظر يمنة، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلّا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس– أطال الله بقاءه – من فطن لهذه الأسرار، وعرف هذه الديار، فأعدّ لنعيمها صدرا لا يملؤه فرحا، ولبؤسها قلبا لا يطيره ترحا، وصحب البريّة برأى من يعلم أنّ للمتعة حدّا، وللعاريّة ردّا، ولقد نعى إليّ أبو قبيصة قدّس الله روحه، وبرّد ضريحه، فعرضت عليّ آمالي قعودا، وأمانيّ سودا، وبكيت، والسخيّ جوده بما يملك، وضحكت، وشرّ الشدائد ما يضحك، وعضضت الأصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنّيته، والموت أطال الله بقاء الشيخ الرئيس خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عمّ حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموت أخفّ خطوبها، وقد خبثت حتى صار أقلّ عيوبها، ولعل هذا السهم قد صاب آخر ما في خزانتها، وأنكأ ما في كنانتها، ونحن معاشر التّبع نتعلم الأدب من اخلاقه، والجميل من أفعاله، فلا نحثّه على الجميل وهو الصبر، ولا نرغّبه في الجزيل وهو الأجر، فلير فيهما رأيه إن شاء الله. اهـ

وكتب أيضا رضي الله عنه إلى بعض الأمراء ما نصه: الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

المقام الذي لم تزل أعيان الأماني ترمقه بعين الوفاق، وتتطاول إلى عليائه ميامن السعد وتمد إليه أعناق الإيثاق ([1])، وركضت أفراس الفخر في ميادين مجده على وفاق، وهز في النصر من عطفيه أو جاءه من هاتيكم الشمائل وِكافُها المِغداق، وتجاذبت أحاديثَ مآثرِه ألسُنُ المعالي على منابر الأشواق، ودام الدهر إليه مسرا فلوى نحوه صفحات الإملاق، فازداد بعوارفه وراح ذا رواق، وطارت محاسنه في الآفاق، وسافرت آيات فضله على متون الوفاق، وألسنة الرفاق، وسارت سير الشمس في السماء، وتأثرت بها سواكن البر والماء، مقام ابن خلفاء الله في بلاده، وأمنائه على عباده، خلد الله ملكه، وأدار في مدار السعادة سلكه، سلام كما رق النسيم، غَب الهتَّان ([2]) //386// الوسيم، وترنمت الأطيار، على أفانين الأزهار، والرحمة والبركة، في السكون والحركة، هذا وقد وافانا من مقامكم السامي، وجانبكم الأمامي، صحبة الفاضلين، السيدين الماجدين، الصفيين الشريفين القادريين، سيد عصره، ووحيد دهره، الناشئ في عرصات المجالس، والمصدر على أبناء المدارس، مولاي عبد القادر بن علي بن أحمد وابن عمه الزكي، الفاضل الذكي، مولاي طاهر بن مسعود بن عبد العزيز، كتابٌ رائق البيان، فائق التبيان، قد تنمقت سطوره بتأنق فصاحته، وتروَّقت طروسه بتألق رجاحته، وراقت صدوره فِقَر أعجازه، فأحللناه محل الوسن من الأَمْآق ([3])، وحيث الأشواق من النازح المخفاق، وتصفحناه فإذا المودات ذات تصافح واعتناق، واصطباح واغتباق، قد وضعنا لتباريح الهوى أعناقا على أعناق، ونبذت الهنات والأوزار، وإن قربت موجبَ الأعذار، وإن كان خليقا بالحِب أن يزار، ولا يمل وإن جار، سيما إذا كانت المودات مؤسسة المبنى، مواصلة المعنى، قد أحكمت بحمد الله آياتها، واتضحت بيناتها، وقد أفصحت بالتعزية بالمصاب، وما دهى من لهى (كذا) وصاب، وآذانت بما عند مولانا من مزيد الوداد، وما انطوى عليه مما هو مألوف من علي مقامه ومعتاد، فابتهجت بذلك الأرواح، واهتزت له النفوس والأشباح، //387// وقد كنا كتبنا إليكم أيدكم الله كتابا عاما مضمنه ما في كتابكم وفحوى خطابكم، فَخَنَا عليه الدهر بصروفه، وعواتب صنوفه، وقد أنهى إلينا الفاضلان الشريفان المذكوران ما لديكم من الوداد لسيد هذه الدار، وما أنتم عليه من المنزع وطيب النِّجَار، مما يناسب مناصبكم الأصيلة، ويجمع مآثركم الأثيرة الأثيلة، وأنكم قد أمَّنتم من أمَّنَّاه، وأجرتم من أجرناه، ممن ورد علينا، وتوجه إلينا، أبقاكم الله للإسلام وَزرا ([4]) وحصنا، ومثابة للناس وأمنا، هذا وليكن لمولانا بالرعية اهتبال، ولتكن منه على بال، وينظر في حقوقها، ويريحها مما يعتريها من خفوقها، ويحسن في سعايتها ويراعيها حق رعايتها، ويصير له ذلك أقصى السُّول، فإن الإمام راع ومسؤول، سيما من كان بذلك أحق، و(...) ([5]) به وأوفق، لتنائي داره، وحق جواره، ولكونه من الثغور، كما هو أزمور، فيما في إصلاحه نكاية للكفرة، ودرء في نحور المردة الفجرة، على أنه ليس ببدع ممن ارتضاه الله إماما، وأقامه الله أماما، وارتدى من حلل المفاخر أسناها، واستساغ أحلاها، أن يتضلع بهذه الشيم، التي هي للمكارم قنو وسنم، وقد كنا أجمعنا أوبتهما إلى حضرتكم العلية، ومقاماتكم السنية، فآثرنا التبرك بنزولهما، والتحفي بحقوقهما، لما راهق من الموسم //388// الشريف، والمولد المنيف، والسلام.

وكتب أيضا رضي الله عنه إلى الأمير المذكور بما نصه: الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

---

1 – كذا تبدو، والإيثاق: مصدر للفعل أَوثَقَ.

2 – قال صاحب لسان العرب عن الهتن: (...وقيل: هو من المطر فوق الهطل، وقيل: الهتنان المطر الضعيف الدائم) اهـ. ويقال غَبَّ في الزيارة: أي زار في أوقات متباعدة.

3 – أمْآق: جمع مؤق وهو طَرَفُ العَين ممَّا يلي الأنفَ.

4 – وَزَرَهُ عَلَى أَعْبَائِهِ: آزَرَهُ، عَاوَنَهُ، سَاعَدَهُ، قَوَّاهُ.

5 – كلمة تعذر ضبطها، تقرأ "وأمسَّ" والله أعلم.

المقام الذي نافت على السِّمَاكَيْن هممه، وفاضت على سواكب الغمام تحفه ودِيَمُه ([1])، وطافت بكعبته الأماني، وارتاحت لبوارقه وجوه التهاني، فأنجد لباسَها، وخَوَّل ما بهر أنواعها وأجناسها، وابتهجت بشرف جوهره الأسلاف، كما اهتزت بمباهج مناهجه الأخلاف، وسارت بمآثرها الرسائل، وسامته الأسماع دون وسائل، إن أردت المجادة فهو مكانها، والسماحة فهو لسانها، وعينها وإنسانها، وحديقتها وبستانها، أو شرف الأصل والحسب، ومروءة المجد المكتسب، فهو رافع لوائه، ومشيد بنائه، (...) ([2]) أن صار واسطة النظام، ومتسع نطاق الكلام، وخلاصة آبائه الكرام، وأسلافه العظام.

وليس يصح في الأذهان شيء　　　إذا احتاج النهار إلى دليل

لا زالت تخدمه أحرار المعاني، كما خدمته أرباب المغاني، أدام الله أيامك، ونصر أعلامك، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ما قامت بالجِرم حركاته وسكناته، هذا وقد ورد علينا كتابكم السامي، وخطابكم الأمامي، فتصفحنا //389// مسطورَهُ، وتعرفنا منشوره، فإذا به قد نشرت عليه المصافاة أعلامها، وفتحت فيه أكمامها، واعتنقت فيه المودة اعتناق الوامِق ([3])، وانتظمت انتظاما رائق (كذا)، وأفصحت صفائح صفحاته بود ووصول، واشتملت شمائله على خصوص وشمول، وأذنت تباشيره بالنصر والظفر، وبلوغ القصد والوطَر، فليشكر مولانا خالقه على ما أنعم، وأولى وألهم، من سوابغ امتنانه، وخوارق إحسانه، فإنه ولي ذلك، والكفيل بما هنالك، وليتقرَّر لديه حفظه الله أنه قد حَمَّله الله أمانته واسترعاه رعايته، وجعله خليفة على الخليقة، ومؤمَّنا على البرية بحسن الخليقة، ويَسِيرُ بهم قصدا، ويحتفل بهم جُهدا، وينتهج النهج المسول، فكلنا راع ومسؤول، والرعية أيدكم الله طويلة العهد بهذا الأمر، صادرة منه برهة من الدهر، فخذوها برفق واِسْتِئْلاَف، واستلطاف وائتلاف، فإن للنفس جموحا، واستنكافا وجنوحا، لعدم اعتيادها، وكثرة اعتمادها، والجبر على الطاعة، مخل بأمور السياسة وإضاعة، فامنحوها من المعروف ما به تتصل، وإلا يوشك عليها أن تنفصل، ليكون ذلك عونا على استنفارها، وإقبالها بعد استدبارها، فذلك أجدر ببلوغ الطلب، واقتناص //390// الأرب، وها نحن قد كاتبنا الفرقة المختلفة، والفئة المتخالفة، نجمع أمرها عليكم، وإلقاءَ زمامها إليكم، وتؤدي الطاعة، جهد الاستطاعة، وتكون كلمتها على الوفاق، وتنبذ الخلاف والشقاق، وخديمكم الأسمى، ومملوككم الأحمى، ينشر لكم ما من حديثكم نظمنا، ويُنهي لكم من ذلك ما وسمنا، ومن حقيقته ما رسمنا، والله تعالى يبقي للعالم عزيز وجودكم، ويرسل عليهم عوارف جودكم، والسلام.

وكتب رضي الله عنه أيضا إلى بعض الأمراء بما نصه: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه. المقام الذي ساوى السماء سمتا، وزاحم السِّماك سمكا، وحاذى الفرقدين بمناكبه، والجوزاء بكتائبه ومواكبه، فلا تَفلُّ الشدائد عُرى عزمه، ولا يسوم الخسوف محاق ([4]) بدره ونجمه، فهو قمر فضلٍ دار في فلك المَجادة، وهلال فجر لاح من سماء الإجادة، فمباديه طوالع السعود، وغواديه شاملةٌ للأغوار والنجود، فناهيك به شرفا رائعا شائق، وزهرا يانعا باسق، قد انتظم به عقد الخلافة على وسطاه، وسفر له الفَخَارُ عن براقع مُحيَّاه، كأنَّ الله خيَّر خلائقَه الحسان فسوَّاها، فجاءت كما اشتهاها، كيف لا وقد تفرَّعَ من دوحة كبراءَ أعملَ بَعدهم قدَمَه، فأضحى //391// الشرف خَوَلَه ([5]) وخَدَمه، إذا القوم مدوا أيديهم إلى المجد فمد المجد إليهم يدا، فنالوا الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا، أجل من تلقى المجد كابرا عن كابر، وحاضرا عن غابر، حتى صار نظامَه، ومالكا قيادَه وزمامَه، فهو الآن يتفجر منه الفخر، ويتشرف به الدهر، لا زالت دولته موشية الأطواق،

1 – الدِّيمةُ: المطر يطول زمانه في سكون، والجمع دِيَمٌ.
2 – كلمة لا تبدو مناسبة للسياق، كتبت هكذا "احل" أو "امل".
3 – الوامِق: المُحِبُّ.
4 – المُحَاقُ: مَا يُلاَحَظُ مِنْ نُقْصَانٍ فِي القَمَرِ بَعْدَ اكْتِمَالِهِ.
5 – خَالَ عَلَى أَهْلِهِ: دَبَّرَ أُمُورَهُمْ وَكَفَاهُمْ.

شهيرة (...) ([1])، رائقة النظام والاتساق، ذات اصطباح واغتباق، مَزيدة ريعان ورواق، سلام الله الأتم، ورضوانه الأعم، يؤمان حضرتكم العالية، وإيالتكم الغالية، هذا وليتقرر عنده أيده الله أن بين أسلافه الكرام، وآبائه العظام، وبين أسلافنا ما لا يُجهل مقدارُه، ولا تخفى آثاره، قد شادوا أركانها وأصلها، ورفعوا قواعدها وأسَّها، عرف حُجتَها كلُّ مَن نَفَر، وشاهد عقدها مَن بدا وغبر، وسافرت آياتها في الأقطار، وسامرت غوانيها الأزمان والأعصار، وسارت مسير الشمس في كل برد وحر، وهبت هبوب الريح في كل بر وبحر، وأينعت أثمارها، وراقت أزهارها، وخطبت بذلك على منابر أفنانها أطيارُها، وسَفرت مخدراتها عن غرة صباح، وبهر استمرارها كما بهر الافتتاح، فها نحن كتبنا أليه نجدد عهده، وننظم عقده، وإن كان أيده الله بذلك أعنى، وعن الإعلام به //392// أغنى، فإن للنفوس إلى مستماه السامي، ومنتماه النامي، تشوفا وتشوقا، وشغفا وتعلقا، واستشرافا وطموح، وارتياحا وجنوح، (...) ([2]) والد مولانا الأسعد بوجوده وسحائب جوده، قد نكص على عقبه، بعد إسراعه وخَبَبه، فأسا ([3]) به حدثانَ كَلْمه، وسدَّ ([4]) لسلطانه عظيم ثُلمه. هذا وليعلم أيده الله أنَّا بالسَّنَن المَسنُون مقتفون، وبالأثر المأثور مقتدون، أخدان محبته، وحلفاء مودته، وليكن له فيما مضى من أسلافه أسوة، واقتفاء وقدوة، لازال ظله ممدودا، وطالعه مسعودا، بِمَنِّ الله وطوله، وقوته وحوله، والسلام.

وكتب رضي الله عنه إلى بعض الأمراء أيضا بما نصه: الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه. المقام الذي زاحم الثريا بمناكبه، وخفقت بنود المجد من مواكبه، وملأ الوجود إحسانا، وعم البسيطة استحسانا، وانكشفت لبهائه البدور والشموس، واقتصرت عن كنه علائه الأقلام في ساحة الطروس، فناهيك بمن أصبح للإمامه قواما، ولأسبابها اتساما ونظاما، وبسط للآمال آمال (كذا)، وملأ كفها بعوارف الكمال.

لولا السعود التي نيطت بهمته لكنت أنسبها بعدا إلى زُحَل

//393//

فلاح في سماء السعادة بدرا، وحل في ذروة المجد صدرا، بيد أنه تفرع من دوحة الأكابر، ورثوا المجد كابرا عن كابر، لا زالت دولته محمية الأقطار، مقضية الأوطار، تتوالى عليها الأعياد، توالي العهاد، أدام الله أيامه، ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه، سلام الله تَأَمُّكم نفحاته، ورحمه الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته، هذا وقد كتبنا إلى مقامكم السامي، وجنابكم الأمامي، نصادركم فيه بالشفاعة، ونخاطب إيالتكم بالضراعة، في شأن رفيقي إحسانكم، رضيعي ندى نعمائكم وإنعامكم، فلان وفلان، نستمد لهما منكم الوداد، ونستلين القياد، فيما أنتم بخبره أدرى، ولحديثه أحفظ وأروى، فقد رفعا حالهما إلى داركم هذه التي يعلم بودادها الحاضر والباد، ويشهد بها المفرد والناد، يتعللان بعليل الأخبار، ويشيمان في ليلة الخطب بارقة الاستبشار، فاسترجعوا منهم النفار، وراعوا فيهما حق الذمة والجوار، برد ضيعتهما من البستان والدار، فما أخلق مقامكم بأن يعتمد الجاني على حلمه، ويحصل منه الطالب على حظه وسهمه، كيف وقد أقامكم الله سبحانه في مقام لا يُخفَر، وفي مكان لا يُكفر، بل اتخذكم خلفاء على خليقته، وأمناء على بريئته، وحملكم أمانته، واسترعاكم رعايته، لتراعوا مصالح عباده، وتنهجوا بهم مناهج هدايته //394// ورشاده، فكونوا للخلق كالآباء في حسن التأديب، وأحسن التأليف والتهذيب، ويسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا، واعرفوا للعزيز والذليل حق ذمته، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم)، و(ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، و(ارحموا عزيز قوم ذل). وليشملكم قوله صلى الله عليه وسلم (سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله) فبدأ بالإمام العادل، ولعلمِنا نفور الطباع، ونبو كلامنا عن الأسماع، إذ خاطبنا فألحنا وذكرنا فأطنبنا، لمقتضى ثمرة الوداد الذي أسبابه بحمد الله منبرمة، وآياته محكمة، والعهد الذي حالُه مطرزة معلمة، وعملا بمصداق قوله صلى الله عليه وسلم: (اشفعوا تؤجروا)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (من أبلغ سلطانا حاجةَ مَن لا يستطيع إبلاغها ثبت

---

1 – كلمة تعذر ضبطها، تقرأ "الاتواق" والله أعلم.
2 – كتب على هامش المخطوط "بياض".
3 – أَسَا الجرْحَ والشيءَ: أَصلحه. والكَلْمُ: الجرح.
4 – في المخطوط "سدَّد" وهو سهو أو تصحيف.

الله أقدامه على الصراط)، هذا وإن اعتراه من توجه خطابنا إليه استثقال، فاذنوا بالأوبة عنه والانتقال، فإن المراجعة، ربما كانت موجعة، لازال ظلكم على البرية ممدودا، وطائركم مباركا ميمونا مسعودا، آمين والسلام.

وكتب رضي الله عنه إلى الأمير المذكور بما نصه: الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، المُنتمَى الرفيع، والمحتِد المنيع، الذي استكان الدهر لهيبته، وتضاءل لصولته ووطأته، ولبَّت //395// ناديَه النواحي والأقطار، واستطالت بطلعة سعوده الأزمان والأعصار، وارتشف من ينبوع الخلافة زلالها، وانتهل عذبها وسلسالها، وانجابت إليه المجادة فنشرت أعلامها، (فطلابها) ([1]) تقتضيه ذمامها، وترتضيه إمامها، لقد انتظم به من المآثر ما انتثر، ونما به من آثار أسلافه ما اندثر، بيد أن ارضعته الخلافة ألبانها، وذكرت به الأيام عنفوانها، شرف يطول على السِّماك وسؤدد كالصبح لا يسع العدا إنكارُه، فلاح بدر سمائه، ونجح سرب سنائه، وعم البسيطة جود جوده، واستضاءت بوجوده، وكيف لا وهو سبيل الأئمة الأكابر، وارثي المجد كابرا عن كابر، أدام الله سلطانه، وأظهر علوه وبرهانه، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته. هذا وقد ورد علينا من مقامكم السامي، وجنابكم الطامي، خديمكم الأنجد، وابن معلمكم الأمجد، فقص علينا من خبركم ما أنتم له أهل، وما أنتم له معدن من الفضل، فاستفهمناه عن قدومه وسببه، وقصارى أمله وأربه، فشرح لنا من حاله، وما أبرزه بلسان مقاله، مِن خَطْبٍ أنفاسُهُ مِن جَلَلِه تَتَصَعَّد، وحسراته من عظمته تتجدد، وهو أنه احتُمِل إلى السجن مقيدا، وبنحو عشرين ألفا من ماله مطلوبا ومهددا، فافتدى نفسه بماله، حتى أنفد بضاعتَه ومالَه، فبقي عليه //396// بعض ذلك فلم يملك منه يسيرا، ولا نقيرا ولا قطميرا، وقد اشتد به العذاب، ونوقش الحساب، فأعطى رهانه وضمانه، وسُجِن الكلُّ مكانه، فضاقت الأرض عليه رحابا ([2])، وانسدت عليه أبوابا، فجاء مستشفعا بما تحقق بين داركم هذه والمقام الرفيع، والجناب المنيع، من الود القديم والجديد، الطارف منه والتليد، فاسترجعوا أيدكم الله نِفاره، وراعوا ذمته وجواره، ومنوا عليه وأطلقوه، ومن رق ما بقي عليه من الآلاف اعتقوه، ولا تجعلوا بَرقَهُ خُلْباً، وتقطعوا دون آماله أربا، كيف وقد لاذ بملوذٍ بكم معتصم، واستمسك بحبل منكم غير منفصم، وأنتم المقتدى بهم في المكارم، والمتشوف إليهم في المآثر وكرائم الأكارم، تولى الله رعايتكم، وحرس بيمنه سعايتكم، بمنه وطوله، وقوته وحوله، والسلام.

وكتب أيضا رضي الله عنه مخاطبا لأهل فاس مجاوبا لهم لما استنصروه على محاصِرهم بما نصه: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه. إلى الشرفاء والفقهاء الخاصة والعامة من أهل فاس، التي ليس في جلالة منصبها التباس، حيث الشرف اللباب، والعلم الطافح العباب، والعقول الذكية والألباب، والفضائل المسهلة الأسباب، لطالب الاكتساب، مد الله عليهم رواق أمن //397// لا يزال مسبولا، بقدرة من يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومهد لهم لتدارك لطفه، و استدراك التعرض لرحمته وعطفه، سببا لا يزال موصولا، لا مفصوما على الأيام ولا مفصولا، بمنة الله وطوله، سلام عليكم ورحمه الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته، وبعد، فقد ورد علينا كتابكم الذي أعلمَ بالحال وشرح، وآلم قلوب المؤمنين وجرح، وإن كان مما ورد وطرأ، حتى قضت الأخبار من الأيام قبله وطرا، فعزيز على المؤمن الواحد فكيف بالجمع، فكيف بتلك المدينة التي هي لهذا القطر بمنزلة البصر والسمع، ولذلك لم تزل على الأيام بل على الدوام، نَرتَمِضُ ([3]) بأهوالها، ونضرع إلى الله في صلاح أهلها وأحوالها، ونستوهب لهم من الله تعالى نعمة يتكفل الشكر بدوام نوالها، ونستدفع عنهم بوقايته ما يتسبب لزوالها، فلم نَخْلُ قط من إشفاق، أن يُقطَع ذلك الإرفاق بوقوع ما يُعارف النكر، ويُناكِر الشكر، فما هذا الواقع الوقتي إلا جزئي من كلي، وثمرة شجرة (تمد) ([4]) ولا تحلي، ولما نعتقده من جلالة تلك المدينة وأهلها، وأصالة فرعها في الحضارة وأصلها، استغرب عندنا أن يشير عليهم أهل البداوة برأي، أو ينصحوا لهم في أصلاح خلل وَوَهْي، أو يخاطبوهم بسورة أمر ونهي، //398// أو ينهوهم على ما يُحمد أو يُذم من سلوك

---

1 – كذا تبدو، والله أعلم، والعبارة مشوشة.

2 – في المخطوط "فضاقت عليه الأرض عليه رحابا"

3 – ارْتَمضَ من كذا: اشتدَّ عليه وأقلَقَهُ.

4 – اجتهدنا في قراءتها والله أعلم.

وسعي، حتى ورد كتابكم الأثير، وخطابكم الذي هو لعزيمة النصيحة مثير، مستحثا للجواب عن مقتضاه، مستدعيا لما استحسنه وارتضاه، ففتح لنا الباب للمقال، ووجد الناصحُ وإن استصغر نفسَه السببَ إلى المقال فقال، فأما ما استدعى إليه، وعقد خنصره عليه، فلا يخفى عليكم أنه خروج بنا عن الجادة، واتباع للسبل المتفرقة النادَّة، وخروج الإنسان عن طوره، وتعديه نطاق دوره، موجب لاختلال النظام، والانكباب في الأمور العظام، فتنقلب الحقائق، وتتقلب على السالك الطرائق، ومن ترامى إلى غير ما أقيم فيه، شهدت الحال في ترامِيه إلى ما يناقض الانتحال بأنه سعيد، فينبغي أن لا نكون من ذلك في شيء، ولا نستدري بظل منه ولا فيء، أما وجهٌ ينفع ولا يضر، ولا يُسلك فيه بغير الجادة ولا يُمر، فلا نألوا جهدا، ولا نستشعر فيه زهدا، بل نحرص فيه على الوجه الأهدى، ونستبدل فيه بالنوم سهدا، والله تعالى يُيَسر الأمور، ويخمد بلطفه ورحمته نيران الفتن والشرور، وأما ما فتحتُ بابه، وهيأتُ أسبابه، فقد اقتضى المقام أن ينبني الكلام فيه على أصوله، ولا يقتصر فيه على بعض فصوله، وأن كان على سبيل الإجمال، إذ ليس للتفصيل إلا على طريق التمثيل //399// إعمال، فلا خفاء أن تلك المدينة هي قاعدة البلاد، وخزانة الطَّارِف والتِّلاد، فهي أم القرى، ومَأَمُّ السُّرَى ([1]) والحضرة التي يقال فيها الصيد كله في جوف الفرا، والمدينة التي سارت الركبان بحديث اختيارها وما كان حديثٌ يُفترَى، فهي رأس المغرب وعينه، وجماله الواضح وزينه، قد جمعت محاسن الدين والدنيا، وشتات الفضائل بلا ثنيا، ومهما كانت الأسباب الدنيوية تُحمَل من غيرها وتُجلب، فالعلم كنز لا يستخرج من غيرها ولا يُطلب، فيها عنصره المتدفق، وينبوعه المُروي للجادِّ والمترفِّق، وسوقه التي تُحسِب ([2]) الرفاق، وتَمير الآفاق، ويقول من يجدُّ ولا يهزل، السر في السكان وفي المنزل، كما لا خفاء بما وقع من عنائها، ومكابدة أبنائها، فقد خربوا بناءها، وضيقوا فناءها، وفعلوا في داخلها وناديها ما لم يفعله بخارجها معاديها، فأصبح غِرُّها في هوان ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ([3]) حتى أتى الخراب على كثير من المساجد والمدارس والصوامع، وسُعِي في تخريب الأعظم الجامع، وحيل بين ذكر الله فيه والصلاة وبين طلابها، (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها) //400// إلى ما ارتفع عدده من الدور والأسواق والرباع، التي استولى عليها الخراب والضياع، وتُبُوِّئَتْ مقاعدَ للقتال، ومَسالِح ترسَل منها الآجال على الرجال، فلله أرحام هناك تُشقق، وأديمٌ معصومٌ يُقَدُّ ويمزق، وأموال تنتهب، وعظائم تُرتكَب، فكم انتُهِك من الحُرم، وارتُكِب من الأمر المحرم، وكم أُضيعَ من الحقوق، وأُذِيعَ من العقوق، وأعين من عالم بين قتل وجفا، وإمساك على هون يتوقع نزول البلاء به بلا خفا، فما وزع عن ذلك وازع، ولا نزع يده من فِرقة الفُرقة نازع، وإن كانت نار الفتنة تدفن في رمادها، ويتظاهر أهلها بإخمادها، فهي عشيرة الإضرام، متوقعة الالتهاب والالتهام، لم تزل دعواها مسموعة، والقلوب على ذلك الافتراق مجموعة، إلى المظالم التي لم تَخْبُ نارُها، ولم تُغسَل بماء الإنابة أَوْضارُها ([4])، مِن تضييع أهل العلم والدين، وتعطيل مراسم العلم والدين، المنصوبة للمستفيدين بحبس أحباسها، وقطع تلك الإدرارات واحتباسها، وصرفها في غير مصارفها، وتحويلها عن قصد واقفها، وهذا خطيب الجامع الأعظم وإمامه، وصاحب الفتوى وهو منصب يجب إعظامه واحترامه وإكرامه، يموت هناك هزلا، ويقاسي الشدة أزما ([5]) وأزلا، وحقُّه بيِّن، والقيام به متعيِّن، ولو كان إنصاف، لكفته تلك الأوقاف، وكم من فقيه وشريف //401// ومسكين وضعيف، وغيرهم من أهل الحقوق المعلومة، والمراسم المرسومة، قد مُنعوا من مرسومهم، واستولى ظالمهم على مظلومهم، فقاسوا الشدائد، ولم يَذُد عن حوضهم ذائِد، وليت المساكين نجوا رأسا برأس، ولم تتمرس بهم الأمراس، فتضرب عليهم المغارم والملازم، ويُلزموا من الأمور ما ليس لهم بلازم، حتى شمل التوظيف، المشروف والشريف، ثم لم تغنِ الظلامة، عن المساكين قدر قلامة، بل شُريت بها الفتن واشتريت المحن، بغالي الثمن، على ما كان من ارتفاع الأسعار، ومكابدتهم لملازم الليل والنهار، إلى ما جرى هذا

---

1 – رَجُلٌ سَرِيٌّ: شَرِيفٌ سَخِيٌّ، والجمع سُراةٌ، سُرىً، سَرايا.
2 – أَحْسَبَ فلانٌ فلاناً: أَعْطاه أَو أَطْعمه وسقاه حتَّى قال حَسْبي.
3 – أخطأ الناسخ في الآية فكتب (ها انتم أولاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) انظر الآية 84 من سورة البقرة.
4 – الوَضَرُ: الوَسَخُ من الدَّسم أَو غيره.
5 – أزَم العامُ عليهم: ضاق واشتدّ قَحْطُه، قلَّ خيرُه.

المجرى، مما أنتم أعرف به وأدرى، وقد علم الله تعالى أن ليس مرادنا أن نجرعكم من ذكره مَضاضة، ونلحق بكم من إيراده غَضاضة، ولكنه النصح، تستلزم مرارتُه إن شاء الله حلاوةَ النجح، فما نصح وبر، من صلى على وبر، وليس يعزب عنكم أن التجاسر على المدينة، إنما سببه ما ذكر من الأمور المهينة، فهي فيها مُطمِعَة وعليها معينة، تتقاضى لها الإهانة تقاضي الغريمِ مَدينَه، ولو حفظ أهلها حالها، وصانوا حسنها وجمالها، لم تتعلق بها أطماع المعتدين، وتمتد لها أيدي المفسدين، وإن عَرَض شيء من ذلك، سُدَّ في وجه باغيه المسالك، فلو صانوها لصانتهم، ولو عظموها في النفوس لعظمتهم وما أهانتهم، فما أُتِي الإنسانُ إلا مِن قِبَل نفسه، وما دَخلت عليه الداخلة إلا من جنسه، فهو على الحقيقة متسبب //402// في ذلك وهو الساعي، كيف الخلاص من العدوان إذا كان عدوي بين أضلاعي، ومن أمثِلة العامة ليس بهم يُسَد دونه الباب، ومن ضاق عليه نعله لم ينفعه اتساع الرحاب، ثم إن من يزرع الذنوب يحصد لا محالة الخطوب، وإنما ذكرناكم بما لم يزل بينكم معروفا وإن لم يكن معروفا، ونبهناكم لما عسى أن يكون الدهر عنه مصروفا، لتستحضروا العله التي هي أم العلل، والزلة التي استنبتت ([1]) الآثام والزلل، بما ذكرتم عن الفئة المحاربة والفرقة التي هي لرضاء الله مغاضبة، المؤذنة للمسلمين من الخاص والعام، المؤذنة بحربِ شديدِ العقاب والانتقام، فسيكفي الله تعالى شرها، ويرد في نحرها كيدها، وأمرُها إنما هو من ثمار ذلك الغِراس، ونتائج ذلك القياس، فإنه عارض منذ أشهر قليلة، وذلك مستحكم منذ دهور طويلة، وذلك من فعل الإنسان وكسبه، وهذا مما يترتب عليه من جزاء ذنبه، فقد قال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وفي خطبة الصديق رضي الله عنه: "ما نزل بلاء إلا بسبب ذنب، ولا ارتفع إلا بسبب توبة"، فليفر العاقل إلى ربه، ويعترف بين يديه بذنبه، (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون)، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون، وتبرؤوا ممن إذا قيل لهم لا تفسدوا في //403// الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، وهلموا إلى باب من بيده ملكوت السماوات والأرض وإليه ترجعون، وأعز أحوال المرء وقوفه بباب مولاه، فهذا الذي منه مبدؤه وإليه مَعاده ولا وجود له لولاه، ثم إن التوبة هي ما صدقتها الأفعال، وشهد لها لسان الحال، فليُغنِ الفعل بها عن القول، واستعينوا بمن له القوة والحول، فتَحمَدون إن شاء الله غِبَّ السرى، وقد علمتم أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى، وما نزعتم به في كتابكم من قوله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم) خطاب عام، مشترك الإلزام، فمن نصره الله على نفسه نصره الله على غيره، وكان الكفيل له بإيصال كل فائدة من خيره.

هذا ما أبديناه من النصيحة، وأخلصنا فيه من الود صريحه، عن قلوب تود لكم الخير كله، وتذود عنكم بمبلغ طاقتها الشَّرَّ وأهلَه، وتُمَحِّضُ ذلك لمن عنت له الوجوه، وصدَّق الآمال لمن يأمله ويرجوه، فإن صادفنا الصواب ووافقنا التوفيق فيما أديناه، فمنة من الله يجب شكرها، ويرجى في الصالحات ذكرها، وإن أخطانا فغير مستغرب، فذلك أدنى لوصف العبد وأقرب، ونستغفر الله العظيم مما زلت به القدم، أو طغى بهِ القلم، ثم المراد منكم أن تجاوبونا على ما تروه هنا من صواب او خَطا، وتكشفوا عن ذلك الوجه الغِطا، وأن يحضر الملأ لقراءة هذا //404// الجواب، كما حضروا لكتابة ذلك الكتاب، حتى تجمع العقول، فإنه أحرى بالصواب في المقول، والله تعالى يوفق الجميع لما يُرضِيه، ويغفر لنا ولكم في كل قضاء يقضيه، والسلام. وفي الثالث والعشرين من المحرم عام ستة وأربعين وألف.

وكتب إليه بعض أهل محبته بما نصه: حرس الله بمنه كمال السيد الإمام العالم الأوحد الحافظ المسنِد، فاضل العصر على الأطلاق، وحائز رتبة التقديم في العلماء بالاستحقاق، شيخِ المشايخ أبي عبد الله سيدي محمد بن الشيخ البركة القدوة علم الأعلام، وحسنة الليالي والأيام، القطب الجامع بين الشريعة والحقيقة أبي الجمال سيدي أبي بكر بن محمد الدلائي أمتع الله المسلمين ببقائه، وأمدهم بعوارف البركات من تلقائه، سلام طيب عميم، يعتمد ذلك المقام الكريم، ورحمه الله تعالى وبركاته، كتب المحب من مقام ولي الله تعالى العظيم القدر، الشهير الذكر، سيدي أبي يعزى أفاض الله على جميعنا من بركاته عن الخير، والحمد لله ومنه المنة سبحانه، والمحب على ما تعرفه سيادتكم من اعتقاد المحبة التي هي عندنا عمل صالح ندخره ليوم المعاد، ونعتَدُّ بها للاستظلال بظل العرش بفضل الله غايةَ الاستعداد، وبنا من الشوق إلى رؤية تلك السيادة على بعد الدار، وتنائي الأوطان

---

1 – في المخطوط "اسْتَنْبَغَتْ" وربما "اسْتَنْبَقَتْ" وهي فيما يبدو مصحَّفة.

وتوالي الأوطار، ما تعجز عن استيفاء وصفه اليراعة، ويقصر عن مَداه //405// البليغُ وإن سبق في البلاغة والبراعة، إلى أن وردنا هذا المورد العذب، والموعد الذي يجمع أهل الشرق وأهل الغرب، فأحسسنا بقرب المزار

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار

فكادت تطير بناء أجنحة الشوق، وأمَّلنا رؤيتكم فلم يكن لنا إلى غيرها تَوق، لكن عرضت في الوقت عوائق حالت دون الأمل، وأحالت على تدارك هذا الفائتِ الآن فيما يُستقبَل، ومن جملة تلك الأعذار التي شرحها يطول، استعجال البعض من محبينا في هذا السفر لعذر له مقبول، ولم يُمْكِنَّا الانفصال عنه، وغير هذا، فانصرفنا راجعين والقلب لم يبرح إلى جهة سيادتكم منصرفا، وعلى ملاحظة تلك الكمالات معتكفا، وإلى هذا أمتع الله ببقائكم، ومنَّ علينا قريبا بلقائكم، فالمحب على ما تعرفه، فما الذي بعد ما تعرفه أصفه، ومرادنا إن شاء الله، مَدَّ اللهُ سبحانه في الأجل، ومَنَّ فضلا منه سبحانه ببلوغ هذا الأمل، أن نرجع إلى زيارتكم في الربيع إن شاء الله تعالى، وهو المسؤول سبحانه في إبلاغ هذا الأمل، وتيسير هذا العمل، فإن من جملة ما حَدانا على تعجيل الأوبة، والحذر من طول الغيبة، ما أطل من فصل الشتاء الذي يشق فيه السفر، مع تكاليف تقلدها فيه حيث الموطنُ لهذا العهد والمستقَر، ونحن الآن نتطلب //406// من سيادتكم دعاء يبلغنا ما أمَّلنا، ويتبعنا الكرامة حيث مِلنا، ثم نسلم على ساداتنا فروع تلك الشجرة الشماء، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، أبقى الله تعالى بركتهم، وأسعد سكونهم وحركتهم، ونسلم على من شملته تلك الدائرة المحوطة. انتهى ما وجدنا منها والسلام.

المقصد الثامن ([1]) في وفاته رضي الله عنه

اعلم أن البداية دليل النهاية، وقد تقدمت بداية هذا الشيخ الجليل، وما له فيها على الإجمال والتفصيل، وأما نهايته فحالها لا يخفى، وسيف الباحث عنها لا يَحفى، اتخذ رضي الله عنه هذه الدار مطية، فعظمت له عند الله الأمنية، وعلم أن الآخرة هي دار القرار، فكان في هذه على ظهر فرار، وعلم أن الحادي به نازل، فكان به كأنه غير آهل، ومن علم مقدار ما طلب، هان عنده ما عنه انقلب، وهذه حالة من عرف ربه، وعمر بالله قالبه وقلبه، لا يرى الوجود شيئا، ولو طاب فيه ظلا وفيئا، سيما الشيخ وأمثاله من الأماثل عن هذا المجال بمراحل، ولذلك غلب عليه تزهيد الخلق، والتحذير لهم مما يوجب عدم السبق، من الانهماك في الشهوات //407// والتعلق بها في الخلوات والجلوات، لا يخص بذلك أحدا، ولا يقطع من ذلك مددا، على سنة العارفين، ومنهاج السالفين، ومن ثم لما حضرته الوفاة، وحصل ما كان آت، جمع بنيه وأهله وقال موصيا ببديع قوله، ومحذرا لهم من الأمر الذي أعلمه الله أنه يكون فيهم، من بَعده يصطفيهم: يا بني، قال الله العظيم: (إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده)، وأنا أقول لكم: ولا من اغترف غرفة بيده، يشير لهم بذلك إلى ما يتجاذبونه من أمر الرئاسة بعده ويبتلون به من أبَّهة الخلافة.

كلام الشيخ سيدي محمد بن أحمد بن المسناوي
على مقولة الشيخ مَحمد بن أبي بكر الدلائي
"ولا من اغترف"

وهذه المقالة قد أنكرها عليه بعض من تمسك بالظاهر، ولم يعلم ما في باطنها من السرائر، بأن فيها معارضةً لكلام نبي الله المحكى عنه ذلك، وأجاب عن ذلك حفيده الإمام الشهير، العالم الكبير، أبو عبد الله محمد بن

1 – لعله خطأ من الناسخ، لأن المقصد السابق هو المقصد السادس.

أحمد بن المسناوي رضي الله عنه بما صورته: ثبت عن الشيخ الشهير، العارف الكبير، سيدي محمد بن أبي بكر رحم الله جميعهم، وقدس أرواحهم، من التنبيه والتلويح والإشارة، إذ قال لبنيه مشيرا إلى ما حصل لهم بَعده من الرئاسة الدنيوية والولاية والإمارة، ومحذرا لهم من تعاطي أسباب تلك التجارة، خشية أن يصدق عليهم قوله //408// تعال في كتابه المبين (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)، فلنعم المرشد للتلميذ والمريد، ولا راد للقدر ويأبى الله إلا ما يريد، يا بَنِي إن الله مبتليكم بنهر إلى آخره، وأنا أقول لكم: "ولا من اغترف"، فأنكر بعض الناس عليه هذا الكلام، وشنع عليه بغاية التشنيع والملام، إذ قابل قول المولى جل جلاله بقوله، وعارضه معارضة المثل بمثله، ومن تأمل وأنصف، وبالإذعان للحق وبالتحقيق اتصف، علم أنه لا موجب لهذا الأنكار ولا مقتضِي لهذا التشنيع عند ذوي الرسوخ، والأئمة الشيوخ، فإن مَورد القولين غير متحد ولا متقارب حتى يُعَدَّ قوله جملةً معارضا لقول الله تعالى ومقابلا له، وإنما [1] بالآية في مراده على طريق الإشارة، واستعملها في المعنى الذي قصد على جهة الاستعارة، وهذه طريقةٌ جارية مسلوكة، غير مجتَنَبة عند أحد من الأئمة ولا متروكة، ولما كان الاستثناء لا يجري في المضرب جريانَه في المورد [2] لمطلوبية اجتناب الأول كثيرا كان أو قليلا، دون الثاني، فإنه مرخص قليله دون كثيره، عدل عنه إلى ما قال، وأتى بتلك العبارة المناسبة لمقتضى الحال، جاريا في ذلك على مقتضى الشريعة، ومبالغة في التحذير من أسباب البعد والقطيعة، فكأنه يقول إن النهر الذي تبتلون //409// به معشر المخاطبين ليس كنهر أصحاب طالوت الذي يرخص لهم في تناول الغرفة منه دون الزائد عليها، بل هو أشد في المنع وأبلغ في الخطر لاستواء القليل والكثير منه في الامتناع، وعدم الرخصة في أدنى شيء منه لمن ليس له به نهوض ولا اضطلاع، فأنا بريء ممن تناول منه صبابة، ولو كان من أعز الأهل والقرابة، والمعنى المسطور، لا يتأدَّى بغير اللفظ المذكور، إذ ليس في الإمكان، أبدع مما كان، ولا يقال ما قبل الاستثناء كاف في تأديَة المعنى المشار إليه لأن ظاهره العموم، فهلا اقتصر القائل المذكور عليه مكتفيا بذلك العموم، والمعنى المفهوم، ليسلم من تغيير الكلام، لأنَّا نقول: إنما لم يقتصر عليه لئلا يفوته التنصيص، لاحتمال العام للتخصيص، فإن دلالته -كما عُرِف في فن الأصول- على شمول الأفراد ظنية، وإن كانت على أصل المعنى قطعية، والمقام مقام اعتناء بالمراد واهتبال، فلم يكتف فيه بدلالة الظاهر التي يتطرقُ إليها الاحتمال، بل عدل إلى التنصيص الذي هو مقتضى الحال، وأتى بالصريح الذي لا ينبغي معه إشكال، مبالغة في النصيحة، والتحذير من أسباب الفضيحة، ولئلا يُتوهم أن المضرب كالمورد في جريان تلك الرخصة، وأنه أشار بصدر الآية إلى تمام القصة، لا سيما والهوى في مثل هذا غالب على الناس، فلا يبعد أن يَصوبَ [3] //410// بهم فاسد ذلك القياس، فَيُتَّخَذ قولُه في ذلك الأمر حجة، ويَظُن مُرتكِبُه أنه على المحجة، فإن قيل: المنكَر عليه إنما هو إسناد القول إليه بعد إسناده إلى الله تعالى، لا نفس المقول والمقابلة التي تُشَمُّ منها رائحة التسوية وإن لم تكن مرادة له في قوله: قال الله وأنا أقول، فالجواب: أنَّا لا نسلم إشعار المقابلة بما ذكر مع اختلاف القولين، وتباين المدلولين، وعدم مناقضة أحدهما للآخر معنًى وإن وجدت صورة، وانتفاء المعارضة بينهما بوجه من الوجوه المحذورة، إذ ليس في ذلك إلا مجرد الإخبار بما قال المولى جل وعلا في نازلة، وبما قاله العبد في أخرى ليست لهما مماثلة، وعطف جملة الثاني على جملة الأول، وجمعهما في مساق واحد لإفادة المعنى المتحصل، وهذا ما أخاله يمنعه أحد انتصف، ولا ينسب مرتكبَه إلى سوء أدب إلا من جار وتعسف. ومن أقوى الأدلة على ما ذكرناه، وأعدل الشهود بما قررناه، قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة وقلت أنا أخرى، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار) وقلت أنا: "من مات وهو لا يدعو من دون الله ندا دخل الجنة) أخرجه البخاري في صحيحه، فها هو مقابلٌ //411// قول النبي صلى الله عليه وسلم بقوله، وإن كان ماشيا في ذلك على أصله، فلو كان في مجرد المقابلة بين القولين ما توهم من سوء الأدب، وإن انتفت المعارضة بين المعنيين، ما ارتكب ذلك ولا حام حوله، لِما عُلِم من

---

1 – كذا في المخطوط "وإنما بالآية"، ولا يخفى سقوط كلمة في هذا الموضع.

2 – لكل مَثَلٍ مَورِد ومضرِب، فالمورد هو المناسبة الأولى التي قيل فيها المثل، والمضرِب وهو الحالة التي تشبه المناسبة الأولى وينطبق عليها المَثَل.

3 – صَابَ به: وقَعَ.

كمال أدب الصحابة رضي الله عنهم، ولا سيما من كان مثله، ولن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى ما كان عليه أولها.
فإن قيل: كلام ابن مسعود إنما هو تصريح بمفهوم كلام النبي صلى الله عليه وسلم مدلولٌ له بطريق الالتزام، بخلاف ما سبق من الكلام، فالجواب: أن الكلام السابق وإن لم يكن مأخوذا من نفس الآية الكريمة المذكورة فهو مأخوذ من غيرها من الأحاديث المشهورة، على أن كلامنا إنما هو في المقابلة اللفظية والصورة القولية، وهي موجودة في كلا القولين كما ترى، ومتساوية فيهما بلا امتراء، وأما المعنى فقد بينا أولا أنه ليس فيه ما يحذر، ولا ما يعاب على قائله وينكر، لجريانه على قانون الشريعة، وبنائه على ما يجب من سد الذريعة، فإن قيل أيضا مِن شرط القياس المساواة، وفرق بين كلام الخالق والمخلوقات، فالجواب: أن مقام النبوة كمقام الألوهية في وجوب التعظيم والاحترام، والمحافظة على كمال الأدب اللائق بالمقام، وإن تباينت //412// الأوصاف، حسبما بَيْن الموصوفين من الاختلاف، فهما في وجوب التعظيم سيان، وفي تعيين إقامة الحد على من أساء الأدب عليهما مِثلان، ويكفي في صحة الاستدلال بما ذكر والاحتجاج، الاشتراك في هذا القدر المحتاج، هذا ما ظهر لي وقت الكتابة، والله يشهد أني لم يحملني عليه عصبية ولا قرابة، والسلام. وكتب العبد الفقير، إلى مولاه الغني القدير، محمد بن أحمد بن المسناوي بن محمد المصدر بذكره، والمطيب هذا المسطور بنشره، رحم الله الجميع بمنه، انتهى بلفظه.

وكتب عليه الإمام أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي مانصه: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، ما سطر أعلاه بتوجيه المقالة المنقولة عن الشيخ المذكور متجه حسن، وإذا انتفت قرينة الريبة ودل مقتضى الحال والمقام على تعظيم حرمات الله، فمجرد المقارنة بين الجملتين كالمقارنة بين الاسمين، فيعطف اسم الناس على اسم الله جل جلاله ولا باس، حيث لا إيهام ولا التباس، ودعوى المقابلة والمعارضة في محل المنع كما هو بيِّن، فإن المتكلم ما قصد ذلك ولا فهمه منه السامعون، لِما حَفَّ من القرائن المبينة للمراد كما هو اللائق بالمظنون، والله سبحانه أعلم. وكتب محمد بن عبد القادر الفاسي كان الله له بمنه. انتهى //413// بلفظه.

وحاصله أن كلام الشيخ رضي الله عنه من قبيل الاستعارة التمثيلية التي هي تشبيه حالة بأخرى ، كما في "أراك تقدم رِجلا وتؤخر أخرى"، فيكون تشبيهُ حال بنيه وذريته بعده بأصحاب طالوت، بجامع التحذير من أمر يوجب البُعد عن الله تعالى، غير أن المورد والمصرف اختلفا من جهة أن الأول لا يضر قليله والثاني يضر مطلقا، فلذلك تغير لفظ الثاني، فكأنه يقول: حالكم كحال أصحاب طالوت، لكن الأمر أشق عليكم وأبلغ، والتحذير لكم أتم، وحينئذ فيكون استعارة تمثيلية مشروطة. فإن قيل: لِم لَم يَعُدُّوا المشروطَ من أقسامها؟، قلنا: لا خفاء أنها مبنية على التشبيه وقد ذكروا أنه يكون مشروطا، ولا غرابة أن يجري في المبني ما يجري في المبني عليه. وبالجملة فكلام الشيخ رضي الله عنه في غاية الإتقان، وعما ينغص الأفهام مُصان، وكيف لا وهو ترجمان أهل البيان، والمفزوع إليه في كل شان، وهذه حالته قبل أوان الارتحال، فكيف بوقت الانتقال، الذي تصير فيه الروح إلى أصلها من العالم الكامل، والمعرفة التي استوى فيها قديما المختلف والواصل، والله يختص بفضله من شاء من الوجود، فلنرجع إلى المقصود.

فنقول: كان رضي الله عنه //414// عنه في بعض الأوقات ينزل به من الأحوال الربانية، ويرد عليه من الواردات الإلهية، ما يثقل جسمه حتى لا يستطيع النهوض معه إلا إن أُعين أو حُمل إلى غير محله لغلبة سلطان الحال عليه، وقد وقع له ذلك مرة في يوم جمعة فقيل له: "لا تحسبن عدم نهوضك لثقل جسمك، بل لغلبة عظمة ربك عليك"، ووقع له ذلك مرة أخرى في آخر عمره حتى كان من يواليه من النساء يعالجن في رفعه وتحويله من مكان إلى آخر أن احتاج إلى ذلك مشقة وشدة، وسأله بعض نسائه ذات مرة عن سبب ذلك الثقل فقال لها: ذلك من عظمة الله عز وجل، وتحرك ذات يوم لحال نزل به، ووارِدٍ رباني غلب عليه، فجعل يقول: أنا مصباح زماني، أنا قنديل زماني، أنا زين زماني، ألا قد فاضت القدر فهل من مغترف، ألا قد فاضت القدر فهل من مغترف، ألا قد فاضت القدر فهل من مغترف اهـ.

ووجد بخط مؤلف مرآة المحاسن في كناش له ما نصه: ورد على شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي رضوان الله عليه وارد قلبي إلهي في قراءته رسالة الإمام الأستاذ أبي القاسم القشيري رضي الله عنه ليلة السبت سابع رجب بعد العشاء، واستمر به ذلك الوارد إلى صلاة العصر من يوم الأربعاء الحادي عشر منه من عام ستة //415// وأربعين وألف، وهو آخر يوم من نونبر، فتوفي رضي الله عنه ودفن بالدلاء ضحوة الغد وهو يوم الخميس الأول من دجنبر، وكان قبل مرضه كثيرا ما يسأل عن دخول دجنبر، كان دفنه في أول يوم منه، وذلك والله أعلم هو موجب سؤاله عنه، وكان رضي الله عنه أحب الأيام إليه يوم الأربعاء، ففيه دخل في حَجّهِ الحضرةَ النبويةَ، وفيه أتته من ربه الكرامة اليقينية.

قال في نزهة الحادي: ودفن ضحوة يوم الخميس المذكور بالدلاء قرب روضة والده، وبنيت عليه روضه ملاصقة لها بقبة حسنة بلغ التأنق فيها غاية، وكان فقده على الناس من أعظم المصائب، وعَدَمُه بلية رَمَت العبادَ بسهم من البلاء صائب، وإلى تاريخ وفاته أشار الشيخ العلامة الصدر أبو عبد الله محمد بن سعيد المرغيتي السوسي صاحب المقنع بقوله:

هـذا ضـريح التقـى والمجـد والكـرم	هــذا الــولي الــوفي العهـد والــذمم
هـذا المحــب لأهــل البيــت قاطبــة	محمـد بـن أبـي بكـر الرضـى العلـم
قـد سـار فـي رجـب لله عـام "مشـو"	بــه إلـــى جنـــة الرضـــوان والـــنعم
مـن أجـل ذا قـام فـي تشـييد روضـته	محمـد الشـيخ مـولى العـرب والعجـم

فعدَدُ نقط حروف لفظه "مشو" هو سنة وفاته رحمه الله //416// وهذه الأبيات، في روضة الشيخ مرقومة كالآيات، تعريفا وتشنيفا وهي من الآثار، التي تحيي الأخبار، وإن كان الشيخ المذكور، حاله رضي الله عنهم مشهور، غير أن الشعراء يوفون الحقوق، ويرون عدم الرثاء من العقوق، ولم أر في هذا الباب أكثر منهم وفاء، وأعظم منهم بالنفوس سخاء، فيبكون، وإن كان في الدموع مَنُون، ولا يخشون من لائم، وإن كان سلطانا صارم، فهذا ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد قدم يوم عيد النحر فوجد الناس قد فرغوا من تسوية التراب عليه، فوقف على القبر يترنم وينشد:

ملـــك الملـــوك أَســـامعٌ فأنـــادي	أم قـد عـدتك مـن الأمـور عـوادي
لمـا خلـت منـك القصـور ولـم تكـن	فيهـا كمـا قـد كنـت فـي الأعيـاد
قبَّلـت فـي هـذا الثـرى لـك خاضـعا	وتَخِـــذتُ قبـــرك موضـــع الإنشـــاد

وبقي ينوح والناس معه كذلك إلى أن عاين الغروب، ولم يبال بما يلحقه من أمير المسلمين الذي أسره بأغمات، وأركبه متن الأزمات، وأذا كان هذا لمن يُقصَد لحطام الدنيا، فكيف بمن به حياةُ الأبدِ بلا ثُنيا، فهو أحق، ولجميع ذلك مستحق، وكيف وبه كانت الدنيا حاصلة، والآخرة نازلة، والألطاف من الله مترقبة، والحوادث مصروفة متنكبة، فعلى مثله يحق العويل، ويُبكَى في //417// كل جيل، لكن لا مرد للقضاء، ولا محيص عن الفناء، أين الأوائل، وما جمعوا من الفضائل، سار جمعهم وبان، ودخلوا في خبركان، فلو نطق الجماد، لضحك ممن باد، وقال يا حسرة على العباد، كيف خلفوا الأموال والأولاد، لكن يا بشرى لمن سار بزاد.

أسـرع إلـى الهـرمين واسـمع منهمـا	مـا يرويـان عـن الزمـان الصـائر

وللمَلِك الأحد، الأمر من قبل ومن بعد.

والذي بنى القبة المذكورة على الشيخ رضي الله عنه هو صاحب مراكش الأمير الأجل مولاي محمد الشيخ الأصغر ابن الأمير الأسمى أبي العلاء مولاي زيدان ابن السلطان الجليل، الملك الحفيل، عالم الأمراء، وأمير العلماء، الأسد الهصور، أبي العباس مولاي أحمد المنصور، ابن الملك الأسعد، الحافظ للعقد، الوفي بالعهد، أبي عبد الله محمد الشيخ المدعو المهدي بن القائم بأمرهم الأول، الذي عليه منهم المعول، أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن الدرعي الحسني السعدي، رحم الله الجميع بمنه وكرمه، كان قد ولي العهد بمراكش وتمت له بيعته بها بعد وفاة والده ووفاة أخوته من بعده، فبعث لتشييد ضريحه وبناء الروضة بقبتها عليه عُمالا، وصناعا ومالا، وإقامةً من هنالك، وبعث من يقف على ذلك، فبنيت على أحسن ما ينبغي من التنميق، والتبهيج والتزويق، فكملت //418// وطلعت في أحسن وصف، وجاءت وبرزت في غاية أتقان ورصف، وبعث بعض فقهاء مراكش وأدبائها وهو صاحب المقنع المذكور، الأبياتَ الأربعةَ المذكورة فكتبت في أعلى مشهد الدربوز. انتهى.
وقال في الأزهار الندية: وقد أشار أيضا إلى وفاة الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي سيدنا الجد أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني رحمه الله بقوله:

محمد الأسمى الدلائي "هاشم" بكت فقدَه لما تناءى بمرحل

وفيه تورية في أسف الأشرف أهل البيت بالمغرب لفقده، لما كان غاية في ذلك مع أهل البيت والعلماء خصوصا، وسائر الناس عموما اهـ وعدد حروف هاشم هو سنة وفاته، فكان عمره تسعة وسبعين سنة أو ما يقرب منها أو ما يزيد عليها بقليل، وخلف عنه رضي الله عنه ثمانية من الأولاد، طبقوا بالعلم والعرفان الأقطار والبلاد، وهم سيدي محمد الحاج المتولي أمر الزاوية بعده، وأدرك الرئاسة، وسيدي المسناوي، وسيدي عبد الخالق، وسيدي عمر ([1])، وسيدي أبو عَمْرو ([2])، وسيدي الشاذلي ([3])، وسيدي محمد المدعو المرابط ([4])، وسيدي الغزواني ([5])، وسيدي أحمد ([6])، وسيأتي تعريفه إن شاء الله بقدر الإمكان، وبمن تناسل عنه من الأئمة الأعيان، إلى هذا الأوان.

قال الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله الخياط بن محمد الهروشي في كتاب كنوز //419// الأسرار، في الصلاة على النبي المختار، رأيت مكتوبا في روضة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنهما ما نصه: من صلى هذه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة وهو قائم غفر الله له قبل أن

---

1 – كذا في المخطوط، ولعله اختلط بأبي عمرو، إذ لم يَذكره اليازغي في "حدائق الأزهار الندية" لما تعرض لذكر أبناء محمد بن أبي بكر وجعلهم ثمانية مع ترجمة كل واحد منهم، وإن كان قد أخطأ فجعل الخديم من جملتهم وهو في الحقيقة عمهم، وقد جعله مكان أحمد. لكن ذكر محمد حجي عمر بن محمد بن أبي بكر في هامش كتابه الزاوية الدلائية ص142 الطبعة الثانية فقال: (أديب شاعر وشجاع باسل درس بالزاوية البكرية وقاد الجيوش إلى أن مات في أثناء قتاله ضد الحياينة بضواحي فاس عام 1055هـ/1645م وحمل مصبرا وقيل جريحا ثم مات ودفن بالدلاء). انتهى. ولم يذكر مصدرا لهذا الكلام.
2 – ذكر حجي في المصدر السابق أبا عَمرو بن محمد بن أبي بكر في ص89 وأرخ لوفاته سنة 1069هـ/ 1658م
3 – توفي سنة 1103هـ وله ترجمة في نشر المثاني ج3–ص58 وسلوة الأنفاس للكتاني.
4 – توفي بفاس عام 1089هـ وله ترجمة في نشر المثاني ج2 ص236 وسلوة الأنفاس.
5 – توفي سنة 1071هـ على ما في مخطوط حدائق الأزهار الندية لليازغي.
6 – مجموعهم هنا تسعة لا ثمانية، وأحمد هذا له ترجمة في مباحث الأنوار ص218 وأرخ حجي لوفاته سنة 1075هـ/ 1665م. انظر الزاوية الدلائية ص 89 طبعة 2

يجلس، ومن صلاها وهو جالس غفر الله له قبل أن يقوم، وهي: "اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم".

الفصل الثالث في ذكر الشيخ أبي العباس سيدي أحمد المدعو الحارثي ابن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي

هو الشيخ الإمام، العارف الهمام، قدوة الأنام، شيخ الإسلام، وعمدة الأئمة الأعلام، من أماط حجاب الإشكال عن مخدرات عرائس العلوم، وأبان مكنوناتها لأرباب المعاني والفهوم، محط رحال الأنجاد، وكهف اللَّجا لذوي القربى والأبعاد، العالم العلامة الجليل، الحافظ الدراكة الماجد الأصيل، المتفنن المشارك في العلوم على الإجمال والتفصيل، نخبة السيادة والمجادة، والسابق في حلبة الجود والإجادة، سلطان العلماء النقاد، ورئيس الجهابذة الأفراد، ومُبدئُ البلاغة ومُبديها، وعالم الدلاء ومفتيها، ومُظهر مشكلات العلوم ومُجَلِّيها، وشيخها وفتاها، وربها وحامل لواها، وفارس //420// البراعة والمتلفع بردائها، فخر الفقهاء والعلماء، وصدر الصدور الكرماء، أبو العباس أحمد المدعو الحارثي ابن سيدنا الشيخ الشهير، الولي الكبير، العلم الراسخ، شيخ المشايخ، سيدي أبي بكر الدلائي.

كان رضي الله عنه إماما كبيرا، وعالما عاملا شهيرا، وأديبا ماهرا، وبحرا زاخرا، ذا همة سمت فوق الكواكب، وبلاغة وذهن ثاقب، قرأ العلوم ودَرَسَها، وشيد الفضائل وأسسها، وحصل من العلوم على طائل، وحاز من الفصاحة ما أسكتَ به الأواخر والأوائل، ولد رضي الله عنه بزاويتهم بالدلاء، وربي في حجر العلماء والأولياء، وأخذ بها عن والده وأخيه الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر وغيرهما من الأئمة الأخيار، الذين كانوا يقصدون زاويتهم المباركة من البوادي والأمصار، كالشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن القاضي، والشيخ أبي العباس أحمد بن عمران الفاسي، والشيخ أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السلوي، والشيخ أبي حامد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي.

وأجازه الشيخ أبو حامد المذكور ونص إجازته له ولفظها من خطه المبارك نقلتها:
بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.
الحمد لله رب العالمين وبه أستعين، قرأ علي الفقيه الجليل، النبيه النبيل، الماجد الأصيل، المشارك في العلوم بالإجمال والتفصيل //421// نخبة المجادة، والسابق في حلبة الجود والإجادة، أبو العباس أحمد المدعو الحارثي ابن سيدنا الشيخ الشهير، الولي الكبير، العلم الراسخ، شيخ المشايخ، سيدي أبي بكر بن الشيخ الولي، ذي الفضل الجلي، سيدي ابي عبد الله محمد بن سعيد الصنهاجي أبقى الله بركتهم، وجعل التوفيق يلازم سكونهم وحركتهم، بعض صحيح البخاري من رواية أبي ذر الهروي، وناولته بعضه وأجزت له جميعه متلفظا بالإجازة بالرواية المذكورة وغيرها من الروايات التي تأدت إلينا بالأسانيد المتصلة المذكورة في غير هذا، وأسندتُ له الرواية المذكورة هنا بإسناد واحد تبركا واكتفاء عن سائر الأسانيد التي أبحت له الإسناد بها عني، عن شيخنا الإمام شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار رحمه الله سماعا إلا بعضه ومناولة لبعضه وإجازة لجميعه غير مرة، عن شيخ الإسلام أبي النعيم رضوان بن عبد الله، عن شيخ الإسلام أبي محمد عبد الرحمن سُقين، عن شيخي الإسلام زكرياء وأبي الفتح القلقشندي، عن شيخ الإسلام ابن حجر، عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن محمد بن سليمان المكي سماعا وإجازة لما فاته منه، عن أبي أحمد إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الطبري، عن أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي حرمي المكي سماعا لأكثره وإجازة ليسيرٍ فاتَه منه، عن أبي الحسن //422// علي بن حُميد بن عمار الطرابلسي، عن أبي مكتوم عيسى بن الحافظ أبيِ ذر عبد بن أحمد الهروي ([1])، عن أبيه أبي ذر، عن شيوخه الثلاثة أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، وأبي إسحاق

---

1 – أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري الهروي. (355 هـ – 434 هـ). أحد العلماء ومن رواة الحديث عند أهل السنة والجماعة.

إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم المستملي، وأبي الهيثم محمد بن المكي بن زراع الكشميهني، جميعا عن أبي عبد الله محمد بن يوسف الفربري، عن أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنهم، فليرو ذلك أدام الله توفيقه متحريا في جميع ما يتعلق بذلك مُثلى الطريقة، والله تعالى ينفعه وينفع به، ويجعل أسباب السعادة موصولة بسببه، وبتاريخ أواسط ذي القعدة عام ثمانية وثلاثين وألف، وكتب في التاريخ عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسي لطف الله به وخارَ له بمنه.

وكان لصاحب الترجمة رضي الله عنه اليد الطولى في التاريخ والحساب واللغة والبيان والأدب والأصول والفقه والحديث، عارفا بالماضي من الشعر والحديث، وكان بمسائل كتاب سيبويه عارفا، وعلى قراءته طول عمره مداوما وعاكفا، لم يكن له بالمعرفة به قرين، ولقد تصدر لإقرائه وهو ابن عشر سنين، ولقد دون الكثير من العلوم وصنف، وفرط مسامع البُهوم وشَنَّف، وإن نظم أنساكَ أبا ذؤيب برقته، ونصباً بمنصبه ونَخْوته، وإن كتب أربى على ابن مقلة بخطه، وإن أنشأ رسالةً //423// أنساك العماد بحسن مساقه وضبطه، وهو ربُ هذا الشأن وفارس هذا الميدان، ومع تفننه في العلوم فهو في الشعر قد نبغ، وما بلغ أحد من شعراء عصره القدر الذي بلغ، بل سلموا التقدم إليه، وألقوا زمام الاعتراف بذلك في يديه، ودخلوا تحت راية الذي حمل، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس في الحمل، وقدره في العلماء معروف، وبيته بالكرم والجود موصوف، تخرج به جماعة من العلماء من ذويه وغيرهم، وكانت له يد في الطريق، فلقي جماعة من المشايخ وأخذ على طريق التحكيم وسلب الإرادة عن والده وأخيه الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر، اقتصر بعد تضلعه في العلوم على الأخذ عنهما، والسلوك على أيديهما، فأخذ عن أخيه كثيرا من التفسير والحديث والتصوف، فتحقق بمقامات اليقين، وتفجرت ينابيع المعرفة من قلبه على لسانه فتفجر الماء المعين، له شرح على مختصر ابن الحاجب وتقاييد كثيرة في التفسير والحديث والفقه والأصلين والتصوف والعربية، وله أجوبة عجيبة في كثير من الفنون، وله أنظُم كثيرة وأشعار أدبية ومكاتبة وأسجاع، تستحسنها الطباع، تنبئ عن طول باعه، واتساع أنديته في الكلام ورباعه، فمن نظمه رحمه الله:

يـــا حـــاملا للوجـــد أنـــى تشـــتكي	والحـــب مبـــداه تـــراه حَـــلا حَـــلا

//424//

فـــإذا تمكـــن فـــي القلـــوب أميـــرُه	أودى المقـــاوم جيشـــه وحَلاحِـــلا ([1])

ووجد بخط سيدي العربي الفاسي ما نصه: كنا يوم الإثنين سادس رمضان عام ثلاثة وأربعين وألف في مجلس قراءة البخاري بحضرة شيخ الإسلام أبي عبد الله سيدي محمد بن سيدي الشيخ علم الأعلام الولي الصالح، القطب الواضح، سيدي أبي بكر أفاض الله علينا وعلى المسلمين من بركاتهم، وقد طال المجلس وكانت مدته من قبل صلاة الظهر إلى غروب الشمس عدا وقت الفريضتين، فكتب الفقيه العلامة المتفنن الدراكة الأديب البارع أبو العباس سيدي أحمد الملقب بالحارثي المذكور ارتجالا:

مـــا لِلنهـــار اليـــوم لا يتصـــرم	والشـــمس فـــي أفـــق الســـماء تخـــيم
فكأنهـــا فـــي التيـــه ضـــل ســـبيلها	ومُوثَّـــــق يخطـــــو ولا يتقـــــدم
أو كـالجبـــان رأى الرمـــاح تشـــاجرت	يبـــدي التشـــجع ثـــم عنـــه يحجـــم
لا بـــل هـــي الســـلطان فـــي كرســـيه	فتـــرى البريـــة تحتـــه تـــتظلم
يـــا شـــمس لا محقـــت بهـــاءَك كَســـفَةٌ	ســـيري فـــإن الخلـــق تحتـــك صُـــوَّم

1 – الحُلاحِلُ: الشجاعُ الركِينُ في مجلسه، والجمع حَلاحِل.

قال فلما طالع الأبياتَ الفقيهُ الفاضل العالمُ العلامة المحقق الأديب البارع البليغ أبو العباس سيدي أحمد ابن عالم الأدباء، وأديب العلماء، قاضي الجماعة أبي الحسن علي بن عمران، كتبت تحتها ما نصه:

قـد أبطـات فـي سـيرها لنسـجها ديبـاج قـور

//425//

علـى معـانٍ أَطْلَعَـتْ نجـومَ سـعد وبـدور

لله مـا أجملهـا بـين قَـرار ومُـرور

وكتب الشيخ الإمام، الحبر الهمام، تاج المفرق، وفخر المغرب على المشرق، العلامة الضابط، أبو عبد الله سيدي محمد المرابط، ابن شيخ الشيوخ سيدي محمد بن أبي بكر إلى عمه صاحب الترجمة يسأله عن مسألة اللام المفارقة هل لمصاحبتها خَبرَ إن المخففة شرط كما في الثقيلة أم لا؟ بقوله:

أيا بحر هذا العصر علما ومن به تبسم ثغر النحو بعد عبوس

ومن جذلت بحسن تحريره النُّهى وعاد شذاه عابقا بدروس

بحق الذي أبداك ركنا لوقتنا إذا معضل أودى بكل نفوس

إذا أهملت إن هل بشرط لحاق لا م فرق لها أم أُطلِقَت بطروس

فلازلت تشفي غل كل الذي لجا إليك وتسقينا بخير كؤوس

فأجابه صاحب الترجمة بقوله:

نعم شرطها معها كما كان قبلها مع الأصل نلت العز يوم عبوس

ولكنها إن ألبِست ثوب ملبس أفادوا لها حكما لنفي لبوس

كإن زينبٌ يزداد حسنا جمالُها وإن فاق عطرها لِعطر عروس

فلا زلتَ ترقى في المحامد صاعدا وتحيي رسوم العلم بعد دروس

وبالجملة كان صاحب الترجمة رضي الله عنه ممن تُقصد على استقصاء //426// محاسنه الأقلام، وتكِلُّ دون منتهاها ألسنة الأنام، أمره أشهر من نار على علم، فكأنه بدر تم سطع في دَيجُور الظلَم، قد برع في الفنون، وغاص في لججها فاستخرج من نفائس درها المكنون، آخذا من الحسن بمكان، وله في نفوس ذوي الإنصاف شأن وأي شأن، وكلامه في أعلى البلاغة مشهور، ما بين منظوم ومنثور، وشهد لذلك قصائده ورسائله، ولولا خوف السآمة لأثبتُّ من كلامه ما يهتز له الغصن الرطيب، ويدين عند سماعه ابن خاقان وابن الخطيب، وكان رضي الله عنه زاهدا في الدنيا غير ناظر إلى زهرتها ولا ملتفت إلى زينتها، مقتصدا في أمور نفسه، بريئا من التكلف، مائلا للأيسر، مقتصرا من الدنيا على ما لابد منه، مؤثرا للخمول والبعد عن الناس، متعززا بالله، لين الجانب، حسن الأخلاق، ذا سمت حسن، محبا لآل البيت النبوي ولطلبة العلم والمنتسبين، مكرما لهم وللضعفاء والمساكين، دائم المطالعة كثير المذاكرة كثير الصمت كثير الصيام، متهجدا بالليل والناس نيام، لهاجا بذكر الله

تعالى والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت وفاته رحمه الله في أوائل محرم الحرام سنة إحدى وخمسين وألف، قد طعن في السن على ما يظهر.
قال في الأزهار الندية: وقد تأخرت وفاته إلى أواخر المائة لأن الذي عند أهله حسبما //427// تلقيته منهم أنه توفي بفاس بعد قدومهم من الزاوية الدلائية وغيرها بكثير، ودفن بالكغَّاطين بضفة وادي الزيتون مع جماعة من أهلهم، وذلك بعد الثمانين والألف والله أعلم بذلك.

الفصل الرابع في ذكر الشيخ سيدي الشرقي ابن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنه

هو الشيخ الإمام، الجهبذ الهمام، الحافظ الحجة العالم العلامة الجليل، المحصل البليغ الأثيل، الأديب البارع المفلق، أعجوبة الزمان حفظا وفهما، نادرة العصر تحقيقا وعلما، علم الأعلام النحاة، وصاحب الخلال المرتضاة، ورجل الحديث وأسد رجاله، وعلامة العلم وفارس مجاله، وعالم الرواية والمحصل للدراية، ورب البلاغة والفصاحة، وهِزَبْرُ ميدان الذكاء والسماحة، وفارس البيان والبراعة، ورب الكتابة واليراعة، أبو عبد الله سيدي الشرقي ابن الشيخ العارف الكبير سيدي أبي بكر، كان رحمه الله إماما في المعقول والمنقول، محصلا من العلوم ما تقصر عنه المدارك والعقول، قد تحلى بعلوم بارعة، ومجالس لأشتات العلوم جامعة، أستاذا مُجودا يُقرئ الطلبة //428// قراءة السبع بزاويته البكرية، وتخرج به جماعة، له القدم الراسخ في الإنشاء نظما ونثرا، يجيد الإنشاء، ويتصرف فيه كيف شاء، وكان سديد الرأي شديد الفهم، بارع الإنشاء رقيق النظم، متلفِّعا ثوب الفصاحة، رافعا رايات البهاء والصباحة.

ولد رضي الله عنه ببلادهم بالدلاء سنة تسع عشرة وألف، وقرأ بها على الأستاذ سيدي شعيب ([1])، وعلى أخيه الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر، وأخيه الشيخ سيدي أحمد الحارثي، والشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن عمران السلاسي، والشيخ أبي حامد سيدي العربي الفاسي وغيرهم، وأجازوه في كل ما تصح لهم وعنهم روايته، وتخرج به جماعة من ذويه وغيرهم، وكانت له يد في الطريق، فلقي كثيرا من المشايخ، وعمدته في ذلك والده وأخوه سيدي محمد رضي الله عنهما، وكان له باع مديد في النحو واللغة والعربية والآداب والتواريخ العجيبة، ومعرفةٌ شديدة بالفروع والأصول مصيبة، ونُبلٌ فائق في العروض والمنطق والبيان، وعلم الكلام وتفسير القرآن، وهو كل يوم لهذه العلوم قارئ ولتدريسها ملازم وعلى نهج بيانها جار، متحليا بالسكينة والتقوى، ملتزما للطاعة في السر والنجوى، إن حضر مع الفقهاء مجلسا فله يتبعون، وعلى قوله يعولون، وهو المصيب في كلامه ونظمه، بثقوب ذهنه واتساع (كذا)، تكلم في المذهب، //429// وذهب في التحقيق أي مذهب، وأوجز ما شاء وأسهب، وطاول في الفروع ابن القاسم وأشهب، وخاض في المعقول والمنقول فبهر العقول، ووقف التحقيق عند ما يقول، وتصدر في السيرة وأحكام القرآن وتفسيره، وقد أحرز أمانيه وتيسيره، وباعه في القراءات مديد، ورأيه في الأحكام سديد، وبيته بيت علم وكرم سحب من الصون ذيلا، وتضوعت من علمِ عرفانه نواسِم الجلالة نهارا وليلا، له شرح على الشفاء حافل، وحاشية على المطول، وتقايد كثيرة في جميع الفنون مفيدة، وألَّف في الأصول، ما لم يزل به على الأقران يصول، وقام للعروض، بالنوافل والفروض، ينظم القصائد النفائس، فتأتي كالقلائد في أجياد العرائس، وكلامه في أعلى البلاغة مشهور، ما بين منظوم ومنثور، ويشهد لذلك رسائله وقصائده، وقد أثبت منها ما تتقرَّط به المسامع، ويرتاح إلى مُحيَّاه كل سامع، فمن ذلك قوله يخاطب شيخَه الإمام المحقق أبا حامد العربي ابن الشيخ العارف أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي:

أُهـــدي الســـلام لِمَـــالكي وَحـــدي   مُتضــــوِّعا بالمســــك والنَّـــد

---

1 – وفي نشر المثاني ج2 ص361 بتحقيق حجي "ابن شعيب".

وأريـــد مـــن مـــولاي ذي ظـــرف   مبـــدي البشاشـــة دائمـــا عنـــدي
أن يَقـــبَلن مـــا قـــد بعثـــتُ بـــه   لجنابـــــه وليـــــأكلن شُـــــهدي

//430//

سيدي أدام الله سعادتك، وأصلح في جميع الأمور إجادتك وسيادتك، حملني على المداعبة جانب الوداد، وجميل الاعتقاد، ولكن يعز علي أيدك الله أن ينوب في زيارتكم ما خطه قلمي، عن إعمال قدمي، ويسعد برؤيتكم رسولي، دون وصولي، ويَرِدَ مَشرعَ الأنس بكم كتابي، دون ركابي، كما قيل:

كتبتـــه ولـــو قـــدرت هـــوى وشـــوقا   لكنـــت إليـــك ســـطرا فـــي الكتـــاب

لكن ما الحيلة والعوائق جمة، لاسيما هذا المطر، الذي حال بيننا وبين كل وطر، والسلام.
فأجاب سيدي العربي المذكور بهذا القصيد المرونق النشيد، وهو بمدشر وارور من بلاد مصمودة من عمالة (...) ([1])

مـــولاي مـــا أبـــدي ومـــا أهـــدي   لمجـــدك الأعلـــى ومـــا جُهـــدي
مغتــــــرب كئيــــــب مُتْـــــرِبٌ   لكنــــه مُثْــــرِا مــــن السُّــــهْد
ألقـــــى إلــــى الله وَاءَ اعتقـــــاده ([2])   لـــــولاكم يـــــا أســـــرة المجـــــد ([3])
إن تـــك لـــي روحـــي فهـــا رِقُّهـــا   فليقبـــل المـــولى مـــن العبـــد
تهـــدي ســـلاما كنســـيم الصَّـــبا   جـــاءت بريَّـــا العنبـــر الـــورد
وتشـــكر النعمـــاء مـــن منعم   بكـــل إحســـان لهـــا مُهـــدي
صَـــيِّنَة المنشـــإ صِـــينَت بهـــا   صـــفائح التبـــر مـــن الشُّـــهد
ومـــن لجـــين الزبـــد فـــي تربهـــا   مخلـــص النَّقـــد مـــن النَّقـــد
وكـــــل حواريَّـــــة خِلتهـــــا ([4])   حـــوراء قـــد جـــاءت مـــن الخلـــد

//431//

قَـــوْرَاء قَـــدْ أَطْلَعَهَـــا الْبِـــرُّ مِـــنْ   خَـــالِصِ بَـــرٍّ طَـــالِعِ السَّـــعْدِ
وَعِقْـــدُ شِـــعْرٍ فَـــائِقٌ نَظْمُـــهُ   نَظْـــمَ رَطْـــبِ ([5]) الـــدُّرِّ فِـــي عِقْـــدِ
طلـــع مـــا بَـــيْنَ يَـــدَيْ عَسْـــكَرِ النَّـــ   شـــرِ كَمَلْـــكِ مِقْـــدَمٍ نَهْـــدِ
فِـــي أَرْضِ طِـــرْسِ تَتَهَـــادَى بِهَـــا   جيـــاد نفـــس دُهُـــمُ الْجِلْـــدِ

1 – تصعب قراءة هذه اللفظة، ولعلها "أوجق".
2 – في المخطوط "اعتادَها" وقد صححناها من نشر المثاني ج2 ص362
3 – في المصدر السابق "لولاكم ما أُسِرتُ في المَجد"، والبيت هناك سابق للذي قبله هنا.
4 – في المخطوط "وكل حوريَّة خلقها"، وقد أثبتنا ما في المصدر السابق.
5 – في المخطوط رطيب، وأثبتنا ما في النشر.

خَطَّتْ بَنانَ (1) الْمَجْدِ أَنْ جَاءَهَا   خَطَّ الْعِنَانِ الْبَارِقِ النَّجْدِ
يَقْطُرُ مِنْ سُحْبِ أَنَامِلِهِ   قطر النَّدَى ويَنْدَى عَلَى الْوَرْدِ
تَنِمُّ مِنْ دِياجِهِ نَفْحَةٌ   تَرْوِي شَذَا الرَّنْدِ عن (2) النَّدَّ
مُنَمْنَمُ الْوَشْيِ مُوَشَّى الحُلا   فِي صَفْحَةِ الْوَرْدِ مِنَ الْخَدِّ
يُذكرني عَهْداً مَضَى بِالْحِمَا   فِي خَفْضِ عَيْشٍ نَاعِمٍ رَغْدِ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ كِرَامٌ نَأَوْا   وَخَلَّفُوا ذِكْرَهُمْ عِنْدِي
فَارَقْتُهُمْ قَهْرًا وَمَا أَخْتَرْتُ أَنْ   يَكُونَ فِي زَهْرِ النُّهَى زُهْدِ
1كَيْفَ يَقُولُ الشِّعْرَ مَنْ عَقْلُهُ   مُعتقل بالشَّتْ وَالْبُعْدِ
يَئِسْتُ لَوْلا أَنَّنِي وَاصِلُ   بِابْنِ أَبِي بَكْرٍ عُرَى عَقْدِ
فَهُوَ الَّذِي أَمْسَكَ لِي مُسْكَةً   أورى بِهَا حَتَّى ورى زِنْدِ
أَبْقَاهُمُ اللَّهُ غُيَّاثَ الْوَرَى   بِغَايَةِ التَّأْمِينِ وَالرِّفْدِ
وَعَلَمُ الرَّحْمَةِ فِي كَفِّهِمْ   مُطَرَّز بِالشُّكْرِ وَالْحَمْدِ

سيدي الذي بهر في أفق السيادة جلالا، وظهر في فلك السعادة هلالا، ومد من ينابيع البلاغة عذبا زلالا، ومهد لأوليائه من البر //432// كنفا وثيرا وظلالا، أبقى الله تلك السيادة محروسة الجناب، مأنوسة أفناء الأفياء والأطناب، وصل محبكم وصل الله له عمرا مديدا، وسعدا لا يزال على الأيام جديدا، تلك الطرف التي راقت الطرف، وفاقت الوصف، ووقف الطرف فيها على المظروف والظرف، فمن أفلاذ شهد (3)، وإشهاد ود، مقاناة البياض بصفرة، كطفائح (4) فضة كساها النضار نضرة، وكالمعاصم الموشية نَصَلَ (5) خضابُها، والثغور الجوهرية تحلب رضابها، فيُرتَشَف منها رضابُ أبكار أتراب زنجية الأديم، كأنما قُدَّ من الليل البهيم، لينة الأعطاف، رقيقة الأطراف، مجدولة مكان الوشاح، لكن ملأت الإزار رداح، معسولة اللما، محروسة الحِما، أبية فما تذلل، متدللة فما في دلالها متعلل، فلماها لا يُرشف، وسرها لا يُكشف، وشباها مرهف، وشذاها عمن يروم أذاها لا يُصرف، فإن أرهقها إلحاف، أو ضمَّها لحاف، بات ضجيعها (6) كليما، وإن أتى بقلب سليم، فلا يعود إلا سليما.

جَاء (7) بِقَلْبٍ سَالِمٍ   وَسَلْهُ كَيْفَ أَنْصَرَفَا

---

1 – في المصدر السابق "نَهَارَ" عوض بنان.
2 – في المصدر السابق "عن".
3 – في المصدر السابق "أملاد شد".
4 – في المصدر السابق "ومقاناة معنات البياض بصفرة، كطفائح..."
5 – نصَل اللّونُ: تغيَّر وزال. وفي المصدر السابق "تضل"، وهو تصحيف.
6 – في المصدر السابق "أوضحها لحاف، بات ضجاعها ..."، وهو تصحيف.
7 – في المخطوط "جاءت"، والتصحيح من المصدر السابق.

سنة في الحب معروفة، وطريقة أوجه المحبين عنها غير مصروفة، أول صب مات أو أول معشوق جفا، وانما يبلغ من جَناها، بِعَسْف مناها [1]، من صدق في حبه، ورضي بقلبه، ومن زبده [2] مستطاب، أجنته الأوطاب، وأبرزه تمخض المخض، وهو الخالي من المحض، نشأ عن محض در، //433// كأنما هو ذَوبُ در، مدته الحوافل، وشرته من رفيقه نوافل، فكأنما الجارس والجارش، اتخذت منهم المعارش [3]، فتريد الحائمة، ما ترود السائمة، فوضح من الحق وبان [4]، إذ كانا فرعي أصل ورضيعي لِبان [5]، إذ [6] لا يُفرَّق بينهما، وأن يُقرَّ [7] الوصل عينهما، فبحق ما وصلت تلك السيادة من تلك الرحم الواشجة، وأكدت من لحمتها الناسجة [8] بعد غمتها الناشجة، حتى يردا مورد اللهات [9]، مجموعين على الحالة المشتهاة، فشأن السيادة البكرية [10] جمع الشمل، ونسخ حكم الفراق بحكم الوصل، أبقى الله ذلك الإحسان عادة، مجموعا بها الحسنى والزيادة، وعلى ذلك الإحسان، فقد عززتها [11] برغفان، كأنها على تلك العيون أجفان، أرخت دوائرها بدور تمام، وأتمت النعمة فيها أيما إتمام، على أنها ما أتمت النعيم، حتى [أصلت] [12] الجحيم،

عجبا لها وهي النعيم تصوغها [13] نــــار وأيـــن مـــن النعـــيم النـــار

مصحوبة تلك التحف المستظرفة، والطرف المستطرفة [14]، بما استمدت من بره بوليه، فجلت وحليت من حلوائه وحليه، من نظم أزرى [15] بالقلائد، في نحور الولائد، ونثر [16] كما تساقطت الفرائد، في حجور [17] الخرائد، لطائف تتجارى من الإجادة، إلى غاية دونها الدر النظيم والورد النثير، (وتتبارى من المجادة، على راية يتطامى لها القمر المنير، والفلك الأثير) [18]، تَبُثُّ من الخطاب، [و]الحديث المستطاب، ما يصبي الحليم، ويسري //434// إلى القلوب مسرى النسيم، فتكاد تهز أعطاف الشيخ [و]قد نجز، وتستجد به في مضمارها [19] والشيب قد حجز، تغازلني والعمر ولى شبابه، وتناضلني وأين مني أسبابه، هلا قبل المشيب، واخلاف البرد

1 – في المصدر السابق "وإنما يبلغ خباها بعشق مناها".
2 – في المخطوط "زبد" والتصحيح من المصدر السابق.
3 – في المصصدر السابق "اتخذت منهما الهامش".
4 – في المصدر السابق "فواضح من الحق وبار".
5 – في المصدر السابق "إذ كان فرعي أصل ورضيفي لبار".
6 – في المصدر السابق "أن".
7 – في المصدر السابق "يعز".
8 – في المصدر السابق "الناشجة".
9 – في المصدر السابق "حتى يرد أمور النكهات".
10 – في المصدر السابق "فشأن الشادة المكرمة".
11 – في المصدر السابق "عزرتها".
12 – سقطت من المخطوط.
13 - في المخطوط "تَضَوُّعا" وهو تصحيف صححناه من كتاب البُلغة للفيروزآبادي، وهو بيت شعري كتب في نشر المثاني نثرا.
14 – سقط قوله "الطرف المستطرفة" من المصدر السابق.
15 – في المصدر السابق "أروى".
16 – في المصدر السابق "نشر".
17 – في المصدر السابق "نحور".
18 – ما بين القوسين لم يرد في المصدر السابق.
19 – في المصدر السابق "...وقد عجز، وتستجريه مضمارها".

القشيب ([1])، والورد ما كُدِّر ([2]) صفوه ولا شيب، فكيف حين لا ذكر ولا فكر، ولا عن تلك الأيام من مخبرة ذكر، فوحقك وما حقك بهين ([3])، وحق أبيك وبره واجب متعين ([4])، ما جهلتُ قدري، وتعاطيتُ ما ليس لي وأنا لا أدري، وإنما آثرت إرضاءك، ورجوت إغضاءك ([5])، فحال الشيخ معلوم، والمقل في مجهوده غير ملوم، فأهديت منزوري، وأسعفت بمقدوري، وفاكهت وما بي فكاهة، وتساهلت ولا أدعي النزاهة، ولكن السر ([6]) قضى، وشاهد الشيب عدل رضى، إعظاما لقدرك، والتزاما لبرك، واغتناما لدعوات منكم صالحات، تجبر الكسير، وتيسر ([7]) العسير، وتفك العاني الأسير، إن ذلك على الله يسير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله والسلام.

وهي متضمنة للثناء على صاحب الترجمة وبيان مقداره، وكثير جوده وكريم نجاره، مع مدح أشياء أتحفه بها مع رسالته التي هذه جواب عنها، والله الموفق.

توفي صاحب هذه الرسالة سيدي العربي المذكور رابع عشر ربيع الثاني عام اثنين وخمسين وألف. وتوفي ولده سيدي عبد الوهاب عام ثمانية وسبعين وألف.

ومن كلام صاحب الترجمة يخاطب العلامة //435// المحقق، الشاعر المفلق، أبا نصر عبد الوهاب بن الشيخ سيدي العربي الفاسي لما شرح الخزرجية بالجدول:

يـــا عابـــد الوهـــاب يـــا مـــن بـــه	غـــرس نبـــات الفكـــر قـــد أورقـــا
ســـقيت روض الشـــعر بعـــد الظمـــأ	بجـــــــدول زاد بـــــــه رونقـــــــا

وسأل صاحب الترجمة يوما سيدي عبد الوهاب المذكور عن زوال الشمس وهما بمجلس الشفاء بين يدي الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما بقوله:

هل زالت الشمس أم لا فأقضين أربي	لازال ظلـــك ممـــدودا علـــى الأدب

فأجابه سيدي عبد الوهاب بقوله:

قـد زالـت الشـمس لا زالـت مكـارمكم	تـنـور الأفـق فـي الـدنيا مـدى الحقـب
وإن تـك الشـمس غابـت فـي مغاربهـا	فشمسـكم فـي سـماء الفضـل لـم تغـب
وإن يـــك الأفـــق الغربـــي مطلعهـــا	فمـا لنـا فـي سـوى الشـرقي مـن أرب

وله أيضا يخاطب سيدي عبد الوهاب المذكور بقوله:

الصــــفح يرتقــــب الإجابــــة مــــنكم	والحلــم يخــدم كالأســير الأعجــم
إن الســـــماحة والســـــهولةَ والنهـــــى	للمـــرء والاحســـانَ خيـــر توســـم

---

1 – في المصدر السابق "العشيب".
2 – في المصدر السابق "كتب".
3 – في المصدر السابق "وما حقك عن مهين".
4 – في المصدر السابق "وحق أبيك وبره وأحب مستعين".
5 – في المصدر السابق "إعطاءك".
6 – في المخطوط "السن" وربما كانت "السر" كما في المصدر السابق.
7 – في المصدر السابق "تسر" وهو تصحيف.

النـدب مــن ظهــرت بشاشـــة حلمــه | والغمـر مـن يضـمي العقـول بأسـهم
اجعـــل قريضـــي إن أتـــاك أُجاجُـــه | عـــذبا فســـوغه لذيـــذ المطعـــم

وله أيضا وقد استعار منه سيدي عبد الوهاب المذكور كتابا //436// فلم يتيسر في الوقت، ثم أتاه به وأنشده:

لا تآخـــــذني بنســـــياني وإن كثـــــرا | فـالحلم منـك وكـل العيـب مـن قبلـي

فأجابه بقوله:

جـــل جنابـــك عـــن عيـــب يدنســـه | وقـد سـمى رتبـة أربـت علـى زحـل
مــا كــان عنـدي فــي منعـي مؤاخـذة | كيف وقد حصل المطلوب من أملي

وخاطبه أيضا بقوله:

يــا ابــن الكــرام الحــائزين مــن العــلا | رتبــا ســمت عــن صــاعد أو راق
وصـــل الكتـــاب كمـــا أحـــب محـــبكم | تجنـــى الثمـــار بـــه مـــن الأوراق
دمـــتم وفضـــلكم الشـــفا يلفيـــه مـــن | لاذوا بكـــم مـــن عامـــد أو راقـــي

وخاطبه أيضا بقوله:

يــــا ســــيدا مــــلأ القلــــوب جلالــــة | والأذن صـــيتا والعيـــون جمـــالا
إن الـــذي زعـــم القـــريض صـــناعة | دعـــه يقـــول مـــن البحـــور مثـــالا

وخاطبه أيضا بقوله:

أيـــا مـــن حـــوى الأدب المنتقـــى | ومَـــن ظَـــل تحمـــد آثـــاره
تفضــــــــــل علـــــــــي (...) ([1]) | مُصَـــحَّف قـــولي خَبَـــت نـــارُهُ

ومن كلام صاحب الترجمة:

الهـــم غـــادَرَ أدمُعـــي هـــواطلا | يـــوم الـــوداع كآيـــة وبلابـــلا
لمـــا أتيـــت معـــذبي وســـألته | أهجرتنـــي حقـــا فقـــال بلـــى بلـــى

//437//

1 – كلام غامض، يقرأ "بمقلو ضد" وربما كان صوابه "بمقلوب ضد" والله أعلم.

وله أيضا يخاطب سيدي العربي الفاسي المذكور:

تحـــدث بالغرائـــب مـــن عُـــلاك عيـــون الشـــعر ضـــوَّعها شـــذاكا
جميـــع الشـــعر زور مـــا خلاهـــا كـــذلك النـــاس زور مـــا خـــلاك

قال سيدي العربي المذكور: وأنشدني متغزلا ما نصه:

وَنَـــى ظبـــي وامتـــار فـــي جنـــاني لـــــواعيجَ التتـــــيم والهـــــوان
وأرق مقلتـــــي وأفـــــاض دمعـــــا كـــأن نثيـــره نثـــر الجمـــان
أتـــاني ســـهمه فأصـــاب قلبـــي علـــى غوائلـــه قيـــد العنـــان
صـــقيل الســـاق يبسـم عـــن أقـــاح عليـــل طرفـــه رخـــص البنـــان
ذكـــرت بـــه ليـــالي الأنـــس كانـــت كمنزلـــة الشـــباب مـــن القـــوافي
وحلـــــت بـــــالقلوب ولا فخـــــار بمنزلـــة الرفيـــع مـــن الزمـــان

وله أيضا رحمه الله:

عنـــدي مـــن الشـــوق مـــا كفـــاني يـــا مـــن يغيـــب عـــن عيـــاقي
طبعـــي بحـــرب الهـــوى شـــجاع والقلـــب قلـــب فتـــى جبـــان
ارحــــم بوصــــــلك مســـــتهاما وانظـــر بعينـــك فـــي هـــواني
جـــد لـــي بطيفـــك فـــي منـــامي يـــا نازحـــا وهـــو فـــي جنـــاني

وله أيضا رحمه الله:

لام قـــوم ولـــومهم زائـــد فـــي تهـــولي
ليـــت شـــعري وليـــتهم تركـــوا لـــي غزيِّلـــي

//438//

ضـــاع فيـــه تشـــببي وبـــديع تغزلـــي
مـــن كســـاني بهجـــره بلبـــاس التـــذلل
وســـقاني بصـــده إذ نـــأى كـــأس حنظل
وجنتـــاه كـــوردة أو زهـــرة القرنفـــل

وله أيضا رحمه الله:

نجيت من وقع النوائب والخطوب ... ولك الخلاص من المهالك والحروب

وأعيذ شمس سناك وهي مضيئة ... بسما السعود من الكسوف من الغروب

هذا هو المأمول من مبدي الورى ... ذي الفضل والإحسان علام الغيوب

وله أيضا رحمه الله:

طبعي يميل إلى المجون وحالتي ... تسمو إلى التوقيع والتشبيب

هذا أوان اللهو فاجن ثماره ... واغنم زمانك قبل لقي شَعُوب (1)

وله أيضا يخاطب بعض إخوانه ويعظه:

لا تفاخر بما مُنِحت من اليسـ ... ـر ولا تزدري به الإخوانا

واستكن تحت سطوة القاهر العد ... ل وحاذر للبعد من مولانا

وارتقب يوم لا يناضل عن مر ... ء سوى ما استعده إيمانا

واغرس الود تقتطف ثمر النجـ ... ـح وتهصر غصونَه الفَينانا

فأخو المجد من إذا رزق الفضـ ... ـل استمال وأكبر الخلانا

وَدَّنا (2) واجتلى المعارف واقتا ... د المحامد وارتدى الإحسانا

//439//

واللئيم الذي إذا نحره الدهـ ... ـر انثنى وجهه انثنى شيطانا

فغدا ناظرا بعطفيه يمشي الـ ... ـخيلاء تخاله خاقانا

شامخ الأنف دهرَه يتسامى ... في انحطاط كما رمقتَ دخانا

يتهادى كأنه يخرق الأر ... ض ازدهاء ويملأ البطحانا

رام رفعا فجر فوديه (3) عجبا ... سفها منه فاجتنى الحرمانا

والكريم كالبدر يسمو إجلالا ... في بَهَا سمته ولا كفرانا

فأجابه بعض تلامذته وهو الشريف سيدي محمد بن عبد الله بقوله:

يا أخا المجد أنت ذو العفو والصفـ ... ـح عن العبد إن جنى إحسانا

لم يفاخر ولم يباه ولكن ... دهش القلب فانثنى هيمانا

---

1 – شَعُوبُ: عَلَمٌ على الموت.
2 – شكلناها كما شُكلت في المخطوط.
3 – الفَوْدُ : جانبُ الرَّأس مما يلي الأُذن.

إذ رآك فـــي حلـــة مـــن وقـــار وجـــــلال يـــــروع الشـــــجعانا

أفـــلا يعـــذر الحيـــي إذا مـــا أذهلتـــــه مهابـــــة فاســــتكانا

وللشيخ الإمام العالم العلم أبي علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي مخاطبا لصاحب الترجمة ومعاتبا له رحمهم الله آمين:

أقطب الرحى في المقرئين بذا الأفق ويا نجل قطب كان في مقعد الصدق

أفي الحق إشفاء الفؤاد على شفا ولا تتلافى (مرتآه) [1] ولا تُبقي

ويجمل أن يُلفَى جنابُك مُعطِشا وكان أبوك الخيرُ غيثا لِمُستسقي

وتُنكر أحلاقٌ عليك [2] وتجتوي [3] وكان الذي يهدي الورى أحسن الخلق

//440//

فقد كاد رسم الود يعفوه عاصف ويبدل وردا صافيا منه بالرَّنْقِ [4]

وإفراط إرجاف الجفاة وطعنهم بنَبل الأذى من كل ذي أشر يسق

ولم [5] يعلموا أن ليس تعيى مذاهبي ولا يُبتَغى التثقيف في منتهى الصدق

وَصاةٌ رست في القلب من زمن الصبا ليالي كان الحي في البرق البُلق

وأن لا ألذ الخسفَ كالعير لامرئ ولا أحمِل الرغباء كالغل في عنق

أجنِّب عن رعي الوهاد وإن جلا [6] وأرتع [7] في نجد فأستعذب المعقي [8]

وآلف وِردا حوله الذئب والفَرا وآنف عن ورد لراغية طُرق

وإن بلاد الله شتى عريضة فليس من الحزم المقام على خنق

ولم يعلموا [9] أن لو خلا الغرب كله من الخير كان الخير من الشرقي

فما أنت في عير غداة النوى ولا نفير ولا ذا حِقةٍ فيه أو حَقِّ

وكان لعهد الشيخ حق نَعُده فمالك لم تنظر إلى ذلك الحق

وكان أبر الناس بذلا وصحبة أبو بكر استوفى بها قصب السبق

---

1 – اجتهدنا في قراءتها والله أعلم.
2 – في المخطوط "عليه" وصححناها اعتمادا على مخطوطة ومطبوعة حجرية من ديوان اليوسي.
3 – في المخطوط "تحتوي" وصححناها اعتمادا على مخطوطة ومطبوعة حجرية من ديوان اليوسي.
4 – رَنِقَ الماءُ: كَدِرَ.
5 – في المخطوط "ألم" وصححناها اعتمادا على مخطوطة ومطبوعة حجرية من ديوان اليوسي.
6 – في المخطوط "أجانب عن رعي الوهاد وإن حلا" والتصحيح مما سبق ذكره.
7 – في مخطوطنا "أرتاد" وفي مخطوط الديوان "أرتاع" وقد أثبتنا ما في الطبعة الحجرية للديوان.
8 – اعْتَقَى الرجُلُ: حفَرَ البئرَ فأنبَطَ الماءَ من جانبها إذا تعسرَ عَليه إخراجُه من قعرها.
9 – في المصدرين السابقين "ولم يحسبوا". والبيت فيهما معا مُقدَّم على سابقه هنا.

وكنـــتَ ابنَـــه هـــلا اهتـــديت بهديـــه فتلك المعالي والمساعي التي تُرقي ([1])

فما اشتملت عليه هذه القصيدة من العتاب شاهد بصدق الأخوة وصفاء المحبة وصحة ما لهما من الأسباب، مع ما احتوت عليه من التلويح والتصريح، بما قُصِد به المخاطب من المديح، باللفظ الصريح، والمعنى الصحيح.
وكتب صاحب الترجمة للشيخ الإمام سيدي //441// محمد بن ناصر الدرعي رضي الله عنه يسأل منه ما يظهر من الجواب فأجابه رضي الله عنه بما نصه:
من عبد الله تعالى محمد بن ناصر كان الله له إلى سيدنا الحافظ، الفصيح اللافظ، العلامة الإمام سيدي الشرقي بن شيخ المشايخ سيدي أبي بكر الدلائي، سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وعلى ساداتنا أشبالك، وكرام آلك، ومن تشبث بأذيالك، فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وبعد فقد تصفحت كتابك وفقك الله وأصلحك وأصلح بك، وإياهُ نستودعك وأطفالَك وكلَّ من هو إليك بسبيل، والجواب: لست أهلا لهذا لأني أقل وأحقر من ذلك، بل إنما حق مثلي أن يقرع طنوب الجد للاستفادة من أمثالكم، ولكن حسن ظني كفيل إن شاء الله بنيل أربك، فإذا أصبحت وإذا أمسيت فاتل هذه الأدعية سبعا سبعا: اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة تدرأ بها عناً كل شر باطن وظاهر، إنك أنت الله القوي القاهر، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد على آله صلاة تجلب بها إلي كل خير باطن وظاهر، إنك أنت الله القوي القادر، سبحان ربي الأعلى الوهاب، اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي وأمن روعتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن شمالي ويميني ومن فوقي ومن تحتي، أعوذ بك أن أغتال //424// اللهم يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكني إلى نفسي طرفة عين، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم اهـ فإني أرجو من فضل الله إن واظبت عليه أن يكون لك فيه كفاية بما طلبت وزيادة فوق الظن، والله ذو الفضل العظيم اهـ وقيد كما وجد.
وبالجملة فكان صاحب الترجمة رضي الله عنه ممن لا يُنكر حقه في ارتياض العلوم الشريفة، واستئصال رتبها العالية المنيفة، لما اشتملت عليه ترجمة ذكره، وحقيبة فكره، من أساليب النظام الرائقة الحلي، ومجاري أقوال النثر البارعة الإنشاء، وهو سراج الأدب المتوقد الضياء، والمستولي على أمد المكارم والحياء، وشعره مهما قرئ يُستلَم، أرق وأجزل من شعر الرضي بذي سلم، مع النثر البديع، الذي فاق به البديع، نجَم في الدلاء فسما بأدبه، وطلب العلوم فجازها بطلبه، وقدمه في الكرماء أرسخ من أبي قبيس، إليه في عصره منتهى الطالب، كأنه بياض العطايا في سواد المطالب، قد انفرد رحمه الله بالإمامة في العلم والعرفان في وقته، وانقادت إليه الرئاسة من بين أبناء جنسه، وأذعنت له الكافة، واحتاج إليه الخاصة والعامة، ورجعوا إليه في كل علم، متبوعا في كل فهم، وقرأ على جماعة من ذويه وغيرهم وتخرج به غير واحد، وكان //443// ذا مروءة تامة، وأبهة عظيمة، حسن السمت، كريم النفس، عالي الهمة، غزير العلم، حسن العبارة، سهل التعليم، ممتع المجالسة، طيب المؤانسة، كثير الطرفة، واسع المعروف، داره مألف للأيتام والأرامل والضعفاء والمساكين، ينزل الناس منازلهم ويوفيهم حقوقهم، دعا له والده رضي الله عنه بالعلم والدنيا فأعطاه الله الحظ الأوفر منهما.

توفي رضي الله عنه بالزاوية البكرية الدلائية سنة تسع وسبعين وألف، ودفن بها بعد أن أوصى بصدقات فرقت على الطلبة والشرفاء والمساكين والضعفاء، رحمه الله ونفعنا به اهـ

الفصل الخامس في ذكر الشيخ سيدي الخديم بن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنه

هو الشيخ الامام العلامة النحرير، ذو التحقيق والتدقيق والتحرير، والفهم الرائق، والذهن الفائق، أحاط بمجمل المعقول، وأتقن تفصيل المنقول، كشاف المسائل المشكلة، ومزيل طلسم الدقائق المعضلة، الجواد الذي لا يجارى،

1 – في المصدرين السابقين "إلى تُرق".

والزناد الذي لا يوارى، وممتع البلاغة الذي لا يمارى، والعلم المشهور الذي لا يدارى، إن أطلق عنان فكره في ميدان العلوم فلا يُلحق، أو لسان لهجته في عنوان الفنون فلا يُسبق، أبو عبد الله سيدي محمد المدعو الخديم بن الشيخ //444// العارف الكبير سيدي أبي بكر الدلائي، كان رضي الله عنه من العلماء العاملين، والأولياء الصالحين، والأشياخ الكاملين، أهل المعرفة واليقين، المقتدى بهم في الملة والدين، متحليا بالعلم والتقوى، متمسكا منهما بالحبل الأقوى، ظهر له من الدين ما بهر العقول، وخرج عن الحد والمعقول، ومن أهل الزهد والورع والمجاهدة، كثير الصيام، متهجد بالليل والناس نيام، مشارك في كثير من الفنون، كثير الحفظ للغة وأشعار العرب، حافظ ضابط صادق اللهجة، محافظ على السنة في جميع أحواله، غزير العلم، ممتع الحديث، كثير الفوائد، عارف بعلوم القوم. ولد ببلادهم الزاوية البكرية وقرأ بها على جماعة من شيوخها الأجلة، وشارك في فنون عديدة من الفقه واللغة والعربية والعقائد والحساب والفرائض وغير ذلك من الفنون، وكان بالحديث عارفا، ولرجاله واصفا، وعلى قراءته مداوما عاكفا، وانتفع وحصل واستفاد وأفاد، وتخرج به جماعة من ذويه وغيرهم، وسبب تسميته بالخديم أنه كان ملازما لخدمة والده سيدي أبي بكر، فكان يخدمه خدمة تامة، ويمتثل أمره ونهيه امتثالا عاما في سره وجهره أكثر من جميع إخوته، وكانوا لذلك يسمونه بالخديم ويدعونه به، فلقب بذلك وصار علما عليه وجرى عليه وعلى عقبه من بعده، وكان رضي الله عنه موصوفا بالكرم الفائق، والنبل الرائق، مع الفصاحة في اللسان، //445// والبلاغة في البيان، ومشاركة في العلوم، ومعرفة بالمجهول والمعلوم، وسمت ووقار، وكلام ألذ من كاسات العُقار، لا تراه إلا جائِداً بالجَدا، حائدا عن البخل في كل منتدى، له تآليف في التصوف خَوَّف بها القلوب أي تَخَوُّف، وقصائد مطربة تخبر بإجادته، وتدل على براعة أدبه ومجادته، توفي رضي الله عنه سنة تسع وخمسين وألف، ودفن بالزاوية البكرية بمقبرة أسلافه رحمهم الله، وخلف عنه ولدَه سيدي محمد وستأتي ترجمته إن شاء الله مع ترجمة حفيده سيدي أبي بكر رضي الله عنه.

الفصل السادس في ذكر الشيخ سيدي عبد الكريم ابن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنه

هو الإمام الذي ألقت إليه العلوم القياد، وانجابت دونه سائر حجبها بما خرج عن محل الاعتياد، الذي أحيى رسوم العلم بعد اندراسها، واستبعث كنوزه وذخائره بعد اندثارها وانطماسها، أحد أئمة الدين، وأكابر العلماء المتبحرين، صدر الصدور الأكابر، وعلامة الأعلام المشاهير، فَتَى الجلالةِ ومحلي جيدِها، ومبدي أسرار الفضائل ومُعيدها، أبو محمد عبد الكريم بن الشيخ سيدي أبي بكر رضي الله عنه، من أكابر أهل العلم والعمل به، تمسك بالعلم فسما في سماء //446// المعالي، وتحلى بالحلم فعلا على العوالي، وبرع في نظم القريض وجمع نَوْر روضه الأريض، إذ لم يبق للمعالي حالة إلا حازها، ولا للمحامد غاية إلا جازها، وحاز من الفصاحة ما لم يحزه سواه، ومن الذكاء ما هو ألذ من الشهد في الأفواه.

ولد رضي الله عنه ببلادهم الدلاء، ونشأ نشأة النجباء الأتقياء، وقرأ بها على جماعة من أعلامها، وكان غزير الحفظ ثاقب الفهم، متفننا في أنواع العلوم، مشاركا فيها على الخصوص والعموم، متبحرا في الفقه والأصلين والبيان والمنطق وعلم الكلام، حافظا لحديث الصحيحين، تصحح نسخهما من حفظه، متحققا بعلوم أرباب القلوب، واسع المعرفة بطريق القوم ومذاهبهم، حسن الكلام عليها، عارفا بمأخذ الصوفية من الكتاب والسنة، مستعملا للسنة محافظا عليها، ملاحظا لها في جميع أحواله، صادق اللهجة معروفا بالصدق، كثيرَ التهجد دائمَ المطالعة، كثير المذاكرة، درَّس في أنواع العلوم ونفع وأفاد وقيد كثيرا، وله تقايد وأجوبة في أنواع من العلوم، أخذ الطريقة عن جماعة من المشايخ وعمدته في ذلك أخوه سيدي محمد بن أبي بكر، وكان ممن يحسن الإنشاء، ويتصرف فيه كيف شاء، وله أنظام كثيرة وأشعار أدبية، ومكاتبات وأسجاع، تستحسنها الطباع، وكلامه في أعلى

البلاغة مشهور، ما بين منظوم ومأثور، وتوفي رحمه الله //447// سنة تسع وأربعين وألف، ودفن بزاويتهم البكرية مقبرة أسلافه رضي الله عنهم أجمعين.

الباب السادس في ذكر أولاد سيدي محمد بن أبي بكر، وذكر النزر من مفاخرهم التي ليس لها نهاية ولا حصر، وفيه ثمانية فصول:

الفصل الأول في ذكر ولده الأكبر أبي عبد الله محمد الحاج وسيرته التي كانت على أقوم مَحَاجٍّ

هو الشيخ الإمام الفاضل، العارف الكبير الواصل، العالم العلامة العلم، ركن الدولة البكرية الملتزم، الملك الأفخم، الأمير المعظم، بحر الجود الغطمطم الزخار، المحب لأهل الله والشرفاء الكبار منهم والصغار، غيث المدد الوابل المدرار، منبع التوحيد، ومعدن التفريد، والمواجيد الربانية، والإشراقات العرفانية، الأحوال السامية، والإشارات العالية، السائر في مملكته سيرة ربانية، أبو عبد الله سيدي محمد الملقب بالحاج، ابن شيخ الإسلام، وعلم الاعلام، القطب الكبير، العارف الشهير، سيدي محمد بن شيخ المشايخ سيدي أبي بكر الدلائي، كان رضي الله عنه إماما كبيرا، وجوادا مفضالا //448// شهيرا، عِفًّا كاملا، وعالما عاملا، طلع في سماء العلوم بدرا، وسما بنسبه البكري قدرا، وفاق ببارع جماله، كما ساد بحظه وإجماله، وظهر له من العطاء ما أنسى به الطائي، ومن الفصاحة ما أسكت الغائب والرائي، وفاق بهمته الهمامية، وساد بشيمه الاهتمامية، وبرز في ميدان الشجاعة ليثا، وكان للبائسين غوثا وغيثا.

ولد رضي الله عنه بالزاوية البكرية سنة ألف ونشأ في عفاف وصيانة، ومروءة وديانة، وراح في ميدان الصلاح وغدا، وتوشح بفضل وفلاح وارتدى، وطلع في سماء الأدب شهابا، وبرز في ميدان الفصاحة ليثا مهابا، وهو في العلوم مشارك، وآخذ منها غير تارك.

أخذ العلم الظاهر عن والده وجماعة من أقاربه، منهم أعمامه أبو العباس أحمد الحارثي، وعمه أبو عبد الله محمد الشرقي، وأبو عبد الله محمد الخديم، وأبو محمد عبد الكريم، وولد عمه أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن، وعن غيرهم من الأئمة الواردين عليهم كالشيخ أبي العباس أحمد بن القاضي، وأبي العباس أحمد بن عمران، وأبي حامد العربي ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي، وأجازوه فيما تصح لهم وعنهم روايته.
وأخذ الطريقة عن والده الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر، وكان ذا وجه حسن وذلاقة لسان، حسن الشارة، بارع الفهم والعبارة، موصوفا //449// بالرجولية والمروءة الفائقة، ونزاهة النفس والهمة الرائقة، وماذا عسى أن يُحَدِّث عنه اللسان، أو تكتبه البنان، من وصف حاله وكريم خلاله، إذ هو بحر ليس له قعر.

ولما قضى من العلم وطره وبلغ أشده وبلغ أربعين سنة، أمره والده رضي الله عنه بالذهاب لبيت الله الحرام، فذهب إليه حاجا سنة إحدى وأربعين وألف، في ركب حفيل، وموكب جليل، من الأشرف والعلماء، والأعيان والرؤساء، فكان رحيما بالمساكين، مكرما للأشراف والعلماء والمنتسبين، وحصل له في طريقه من المواهب ما أثمرته دعوة والده في الأسحار، وظهر رفقه برفيقه عند التوغل في المَهَامِهِ والأصحار، يعطف على التَّوَهُّم، ويَفهَم حاجةَ من معه قبل التَّفهُّم، ولما بلغ في رحلته إلى مصر القاهرة تعرض له بها من العلماء الجهابذة وأكرموه وعظموه، وبقي بها أياما، ولما وصل الحرمين الشريفين فرح الناس بقدومه، واقتبسوا من أنوار علومه، وتلقوه بالإجلال والتعظيم، والتبجيل والتكريم، وخطب بالناس يوم عرفة ولم يتفق هذا لأحد قبله ولا بعده، فحج واعتمر، وزار قبر خير البشر، وظهر له من الخيرات في الحرمين ما لا يقابَل إلا بالشكر، وما هذه بأول بركة

لآل أبي بكر، ودرّس بالمدينة المنورة وخطب وأمَّ، وكمل بدر هالته في المعالي وتم، ثم عاد إلى مصر فنزل على السادات البكريين وأجلوا مكانته، وأجملوا ([1]) وفادته، وأخذ عن //450// الشيخ أبي المكارم محمد البكري الصديقي وهو من شيوخ أبيه، وعن الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد المقري القرشي، وعن غيرهما من الأشياخ، وعقد بالأزهر مجالس لإقراء أنواع من العلوم، من التفسير والحديث وغيرهما، ونفع هنالك واستفاد وأفاد، ثم رجع إلى بلاده بعلم غزير فانتصب لإقراء أنواع العلوم حتى تخرج به جماعة من العلماء، وكان رحمه الله سديد الرأي شديد الفهم، بارع الإنشاء رقيق النظم، متلفعا ثوب الفصاحة، رافعا رايات البهاء والصباحة، وباعه في المشاركة في العلوم مديد، وله معرفة بطارفها والتليد، ولما توفي الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه تولى ولده صاحب الترجمة أمر الزاوية، وظهرت على يده المآثر العظام، والعطايا الجسام، وكانت له خمسمائة بغلة تحمل الدقيق من الأرجاء إلى الزاوية، وكانت له قصعة من عود تسع أكثر من وسق ([2])، فتعلقت بحبه الخواطر، وابتهجت بوجهه النواظر، وألقت إليه المملكة زمامها، ففض بعد تمنعها في خدرها ختامها، ونال ما قدره الله من موعوده، وسطعت في فلك السعادة منازل سعوده، ولاحت به للمغرب السعادة والبشائر، وانتعش به بعد الإشراف على الموت كل حيوان من ناطق وصاهل وطائر، وكل خير من الملك الوهاب، ولكل أجل كتاب، فتولى مملكة المغرب نحوا من أربع وعشرين سنة، وسار فيها سيرة حسنة، وحالة //451// مستحسنة، وقام أهل المغرب بدعوته، وأذعنوا لأمره وطاعته، وبويع له بالخلافة فيه، ففي خامس عشر شعبان من واحد وخمسين وألف نزل على فاس بمحلته محاصرا لها، وارتحل في التاسع والعشرين منه بعد أن بايعوه، فكانت مدة إقامته عليها اثني عشر يوما، وفي أوائل ربيع النبوي من عام ثلاثة وخمسين وألف، وقع قتال كبير، وحرب كثير، بوادي الطين ([3]) بين أهل الزاوية الدلائية وبين الفقيه السيد عبد الله بن الفقيه الرئيس المجاهد سيدي محمد بن أحمد العياشي، فوقعت الهزيمة عليه، ووقع قتال ونهب في القبائل بسبب ذلك. وفي أواخر رجب من العام المذكور نادى السلطان مولاي محمد الحاج بالجهاد وتهيأ له فبطل ثامن شعبان بعده. وفي ضحوة يوم السبت ثامن عشر ربيع النبوي من عام ستة وخمسين وألف كانت وقعة الكارة ويقال لها القاعة بين سيدي محمد الحاج الدلائي وبين صاحب سجلماسة مولاي محمد بن الشريف، فوقعت الهزيمة على مولاي محمد بن الشريف ودخل سجلماسة مغلوبا مهزوما، وتبعه مولانا محمد الحاج فدخلها غالبا محزوما، ثم انبرم الصلح بينهما على ما حازه جبل بني عياش إلى الصحراء فهو لمولاي محمد بن الشريف وما دونه لناحية الغرب فهو لأهل الدلاء، وشرط أهل الدلاء على مولاي محمد خمسة مواضع مما هو تحت يده وجعلوها لهم، وهي: الشيخ مغفر //452// في أولاد عيسى بالرتب ([4])، والسيد الطيب في قصر السوق ([5])، والسيد أحمد بن علي العثماني في بني عثمان ([6]) من الخنق، وقصر كلميمة في وطن غريس ([7])، وأسرير في بلد فركلة ([8]). فهذه الخمسة الأماكن شرطوا عليه أن لا يتعرض لهم فيها ولا يحرك لهم ساكنا، وقبِل ذلك مولاي محمد بن الشريف وتم الصلح بينهما على ذلك، ورجع أهل الدلاء لبلادهم على العهد والأمان، ولم يزل مولاي محمد بن الشريف مقتصرا على ما وقع عليه الصلح بينه وبين أهل

---

1 – في المخطوط "أجللوا".
2 – هو مكيال يعادل ستين صاعًا بالصاع النبوي ويعادل وزنه 132.6 كيلو جراما من القمح تقريبا.
3 – يقع وادي الطين بالقرب من مركز أحد كورت الحالي حسب قول محمد حجي في الزاوية الدلائية ص 170، وأحد كورت هي مدينة في إقليم سيدي قاسم ضمن جهة الرباط سلا القنيطرة.
4 – أولاد عيسى قصر يقع على الضفة الغربية لوادي زيز، ويبعد عن قصر السوق بنحو 40 كلم جنوبا. والقصر في اصطلاح أهل تافيلالت يعني قرية صغيرة. انظر الزاوية الدلائية لحجي ص 172
5 – قصر السوق يسمى حاليا الراشدية.
6 – بني عثمان يعرف حاليا بآيت عثمان، عبارة عن عدة قصور تقع على بعد نحو 27 كلم من الراشدية شمالا. انظر المصدر السابق.
7 – في المخطوط "اغريس". وتقع كلميمة على ضفة نهر غريس على بعد نحو 60 كلم من الراشدية غرباً في طريق ورزازات.
8 – في المخطوط "سَرير في بلد فريكلة". ويقع قصر أسرير على ضفاف وادي فركلة بعيدا عن الراشدية بنحو 86 كلم غربا. انظر المصدر السابق.

الزاوية الدلائية إلى أن بعث له أهل فاس كما سيأتي ذكره في سابع رجب الفرد الحرام من عام سبعة وخمسين وألف خرج الناس أيضا للجهاد بحلق المعمورة عن إذن السلطان أبي عبد الله سيدي محمد الحاج، ثم رجعوا بعد ثمانية عشر يوما وقد مات منهم كثير من مرض أصابهم بسبب ماء شربوه هنالك.

وذكر الفقيه العلامة أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني في كتابه المقصد الأحمد أن الولي الصالح أبا العباس سيدي أحمد بن عبد الله معن رضي الله عنه خرج للجهاد صحبة أبيه سيدي محمد بن عبد الله مع الأمير أبي عبد الله سيدي محمد الحاج عند ذهابه لبعض حصون الكفرة يحاصره، وهو المعمورة، فأبلى بلاء حسنا، قال: وكان ذا إقدام ونجدة، قال: وضعف يوما والده سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في عقبة هنالك لكبره فحمله على ظهره حتى قطع به المواضع المخُوفة من //453// أسوارهم، ثم لم يتفق له بعد ذلك مشهد آخر اهـ

وفي سنة ثمان وخمسين وألف حرك أهل الزاوية الدلائية لبني زروال بإذن الأمير مولانا محمد الحاج ورجعوا سالمين ظافرين.

وفي سنة تسع وخمسين وألف بعث أهل فاس لمولاي محمد الشريف المذكور كتابا يطلبون منه فيه القدوم عليهم والقيام بأمرهم وأن ذلك باتفاق من جميعهم، فأتى إليهم ونزل ببلاد الحياينة وجعلوا يتهيؤون لملاقاته والقدوم عليه بها، وفي خلال ذلك بعث الولي الصالح الملامتي أبو العباس أحمد بن عمرو دفين داخل باب الجيسة، أحد أبواب فاس، وكان يأوي بحانوت بعين علو، لمعاصِره الشيخ الجليل سيدي يوسف بن أحمد الصنهاجي دفين (...) ([1]) قبالة صفرو، بسَفَطٍ مملوء بالعطرية التي هي من زينة النساء وجهازات العرائس، فلما قبض سيدي يوسف السَّفَط وفتحه تبسم وأخذ ما فيه وفرقه على أهل داره والحاضرون ينظرون، ومن الغد بعث لسيدي أحمد بن عمرو المذكور صنونة (كذا) خضراء مملوءة سمنا، فلما وصلت إليه بعين علو وفتحها رمى بها من يده وجعل يقول: ظننت أنها مملوءة سمنا فإذا هي مملوءة سُمًّا، ويكرر مملوءة سما، ويوبخ سيدي يوسف ويشتمه، فلما أُخبِر سيدي يوسف بذلك هز رأسه وتبسم وقال للحاضرين: أمَّا السَّفَط الذي بعث لي فيه العطرية فمعناه أنه يقول: هذه نفقة العروسة وهي السلطنة //454// تجيء من الصحراء، يريد أن يدخل أولاد مولاي الشريف بن علي للمغرب يكونون ملوكا فيه، وأما الصنونة التي بعثت له بها مملوءة سمنا فمعناه أني قلت له: إن الصحراء اسم امرأة، والغرب اسم ذكر، والمرأة إذا حكمت في الرجل لا تفعل له إلا الهم ولا تسقيه إلا السم، وليس في قلوبهم خير للخلائق، والآن الوقت وقتي والنوبة نوبتي، فبالله الذي لا إله إلا هو وعنايةِ سيدي الغازي، واحدٌ منهم لا انتصر بالمغرب ما دُمتُ، فإن تمت مدتي وانقضت نوبتي بموتي فليفعلوا ما أرادوا، فقام إليه رجل من بين الناس وقال له: يا سيدي تقول هذا ومولاي محمد بالحياينة قد بعث إليه أهل فاس وهم خارجون إليه يُدخِلونه إليهم، فقال: وإن كان ببلاد الحياينة فإنه يقدم لفاس ويدخلها ذئب متعوب ويخرج ثعلب مزروب، والله لا استقام لأحد منهم أمر بالمغرب ما دمت فيه حيا اهـ من مؤلف في مناقبه. فخرج إليه أهل فاس لبلاد الحياينة وأتوا به لفاس الجديد وسجن قائدَه أبا بكر التاملي السوسي ليلة الجمعة مهل رجب العام، فبايعوه لسابع رجب العام، وأقام عندهم مدة، وبلغ الخبر للخليفة سيدي محمد الحاج فجهز له جيشا عظيما ووجهه إليه. قال في نزهة الحادي: وفي تاسع شعبان العام وقع قتال عظيم بين مولاي محمد بن الشريف وبين جيش أهل الزاوية البكرية الدلائية، فكانت الملاقاة على //455// ظهر رمكة ([2]) من باب فاس، فهزم مولاي محمد مع أهل فاس ومن معه من القبائل هزيمة شنيعة، وتحصن بفاس الجديد وبقي مدة يدبر الأمور، وينتظر ما يأتي المساء والبكور، ولما طال عليه الأمد بفاس الجديد وضعف جيشه وثار عليه أهل فاس أواخر شعبان سنة ستين وألف ذهب إلى تافيلالت في ثاني عشر رمضان العام، وانقطع طمعه من التشوف إلى المغرب ولِمَا تحت أيدي أهل الزاوية منه ومن غيره، وكانت مدة إقامته بفاس أربعة عشر شهرا وأياما قلائل وصدَّق الله الشيخ سيدي يوسف الصنهاجي فيما قاله، إن لله عبادا لو أقسموا على الله لَأَبَرَّهُم، والأمر لله من قبل ومن بعد.

وفي عام أحد وستين وألف وقع قتال كبير بالشَّراط قرب سلا بين زعير وجيش أهل الدلاء، فهُزِم زعير وكان رئيسهم الدقاق، ووقع نهب عظيم وفساد كبير في أتباعه من القبائل بسبب ذلك، ونُصر الدلائيون.

---

1 – كلمة غامضة تقرأ "حجر وانس" ولم نتمكن من ضبطها.

2 – ويقال أيضا ظهر الرمكة كما في الإتحاف لابن زيدان.

وفي الثالث والعشرين من ربيع الأول النبوي المبارك المفضل من عام أحد وستين وألف قام أهل المغرب بدعوة الفقيه العالم المرابط أبي عبد الله سيدي محمد الحاج صاحب الترجمة وأذعنوا لطاعته وأمره، وجاءته البيعات من البلدان المغربية، وبايعه أهل فاس الإدريسية والعليا بالخلافة، وكتبوا له البيعة بجامع القرويين وحضرها من هو أهلٌ //456// لذلك من الأعيان، والجم الغفير من أهل الديوان، في مهل ربيع الثاني من العام، وقدموا بها عليه للزاوية الدلائية فقرئت على منبر مسجدها ([1])، ووضعت في صندوق مع غيرها من بَيعات نواحي المغرب في خزانة كتب الجامع المذكور، واستولى على سائر المدن ودخلت في طاعته كفاس ومكناسة الزيتون ورباط الفتح وتطوان والقصر وطنجة وشفشاون وتازة وملوية وما بينها من القبائل ويليها من الجبال إلى البحر الأعظم إلى بحر الزقاق ([2]) إلى وادي ملوية ووادي أم الربيع، فكان أمره نافذا في جميع الأقطار، ودانت له الرقاب، وخضعت ذوو الألباب، واستعمل على المغرب من أهله وغيرهم، فولى ولده الفقيه العلامة أبا محمد عبد الله بسلا ومكناسة بعد ذلك، وولى ولده العلامة الأديب أبا العباس أحمد على مدينتي فاس ونواحيها، واستوطن فاس العليا إلى أن توفي فخلَّف ولدَه الآخر أبا عبد الله سيدي محمد، ودخل أهل الزاوية عند ذلك مدينة فاس، وعادت لهم الدولة فيها أكثر مما كانت بعد خروج مولاي محمد بن الشريف منها بستة أشهر.

وفي أوائل رجب من عام اثنين وستين وألف خرج الفقهاء من فاس للزاوية البكرية مشتكين للسلطان سيدي محمد الحاج ومستغيثين به في كف الحياينة عن النهب وقطع الطرقات وسفك الدماء، وكانوا قد شقوا العصا، ودخلوا فيمن عصى، ومستشفعين //457// له في غزوهم بعد أن كتب له أئمة العصر أجوبة مصرحة بوجوب قتالهم وهي تسعة أجوبة.

<u>نص الأول منها</u>: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما مسألة العرب الذين يقطعون الطريق على المسلمين وينهبون أموالهم على وجه يتعذر معه الامتناع والاستغاثة كإشهار السلاح، فهم المحاربون في اصطلاح الفقهاء، ففي منتقى الباجي قال القاضي أبو محمد: المحارب هو القاطع للطريق المخيف للسبيل الشاهر للسلاح طلبا للمال، فإن أعطيه وإلا قاتل عليه. قال ابن رشد لم يختلف قول مالك وأصحابه في إجازة قتال المحاربين وأن من قتلوه فهو خير قَتيل ومن قُتِل منهم فهو شر قتيل، وقال مالك وابن القاسم: جهادهم جهاد، وقال عنه أشهب: مِن أفضل الجهاد وأعظمه أجرا. وقال مالك أيضا في أعراب قطعوا الطريق: جهادهم أحب إلي من جهاد الروم. وقال عليه السلام: (من قتل دون ماله فهو شهيد)، وإذا قُتِل دون ماله وما للمسلمين فهو أعظم لأجره. وقال أبو إسحاق: قطاع الطريق أحق بالقتل من الروم. قال ابن القاسم: وإذا قَتَل واحد منهم قتيلا فقد استوجب جميعهم القتل ولو كانوا مائة ألف، إذ كانوا ردئا له وأعوانا، ويُتبع مُنهزِمهم ويُقتَلون مقبلين ومدبرين ومنهزمين، وليس هربهم توبةً تدرأ //458// عنهم القتل. وقال سحنون: يُتبعون وإن بلغوا بَرك الغِماد ([3])، وفي الموازية: لا يجهَز على جريحهم، ولم يره سحنون. وإذا أخذوا قبل التوبة لزمهم الحد وهو القتل والصلب، أو قطع اليد والرجل من خلاف، أو النفي والحبس، والأصلُ في هذا الباب، قول مُنزِّل الكتاب (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ...) إلى (عظيم)، فقد أوضحت الآية حكم الله تعالى فيهم غاية الإيضاح. وقال ابن المواز وابن سحنون عن مالك: إن ذلك على التخيير، وهو تخيير متعلق باجتهاد الإمام الذي ولاه الله أمر عباده، وهو مصروف إلى نظره ومشورة الفقهاء فيما يراه للمصلحة والدين والدرء للفساد، وليس ذلك على هوى الإمام ولكن على الاجتهاد، ولا يُسقِط حَدَّ الحرابة على من ثبتت حرابته إلا التوبة، ثم لا يَسقُط بعدها حَقُّ الآدميين، وطالما تردد المحاربون الأعراب هنا وجاسوا خلال الديار وأراد المساكين وأرباب الأموال قبضهم في أموالهم الشهيرة النهب فيتعلقون بمن له السطوة والاستطالة من

---

1 – هو المسجد الذي بأعلى الجبل قرب ضريح سيدي أبي بكر، لأن المسجد الذي بآيت اسحاق حاليا لم يكن قد بني بعد، فقد ابتدئ أساسه سنة 1063هـ على ما سيأتي في ص467 من المخطوط.

2 – البحر الأعظم هو المحيط الأطلسي وبحر الزقاق هو ما يعرف بمضيق جبل طارق.

3 – بَرك الغِماد: بفتح الباء على المشهور بعدها راء ساكنة، والغماد بكسر الغين وفتحها، وهو موضع اختلفوا في تحديده لكنهم يقولونه كناية فيما تباعد.

أصحاب السيوف ويرجع الناس عنهم مقهورين مضغوطين، وحُكْمُ الله فيهم ما سُطِّر، والله تعالى يرينا الحق حقا ويعيننا على سلوك سبيله، والباطل باطلا ويجنبنا وجميع إخواننا //459// التمسك بأسبابه وقبيله، وكتب عبد الله تعالى وأفقرهم إلى رحماه، محمد بن محمد بن القاسم بن سودة وفقه الله بمنه آمين.

ونص الثاني: بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما وقع السؤال عنه من قتال المحاربين المتعرضين لقطع الطريق على المسلمين ونهب أموالهم وسفك دمائهم، من الأعراب وغيرهم، لا يشك مسلم في جوازه كما صرح به ابن الحاجب وغيره، بل بالاتفاق، بل بوجوبه على من قدر عليه. ففي المدونة: جهاد المحاربين جهاد، وفي العتبية: مِن أعظم الجهاد وأفضله أجرا. ولِمالك: جهادهم أحب إلي من جهاد الروم. وقال ابن شعبان: جهاد المحاربين أفضل من جهاد الروم. وقال علماؤنا رضي الله عنهم: من كان معاونا للمحاربين كالكمين والطليعة فحُكمهم حُكمهم، ويدخل في قوله صلى الله عليه وسلم: (لغدوة وروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها) والغدوة والروحة يعني لقتال المحاربين. وسئل ابن عرفة عن سلاح موقوفة للجهاد هل يُقاتَل بها المحاربون أم لا؟ قال: لا بأس به. وسئل قاضي الجماعة بفاس أبو سالم إبراهيم بن محمد اليزناسني عن مسألة من هذا المعنى فأجاب: من تكرر منه العداء وإخافة السبيل فجميع ما //460// بيده حرام لا يحل، ولا يحل للسلطان أن يعطيَه من مال المسلمين ولا من مال إن كان له مال خاص به، لأن الواجب على السلطان الأخذ على يده ورده عن الفساد ولو بقتله. وقد سئل ابن عرفة عن الذين ينتصبون من الأعراب لقطع الطرقات وسفك دماء المسلمين وأكل أموالهم، عن أشياء تتعلق بهم وبقتالهم تظهر من جوابه، فأجاب بما نصه: جميع ما ذكرت من قتال هؤلاء وجهادهم والإشارة لنيل ثواب جهادهم ورجحانه على جهاد الكفار غير مبتدئين قتالَ المسلمين صحيحٌ لا ينبغي لمسلم مخالفته، وكذلك ما ذكر من استباحة أموالهم واتباعهم في هروبهم والإجهاز عليهم لا يشك في ذلك إلا مغرق في الجهل أو معاند للحق، وذلك عندي والعياذ بالله كفر لأنه منكرٌ ما عُلِم من الدين ضرورةً، إن كان يعلم أن هؤلاء البغات على ما وصفوا به اهـ وقال سيدي إبراهيم اليزناسني: ولا خلاف عند أهل السنة في حصول هذه الفضيلة من مطيع أو عاص، لما ورد من القتال مع كل بر وفاجر من الولاة. وأجاب أيضا عن هذا السؤال الذي أجاب عنه ابنَ عرفة تلميذُه الفقيه القاضي أبو مهدي عيسى الغبريني بما نصه: جميع ما أفتيتم به في القضية حق وصواب لا يحل لمسلم مخالفته وإنكاره، وإنكار من أنكر ذلك هو من بعض مدلول //461// قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا) الحديث اهـ محل الحاجة منه. قال علماؤنا رضي الله عنهم: إنما كان للمحاربين الخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة لشناعة المحاربة وعظيم ضررها، لأن فيها سدا لسبيل الكسب عن الناس، لأن أكثرَ المكاسب أعظمُها التجاراتُ، وركنها وعمادها إنما هو الضرب في الأرض كما قال عز من قائل (وءاخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) فإذا أُخيفَ الطريقُ انقطع الناس عن السفر واضطروا إلى لزوم البيوت فانسد باب التجارات عليهم وانقطع اكتسابهم، فشرع الله تعالى التغليظ على قَطَعة الطريق وذلك هو الخزي في الدنيا، ردعا لهم عن سوء فعلهم وفتحا لباب التجارات التي أباحها الله تعالى لمن أرادها من عباده، ووعد بالعذاب العظيم في الآخرة على ارتكاب المحاربة، فهذه المعصية خارجة عن المعاصي مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم (فمن أصاب من ذلك شيئا فعوقب عليه في الدنيا فهو كفارة له) والله أعلم. ولا يختص هذا الحكم بالأعراب بل قال علماؤنا رضي الله عنهم إن كل من حمل السلاح على المسلمين بغير عداوة ولا منافرة فهو محارب، والسارق بالليل محارب، وفي النهار في دار أو زقاق مكابرة تمنع //462// معها الاستغاثة محارب، وقاتل الإنسان على المال محارب، فيجري في جميع من اتصف بشيء من ذلك ما سطرناه أعلاه، وقد آل بنا الحال في بعض الأوقات إلى أن يتبع المسافرين بعضُ مردة أهل البلد إلى الأجنة ونحوها مما قرب من البلد فيسفكون دماءهم وينهبون أموالهم ويرجعون إلى البلد جهارا فلا يُنتقَم منهم ولا يُستفتَى في حكمهم أحد، بل وإلى ما هو أعظم من هذا من القتل صبرا ونهب الأموال من الدور والحوانيت جهرا بلا ذنب ولا سبب، ثم يَكتسِب فاعل ذلك التعظيمَ والاحترامَ فضلا عن عدم النكير عليه والضرب على يده، فإنا لله وإنا إليه راجعون (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون). وكتب عبد الله تعالى محمد بن أحمد ميارة كان الله له.

ونص الجواب الثالث: الحمد لله وصلى الله على مولانا رسول الله، ما ذكره المجيب أعلاه من أمر [1] العرب المخيفين للسبيل الناهبين للأموال هم المحاربون صحيح، والنصوص المذهبية في جواز قتالهم واضحة التصريح، وقد جلب المجيبان أعلاه جملة وافره منها. وقد ذكر الإمام الحافظ أبو بكر ابن العربي في تفسير قوله عز وجل (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله...) الآية ما نصه: إن قيل: كيف يقال إن هذه الآية تتناول المسلمين وهذه صفة الكفار؟ قلنا: الحرابة تكون بالاعتقاد //463// الفاسد وتكون بالمعصية، قال تعالى (فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) فإن قيل: إن ذلك فيمن يستحله، قلت: نعم، وفيمن يفعله، فقد اتفقت الأئمة على أن من يفعل المعصية يقاتَل ويحارَب، كما لو اتفق أهل بلد على العمل بالربا أو على ترك الجماعة أو على تعطيل الجمعة أو ترك الآذان فإنهم يقاتلون على ذلك، ثم قال بعد كلام طويل وتحقيق: المحاربة هي إشهار السلاح بقصد السلب، وقد شرح مالك ذلك شرحا بليغا في رواية ابن وهب إذ قال: المحارب هو الذي يقطع السبيل ويظهر الفساد – وإن لم يقتل أحدا – إذا ظهر عليه يقتل اهـ والسلام. وقد أفتى ابن عرفة في عرب إفريقية بالمسطر أعلاه مع أن من راجع كتب التاريخ لا يمتري بأن المسؤول عنهم أسوء حالا من أولئك العرب، وبالجملة فالحق أبلج والباطل لجلج.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

أرانا الله حقيقة الحق وجعلنا من أهل قبيله، وجنبنا من الباطل وأهل سبيله، وكتب الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد الزموري لطف الله به.

ونص الرابع: الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم، ما سطر أعلاه في مسألة المحاربين غاية في الإقناع، ونصوص العلماء رضي //464// الله عنهم كشفت عن حكم الله تعالى فيها القناع، فتسويد الكاغيد بعد تحصيل الحاصل ليس تحته طائل، إذ حكم الله واحد، والحق لا يختلف فيه إلا معاند أو جاحد، اللهم إلا أن يكون موافقة للمسطور، ومساعدة للآمر والمأمور، فيقول العبد القصير الباع، القليل البضاعة في العلم والمتاع، عن الكلام الذي يحصل به الإقناع والإمتاع، لا جرم أن من أخاف المسلمين أو قطع الطريق عن المسافرين فهو من المحاربين الذين قال الله فيهم وهو أصدق القائلين (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله...) الآية، ونصوص العلماء رضي الله عنهم مصرحة بأن قتالهم حق أوجبه الله على العباد، على من استجمع منهم شرائط الجهاد، درءا للفساد. قال ابن الحاجب: يجوز قتالهم باتفاق، ونقله شارحه السيد خليل عن مالك وابن المواز وابن شعبان والمدونة والعتبية ما سطره المجيبون أعلاه، ثم هذا حكم الله في المحارب، فإذا انضاف إلى الحرابة ما سطر فيهم من كونهم يستحلون ما حرم الله فهي الردة والكفر الصراح والعياذ بالله، وقد قال عياض رحمه الله: أجمع المسلمون على كفر من استحل شيئا مما حرم الله بعد علمه بتحريمه، فيقاتلون على هذا بوصفين ويقتل منهم المحارب البالغ ومن كان ردءا له ويتبعون على قول //465// سحنون مطلقا ولو بلغوا بَرك الغِماد، ويقتلون مقبلين ومدبرين وليس هروبهم توبة، وأما ما بأيديهم فجواب ابن عرفة المسطر أعلاه كاف فيه، وليت شعري أي مسألة آكد على المسلمين من قتال المحاربين، بدوي وحضري، إذ بقتالهم وكف إذايتهم ينتظم شمل العام، ويحصل الأمر العام، الذي تطمئن به النفوس وتنتشر فيه الهمم، وتَسكُن به العدَّة ويأنس به القوي والضعيف، ويشمل النفع المشروف والشريف، خصوصا في التجارة التي رغب فيها ذوو الأقدار، وحظ عليها أولوا الأخطار، من تقلب المال في الأسفار، ونقله إلى القرى والأمصار. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (تسعة أعشار الرزق في التجارة) الحديث. وفي بعض الكتب المنزلة: "يا ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا"، إلى آخره، وبإهمالهم وتركهم على حرابتهم وغوايتهم يحصل ضد ما ذكر من الخوف الذي يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفاتهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أَوَدِهِم وانتظام جملتهم، فالواجب على القادر على جلب هذه المصلحة وعلى دفع ضدها من المفسدة المسارعةُ إليها بقدر الإمكان، نسأله سبحانه وتعالى التوفيق لطريق الصلاح، ونهج الفلاح، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

1 – كذا في المخطوط "أمر" وربما كانت مصحفة من "أَنَّ" التي هي أنسب للسياق.

//466// أكرم رسول ونبي وصديق، آمين، وكتب العبد الفقير إلى العزيز الجبار، أحمد بن محمد الأبار لطف الله به.

ونص الخامس: الحمد لله، ما ذكره المجيبون أعلاه من حكم الله تعالى في المحاربين ونقلوه عن كلام علماء الأمة كلام ملخص منقح محرر، وأصله في الكتاب والسنة ثابت مقرر، وذلك كاف في الجواب والله تعالى يلهمنا الرشد والصواب، ويعيننا على الأعمال المرجو بها نيل الثواب، وكتب عبد السلام بن محمد وفقه الله بمنه.

ونص السادس: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أجاب به المجيبون أعلاه في نازلة القوم الموصوفين بما ذكر، وجلبوه من نصوص الأئمة رضوان الله عليهم، كل ذلك صحيح موافق للمعقول والمنقول وفيه كفاية، ومن له قدرة على قتالهم يجب ذلك عليه، وعلى المسلمين إعانته في ذلك، والسلام. وكتب مسلما على من يقف عليه عبد الله تعالى علي بن محمد المري وفقه الله ولطف به، آمين.

ونص السابع: الحمد لله، والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، كل ما ذكر في هذا المسطور أعلاه من الأجوبة صحيح المعنى واضح المبنى، والله سبحانه يقيم لهذه الأمة المحمدية من يجدد لها أمر دينها ويحسم مادة أهل الفساد، ويقطع دابر أهل الزيغ والعناد، وقد كفى المجيبون أعلاه في سرد ما يتعلق من النقول بالمسألة، ولم يبق لقائل ما يقول في ذلك، والله //467// تعالى أعلم. وكتب العبد الفقير إلى رحمة مولاه عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي كان الله له آمين. اهـ
وأطال الفقهاء في أجوبتهم قطعا للمعاذير والتعليلات، واحترازا من المقابلة للأجوبة المسطرة بالتأويلات، سيما هذه القضية القاضية، المبعوث بها لأهل المعقول والمنقول من أهل الزاوية البكرية الدلائية، فلما وصلت هذه الأجوبة حضرةَ السلطان أبي عبد الله محمد الحاج رحمه الله وقرأ هذه الفتاوى على ذويه وغيرهم من القبائل أجابوه بالسمع والطاعة، وأذعنوا لأمره عن نشاط واستطاعة، ونادى بالناس بالحركة، واجتمعت إليه الجيوش من القبائل على المعتاد من طوع الانقياد، فخرج إليهم في خيله ورجله يطوي المراحل حتى نزل عليهم، فاجتمعوا بجموعهم لقتاله، وتهيؤوا لحربه ونزاله، فقاتلهم أشد القتال أوائل رمضان عام اثنين وستين وألف، وهزمهم هزيمة شنيعة، وأثخن فيهم القتل حتى ظن الناس معها أنهم لا تقوم لهم قائمه أبدا، واستراح المسلمون من فساده‍م وعتوهم مدة مديدة، وسنين عديدة، والأمر لله من قبل ومن بعد.

(بناء مسجد الزاوية الدلائية الحديثة ([1]) بآيت اسحاق)

وفي يوم الخميس ثاني ذي القعدة الحرام عام ثلاثة وستين وألف، ابتدئ أساس المسجد الكبير الأعظم من مساجد الزاوية البكرية الدلائية حرسها الله تعالى، استمر بناؤه إلى تمامه. وفي يوم //468// الإثنين التاسع عشر من جمادى الثانية عام أربعة وستين وألف ابتدئ بناء منارها، وفي يوم الأحد الحادي والعشرين من رجب الفرد من العام ابتدئ بناء أساطينه، واستمر البناء فيه إلى أن كمل بجميعه، وقد اعتنى بذلك كله والانقياد لإتقان تشييده السلطان أبو عبد الله سيدي محمد الحاج رحمه الله.
ووجد مقيدا ما نصه: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، ولَّينا بحول الله الفقيه الأجل السيد محمد بن عبد الله الغراري الشريف الزكاري مسجد القطب سيدي أبي مدين الغوث المعروف بالرميلة من عدوة فاس الأندلس ليؤم به ويستبد بخراجه، وأبقيناه على ما كان بيد والده من أحباس المساكين

1 – أكد محمد حجي أن هناك زاويتين قديمة وحديثة لا تزال أطلالها قائمة الذات، مائلة للعيان حتى اليوم، ويعرف سكان ناحية خنيفرة الزاوية القديمة باسم "أيت بدلا" أي أهل الدلاء، وتقع الزاوية الدلائية القديمة على ربوة في سفح "جبل بو ثور" بينه وبين جبل تاغوليت، وتنفجر في شرقيها شعبة "أقا إيزم" أي شعبة الأسد. أما الزاوية الدلائية الحديثة التي بناها السلطان محمد الحاج الدلائي فهي التي تقوم على أنقاضها زاوية آيت إسحاق الحالية، في الطريق التي تربط بين خنيفرة وقصبة تادلة.

المصروفة عليه بخطوط أسلافنا في فتاويهم رحمة الله عليهم بيده، والواقف عليه يعمل بمقتضاه ولا يتعداه ولابد، والسلام. وبتاريخ أواخر شعبان من عام خمسة وخمسين وألف، عبد ربه وأسير ذنبه محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر الدلائي لطف الله به.

وفي عام ثلاثة وسبعين وألف خرج من فاس جماعة من الأعيان للزاوية البكرية مستغيثين بأهلها من مولاي محمد بن الشريف لنزوله ببلاد الحياينة وإفساده لهم الزروع وغيرها.

وفي صفر من عام أربعة وسبعين وألف نزل السلطان أبو عبد الله سيدي محمد الحاج قرية آزرو فخرج إليه أعيان فاس وقاضيها، فبقوا //469// هنالك ثم رجعوا من عنده أول ربيع الأول من العام، وبقي هو هنالك إلى أن دخل فصل الشتاء ورجع للدلاء.

وفي عام سبعة وسبعين، بموحدة فيهما، وألف نزل قرب وادي فاس بالموضع المسمى بآمزورة ([1]) فقاتل قتالا خفيفا ورجع بعد إقامته أياما قلائل، بعد أن أذعنوا لطاعة أمره، وكانت تلك آخر حركته والله أعلم.

وكانت له رضي الله عنه المآثر الحسان، كبناء القناطر وأسوار المدائن وبناء المساجد والمدارس وضواريح الأولياء، منها قنطرات ثلاث على وادي أم الربيع، ومدرسة فاس الجديد، والسقاية التي بباب المدينة، ومنها ضريح الولي سيدي عبد الرحمن الشريف خارج باب الجيسة، وضريح الولي سيدي بوعلي قرب الدلاء، ودار الأضياف على شاطئ وادي فاس، إلى غير ذلك من المآثر الحسان، التي يكل عن وصفها اللسان.

قال في المباحث: ولما دخل الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله السوسي ([2]) للزاوية البكرية وكان دخوله إياها يوم الجمعة قبل صلاتها، وصلى الجمعة بمسجدها الأعظم الذي يخطب فيه الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد المرابط، لقيه صاحب الترجمة وأخذ عنه وانتفع به ووعظه بمواعظ لا يستطيعها غيره، وقال له: أنت من ذرية من قد علمت، إياك والإسراف على نفسك، ففرح السلطان بمواعظه وأنزله في //470// دار قريبة منه، فكان يأتيه إليها، فكان الشيخ يقف إذا جاء الأمير تعظيما له، فأنكر بعض الناس ذلك كما أنكروا الوقوف عليه يوم قدومه فقالوا: ما للمنسوب إلى الله والوقوف على الملوك؟ فبلغ ذلك الشيخ فقال: أرى الأدب مع الله تعظيم من ولاه من الملوك بما لا يخالف الشرع.

وكان لصاحب الترجمة رحمه الله الباع الطويل في المكاتبات نظما ونثرا، ممن يحسن الإنشاء، ويتصرف فيه كيف شاء، فمن نظمه رحمه الله من صدره كتاب بعثه لأهل فاس:

يـــا أهـــل فـــاس فـــيكم خصـــلة	لــم يحتــرف بهــا ســوى مــن أســا
للكيـــــد قـــــد أظهـــــرتم ودكـــــم	وذاك أمـــــر مـــــن أمـــــور النِّســـــا
أقســــــــم بـــــــالله وآياتـــــــه	والطبــل لا يضــرب تحــت الكســا
إن لــم تــردوا الــنفس عــن غيهــا	لأضـــــــربن وَتيـــــــنَكم والنَّســـــــا

1 – كذا في المخطوط، وكتبه حجي في الزاوية الدلائية ص252 "بومزورة"، قال: (والتقى الجمعان على ضفة نهر بومزورة أحد روافد وادي فاس).

2 – هو الموضوع في ترجمته كتاب مباحث الأنوار للولالي، أحد أكابر الأقطاب الصوفية، توفي عام 1079هـ بمكة ودفن بالحجون، وكان له من الأتباع في المغرب نحو ثمانين ألفا حسب قول الولالي. انظر المباحث ص94 وص199

ذكر خروج أهل الزاوية الدلائية منها عن الطارف والتليد، وانتقالهم عنها لفاس وتلمسان وغيرهما من البلدان لما قام عليهم السلطان مولاي الرشيد

قد جرى من الإشارات، وصريح العبارات، على لسان غير واحد، من عبيد الملك الواحد، بأن أهل الزاوية الدلائية لا بد لهم من //471// الانتقال والخروج منها بالأولاد والعيال، وترك الجليل من الأمتعة والأموال، وتقرر في ذهن كل مقر به وجاحد، ومكابر ومعاند، بما هو أوضح من بيان، وأجلى من عيان، عَدا ما عَرَاهُم مِن جهلِ وقتِه، وكيفيته ونَعتِه، إلى أن غشيهم زمانه، وفجأهم أوانه. وقد كان والدهم الشيخ الشهير، العارف الكبير سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه أشار إلى ذلك بأن قال لأخت له ذات يوم: سيجعل لكم محمد، يعني ولده سيدي محمد الحاج، سلما [تصعدون] ([1]) معه فيه وتَدَعون أخنيف، يعني ثياب المسكنة، فترجعون فلا تجدون أخنيف، وتلتمسون السلم فلا تجدونه. اهـ فهذا من الإشارات الواضحة. قال راويه: فكان الأمر كما قال، إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم اجعل لنا في المكتوب رفقا، وفي القضاء لطفا، وفي اللطف رحمة.
ومن الإشارات أيضا ما حكي أن الشيخ رضي الله عنه أُخبِر ذات يوم بموضع كذا بأن خيلا بموضع هنالك لا يُدرى ما هي، فقام رضي الله عنه فزعا وقال الله، بصوت عال، قد طار قلبي إلى أن كاد يخرج من فمي، ثم قال لمن أخبره: لو علمتم ما يأتيكم من ذلك الموضع، فكان ورود الرشيد لأخذ زاوية بنيه من ذلك الموضع كما قال مشيرا له، والأمر لله من قبل ومن بعد.

وقال العلامة أبو العباس أحمد بن يعقوب الولالي في مباحث الأنوار لما تكلم على //472// جواز شيخه سيدي محمد بن عبد الله السوسي المتقدم الذكر بالزاوية الدلائية وإقامته بها أياما، وخرج الشيخ في يوم من تلك الأيام ومشى بخارج أسوار البلد، يعني ودار بها وتطوف عليها حتى كاد أن يأتي على جميعها، ولما رجع قال لبعض من كان معه من أصحابه: أتدرون ما السر في طوافنا على بعض أسوار هذه البلدة؟ فقالوا له: لا ندري، فقال لهم: السر في ذلك هو تأمينها مما يخشى منه أهلها، قال: ومن يوم قال الشيخ ذلك لم تزل في ازدياد الأمن، ودامت كذلك حتى أتاها ما قدره الله تعالى كما هو معلوم.
وذكر في المباحث أيضا أنه لما قرب انخرام الدولة الدلائية أخبر بذلك الشيخ سيدي علي بن عبد الرحمن ([2]) رضي الله عنه ونفعنا به وقال: إن الشريف الرشيد يتولى بعدهم.

قال في الأزهار الندية: حدثني بعض الفقهاء الثقاة عن والده، وأعرفه من الأثبات، وقد أدرك هذا الزمان، أن المولى الرشيد لما أن كان نزل بالزاوية الدلائية على سبيل الوفادة بعد موت أبيه بقريب فارا من أخيه مولاي محمد، وبقي مقيما بها أياما، أخبره بعض أهل الزاوية أن مما هو بينهم شائع، وعندهم ذائع، أن سلطانا يسمى

---

1 – سقطت من المخطوط، وهي مثبتة في موضعين آخرين من المخطوط. انظر ص220 و ص496.
2 – شيخ صوفي ازداد بوادي درعة عام 1018هـ / 1609م، وقد جاء عند كثير ممن ترجم له باسم الدراوي. بعد قراءته القرآن أخذ الطريقة بتمكروت عن عبد الله بن الحسين، ثم بدأ حياة السياحة، فذهب إلى سوس، ودخل في خدمة الشيخ بودميعة، ثم ذهب لزيارة أبي يعزى والأخذ عن شيوخ الزاوية الدلائية، لينتقل فيما بعد إلى زاوية واويزغت عند الشيخ محمد الدادسي الذي كان هو عمدته في الأخذ، وبعد وفاة شيخه هذا، أضطلع بأمور الزاوية بعده وجعل ينفق على الطلبة واليتامى والأرامل، مما أكسبه شهرة واسعة في المغرب كله. وكانت ذكرياته في الزاوية الدلائية وشعبيته سببا في المحنة التي أصابته مع المولى الرشيد. توفي بالطاعون عام 1090هـ / 1679م، ودفن بتادلا بمنزله المسمى تَمْجُتْ أو تمَدْجُوتْ وتعني المحل الأقرع الخالي من النبات، الأجرد، وهو مدشر يبعد عن بني ملال حوالي 30 كلم جهة الشمال الشرقي في الجبل. ويكون أهل تمدجوت فرقة بربرية في أيت بوبكر من قبيلة أيت امحند. اهـ. من مباحث الأنوار ص279، ولمؤلفه هناك مزيد كلام يطول نقله.

الرشيد هو الذي يخلي زاويتهم، وأنهم استفادوا ذلك عن بعض الإخباريين عن كشف أو غيره، وأقسم عليه أن لا يقيم بها وأن يسرع الخروج منها مخافة أن يهجم عليه أحد من رؤسائهم بسبب ذلك اهـ
//473// فهذا أمرٌ صريحِ علمِهم بما يؤول إليه أمرهم، ولعل هذا من الأسباب التي حققت رجاء الرشيد في لحوق المملكة ورغبته فيها وزعَّمته على الخوض في طلبها، حتى كان منه ما كان، بأمر الملك الديان. قال: وقد قالوا إنه كانت لأهل الزاوية الدلائية زيادة محبة في أهل البيت عن غيرهم من أهل وقتهم، ويدل لذلك ما ذكره ابن دفين طيبة السيد العربي بن عبد السلام الفيلالي في كتابه المسمى بالدرة المكنونة في الدولة الميمونة، أن السيد عبد الرفيع بن السيد عبد الرحمن بن علي من لا يخاف فر من مولاي الشريف وولده مولاي محمد في ابتداء أمره لأحدوثة أحدثها، وقصد الزاوية الدلائية مستجيرا بأهلها ومتمنعا بها، ثم بسط لسانه في مولاي الشريف وولده مولاي محمد وذويه، فبلغ الخبر مولاي الشريف بن علي فساءه ذلك، ودعا عليه فقال: اللهم اكفني أمر عبد الرفيع بما شئت وكيف شئت، فأصبح عبد الرفيع ذات يوم بالزاوية الدلائية ميتا لا خدشة فيه ولا علامة في جسمه، وبقي ثلاثة أيام لم يعبأ به، وفي الرابع دفن، فقام حينئذ الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله سيدي محمد المرابط وتبرأ بين الرؤوس الأشراف وغيرهم من الرعايا قائلا: يا معشر السكان، ومن هنا من القطان، من كان شأنه التشدق في آل الرسول صلى الله عليه وسلم بالكلام في معايبهم بغضا فيهم فليخرج عنا وليصرم //474// حبل وصله منا، لئلا ينزل البلاء عليه ويجر الذيل علينا، فمن اطلعنا عليه بعد يومنا هذا أنه مشتغل بأعراض [أهل] البيت أدبناه، وبعد التأديب الشديد من بلادنا نفيناه، فليشتغل كل واحد بنفسه وبالعمل ليوم حلول رمسه اهـ فكان من ذلك عبرة لمن اعتبر، وتنبيه لصحيح السمع والبصر، ومنقبة واضحة لمولاي الشريف، وظهور زيادة محبة أهل الزاوية رضي الله عنهم في آل بيت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وزيادة تعظيم لهم منهم وتكريم وتشريف، وكانت هذه القضية في عنفوان أيام أهل الزاوية رحمهم الله.

وذكر في الأزهار الندية أن في ضحوة يوم الخميس الثاني عشر من ذي الحجة الحرام، خاتم عام ثمانية وسبعين – بموحدة – وألف خرج السلطان الرشيد من فاس الجديد بالحركة للزاوية الدلائية، وكانت الملاقاة بينه وبينهم ووقعت الهزيمة عليهم اهـ

قال الشيخ أبو علي اليوسي في محاضراته: كان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج بن الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي قد ملك المغرب بسنين عديدة واتسع هو وإخوته وأولاده وبنو عمه في الدنيا، فلما قام السلطان الرشيد بن الشريف ولقي جيوشهم ببطن الرمان فهزمهم أوائل المحرم فاتح سنة تسعة وسبعين وألف، قال: فدخلنا عليه وكان لم يحضر المعركة لعجزه من كبر سنه، فإذا بالفل يدخلون مخبرين بالهزيمة، فدخل عليه أولاده وإخوته وأظهروا جزعا //475// شديدا فلما رأى منهم ذلك قال لهم: ما هذا الجزع، إن قال لكم حسبكم فحسبكم اهـ قال الشيخ اليوسي يريد الله تعالى، وهذا كلام عجيب (لا يصدر إلا مِمَّن ومَن) ([1]) وإليه يساق الحديث الكريم، والمعنى: إن قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين، قال: والإشارة بهذه إلى أن الله تعالى وضع لعباده في الدنيا مائدة وجعلها بينهم دُوَلاً، كما قال تعالى: (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) فكل من جلس على هذه المائدة وتناول منها ما قسم له فلا بد أن يقوم عنها بالموت أو العزل ليجلس غيره، ولا تدوم لأحد، بل لا يقام عنها من أقيم غالباً إلاّ بمرارة وعنف، ولذا قال صلى الله عليه وسلم في الولاية: (نِعْمَتِ المُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ). ثم من الناس من لم يشعر بهذا المعنى ولم يتنبه له، فهو يسعى إليها عجباً بأوائل زخرفها وانخداعاً بظاهر زينتها، ومن الناس من علم ذلك وتنبه له، ثم من هؤلاء من نفعه الله بعمله فأوجب له أحوالاً محمودة، إما قبل ولوجها بالزهد فيها والفرار عنها علماً بغايتها ديناً وتقوى أو حزماً في الدنيا، [وإما] ([2]) بعد الولوج بالتعفف والإحسان والعدل والرفق ومجانبة الجور والبغي والخوف إما ديناً أيضا وحِذاراً من المطالبة في الآخرة، وإما خوفا دنيوياً وحِذارا من اختلالها واضمحلالها. إلى أن قال: وقال أبو عمر بن عبد البر: تكلم معاوية رضي الله عنه يوماً فقال: أما أبو بكر فهرب //476// منها وهربت منه، وأما عمر فأقبلت إليه وهرب منها، وأما عثمان

1 – ما بين القوسين وكذا لفظة "الكريم" بعده غير وارد في مطبوعة المحاضرات بتحقيق محمد حجي ص249
2 – إضافة من المصدر السابق.

فأصاب منها وأصابت منه، وأما أنا فداستني ودُستها، قال أبو عمر: وأما علي فأصابت منه ولم يصب منها، ثم قال في المحاضرات بعد كلام طويل: وكل من تعرض لها من السلف فإما انتهاضاً لنصح المسلمين من نفسه بإقامة الحق لئلاّ يضيع، وإما نزعة بشرية حركها سبب من الأسباب، أما على هذا الثاني فلا يقتدي بهم، وأما على الأول ([1]) فيقتدي من بلغ مقامه في التمكين والقوة والنزاهة، وفي مثل زمانه الصالح الذي لم يزل فيه الدين طرياً، والحق جلياً، والأعوان عليه قائمين، وهيهات ذلك في آخر الزمان الذي غلب فيه حب الدنيا واستولى على الناس سلطان الهوى، فلا ترى إلاّ حَريصاً على الجمع والمنع، ولا ترى إلاّ نِفاقاً ومداهنة، فالمرء الكيِّس لا يعدل لنفسه بالسلامة شيئاً، ومن له بوجودها إن لم يكن له من المولى لطف ظاهر اهـ المحتاج إليه من كلامه رحمه الله باختصار.

قال في الأزهار الندية: وكان نزول الرشيد على الزاوية الدلائية وأخذه إياها يوم الإثنين ثامن المحرم فاتح عام تسعة بمثناة وسبعين بموحدة وألف، وأخذ جميع ما وجد بالزاوية والقصبة من الكتب والذخائر والأموال والسلاح والخيول، وما بالعزائب من المواشي والدواب، ولم يُبقِ لهم إلا ما لابد منه //477// ومن منن الله تعالى ولطفه وستره على أهل الزاوية أولاد الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي فيما سبق لهم في سابق علمه، مما ينبغي أن يُذكر وأن لا يُكتم ولا ينكر، أن المولى الرشيد لما دخل زاويتهم حلم عليهم الحلم التام المعهود لأمثاله، فما أسال من دمائهم قطرة ولا كشف لهم حريما ولا عورة، وربما مد بعد الظلمة من أهل المحلة يده في شيء فانتقم منه الرشيد أشد الانتقام، وأغار بعض الظلمة على الدلاء فدخلوه ونبشوا بعض القبور طلبا للمال فلم يمر عليهم يوم أو يومان حتى أوقع بهم عدوهم واستأصلهم وتركهم صرعى عبرة لمن يعتبر، وذلك كله ببركة جدودهم ومحبتهم السالفة في أهل البيت النبوي الشريف، وتعظيمهم إياهم ظاهرا وباطنا.

قال: وذكر لنا بعض الناس الأثبات أن السلطان الرشيد لما قدم الزاوية الدلائية بقصد الاستيلاء عليها لقيه صاحب الترجمة الأمير أبو عبد الله سيدي محمد الحاج، وكان متناهيا في السن، فقال له: ما تريد؟ فقال له: المُلك، فقال له: هو الآن في محله، فبايعه ودفع له مالا فقبض منه المال، وألان له في المقال، وذهب بأهله وحشمه إلى تلمسان، رضى بقضاء الملك الديان.
وذكر أن الرشيد لما أخرج سيدي محمد الحاج وأهله من الزاوية الدلائية أسكنهم بباب مدينة فاس مدة ثم أمرهم بالذهاب إلى تلمسان. //478//

قال في تحفة المعاصر ما نصه: لما أن قام الإمام المنيف، المولى الرشيد بن الشريف، على الأمير القائم أبي عبد الله سيدي محمد الحاج ابن الإمام العالم الولي الصالح البركة أبي عبد الله سيدي محمد بن الإمام الناصح الجهبذ الصالح شيخ المشايخ سيدي أبي بكر الدلائي بالزاوية الدلائية، خرب دورها ونقل منها عِلمها ونورها بإخراج أهلها إلى فاس، وكان بها من الزاوية البكرية وغيرهم أعلام، وأجلة كرام، وغيرهم من الواردين عليها والمقرئين بها، وحين أجلوا عنها يَمَّم كل واحد منهم وجهَه، وقصد نهجَه، وفارقها يبكي على معاهدها أسى، ويتمنى رجوعها لما كانت عليه – وهيهات – ويتعلل بلعل وعسى ([2])، فكيف وقد تفرق أهلها شذر مذر، وضاعت محاسنها ضياع هدر، وأصبح في أرجائها البوم منتشرا، وحاكيا مرددا لمن قد خلا شعرا، كأنْ لم يكن فيها أنيس ولا ذكرى، ولكن قد هوى جدهم عثرا.

وقال: أخبرني الشريف البركة الخير المرابط سيدي أحمد بن عبد القادر القادري الحسني ثم الفاسي رحمه الله أنه كان بها حين دخول السلطان الرشيد المذكور إليها حاضرا لما حل بها، وقال: كنت ممن لفظته يد الاكتئاب، ورمت به قوس المحن والاغتراب حينئذ منها، لما شاهدت من تغيير الأحوال، وكثرة الأحزان والأهوال، إلى تادلة، //479// ووصلت الصومعة منها ولقيت الفقيه الصالح سيدي عبد الرحمن بن إسماعيل، والد الفقيه العلامة

---

1 – في المخطوط "الثاني" والتصحيح من المحاضرات ص255 بتحقيق حجي.
2 – في المخطوط "ويتمنى رجوعها لما كانت وهيهات عليه ويتعلل ..."

الولي الصالح سيدي محمد بن عبد الرحمن صاحب سيدي أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله معن الفاسي رحمهم الله تعالى، وسألني عن خبر الزاوية المذكورة وأهلها وما فعل هناك، لم أملك عيني من البكاء بتذكيره إياي الأيام والمعاهد، وما خص الله تعالى به أولئك السادات الكرام الأماجد، قلت، ورضي الله تعالى عن سيدنا حسان، ذكرني لفظ التذكر والبكاء قولَه يبكي أصحاب مؤتة بقوله:

تَــأَوَّبَني لَيــلٌ بِيَثــرِبَ أَعسَــرُ ... وَهَــمٌّ إِذا مــا نَــوَّمَ النــاسُ مُســهِرُ

لِـذِكرى حَبيــبٍ هَيَّجَــت لــي عَبــرَةً ... سَــفوحاً وَأَســبابُ البُكــاءِ التَــذَكُّرُ

بلــى إن فقــدان [1] الحَبيــبِ بَلِيَّــةٌ ... وَكَــم مِـن كَـريمٍ يُبتَلـى ثُـمَّ يَصـبِرُ

إلى آخرها، قال: فقال السيد عبد الرحمن المذكور: مهلا عليك، اصبر ولا تأسَ، فلعل الله يخيرُ لهم ويختار، ويردهم لأصل طيب المحتد والنِّجار، فالتصغير يرد الأشياء لأصولها.
ثم توجه أهل الزاوية وجل من كان بها من العلماء إلى فاس، فكان الشيخ اليوسي ممن توجه من جملة مَن ذُكِر لفاس، وبقي بها بعد إخراج من ذُكر لتلمسان.

وفي نزهة الحادي وغيرها أن الشريف الرشيد لما دخل الزاوية الدلائية غيَّر منها المحاسن، وصير محاسنَ معانيها العذب آسن، وفرق جمعها //480// وقطع من أصله فرعها، وطمس معالمها، ونكس عوالمها، وصارت حصيدا كأن لم تغن بالأمس، مشرقة كإشراق الشمس، فمحت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت وابتهجت، وفاحت من شذاهم وتأرجت، وارتحلت عنها فرسان الأقلام، الذين كان ينجاب بوجوههم الظلام، وبانت منها ربات الخدور، وقامت منها آثار الصدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياح آثارهم، وأذهبت وجوههم الصباح وأبقت أخبارهم، فثل ذلك العرش، وأعقبته الليالي حين أمن من الأرش، ولم ينفع الرمح ولا الحسام، ولا تلك المنن الجسام، فسحقا للدنيا ما راعت لهم حقوقا، ولا أبقت لهم شروقا، وبعدما ضاق عنهم القصر، وران منهم العصر، نزل أميرهم عن سرير عزه بالقسر، إلى قبضة الإهانة والعسر، وحان له يوم سوء ما ظن أنه يحين، وأُمِر بالارتحال في الحين، فجمع مع أهله وبنيه، وحشمه وذويه، والناس قد حشروا من البوادي، والدموع من العيون كالغوادي، وحملتهم الجواري، وضمتهم جوانبها مسالك القفار والبراري، فساروا والنوح يحدوهم، والبُرح باللوعة لا يعدوهم، فنبذ به منبره وأعواده، وبعده أخلاءه وزواره وعواده، وعطلت المآثر حلاها، وأفردت المفاخر علاها، ورفعت مكارم الأخلاق، وكسرت نفائس الأعلاق، //481// والدهر أبو النكبات، لا مقيل العثرات، من ذوي الهيئات، وأصحاب المروءات، ولا يرحم والدا بولده، ولا يبقي على أحد، والأيام كم أحياها لبنيها، وأبداها رائقة لمجتليها، لا تَقي [2] مِن تَجنِّيها، ولا تُبقي على مُوَليها ومُدْنيها [3]، أَدثَرَت [4] آثار جلق، وأخمدت نار المحلق، وذللت عزة شداد، وأهوت القصر ذا الشرفات من سنداد، وأنعمت ببؤس النعمان، وأمكنت غدرها في طلب الأمان، وكل يلقَى في أيامه مُعجَّلَه ومُأجَّلَه، ويبلغ الكتاب أجله. انتهى منها ومن غيرها بتلفيق، وبالله الإعانة والتوفيق.

وذكر في تحفة المعاصر أن الشيخ اليوسي لما أمره الرشيد بالرحيل من الزاوية البكرية وألزمه النزول بمدينة فاس والتصدر للتدريس بها، امتثل أمره ودخل مدينة فاس وأقام بها متصدرا للتدريس، فأخذ عنه ملأ كثير، وجم غفير، منهم من أخذ العلم، ومنهم من أخذ الورد، ومنهم من أخذهما معا، ولزمه أهل الاعتناء المنصفون، وانتفع به أهل المغرب انتفاعا ظاهرا، وظهر منه ما ظهر ظهورا باهرا، وكان الرشيد يحب إقامته بفاس أو مكناس، ويأبى هو

---

1 – وروي بلفظ آخر "بَلاءٌ وَفقدانُ الحَبيبِ بَلِيَّةٌ".
2 – في المخطوط "لا تبغي" وقد استبدلناها بما في الاستقصا ج7 ص37
3 – في المصدر السابق "مواليها ومدانيها".
4 – في المصدر السابق "أذهبت".

إلا البادية، فعاتبه في ذلك فاعتذر له بأنه رجل بدوي المولد والمنشأ وحنينه أبدا لأول منزل، وعاتبه ذات مرة على كثرة محبته في الزاوية الدلائية وأهلها فاعتذر وقال: لا ناقة لي فيها ولا جمل، وإنما قال ([1]) //482// مدافعا له بذلك، وإلا فحبه للزاوية وأهلها مشهور، وقوله بمدحهم مسطور، وبأيدي الناس يتداول ويدور، ولذا قال في نزهة الحادي: وَلَقَد أحسن رَبِيَّ ([2]) نعمتهم، الْمُقِر بإحسانهم، الإِمَام الَّذِي وَقع على علمه وَعَمله الِاتِّفَاق، شيخ مَشَايِخ أهل الْمغرب على الْإِطْلَاق، أَبُو عَلِيّ الْحسن بن مَسْعُود اليوسي إذ قال حينئذ قصيدته الرائية الَّتِي رثى بهَا أهل الزاوية البكرية الدلائية، وذكر فيها إخناء الزمان عليهم بعد الإحناء والإلطاف، وتعنته بعد الإسعاد والإسعاف، فبكى مغانيها ([3]) وأطلالها ومنازلها، وذكر قصورها وحورها وأماثلها ([4])، وبكى أيامهم فيها وتحنن، وتشوق إليها وإلى جماعة أهلها وفراقه لها، مع ما اشتملت عليه من الوصايا والحكم، والأمر لله تعالى ذي الجود والكرم، وذلك سنة سبع وثمانين بعد الألف وهي هذه على الكمال:

(رائية الإمام اليوسي الشهيرة التي سارت بها الركبان)

أُكلّف جَفن العين أن ينثر الدرّا ... فيأبى ويعتاض العقيق بها جَمرا ([5])

وأسأله أن يَكتم الوجد ساعة ... فيُفشى وإن اللّوم آونةً إغرا ([6])

وقد كنت أستصحِيه حتى توقدت ... جُذا الوجد فاستسقيته يطفئ الجمرا

على أن دمع العين فضلُ حشاشة ... تُذاب فماذا ينفع الدمعُ أن يُجرى

وكانت سُروح الهم عني عَوازفا ([7]) ... وبَعدَ النوى أضحت مراتعها الصدرا

وكانت عيون الحادثات غوافلا ... زمانا وخَطبُ الدهر كان بنا غِرّا

//483//

ليالي كان البين عن جيرة الحمى ... صَرُوفا ([8]) ونظم الشمل لم يستَحِل نثرا

وكانت رياض الحسن تزهو نضيرة ... فُكاهتُهم أضحت بأرجائها زهرا ([9])

ومَجنيِة منها طرائف تُجتنَى ... إذا تُجتلى في كل مُظلمة بدرا

وكانت مُدامات الوِصال مُدامة ... على القوم صِرفا لا مزيجا ولا نَزْرا

تَجاذَبُ أخدانُ الصفاء كؤوسَها ... فلا تَختشي منها خُمارا ولا سُكرا

---

1 – كذا، وربما كانت "وإنما قال [ما قال]".
2 – رَبِيَ في بني فلان رُبْوًا، وَرُبُوًّا: نشأ فيهم.
3 – المَغاني: جمع مَغْنى، وهو المنزلُ الذي غَنِيَ به أَهلُه.
4 – أَماثِلُ النَّاسِ: خِيارُهُم.
5 – وهو يقول إنه كلف عينيه أن تنثر لآلئ الدموع على الزاوية الدلائية فأبتا إلا أن تنثرا دموعا كالعقيق الأحمر بل لكأن العقيق استعاض بها جمرا مشتعلا.
6 – وفي النبوغ المغربي أغرى
7 – قد تكون "عوازفا" أو "عوازبا".
8 – في مخطوط لديوان اليوسي وكذا النبوغ المغربي ج3 ص894 "صدودا".
9 – هذا البيت والذي بعده لم يردا في النص الذي أثبته كنون في النبوغ المغربي.

فَبَينـا ليــالي الوصــلِ بـيـضٌ ورَوضُـه بفـيـض النـدا كانــت مرابعُــه خُضــرا

عَـدت عَـدوةً أيـدي الحـوادث فاختلـت خَلاهــا فعــادت بعــد نضــرتها غبــرا

وأبــــدلن مــــأنوسَ الــــديار وأهلِهــــا بــوحش وحــولن الأهيــل [بهـا] قَفــرا

وبينــا جمــوعُ الحــي كــالراح شِــبْتَها بمــاء فمــا تخشــى جفــاء ولا نفــرا ([1])

وكالفرقـــــدين الطـــــالعين تألفــــاً وصــاحبي المَلْــك الــذي نــادم الشِّــعرا

أصــابتهم عـــين الكمـــال فغــادرت أكفهــم مــن كــل مــا جمعــت صِــفرا

وردتهــــم مثــــل الثريــــا إذا رأت سـهيلا بشَـحط البـين أو واصـلٍ والـرَّا ([2])

فأصـــبح فـــي أرجائهـــا البـــوم منشـــداً يــردد ممــا قــال مــن قــد خــلا شــعراً:

(كـأن لـم يكـن بـين الحَجُـون إلـى الصفا أنـيس) بلــى لكــن هــوى جَــدُّهم عَثــرا

فــلا جفــنَ إلا وهــو مغــض علــى القَــذا ولا عــين إلا مــن نجيــع الشــجا حَمــرا

ولا وجــــدَ إلا وهــــو مُــــرْخ سُــــدوله ولا هَــــم إلا وهــــو يَكتنــــف الفكــــرا

صَــبرتْ فــؤادي للخطــوب فلــم يــزل بــه رشــقُها حتــى تَقضَّــى فــلا صَــبْرا

وأزمعــتُ نهــر الــدمع ([3]) عنــي تَعزِّيــاً فلمــا جــرى كــالنهر لــم أملــك النهــرا

//484//

ووجهــت نحــو الحــي أُعــرِب عــن هــوى ضــميري فمــا ألفيــت زيــداً ولا عمــرا

وأحسُــب مــا قــد كنــت أحسُــب دائمــاً فخَطَّـت بنـانُ البَـيْن فـي راحتِـي صِـفرا

ألا قُــــل لأرواح الصــــبا لا تغادِنــــا فإنــا بــأرواح الجنــوب لنــا ذكــرى

وقـل لِبُـروق الشـرق ([4]) تُغمِـد سـيوفَها فــإن بــروق الجَــوف ([5]) صَــيَّرنَها بُتْــرا

بــــلاد إذا ذقنــــا رُضــــاب مَعينهــــا فمــا لرُضــاب العــين نلــتمس الثَّغــرا

وإن نحــن رِحنــا بالشــذا مــن رياضــها أَرِجْنـا ([6]) فمـا نرجـو علـى العنبـر التَّجـرا

ريـــــاض إذا أبصـــــرتها ونشِـــــقتها فـلا تـذكرن نجـداً ولا تـذكر الشَّـحرا ([7])

---

1 – في النبوغ المغربي "نعرا".

2 – قال في النبوغ المغربي: كناية عن البعد والفراق، فإن الثريا نجم شامي، وسهيلا نجم يماني، وأما واصل فهو ابن عطاء شيخ المعتزلة، كان يلثغ بالراء فيبدلها غيناً، ولا قتداره على الكلام يتجنبها فلا تقع في كلامه.

3 – أي زجره وهو بهذا المعنى في قافية البيت. قاله كنون في النبوغ المغربي ج3 ص895

4 – في المطبوعة الحجرية لديوان اليوسي "الشوق". وفي مخطوطنا ومخطوط ديوان اليوسي وكذا النبوغ المغربي "الشرق".

5 – أي الشمال، على قول كنون في النبوغ المغربي ج3 ص895

6 – في النبوغ المغربي ومطبوعة ديوان اليوسي "ربحنا"، وفي مخطوط ديوان اليوسي "أُرِحنا".

7 – في مطبوعة ديوان اليوسي والنبوغ "ولا تذكرن شحرا".

وازر [1] علـى مـن كـان حَـنَّ صـبابةً إليهـا قـديماً إذ علـى مثلهـا يُـزْرَى

فمـن لـي بواديهـا إذا فـاح رَنْـدُه ومـن لـي بمرعاهـا إذا أطلـع المَشْـرا [2]

ومـن لـي بروضـات يفـوق ضـياؤها علـى الشـمس حسناً كلما ابتهجت زهـرا

وهيهـات واد يُنبِـت الرَّنْـدَ أيكُـه وهيهـات روض يُطلِـع الشـمسَ والبـدرا

وعـذب فـرات تسـتقيه وقايـةً وتَطعَمُـه راحـاً وتُبصـره دُرًّا

فهـل نفحـةٌ تكفينـي المِسـك فائحـاً وهـل شـربةٌ تكفينـي الشـهد مُسـتَمْرا

وهـل طلعـة تكفينـي البـدر طالعـاً وهـل لَمعـة تكفينـي الثغـر مُفْتَـرًّا

وهـل وقفـة بـين الطلـول التـي قضـت صـروفُ الليـالي فـي معالمهـا نَـذْرا

وهـل نظـرة يومـا إلـى الهضـب دونهـا تتوفتهـا الفيحـاء والروضـة الشَّـجْرا [3]

هنالـك أخـدانُ [4] الفـؤاد وفتيـةٌ هـم للحشـا خمـر فمـا يَطلُـبُ الخَمـرا

نُـزايِلهم لا عـن هـوى لنَـواهُم كمـا لِفِطـامٍ زايَـلَ المرضـعُ الظِّئْـرا

//485//

وننـأى عجـالاً عـنهم مثلمـا نـأى أبـو صـبية عـنهم أذا يمـم القبـرا

فَمِنَّـا إلـيهم صَـبْوَةُ ابـن مُلَـوِّح ومـنهم شـجا الخنسـاء إذ فارقـت صـخرا

فما أنزرَ [5] الصبرَ الجميلَ على النَّوى ومـا أغـزرَ الـدمعَ الطويـل ومـا أجـرى

فلـولا [6] هـوى نجـدٍ وطيـبُ نسـيمِها وريـح خزاماهـا إذا سـاوق الفجـرا

وعـذبٌ فـراتٌ سلسـبيلٌ سَـخَت بـه أكـف الغـوادي فـي حـدائقها غَمـرا

ومشـمولةٌ صـهباءُ مـا قَـط شَـابَها بِرَاوُوقِـه الحـاني ولا حَلَّـت القِـدرا

بهـا هامـت الأرواح مـن قبـل خلقنـا ومـن بَعـدِ مـا كنـا وإذ نبلـغ الحَشـرا

فكـم وَلَّهَـت فِكـر ابـن عيسـى ومالـك وكم أطربت سهلاً وكم شغفت [7] بشراً

إذا مـا تحسـاها الفتـى لـم يخَـف بهـا جُناحـاً ولكـن يرتجـي عنـدها أجـرا

تُحَمِّلُـه الأوزارَ غيـرَ مُـذَمَّم بأعبائهـا العظمـى ولـم يَكسِـب الـوِزرا

---

1 – في مخطوطنا ومطبوعة ديوان اليوسي "وأزرى"، وفي النبوغ ومخطوطة ديوان اليوسي ومخطوط شرح الرائية لمحمد بن أحمد بن الشاذلي الدلائي الذي أكمله بعده محمد البكري بن محمد بن الشاذلي الدلائي "وازر".
2 – المشر: النبات الأخضر.
3 – في مخطوطنا "الشحرا" وفي مطبوعة ديوان اليوسي "السحرا" وأثبتنا ما في مخطوط ديوان اليوسي ومخطوط شرح الرائية، والشجراء: ذات الشجر المتكاثف. ولم يرد البيت في كتاب النبوغ.
4 – في النبوغ المغربي "إخوان" وهو تصحيف.
5 – في مخطوطنا "أندر" وهو تصحيف.
6 – في مخطوطنا "فلا هوى" وهو تصحيف.
7 – في النبوغ "أشغلت"، وفي مطبوعة ديوان اليوسي "شغلت" وكلاهما تصحيف.

وتُبـــرِدِ غُـــلاَّت الحشـــا وتَشُـــبُّها ... أُواراً وتُعطـي الرُّشـدَ والسَّـفَهَ الحَجْـرا ([1])

وتورثـــه قبضـــاً وبســـطاً وفُرقـــة ... وجمعـــاً ونســـياناً وتورثـــه شِـــعرا

فلـــولا رجـــاء الفـــوز منهـــا بشَـــربة ... تُداوي عَقابيلَ الهوى والجوى المُغرَى ([2])

لكانـــت أكُـــف البَـــين تَصْـــدعُ بـــالجوى ... زجاجـــةَ أحشـــائي فـــلا أملـــك الجَبْـــرا

علـــى أن هـــذا الـــدهر لـــيس بضـــارع ... لـــه غيـــرُ ([3]) مـــن أمســـى بأحداثـــه غَمـــرا

هـــو الـــدهر لا يُبقِـــي علـــى متخشـــع ... ذليـــلٍ ولا ذي نَخـــوةٍ مُـــزْدَهٍ كِبـــرا

حُســـام إذا مـــا صَـــمَّمَ الـــدهرُ فـــي امرئ ... غـــدا دمـــه بـــين الـــورى خِضْـــرا مِضْـــرا ([4])

وريـــحٌ ســـموم حيثمـــا هَـــبَّ مـــرة ... تَعفَّـــت مهاميـــه ([5]) وإن بعُـــدت مـــرا

//486//

وســـيلٌ إذا مـــا يَمَّـــم الأرض أصـــبحت ... أخاديـــدَ وانفَلَّـــت كرادِســـها كَسْـــرا

ولَيـــثٌ هَصـــورٌ مـــا تغشَّـــى حَظيـــرة ... فيســـطو إلا أنعَـــمَ العَـــضَّ والعَقْـــرا

غَشـــوم فمـــا يَرتـــاع مـــن بـــأس خـــادِرٍ ... كَمِـــيٍّ ولا مـــن حُســـن ســـاكنةٍ خِـــدرا

فلـــيس عجيبـــاً مـــا أتـــى مـــن عجائـــب ... ولـــو أَطْلَـــعَ الغبـــراءَ واســـتنزل الخَضْـــرا

ولـــيس بِنَـــزرٍ مـــا أبـــاد ومـــا بَـــرا ([6]) ... ولا بغريـــب مـــا أعَـــل ومـــا أبَـــرا

فَكَـــم مـــن عظـــيم يعتلـــي فـــوق بـــاذِخٍ ... مـــن المجـــد أردَتْـــه صـــوارِمُه حَـــدرا ([7])

وكـــم مـــن مليـــك كـــان يَزهَـــى بثـــروة ... وعِـــز ولا يـــألو اعـــتِلاءً ([8]) ولا فَخـــرا

تغشَّـــاه بـــالأَرزاءِ حتـــى كأنمـــا ... لـــه تِـــرَةٌ ([9]) منـــه فلـــم يَألُـــه دَفْـــرا ([10])

وأفـــرط فـــي اســـتنفاد مـــا قـــد أعَـــدَّه ... ومـــا عَـــدَّ حتـــى مـــا اســـتطال ومـــا أثـــرى

أَدارَ علـــى دَارَا صَـــريفَ صُـــروفه ... وأَتْبَعـــه غَلاَّبَـــه الملـــكَ الحَبْـــرا

---

1 – الحَجر: العقل (أي المنع) وهو مفعول أول لتعطي، والرشد المفعول الثاني والسفه معطوف عليه، كما في شرح الرائية.

2 – في النبوغ ومطبوعة ديوان اليوسي "المُضرى" بالضاد، وهو تصحيف يبينه ما في شرح الرائية.

3 – في مخطوطنا "ليس غير" وهو تصحيف.

4 – بكسر أولهما وككتف، أي هدراً. قاله شارح الرائية. وفي زهر الأكم بكسرها وسكون الضاد المعجمة.

5 – وردت في كل النسخ بلفظ "معافيه"، وفي شرح الرائية للدلائي "مَهاميه". والمَهْمَهَة: الصحراء أو البلد المقفر، وجمعها مَهامِه، قال الشارح: وقد مَدَّها في البيت للضرورة، على أن الكوفيين أجازوا زيادة الياء من مُماثِل "مَفاعِل" وحذفها من مماثل "مَفاعِيل" في الكلام، وجعلوا من الأول قوله تعالى (ولو ألقى معاذيره) ومن الثاني (وعنده مفاتح الغيب) ووافقهم في التسهيل واستثنى "فواعل" فلا يقال فيه "فواعيل" إلا شذوذا، كقوله "سوابيغ بيض لا تخرقها النبل"، ومذهب البصريين أن ذلك خاص بالضرورة اهـ. وهذا البيت لم يرد في كتاب النبوغ المغربي.

6 – في النبوع ومطبوعة الديوان "أبدا".

7 – نزولا وهبوطا.

8 – في مخطوطنا "اعتناء" وفي باقي النسخ التي بين أيدينا "اعتلاء".

9 – وَتَرَ الرَّجُلَ: يَتِرُهُ وَتْرت وتِرَةً: أَصَابَهُ بِظُلْمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ.

10 – ذلا.

فــأودعَ ذاك التُّــرب بعــد أَسِــرَّة وأودع هــذا بعـد بَسـطَتِه التَبْـرا ([1])

ونَـاوَى بنـي ساسـانَ فـي غُلَوَائِهـا ([2]) وعِزَّتهــا العظمــى فــذلَّلها قَسـرا

وغــادَر فــي تلــك المــدائن أعيُنـاً لِعِينٍ غَـدَت من ريـب أحداثـه خُـزْرا ([3])

تُحلِّــي نحــوراً بالمــدامِع حسـرةً وكانــت تَعــالى أن تُحلِّيهــا شَـذْرا ([4])

وصَــيَّرها مَقصــورةً بعــد بَسـطة ومجد على شِبْر ببطن ([5]) الثرى قصرا

ومــد إلــى تلــك المَقاصِـر كَفَّـه فلـم يـدع البيضـاء فيهـا ولا الصَّـفرا

وأشــرقت الأرجــاء منهــا بشِـرعة حنيفيـة مـن بعـد مـا أظلمـت كُفـرا

وجــر علــى أولاد جَفنــة ذيلَـه فجرَّعهــا حَتفــاً وألبسـها صِـغْرا

//487//

فكــانوا لآفــات الزمــان جَزائـراً وكـانوا قـديماً آفـةً تُتلِـف الجُـزرا

وأنحــى علــى لَخـمٍ فَعَفَّـى رِباعَهـا ورام بنــي [بــدر] فأتبعهــا بـدرا

وأدرك أوتــاراً بســيف وبَــيْهَسٍ فعـادا كـأن لـم يـدركا قبلـه وَتْـرا

وطَـمَّ علـى مـروانَ إذ ثَـلَّ عرشَـها فمـا خـاف عُقباهـا ولا احتمـل الإصـرا

وعـاد إلـى بغـداد فاجتـثَّ مُلكَهـا ولـم يحتـرم أملاكهـا النُّجُـبَ الغُـرَّا

ورام ابــنَ عبــاد بخســف فنالــه وأعلَـقَ منتاشـاً بـه النـابَ والظُّفـرا

أسـيراً بأغمـات كـأن قـد فَـدَى بـه من احتل في تلك الجزيرة من أسرى

ولـم يـرث إذ يَبكيـه فيهـا سـريرُه ومنبـرُه والـدهرُ مـا يَختَشـي نُكْـرا

فهل تمتري في صولة الدهر بعدما أتتـك علـى ذِكـرٍ وقائعُـه تتـرى

وكم من مُحبٍّ صادقِ الحبِّ روضةٍ أنيقـةِ أزهـارٍ توسَّـطت الغُـدْرا ([6])

إذا رام وصلَ الحب ألفاه في الهوى يسـارع لا هَجـراً يخـاف ولا غَـدرا

علـى أُلفَـةٍ والعـيشُ دانٍ قطوفُـه كأنهمـا الفَرخـانِ قـد أَلِفـا الـوكرا

فلم ينشب الدهر المُشتِّت أن فَرى مـن الوصـل مـا قـد أبرمـاه ومـا زَرَّا

وأولاهمــا بــالقرب بينــاً وبــالهوى جَفـاءً وبالوصـلِ القطيعـةَ والهَجـرا

---

1 – الهلاك. وفي نسخ "تبرا" بدون تعريف.
2 – غُلَواء: غُلُوٌّ، التَّشدُّد أو الإفراط ومجاوزة الحدّ.
3 – أخزر: ضَيِّقُ العينِ، جمع: خُزر، مؤنثه خزراء.
4 – الشَّذْرُ: قِطعُ الذَّهَب تُلْتقطُ من مَعْدِنه.
5 – في مخطوطنا "نشر لبطن" ولعله تصحيف، ففي ديوان اليوسي بنسختيه وشرحه "شبر ببطن" وفي النبوغ "نشز ببطن".
6 – غدير: مياه راكدة، قليلة العمق، يغادرها السَّيلُ. والجمع غُدْر وغُدُر وغُدْران.

وأبــدلَ ذاك الأُنـــسَ وحشـــاً وغمـــةً … وذاك اللذيـــذَ الغـــضَّ مُســـتَوْبَلاً مُـــرَّا

فـــلا تَهتبِـــل بالحادثـــات ولا تَثِـــق … فمـــا وَهَبَـــتْ يومـــاً فمَوهوبُهـــا مُعْـــرَى

مُقرَّبُهـــا مُقصًـــى ومَرفوعُهـــا لَقـــىً … ومُنْهَلُهـــا مُظمـــاً ومَكسُـــوُّها مُعـــرى

ولا تـــــركنن للـــــدَّهر إن نعيمَـــــه … ظِـــلال سَـــحابٍ يَمسـَـحُ الســـهل والـــوعرا

//488//

فبينـــا تراهـــا قـــد كســـتك بِبُردهـــا … تجافـــت بأميـــال فألبســـت الحَـــرَّا

مَلـــول فمـــا بـــاقٍ علـــى عهـــد خُلـــة … ولا مســـتديمٌ فيـــك يُســـرا ولا عُســـرا

فـــإن سَـــرَّ فلْتظفَـــر وإن ســـاء فاصـــطبر … لعودتـــه فالـــدهر لا يـــألف الصـــبرا

عشـــيرٌ متـــى يحســـن ([1]) فقـــد بـــر عِشـــرة … وإلا فكُـــن بالصـــبر فـــي حكمـــه البَـــرَّا

وإن كـــان يَمضـــي الخطـــبُ والحُـــرُّ لـــم ينـــل … جُناحـــاً ولا عـــاراً بـــه فكُـــن الحُـــرا

وإن ســـــبقتك الحادثـــــات بفائـــــت … فســـوف يُريـــه الـــدهرُ فـــانتظر الـــدهرا

ألـــم تـــر أن الـــدهر حُبْلـــى أَنِيَّـــةٌ ([2]) … ولادتُهـــا يومـــاً وإن لـــم تكـــن تُـــدرَى

فمِـــن مِـــنَحٍ تُسْـــلي ومِـــن مِحَـــن تُســـي … نتائجُهـــا صُـــغرى علـــى المـــرء أو كبـــرى

لا تـــــأمنن أبنـــــاءَه إن تَحَبَّبُـــــوا … إليـــك فمـــن يشـــبه أبـــاه فقـــد بـــرا

وكـــل بَنـــي دهـــرٍ فأشـــباه دهـــرِهم … علـــى مـــا قضـــى الله الكـــريم ومـــا أجـــرى

متـــى مـــا ارتَجَـــوا رَغبـــاءَ منـــك تقربـــوا … إليـــك وأبـــدوا خـــالص الـــود والبِـــرَّا

وأخفـــوا ذميمـــاً كـــان فيـــك وأظهـــروا … جمـــيلاً وقـــالوا ذو مَحاســـنَ لا تُعـــرَى ([3])

فـــذلك أحـــرى أن يُجِلُّـــوا ويُنصِـــتوا … إليـــكَ رشـــاداً كـــان قولُـــك أو تَبْـــرا

وإن لـــم يرجـــوا منـــك خيـــراً رأيـــتهم … جَفـــاءً وإعراضـــاً يُولونـــك الظَّهـــرا

ويَنثـــون عنـــك المُنْـــدِيات ([4]) وإن رأوا … جمـــيلاً أعـــاروه الغِشـــاوة والـــوَقْرا ([5])

فـــلا تُصْـــغِ ســـمعاً للـــذي ذم مـــنهم … ولا للـــذي أبـــدى الجميـــلَ ولـــو أطـــرى

فـــإن بنـــي الـــدنيا عبيـــدُ هـــواهم … علـــى مركـــز الأهـــواء ([6]) دَورَتُهُـــم طُـــرَّا

وإنَّ هَـــواهُم حيـــث تَرتَقِـــب الغِنـــى … ولـــيس هـــواهم حيـــث تَرتقِـــب الفَقـــرا

---

1 – في مخطوطنا "يخسر" وهو تصحيف.
2 – في مخطوطنا "أنينة"، وفي باقي النسخ أنية: أي مدركة توشك أن تضع حملها.
3 – لا تُجحَد.
4 – مصحفة في مخطوطنا بلفظ "يثنون". نَثَا، يَنْثُو، نَثْوا الْخَبَرَ: حَدَّثَ بِهِ، أَشَاعَهُ. والمُنْدِيات: المُخزيات لأنّها إذا ذُكرت ندي جبينُ صاحبها حياءً.
5 – وَقْرُ الأُذُنِ: ذَهَابُ سَمْعِهَا، ثِقَلُهَا، صَمَمُهَا.
6 – وفي النبوغ المغربي "الأهوال".

//489//

إذا مــا رأوا ذا الــوفر لاذوا بذيلــه ... وإن لـم ينـالوا مـن سـحائبه قطـرا

وإن بَصُـروا بـالمُمْلِق اهتـزَأوا بـه ... ومـدوا إليـه طـرفهم نظـراً شَـزراً

وقـالوا بَغِـيض إن نـأى ومتـى دنـا ... يقولـوا ثقيـل مُبـرمٌ أدبـرَ الفَقـرا

فـإن غـاب لـم يُفقَـد وإن عـل لـم يُعَـد ... وإن مـات لـم يَّشـهد وإن ضـاف لـم يُقرَى

وفـي الله للمـرء اللبيـب كفايـة ... عـن النـاس والمحـروم مـن حُـرِم الأجـرا

فكـن رابِئـاً ([1]) بـالنفس عـنهم ومُغضـياً ... بعـين الحَشـا عمـا تَكَنَّفَـتِ الغبـرا

ولا تجعلـن فـي غيـر مـولاك هِمـةً ... فمنـه تـرى لـو تَعلـمُ النفـعَ والضُّـرا

وإن شـئت وُدًّا فـيهم وتَـوفُّرا ... لِعِرضـك أو شـئت النباهـة والـذكرا

فشـاركهم فيمـا بكفـك واكفهـم ... مُؤنَـك واسـتبق التَّجمـلَ والسِّـترا

وخالِـل ولا تكلـم وجامِـل ولا تَـرِم ... وواصـل ولا تَصـرِم ولكـن خـذ الحـذرا

ولا تقـتحم عينـاك ذا سَـمَل ولا ... تـرى المـرءَ مزهـوا فتعظِمـه قَـدرا

فـإن الفتـي بـالنفس لا اللـبس مجـده ... فمـا شَـانَ دُرًّا كَـونُ أصـدافِه كُـدْرا

ومـاذا علـى العَضـب الـذي رَثَّ جفنُـه ... إذا كـان فـي الهيجـاء يُنعِمُـك البَتـرا

وإنـك تُلفِـي النـاسَ كالنَّبْـت ذابـلٌ ... لذيـذٌ وغَـضٌّ كلمـا ذقتـه مُـرَّا

وقِـدْمًا يكـون التِّبْـر فـي التُّـرب تختفـي ... مكانتُـه حتـى تُخلِّصـه سَـبْرا

وإن كنـت لا تعتـد إلا بملـبس ... فَسـيَّان مَـن يُكسَـى العمـائمَ والخُمُـرا

وإن الغِنـى مـا أورثَ المـرءَ فـي الـورى ... محامـدَ فـي الـدنيا وعليـاءَ فـي الأخـرى

وكـم متـرفٍ لـم يَـرأم الضـيفُ سـاحَه ... وكـم تَـرِبٍ طابـت مَحامـدُه نشـرا

//490//

فـلا خيـر فـيمن لا يُعـاش بظلـه ... ولـو فـاق تحليقـاً بجـو العُـلا النسـرا

ولا مـال فـي الـدنيا لمـن لـيس راشـحاً ... بفضـلٍ علـى العـاني ولـو جَمـع الـوَفرا

ولا مَجـد للمِسِّـيك يومـا ولـو حـوى ... وأَثَّـل مـا قـد كـان أثَّلَـه كسـرى

فـأَغرِق علـى العـورات منـك بسـابغ ... مـن العُـرف تَغفِـر مـا تُسـاء بـه غَفـرا

وإن تُعْـوِز النِّعمـى فَجُـد ببَشاشـة ... فخيـر القِـرى أن تَبـذُل الرَّحـب والبِشـرا

وعـاصِ الهـوى إن الهـوان مـع الهـوى ... وفـي الصـبر عـز فاستسِـغه ولـو صِـبْرا

فمَـن للهـوى ألقـى القِيـادَ فقـد هـوى ... ولـو أنـه فـي المجـد قـد وَطِـئ النسـرا

---

1 – في مطوطنا "رائيا" وهو تصحيف. رَبأ بصحَّته: حرَص عليها وحفِظها

وكــن بالــذي آتاكَــهُ اللهُ مــن جَـدًى … قنوعــاً رَضُــوًّا تبلــغ الأنجــم الزُّهــرا

ومـــن لـــم يكـــن مســـتغنياً بقَناعـــة … فلـــيس بِمُنْفَـــك عـــن النـــاس مُعتَـــرا

ومـن لـم يكـن يَسـترغِد العـيشَ بالرضـى … بقســمته لــم يبــرح الــدهرَ مُضــطراً

ومــن لــم يكــن بــالحَزم مُحتزِمــاً فقــد … فَـرى حَبلَـه عـن نُجحِـه قبـل أن يُفـرَى

ومــن لــم يبــادر صــيدَه وهــو مُعــرِض … ليرميـــه كـــان العَنـــاء لـــه قَصـــراً

ومــن يَشْــرِ بخســاً نُوقَــه وهــي شُــوَّلٌ … عِجافـاً تمناهـا لـدى غيـره شَـكْرَى [1]

ومــن يصــطنع عُرفــاً إلــى غيــر أهلــه … فلـــيس بِـــلاقٍ مـــن جـــزاء ولا شُـــكرا

ومـن يَحتَسِـب يُهمِـل كمـا الغيـثُ وابـلا … فـلا الحقلَ يَجفُـو بالعِهادِ ولا الصُّبْرا [2]

ومــن لا يُثَقِّــف مَتنَــه الــدِّينُ والحِجــا … ويَـــرْمِ الـــوَرى يَلْـــق المُثَقَّفَـــةَ السُّـــمرا

ومـــن لا يُجَنِّـــب قولَـــه دَنَـــسَ الخَنـــا … فـــلا يَمـــتعِض يومـــاً إذا أُســـمِع الهَجـــرا

ومـــن يَبـــغِ بَـــذلا بالسِّـــبابِ وبـــالنَّوَى … يَكُـــن بنُضـــارٍ جَيِّـــدٍ يَشـــتري الصُّـــفْرا

//491//

ومــن يصــحب الأمجــاد تنظُــف ثيابُــه … ومن يَصحَب الأرذال يُكسى بها العُرَّا [3]

ومــن لا يُجـالس مـن يُجـانِسُ لـم يَـدُم … لـــه أحـــد فالأُسْـــد مـــا تَـــرأَمُ الحُمْـــرا

ومـــن لـــم يُجـــاوِز بالصَّـــديق ويَلْحَـــه … يجـــد لُبَّـــه نَغِـــلا [4] إذا نَـــزعَ القِشـــرا

ومـــن يَـــرمِ بـــالبُغْض الـــوَدودَ مُعنِّفـــا … لِيَصـــفُو يُـــورِث قَلبَـــه الـــبُغضَ والغِمـــرا

ومـــن لا يَكُـــن يُبـــدي ســـجاياه يُبـــدِها … إذا مـــا ارتجـــي الرَّغبـــاءَ أو آنـــس الـــذعرا

ومـــن يَطلـــب العَليـــاءَ يُلـــفِ مَـــذاقَها … هَبِيـــداً [5] لَـــذُوعاً للحنـــاجر لا تَمْـــرَا

ومـــن يَسْـــرِ فـــي دَرْكِ المعـــالي بهمـــة … لَجُـــوجٍ رَمـــوقٍ للعُـــلا يَحمـــد المَسْـــرا

ومـــن لا يَـــزَل كَـــلاًّ يُمَـــلُّ وتحتَمِـــل … بـــه الأرضُ أنَّـــى ســـار مـــن ثِقلـــه وِقْـــرا

---

1 – شَكِرَ الضَّرْعُ: اِمْتَلأَ بِاللَّبَنِ. شَكِرَ الْبَخِيلُ: سَخا بعد بُخل فهو شَكِرٌ، وشَكْرَانٌ وهى شَكِرَةٌ، وشَكْرَى. والجمع: شَكارَى.

2 – قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: الصُّبْرُ: الْأَرْضُ الَّتِي فِيهَا حَصْبَاءُ وَلَيْسَتْ بِغَلِيظَةٍ. انظر مقاييس اللغة ج3 ص330.
والمعنى كما في شرح الرائية أن من يحتسب الأجر على الله فلا عليه إن شَكَرَه الذي أسداه إليه أو كفره، كحال الغيث لا يميز بين حقل يشكر بالنبات الكثير أو أرض مَحْصَبَة تشكر بالقليل. وقد ورد البيت مصحفا في النبوغ المغربي بلفظة "العقل" بدل "الحقل"، وفي مطبوعة ديوان اليوسي بلفظتي "العقل" و"الجهاد" بدل "الحقل" و"العهاد".

3 – العُرَّةُ: الجَرَبُ. وبه فسر اللفظة شارح الرائية.

4 – نَغِلَ نَغَلاً، ونُغْلَة فهو نَغِلٌ، وهي نَغِلَةٌ: فَسَدَ.

5 – الهَبِيد: الحنظل أَو حَبُّه.

ومن لا يكن يُرْجَى لِخَطبٍ فلا يَكُن فتًى في نَدِيٍّ [1] وليكن ناهداً بكراً

ومن لا يُخلِ النفسَ ثم يُحَلِّها فقد أخطأ المُرتاد مِن أُمِّه طُهْرا [2]

ومن يَدَّخر تقوى الإله وذكره على كل حال يَحمَد السَّعي والذُّخرا [3]

ومن يَغْنَ بالمولى فلن يُعدَم الغِني إذا لم يجد يوماً لُجَيناً ولا نَضْرا

انتهت. وقد اشتملت هذه الرائية على مائة بيت واثنين وسيتين بيتا، وفيها من جودة الرثاء المقصود، والتأسف على فوات حسن الحال المعهود، والتحنن إلى معاهد تلك الأطلال، والتشوق لمن كان بها من القُطَّان والآل، والتنبه للدهر وأنبائه، وتقلبه بأهله وأبنائه، والتأسي بذي التصبر لِصروفه، والتسلي بما يبديه مِن نُكرِه عن مَعروفِه، وعدم الاهتبال بما يُحدِثه من الحوادث //492// وترك الركون لنعيمه الحادث، وعدم الثقة بود بنيه، وتلون شيم أهله وذويه، ورفع الهمة عنهم ثقة بالمولى، فيما لابد منه وأولى، والتخلي عن خلال الخزايا والكبائر، والتحلي بحلل المزايا والمآثر، والترقي في أدراج حِبَر (كذا) السجايا لإدراك المعالي والمفاخر، إلى غير ذلك من الأخلاق والأوصاف الحسان، التي يحصل الشرف بها في الدين والدنيا وينجو بسببها في الآخرة الإنسان.

وأما الأمير سيدي محمد الحاج رحمه الله فقد ذَكر عنه بعض الأثبات من الناس الثقاة، أنه لما وصل بمن معه من أهله وبنيه، وأقاربه وذويه، لمدينة تلمسان، ولم يعبأ بهم إنسان، ونزلوا منها بحرم العبَّاد، مستمطرين الفرج بالمآب، مِن مالك أمور العباد ورب الأرباب، قال لا إله إلا الله، الله أكبر، كنا نظن أن ندخل مدينة الجِدار [4]، دخول عز وافتخار، فدخلناها دخول ذل واحتقار، والأمر لله الواحد القهار.

وقال بعض الأدباء في وصف ما جرى عليه من الأحوال، في المقام والترحال، لما نقل من بلاده، وأغرى من طارِفِه وتلاده، وسار سير السفين، وأحل بتلمسان كالدفين، بقي أسفا تتصعد زفراته، وتطرد اطراد المَذانِب [5] عبراته، لا بمؤانس مجانس، ولا يَرتجِي إلاَّ عرينا بعد تلك المكانس، ولما لم يجد سلوا، ولم يتسوغ حلوا، ولا يُؤَمل مِن حلِّ عُقد أمرِه دُنُوا، //493// ولم ير وجه مَسَرة مَجلُوًّا، قال رحمه الله منشدا:

يا من مشى في بلاد ليس يعرفها يمسي ويصبح لم يلتذ بالوطن

جنب من الفعل ما تُخشى عواقبُه إن الغريب كثير الذل والمحن

واحفظ مروءتك الشَّماء مجتهدا إن كنت في غربة أو كنت في وطن

إن الغريب له حق بغربته على المقيمين بين الأهل والسكن

كنا بأطيب عيش في منازلنا حتى أتتنا صروف الدهر بالمحن

---

1 – في مخطوطنا "بندى"، ونَدِيّ القوم: مجلسهم ومجتمعهم.

2 – في مخطوطتنا "طهرا"، قال الدلائي في شرح الرائية (وقوله: "فقد أخطأ المرتاد من أمه ظهرا" أرسله مثلا لأن أمه لا تحل له على كل حال، فما فائدة طلب الظهر منها، والله أعلم. أو يكون قد أخطأ المرتاد من أمه الحائضِ الطُّهرَ، فحذف الصفة لأن الطهر لا يتَعَقَّل قبل زوال الحيض، ويلتئم الكلام إذ ذاك مع ما قبله، والله أعلم بذلك) اهـ

3 – في مخطوطنا "والمَسرَى" عوض "والذخرا"، خلافا لكل النسخ الأخرى التي بين أيدينا.

4 – كانت تلمسان تسمى قديما "مدينة الجدار" أو "أكادير" الذي يعني الجدار بالأمازيغية.

5 – جمع مِذْنَبُ: مسيل الماء إلى الأرض.

ففرقــت شــملنا مــن بعــد أُلْفَتِنــا	والــدهر أحوجنــا إيــاك أن تهــن
محــائن الــدهر لــم نطــق نصــارعها	وكنــت أحســب أن الــدهر لــم يخــن
فصرت فـي غربـة كـالطير فـي ققص	أو كالـذي عـدم الأريـاح فـي السـفن
النــار تحــرق فــي قلبــي وتلهبــه	شـوقا إلـى الأهـل والأحبـاب والعَطَـن
مــا الشــوق إلا لهيــب لــيس يبــرده	إلا الـدموع علـى خـدي مـن الجُفُـن
لكنــه قــد قضــى الإلــه فُرقَتنــا	رضـيت حكمـك يـا ربـي فصـبرني

وقال أيضا رحمه الله:

وربـــاع الـــدِّلا تنـــادي جهـــارا	أيــن أهلــي ومــن برســمي حَــلاَّ
بالجــــدار صــــاحِ غريــــبٌ	قــد كســتني الأيــام سُــقما وذُلا

فأجابه بعض الأحبة بقوله:

صــاح لا تيأســن إذا صــرت فــردا	بتلمســـان تُشـــقى ضـــيما وذلا
فجميـــل الظنـــون بـــالله تقضـــي	أن ســتعلوا علــى الأنــام محــلا

//494//

فكأني بوافدات التهاني عن قريب تقول أهلا وسهلا، وبقي رحمه الله نحوا من عامين وأربعة أشهر وتوفي بها عشية يوم الخميس رابع محرم الحرام عام اثنين وثمانين وألف، ودفن من الغد قريبا من ضريح الشيخ سيدي محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله.

وحكى عنه أبو علي اليوسي رحمه الله في محاضرته أمورا كثيرة وأثنى عليه ثناء جميلا، وفي ذلك يقول بعض الأدباء: ولما امتدت في الأسف مدته، واشتدث عليه قسوة التغريب وشدته، وأقلقته همومه، وأطبقته غمومه، وتوالت عليه الشجون، وطالت به لياليه الجون، وكِبَرِه يتوقد بالزفرات، وحُشاشته تذوب بالعبرات، وجَلَدُه يتردد بين النكبات والعثرات، ونَفَسه يتقسم بين الأشجان والحسرات، شفته أمنية، وجاءته منية، فأريح من تلك الأزمات والأحزان، دفن من غد موته بتلمسان، قريبا من ضريح عين الأعيان، وحامل راية توحيد الرحمن، سيدي محمد بن يوسف السنوسي عليهما من مواهب المنان، سواكب الرحمة وسحائب الرضوان، فهو الموت، ما منه بد ولا فوت، فسبحان الواقي من سوء الحال وضيقه، الباقي بعد فناء خلقه، فكانت مدة أيامه من وقت قيامه، وجمع شمل نظامه، بمبايعته أولا وثانيا، وصيرورته إماما واليا، إلى وقت //495// ارتحاله وخلعه، وإخراجه من وطنه ودفعه، إحدى وثلاثين سنة، إلا أن أيامه كانت غير متمحضة للحرب ولا للسلم، لما قد كان قام به من العلم، والاتصاف بالحلم، وبقي بعده بتلمسان من كان معه من بنيه، وأقاربه وذويه، إلى تمام العام فتوفي السلطان الرشيد رحمه الله ليلة السبت الحادي عشر من ذي الحجة الحرام عام اثنين وثمانين وألف بمراكش، فكان بين وفاتيهما معا أحد عشر شهرا وستة أيام، والملك المطلق العام، للملك العلام، المنفرد بالبقاء والدوام، فولي الأمر أخوه مولانا إسماعيل بن الشريف، وبقي أهل الزاوية بمكانهم بعد ولايته نحوا من عامين وأشهر، وفي ذلك يقول الشيخ العلامة أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي رحمه الله مخاطبا لعشائره أهل زاوية الدلاء لما تغربوا مشرقين لناحية تلمسان، حسبما في المحاضرات، ما نصه: وكنت لما نزلت بخلفون على وادي أم الربيع، ذكرت من كان معنا في الزاوية الدلائية من المعارف والأحباب وكانوا يومئذ قد شَرَّقُوا مُغَرَّبِينَ لناحية تلمسان، ونالنا في التشوق إليهم لما لهم فيه من طول الاغتراب ما هو شأن الإنسان، فقلت:

سلام على الأحباب غير مُضَيِّع	لِذي شرفٍ ذكراً ولا لوضيع
سلام محب لا يزال أخا هوى	إلى جِلَّة قد شرقوا وقُزُوعِ ([1])

//496//

فمن يسأل الركبان عني فإنني	حللت برحلي حول أم ربيع
فألفيته يحكي زفيري ([2]) زفيرُه	بقلب كقلبي بالفراق صديع
ويُسعِدني في عَبرتي غير أنه	يخالفني في مَهبِط وطلوع
فتجري إلى مَهْفى الجنوب دموعُه	وتجري إلى مَهْفى ([3]) الشمال دموعي

وقال أيضا رحمه الله وهو ببلاد الصحراء، في التحنن إلى الدلاء وأهلها:

ألا ليت شعري هل أرى من ثَنِيَّة	عِضاها ([4]) كمصفوف الكتائب تُشرِف
وهل أرِدَن من سلسبيلِ مواردٍ	هناك كمعسول ([5]) المباسم تَرشِف
وهل أرين مَغنَى الدلاء عشية	كأن بناياه بِجاد مُفَوَّف ([6])
ذَكَرتُكم وَهْنا وإني لَمُدلِج	بأجواز ([7]) أقطار الصحاري أُطَوِّف
فقلت وقلبي ذو اشتياق ولوعة ([8])	وجفني بمنثور الجمان يكفكف
أداراً سقيت الوبل غير مبرح	ولا برحت عنك الحوادث تصرف
لقد هجت للقلب ([9]) العميد صبابة	تكاد لها صم الجبال تَقَصَّف

وكان أهل صاحب الترجمة كارهين لولايته لما كانوا عليه من الاشتغال بالعلم والدين، والسير على سند المهتدين، ولِما سمعوه من الشيخ والدهم رضي الله عنه بأنه كان يقول له: أنت سبب خراب هذه الزاوية، وكان يقول: سيجعل لكم محمد سلما تصعدون به إلى درجته ثم ينكس السلم وتنهدم الدرجة، وفي ذلك يقول أخوه الشيخ الإمام //497// سيدي الشاذلي رحمه الله:

1 – كذا في المخطوط، وفي المحاضرات بتحقيق حجي ص337 "نزوع". يقال تَقَزَّعَ القومُ: أي تفرَّقُوا.
2 – وفي بعض نسخ المحاضرات "زفير".
3 – في المخطوط "مهف" بدون ألف مقصورة في الموضعين.
4 – في مخطوطنا "غضاها" وفي النبوغ المغربي ص706 وكذا نسختين من ديوان اليوسي (مخطوطة ومطبوعة حجرية) "عِضاها" بعين مهملة. والعِضاه: كلُّ شجر يعظم وله شوك.
5 – في النبوغ ومطبوعة ديوان اليوسي "لِمعسول" وفي مخطوطنا ومخطوط الديوان "كمعسول".
6 – البِجاد: كساء مُخَطَّط. ومُفَوَّفٌ: رقيقٌ مخطَّط. وقد أثبتنا ما في مخطوطنا ومخطوط ديوان اليوسي، أما في مطبوعته فكُتِب "كأن بناياها بناء مفوف" وفي النبوغ "كأن بقاياه بناء مفوف".
7 – في مخطوطنا "بأحواز" بحاء مهملة، وفي النبوغ ومخطوط الديوان "أجواز" بالجيم.
8 – كذا في مخطوطنا، وفي باقي النسخ "فقلت وقلبي ضمن شجو ولوعة".
9 – في النبوغ المغربي دون غيره "في القلب" عوض "للقلب".

بلينـــا بـــذي نســـب شـــائك قليـل الجــد فـــي زمـــان الدَّعـــة

إذا نالـــه الخيـــر لـــم نَرجُـــه وإن ضــــعَّفوه ضَـــعُفنا معـــه

والنَّسب بالمهملة القرابة، وزمان الدَّعة هو زمان الرخاء، وإذا كان قليل النفع زمان الرخاء فأحرى في زمان الشدة، وكذلك كان، فإنهم قاسوا شدائد ومحنا بسبب ولايته عند زوالها، فسبحان ذي الملك الذي لا يزول.
وأما مراثي بعض أهل الزاوية رضي الله عنهم لما سلف من أيامهم، والتحنن لما ذهب من دهورهم وأعوانهم، والتلهف على فراق أوطانهم وأهاليهم، فسيأتي ذكر ما لكل واحد منهم في ترجمته إن شاء الله، وفي تلك المدة تكررت منهم الكتب لمولانا إسماعيل بالتعطف والتلطف والرغبة، في فكاكهم من أسر الغربة، بالرجوع لإيالته، والاستظلال في عمالته، فرق لرغبتهم، وامتن بإجابة طلبتهم، فكتب لهم كتابا يأمرهم فيه بالأوبة لولايته، والرجوع لما كانوا فيه من فاس لإيالته فلما وصلهم كتابه فرحوا به ورجعوا، ومن سجن الغربة خرجوا ونجعوا، وكان قد آذاهم بعض سفهاء تلمسان، ولم يفعلوا معهم شيئا من الإحسان، فكان من صنع الله بهم ما ذكر بعض فضلاء تلمسان أنه رأى جدهم الشيخ العارف الكبير سيدي أبا //498// بكر [في] المنام قد ورد على الشيخ سيدي أبي مدين، فخرج إليه سيدي أبو مدين وتلقاه بموضوع هنالك يسمى بباب المعراط، فجعل سيدي أبو بكر يلوم سيدي أبا مدين ويقول له: بعثت إليك أولادي فأهنتهم، وشدد عليه في الملام، وسيدي أبو مدين يلين له القول، فكان آخر ما انفصلا عليه أن قال سيدي أبو مدين لسيدي أبي بكر: أنا أبلغهم للشيخ علي بن حرزهم، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى ورد عليهم كتاب السلطان مولاي إسماعيل يأمرهم فيه بالرجوع، فرجعوا كلهم ولم يبق منهم إلا الفقيه العلامة الرئيس أبو العباس سيدي أحمد بن عبد الله ابن سيدي محمد الحاج بأولاده مع عيال والده، لغيبته بالمشرق فلم يقدر أن يفتات ([1]) على والده بإرحال عياله وهو غائب عنهم، ولم يقدر أن يتركهم، فبقي معهم حتى ورد عليه والده من المشرق كما يأتي ذكر ذلك في ترجمته إن شاء الله.

وكان رجوعهم في جمادى الأولى من عام خمسة وثمانين وألف، فلما رجعوا كان نزولهم بقرب روضة سيدي علي بن حرزهم نفع الله بهم أجمعين. فبقوا به مدة ثم كتب لهم السلطان مولاي إسماعيل كتابا يأذنهم فيه بالدخول للمدينة الإدريسية وأن يسكنوا منها حيث شاؤوا، فدخلوا حينئذ مدينة فاس، وطابت بنزولهم فيها الأنفاس، وهان عليهم بعد ذلك ما لقوا قبله، وبعد ذلك عظَّمهم //499// وأعطاهم وأكرم نزولهم ومثواهم، وبالتوقير والاحترام أولاهم وآواهم، ومآل أمرهم يأتي في تراجمهم إن شاء الله.
وكان خروج أهل الزاوية الدلائية من العبَّاد ورجوعهم لفاس قبل الوقعة التي أوقعها الترك بأهل تلمسان بأمد قليل، ولم يحضروا لها ونجاهم الله تعالى منها.

قال في الأزهار الندية: وفي رجب الفرد الحرام من عام خمسة وثمانين وألف وقعت فتنة عظيمة بتلمسان بسبب قيام أهلها على الترك الذين بها، فجاءت الإغاثة من الترك الذين بالجزائر فعتوا فيها وسفكوا الدماء الكثيرة وأخرجوا أهل البلد منها وخربوا زاوية سيدي أبي مدين نفع الله به، وأخرجوا من كان بحرمه وعبثوا به، سوى سيدي أحمد بن عبد الله احترمه رئيس المحلة لغربته ووصية والده عليه كما يأتي ذكره، فكانت والعياذ بالله وقعة شنعاء، عقوبة لهم وزجرا لأمثالهم على ما فعلوه بأولاد الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي الذين كانوا عندهم، فسلط الله عليهم من هو أقوى منهم فأهانهم أقبح الهوان، وأذلهم أسوء الإذلال، بكشف الحريم من النسوان وقتل الأطفال والرجال، نعوذ بالله من سوء القضاء، ودرك الشقاء.

ومن ذلك أيضا ما وقع لبني يزناتن (يزناسن)، فرقة من زناتة بينهم وبين تلمسان نحو مرحلتين، لما تحيلوا على بعض أهل الزاوية الذين كانوا بتلمسان قبل رجوعهم //499 مكرر// بأن أخرجوهم معهم إلى بلادهم على العهد والأمان طلبا لبعض المرافق فغدروا بهم في الطريق جهرا وقتلوهم صبرا، فلم يمر عليهم إلا أيام قلائل حتى أغار

---

1 – افْتَاتَ في الأَمر: استبدَّ ولم يستشر مَن له الرأْي فيه.

عليهم الشريف أبو العباس أحمد بن محرز السجلماسي الحسني فغزاهم واستأصلهم واجتث شجرتهم من أصلها دون غيرهم من القبائل العديدة، وذلك إغارة ([1]) من الله تعالى على ذرية أوليائه وعُبَّاده، وتلك سنة الله التي قد خلت في عباده بحكم مشيئته ومراده، والأمر لله من قبل ومن بعد.

الفصل الثاني في ذكر الشيخ سيدي المسناوي ابن الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي رضي الله عنه.

هو الشيخ الإمام، قدوه الأنام، وحجة الإسلام، بحر الأمداد، وملحق الأحفاد بالأجداد، محي الدين، وعمدة المهتدين، العلامة المشارك، المحصل من العلوم ما تقصر عنه المدارك، ملجؤ الوارد والصادر، وغيث البدوي والحاضر، فريد الدهر، ووحيد العصر، جامع أشتات أفانين العلوم، والمبرز في سائر أنواع المعقول والمفهوم، إمام الأئمة، وشمس الأمة، وشيخ المشايخ، وصدر الصدور الأكابر ذو القدم الراسخ، والنسب البادخ، غوث الإسلام وعلم الأعلام، وكهف الأنام المتحلي بحلية الأولياء الكرام، الداعي إلى //500// الله في السر والإعلان، والمناضل عن الحنيفية السمحاء بالقلم واللسان، الحافظ المحدث الأستاذ الكبير، الوارد من حياض الفضل منهلا يروي ويمير، أبو عبد الله سيدي محمد المدعو المسناوي، ابن الشيخ الكامل العارف الواصل سيدي محمد ابن القطب الكبير العارف الشهير سيدي أبي بكر الدلائي، دفين الزاوية الدلائية البكرية ذات المآثر الكونية، وهو أول من سمي منهم بالمسناوي، كان رضي الله عنه من العلماء الأكابر، الفصحاء المشاهير، من أهل الولاية والعرفان، وجلالة القدر وكبر الشأن، بحر عرفان لا ساحل له، وينبوع علم وحكمة ما رأى الزمان مثله، ولد رحمه الله بالزاوية الدلائية أوائل المائة الحادية، ونشا بها وقرأ القرآن في صغره، وارتحل لمدينة فاس في طلب العلم قبل أن يناهز الحلم، فأدرك بها الإمام النظار، أبا عبد الله محمد [بن] قاسم القصار، وحضر مجالس درسه وانتفع به، ولازم القراءة على الإمام الأوحد أبي محمد عبد الواحد بن عاشر الأنصاري، وعلى الفقيه القاضي أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وعلى الفقيه أبي الحسن علي البطوئي، وعلى الفقيه أبي العباس أحمد بن عمران الفاسي، وعلى الفقيه أبي الحسن علي بن عمران السلاسي، وغيرهم من الأعيان، وحصل واستفاد ما شاء الله من العلوم، وكان آية من آيات //501// الله في دقائق المرسوم والمفهوم، بارعا في الفقه والأصلين والتفسير وعلم الكلام والمعاني والبيان والسير واللغة وعلم الأنساب والأدب والقراءات، حسن المشاركة في العربية، حافظا للطريقتين التاريخية والأدبية، حسن المخائل، لطيف الشمائل، مع ذكاء لا يوجد في سواه، وكلام أحلى من الشهد في الأفواه، ونظم كالقلائد في أجياد الخرائد، ونثر بارع مستعذب أرق من النسيم وأطيب، ويكفيك في الدلالة على بلاغته الرسالة التي أجاب بها عن قومه مولاي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان، ثم رجع للدلاء، وذلك كله في حياة جده الشيخ سيدي أبي بكر رضي الله عنه، فأخذ عنه علم طريق القوم وسَلَبَ الإرادةَ له ولازمه وانتفع به، إلى أن توفي رحمه الله فلازم والده وقرأ عليه جميع الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم وشمائل الترمذي وألفية العراقي في علم الحديث، وانتفع به كثيرا وأجازه جميع ما يحمله وما تصح له وعنه روايته، وقرأ أيضا على غيره من المشاهير، ودرس بالزاوية عن إذن والده وأفاد وصنف وقيد، وانتفع الناس به في الفقه والحديث والنحو واللغة وعلم القراءات وعلم الكلام وغير ذلك من أنواع العلوم، وتخرج به جماعة، وكان له القدم الراسخ في إنشاء الرسائل، ونظم أحلى من وصل ذات الغلائل، قد انقاذت له ركائب الأدب //502// بأزمتها، وتجلت له شمس البديهة عن ظلمتها، وارتقى من المفاخر مرقًى لا يُطرق، وحاز من الكمال ما ليس يُلحق، مع البهاء البهي، والجلال الجلي، وحسن الصحبة وكرم الخيم وطهارة النسبة.

فمن كلامه رضي الله عنه ما نصه: الحمد لله، ولِكاتبِه سمح الله له، وأصلح بمنه قوله وعمله، مُلِمًّا بإبداء بعض محاسنِ "نصيحة المغترين وكفاية المضطرين"، مُصنِّفِ الشيخ الامام، العلامة الهمام، المعتنِي بفك قيود

---

1 – كذا في المخطوط، ولا تناسب السياق، ولعلها مصحفة من "غيرةً".

المشكلات، بأفكار مهذبة وتقييدِ المختصِّ من دواهي المعضلات، كفرسان الغارة، أبي عبد الله محمد بن أحمد ميارة، بلَّغه الله آماله، وقضى أوطاره، إذ هو تأليف ضرب في إبداع الإصابه بسهام، وفتق أغشيةَ الأفئدة بإيضاح وإفهام، فهو لعمري أجدر بأن تخلع عليه القلوب أردية القبول، وأن يُنثني إليه عنان الاعتناء من كل المسلمين فاضلٍ ومفضول، إذ قد تظافرت على صحته وفضله وإصابته براهين العقول وقواطع النقول، وفيه أُنشِد وأقول:

قبر الرسول الهَدِي للرَّدى واقي — من حاد مُنسَفِلٍ أو من حادٍ واقي

فالمرء من ينصر الدين وينصح من — يغتر بالكلم المفضي لإحراق

ألا رعى الله سيف الشرع أفضل من — دارى من اضطر للفتوى بأرزاق

محمد من له في العلم مرتبه — طارت لها كتبه في كل آفاق

//503//

إذ قام منتصرا بالله معتضدا — بصارم مُنتضَى لِفَري أعناق

وحَسمِ مَن حَرَّف الذكر الحكيم ومِن — داءٍ عضالٍ فمَن للمُبتلَى واقي

أودَعَه دُرا من الأصول ومِن — تنبيه أذهان أو تمتيع أحداق

مع أن مطلوبه استغنى لعمري عن — نظم البراهين أو تطريز أوراق

يا أغبياء أفيقوا لا أبا لكم — أيُمترَى في النهار بعد إشراق

عبيد ربه المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي.

توفي رحمه الله قتيلا غدرا سابع عشر شوال عام تسعة وخمسين وألف بدار ابن غضيفة من بلاد تالماغت ([1])، وحمل إلى الدلاء فدفن بمقبرة أسلافه رحمهم الله، وقد رمز لتاريخ وفاته بعض تلامذته بقوله: "المسناوي وأهله في الجنة" فمجموع عدد حروف هذه الألفاظ الثلاثة هو عام وفاته مع ما فيه من التفاؤل الحسن، حقق الله رجاءه. ورمز له أيضا بعض الأدباء بقوله:

وفاز الإمام المسناوي "مُشَهَّدا — بجد" وفي دار النعيم بمنزل

فعدد نقط حروف لفظتي "مشهدا بجد" هو عام وفاته وفيه ما في الأول من التفاؤل أيضا.

ويحكى أن والده الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه كان لا يهتم لغيبة أحد عنه من أولاده وأقاربه كاهتمامه لغيبة ولده سيدي المسناوي صاحب الترجمة، فإنه كان لا يقر له قرار ما دام غائبا عنه، بل لا يزال يسأل عنه كل ساعة //504// هل جاء أم لا، مهتما به غاية الاهتمام، قلقا لأجله، مع أن من أولاده من كان أحب إليه منه بكثير، وما ذلك والله أعلم إلا لما كوشف من أنه يموت مقتولا غدرا من غير سبب يقتضيه، فكان ذلك بعد موت الشيخ والده بسنين كثيرة كما ترى رحمه الله.

---

1 – تالماغت تكتب أيضا "تالمغت" و"تالماخت" بالخاء، كما ترد أحيانا معربة هكذا "لمّاغة". تطلق تالماغت من جهة على منطقة زراعية غنية تقع الآن بزعير جنوب مدينة الرباط، ومن جهة أخرى على فرقة من قبيلة زعير ما تزال معروفة حتى اليوم. وتجدر الإشارة إلى أن جل المعلومات المتوفرة حول هذا الاسم غالبا ما يقصد بها الموضع، وأحيانا الموضع والقبيلة معا. انظر معلمة المغرب ج7 ص2166

وحين غَيَّبَتْه الصَّفائِح، وعُدِمَ جَدَاه الفائِح، رثاه العافون، وتوجع لفقده المبتلون والمُعافون، ورثاه ولده الإمام العالم العلامة الهمام، الأديب بالبارع، الحبر الجامع، سيدي الطيب الآتية ترجمته بقصيدة فائقة وهي هذه:

عوائل هذا الدهر مرهوبة الفتك ... فإن سَرَّ في حين فأكثره مبكي

فكم من عزيز قد أذلَّ ودولةٍ ... أدال فلا يبقي على المرء أو يُشكي

مكائده منصوبة وسهامه ... مفوقة تُصمي [1] الجوانح أو تُنكي

إذا سَرَّ منه جانب ساء جانب ... وإن لانَ يوما فالمآل إلى الضنك

فمن ذا الذي لم يستلبه مُعارَه ... ومن ذا الذي أبدى له صفحة التَّرك

فأين الألي قد دَوَّخوا من قطورها ... وأضحت لهم صِيدُ الملوك إلى الملك

وجروا انتخاءً بُردَ زَهو ونِعمة ... وجاروا اعتسافا بالتخوف والنَّكِّ [2]

وعزُّوا وبزُّوا واستطالوا وصاولوا ... ودارت بما يَهْوَوْن دائرة الفَلك

ونالوا الأماني في ظلال سيوفهم ... وشادوا المغاني للقرابة (...) [3]

ونادوا جيوشا للعدا تصحب الردى ... ولاحوا بهاء تحت أبهة الملك

//505//

وطاوَلهم بالذكر صِيتٌ وسامروا ... بلذاتهم قَصفا على عادة الهتك

وأين الألي فاضت بحور نوالهم ... على المعتفى فيضَ السحائبِ بالسَّفك

وشادوا المعالي لا العلالي [4] وراكبوا ... (...............................) [5]

وأين الألي أتت مكارم فضلهم ... صِفاح طُروس بالإنابة والنُّسك

أدِلاَّءُ عِلم في مجاهل ضَلَّة ... أدلة نور في دَياج من الشَّكِّ

رهائن دين في خميل خمولهم ... لهم همم تعلو السِّماكَيْن بالسمك

أبادهم صرف الخطوب وغودروا ... ببيد الفلاة نهبة الرزء والهلك

فكم من طريح في ضريح ونازح ... عن الإلف منثور النظام عن السلك

عَفَى رسمَهم مد الأعاصير واغتدى ... بصفْر الكبا تحت الدكادك كالدك

فمن مُنجح سعيا وآخر مصفق ... وناج وذي ترح به غير منفك

---

1 – أَصْمَى الصيْدَ: أَصَابه فوقَعَ بيْنَ يديْهِ.
2 – نَكِيَ العَدُوّ: انهزم وغُلِب وقُهِرَ.
3 – كلمة غامضة، تقرأ "الهمك" والله أعلم.
4 – عَلاليّ: غرف في الطبقات العُلْيا من الدّار.
5 – كلام غامض يقرأ "طريز العوالي كل لهزمة نشك".

ومـــا غـــدوا إلا حـــديثا تريـــده ... نـــدامى رواة بالحكايـــة والحـــوك

فتُنـــدي الشـــذا طـــورا نـــوافح ذكـــرهم ... وتُبـدي القـذا مـن ذي المجانـة والضـحك

فــلا غــرو أن صــاروا فكاهــة ســامر ... وعبــرة ذي لـــب علـــى نفســه يبكـــي

فـــذاك مَمَـــرٌّ للأنـــام عُبـــورُه ... ولابـــد للتركيـــب مـــن خلـــل الفـــك

ولا منعـــت أيـــدي الحـــوادثِ عِـــزة ... ولا كبحـــت لجـــم المقـــادير بـــاللوك

ولا أعتَـبَ الـدهرُ العسـوفُ أخـا نهـى ... ولا أهمـل العَصـوفُ العَصـوبُ أخـا نـوك

فنَهْنِـــه (1) عـــن الإخـــلاد نفســا أبيـــة ... ونبــه إلـــى العليـــاء رائمـــة الـــدرك

//506//

ولا تَـنِ (2) عـن بَـث الصـنائع جاهـدا ... وثـافِن (3) لِعِلـمٍ ذا التجـارب والحنـك

وخـاطر بـنفس مُرخِصـا لخطيرهـا ... وصـابر كَريـثَ (4) الخطـب والحـادث الأكّ

وأغـدق علـى عـرض المـروءة بردهـا ... وباعد لدى الإنصاف من سمة المَحك (5)

وسـاجل سـجال المـزن بالـدمع ناحبـا ... ولا يجتلِبْـك السُّـخط فـي شـرك الشـك

انتهت، وله رحمه الله أنظام كثيرة وتوشيحات أثيرة، وسجع رفيع، رائع بديع، يذكر في ترجمه إن شاء الله.

كمل النصف الأول من كتاب البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، ويتلوه إن شاء الله النصف الثاني، وأوله الفصل الثالث في ذكر الشيخ سيدي عبد الخالق ابن الشيخ سيدي محمد بن سيدي أبي بكر الدلائي رضي الله عنه.

---

1 – نَهْنَهَ فلانًا عن الشيء: كفَّه عنه وزجرَه.
2 – ونَى الشَّيءَ/ ونَى عن الشَّيءِ :تركه وأهمله.
3 – ثافَنَ الرجلَ: لازمَه حتَّى عرف باطن أمره.
4 – كريث: مسبب الحزن الشديد.
5 – محَك الشَّخصُ :أكثر من الجَدَل بالباطل.

مقتطف من الجزء الثاني من البدور الضاوية

نقلا عن مخطوط بمكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء

بعنوان: البدور الضاوية، في مناقب أهل الزاوية الدلائية

تحت رقم: 369/1

عدد الصفحات 12

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

من البدور الضاوية، في مناقب أهل الزاوية الدلائية، للعلامة أبي الربيع سيدي سليمان الحوات، من الفصل الثالث في ذكر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي أحمد المسناوي رحم الله الجميع بمنه آمين، ما نصه:

سأل الفقيه الأجل سيدي محمد التَّمَّاق ([1]) شيخه غوث أهل النوازل والفتاوي، أبا عبد الله سيدي محمد بن أحمد المسناوي، ونص السؤال: المطلوب من سيدنا الإمام رزقنا الله وإياه علما نافعا، أن يتفضل علينا بإيضاح مسألة الدعاء على الظالم المُعيَّن على القول بالجواز وأنه يترجح الدعاءُ على من عم ظلمه لأنه من الفُسَّاد في الأرض كما قاله الأبي في شرح مسلم، فقد أشكل علي أمرها، هل ذلك خاص بمؤلمات الدنيا، وعليه فهل بما يرجع لذاته فقط، كأن يصاب في جسمه أو ماله أو يُعزل عن ولايته، لا بهلاك ولد مثلا أو أحد أحبابه إن كان فيه ألم، قال القرافي: لإذاية غير الجاني، وعلى التخصيص بالدنيوية أيضا فما الجواب عن قول سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "وعَرِّضْهُ للفِتَن"، قال الراوي فرأيته شيخا كبيرا سقط حاجباه على عينيه وهو يتعرض للنساء يغمزهن في الطرقات، أو كما قال، أو يقال بالجواز بمؤلمات الآخرة، وهو مقتضى ظاهر دعاء سعد فيجوز بالعصيان إلا أن القرافي قال: الدعاء بالعصيان منهي عنه لأن إرادة المعصية معصية اهـ ووافقه ابن الشاط على أن ذلك معصية، وربما أشكل، وأما بالكفر فلا يجوز كما لابن ناجي في شرح الرسالة ردا على شيخه الاستدلال بآية (ربنا اطمس على أموالهم...) الخ وقول القرافي: إن إرادة الكفر كفر، رده ابن الشاط وحرر أنه معصية فقط، فلينظر في شرح الحصن، على أنه ربما يظهر في كلام القرافي اضطراب والله أعلم فليحرر. وعلى كل، فهل للدعاء حد لا يُتَجاوز كما للقرافي وغيره، وهو مقتضى قوله (وجزاء سيئة سيئة) الآية، (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا) الآية، فما الضابط الذي يميز الإنسانُ به مثل الظلامة، أو يجوز بأزيد كما نقل الأبي عن القرطبي في حديث سعيد رضي الله عنه ودعائِه على المرأة، أن مذهب سعيد جواز الدعاء بأكثر، واستشكله بالآيتين السابقتين وبأن الدعاء عليه كالقصاص، ولا زيادة فيه //2// فقد يجاب الداعي بأكثر فيؤدي إلى الزيادة، وقد لا فيؤدي إلى تمنيها ولا تجوز، وأجاب بالفرق بين الزيادة في القصاص وبينها فيه، فالأول ممنوع والثاني جائز، واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم للذي رأى عليه ثيابا خلقة فأمره بلباس ثوبين فلبسهما: "ضرب الله عنقه أليس هذا خيرا"، وبحديث أبي داوود عن سعيد بن غزوان عن أبيه أنه مر بين يدي النبي صلى الله

---

[1] – هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن محمد التماق الأندلسي الغرناطي أصلا الفاسي منشأ ودارا، يلقب أهله قديما بأولاد السراج، وبيتهم بالأندلس من أشهر البيوتات في العلم والرياسة، علامة فهامة يتقد ذكاء وفطنة، محقق، مالكٌ أزمة التعبير عما يريد، واعية محرر جامع لأشتات العلوم، أخذ عن محمد بن عبد القادر الفاسي وأخيه عبد الرحمن، وعن عبد السلام بن الطيب القادري وأخيه محمد العربي، وعن محمد القسنطيني الكماد الحسني، والقاضي العربي بردلة، ومحمد المسناوي، وأحمد بن عبد الله معن الأندلسي وغيرهم، كان لا يأكل إلا من عمل قلمه، تولى الخطابة والتدريس بجامع القرويين، وقضاء فاس زمن أحمد الذهبي العلوي، ونفع العامة عن إكراه، فأظهر العدل والتحري والورع والمشاورة، وأخر من سنته من غير ريبة، اشتهر بجودة الخط وإحكام الشكل والضبط، له حواشي على شرح الحصن الحصين، و"إزالة الدلسة عن أحكام الجلسة"؛ وهي ما يسمى بالكراء على التبقية، ويقال: الزينة والجزاء، و"جمع الأقوال في لبس السروال"، وله أسئلة مشتملة على مباحث شريفة رفعها لأشياخه وأجوبة ما كان يرفع إليه أكابر الأشياخ وأخرى من نجباء وقته، وأبحاث على التحفة، واللامية، والعمليات لشيخه أبي زيد الفاسي، وكان يدرس هذه المنظومات والموطأ والرسالة وغير ذلك. توفي سنة 1151هـ إحدى وخمسين ومائة وألف تنظر ترجمته في الفكر السامي، 619/2. . نشر المثاني، 213/4. . معلمة المغرب، 2561/8.

عليه وسلم وهو يصلي فقال: "قطع صلاتنا قطع الله أثره" قال: "فما قمت عليهما إلى يومي هذا"، يعني رجليه. وأما تمنى الزيادة فجائز كي يدع الظالم ظلمه، ولو سلمنا أنه لا يجوز فلا يلزم من الدعاء التمني، كما في دعاء الأب على ابنه، هذا حاصل كلامه والله أعلم، انظر آخره مع ما سبق عن القرافي من الإرادة، وقد أشكل علينا كلامه من غير ما وجه، وما ذكره من دعائه صلى الله عليه وسلم على المار ذكر بعضهم أن المار كان صبيا وهو ما يزيد الإشكال، لكن أجاب بعضهم عن كونه غير بالغ أنه صلى الله عليه وسلم اطلع فيه على حكمة تقتضي إقعاده، كاطلاع الخضر عليه السلام، ولعل هذا ينافي استدلال القرطبي، إذ يكون الدعاء ليس لأجل ظلمه، على أن اللقاني في شرح الجوهرة قال: إنه خرج على عدم اشتراط البلوغ في صدر الإسلام، وهو مذهب البيهقي أنه اشترط بعد الهجرة، والتقي السبكي ووافقه القرطبي وجماعة من شراح مسلم اشترط بعد أحد والله أعلم. فالمرجو من فضل سيدنا إزاحه ما أشكل من كل ذلك والله يحفظه بمنه وكرمه آمين.

ونص الجواب، والله المرشد للصواب:

بسم الله الرحمن الرحيم، سبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، إن الدعاء المتعلق بالظالم له أحوال ثلاثة: تارة يكون بهدايته وإقلاعه عن ظلمه وهو شأن الذين [إذا] ([1]) ظُلِموا رحموا، وما أحسن ([2]) من يُرحَم به ظالمه كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه. قال القرافي: وقد أحسن هذا الداعي إلى نفسه بمثوبة العفو ومكارم الأخلاق، وإلى الجاني بأنه سبب إلى صلاح صفاته، وإلى الناس كافة بالتسبب إلى كفايتهم شره، فهذه ثلاثة أنواع من الإحسان لا ينبغي أن تفوت اللبيب اهـ ومن أمثلة هذا القسم دعاؤه صلى الله عليه وسلم يوم أحد لقريش بعد أن صنعوا به ما صنعوا من شج وجهه وكسر رَباعيته بقوله: اللهم اهد قومي أو اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

وتارة بكفاية شره والإراحة منه بما شاء الله تعالى من قدرته، من هدايته أو عزله أو هلاكه، //3// أو غير ذلك مما شاء الله، وهذه دون الأولى، إذ ليس فيها دعاء له ولا عليه، بل الدعاء فيها لغيره بكفاية أذاه وشره.

وتارة بإصابته بما يسوءه مما يكسر سَورته ويزيل شوكته ويقطع جرأته، وهذه أدون مما قبلها لكونها دعاء عليه وطلبا للانتقام منه، وعليها مدار السؤال، ثم هي في الجملة جائزة كما قاله مالك وجماعة من العلماء، وسند ذلك قوله تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) وإن كان الأحسن الصبر والعفو لقوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) أي معزومها ومطلوبها عند الله عز وجل، وإنما كان الصبر أحسن لأنه دليل رضا العبد بقضاء ربه، وتوكله عليه ورجوعه إليه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وذلك كفيل بنصرة الله له التي [هي] أولى من انتصاره لنفسه، بمقتضى وعده الصادق في قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين).

وهذا كله في حق أهل المعاملة، وأما أهل المشاهدة من النبيئين والصديقين ومنهم السعدان المذكوران في السؤال رضي الله عنهم، فلهم حكم آخر يخصهم كما سنشير إليه إن شاء الله، ولقد بسط القول فيه تاج الدين ابن عطاء الله رضي الله عنه في آخر لطائف المنن فراجعه إن شئت. وحيث كان دعاء الداعي على الظالم لخصوص ظلمه، وأما من عم ظلمه فلا يبعد أن يكون الدعاء عليه أرجح كما نقلتم عن الأبي، ولكن لمن ([3]) صح قصده وخلصت نيته، بأن كان الحامل له على ذلك الغيرة على الدين والشفقة على المسلمين لا حَظٌ نفسه وشفاية غيظه، وينبغي أن تُفهَم هذه الأرجحية أنما هي إضافية، أي بالنسبة لعدم الدعاء، لا حقيقية حتى يكون الدعاء عليه أرجح من الدعاء بهدايته أو بكفاية شره من غير أن يكون لا له ولا عليه، وهما الوجهان اللذان قدمنا بأنه لا يُمترَى أنهما أرجح من الثالث. ثم هذا أيضا بالنسبة لمقام العامة المتقيدين بظواهر الشريعة، وأما الخاصة من

1 – إضافة يقتضيها السياق.
2 – سيأتي المقولة في فتوى لاحقة بعبارة (وما أحسن "حال" من يرحم به ظالمه).
3 – في المخطوطه "لم" عوض "لمن".

العارفين فمرادهم تابع لمراد الله، فلا يريدون غير ما أراد الله، ولا يعترضون شيئا مما يجري به القدر على العباد، متحققين بمضمون "دع الخلق وما دفعوا إليه، فمراد الحق منهم ما هم عليه"، وقد حكى الغزالي في باب الرضى من الإحياء أنه لما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل بن عبد الله إخوانه فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم، فسكت ثم قال: إن لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه //4// الأرض ظالم إلا مات في ليلته، ولكن لا يفعلون، قيل له: ولم لا يفعلون؟ قال: لأنهم لا يحبون إلا ما أحب مولاهم. انتهى. وانظر قول الشيخ العلامة تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله لقطب وقته سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه: يا سيدي أنتم إذا أشفقتم تزندقتم، ونحن إذا لم نشفق تزندقنا، تعلم أن بين أهل المعاملة وأهل المشاهدة فرقا في الحكم، وأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فإن دعاء هؤلاء لارتسام القدر في قلوبهم التي هي مظاهر له، وسبقية ذلك إليها قبل بروزه للوجود، فيكونون في دعائهم تابعين لمراد الحق أيضا كما كانوا في سكوتهم، ولا يتقيدون حينئذ في دعائهم بل هم بحسب ما سبق إلى قلوبهم وأشرق فيها من نور الحق، وارتسم فيها من سابق قدره ونافذ مشيئته، فربما دعوا على من حق عليه القول بمصيبة دنيوية، وربما دعوا بمصيبة دينية، وربما كانت في ظاهر الحال زائدة على الجناية، وإن كانت في نفس الأمر غير زائدة، وربما لا، وهم في جميع ذلك بالله لا بأنفسهم، منفعلون لا فاعلون، كما دل عليه حديث "كنت سمعه..." الخ، وكما أشار إليه الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه بقوله:

أراني كالآلات وهو محركي	أنا قلم والأقتدار أصابع
فإن كنت في حكم الشريعة عاصيا	فإني في حكم الحقيقة تابع

والقول الفصل في ذلك ما قال بعض العارفين: إن تصرف الأولياء بالله في النفع والضر كتصرف الملائكة سواء، لاستوائهم في شهودهم، لأنهم بالله قائمون، وعن كسبهم مسلوبون.

وأما غيرهم فلدعائه ثلاثة أحوال كما في نص السؤال، فتارة يكون دعاؤه بمؤلم دنيوي يخص الظالم، وتارة بمؤلم دنيوي فيمن يعز عليه ويسري في ضرره إليه، وتارة بمؤلم ديني يترتب عليه عقاب أخروي.

<u>فإن كان دعاؤه بالأول</u> فلا إشكال في جوازه، غير أن القرافي شرط في الجواز أن لا تكون المؤلمة المدعو بها أعظم من الجناية الصادرة منه، فإن زادت حرم الدعاء، قال: لأنك جان عليه بالقدر الزائد، والله يقول (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)، والقرطبي صرح بجواز الدعاء بأكثر، أخذا مما ذُكر في السؤال، على ما في كلامه من البحث كما سيتبين إن شاء الله، فعلى ما ذكره القرافي من اشتراط عدم زيادة المؤلمة على الظلامة يكون الدعاء إما أن يصاب بمثل ما أصاب الداعي به سواء، وإما بأن //5// يقام عليه حدها إن كان فيه حد أو سرقة أو نحوهما، أو تعزيرها للواجب فيها شرعا إن لم يكن فيها حد، وإما بأن يأخذ الله منه الحق للمظلوم مع تفويض أمر ذلك إلى الله بما يستحقه وعدم التعرض لتعيينه، لا بما تحقق الداعي زيادته على الظُلامة أو يشك في ذلك، وإنما يُحتاج إلى هذا التحرز خوف مجاوزة الحد في الدعاء في حق من لم يعم ظلمه وتكثر جرائمه، وإلا فأعظمُ مصائبه الدنيوية، التي الكلام فيها، هلاكُه وقطع دابره، وهو قليل في جنب كثرة مفاسده، فلا يتقيد فيه الدعاء بحد مما الكلام فيه. وأما على كلام القرطبي فلا حرج في الزيادة مطلقا، غير أن في كلامه نظرا من وجهين:

<u>أحدهما</u>: ان ما أخذه من دعاء سعيد بن زيد على أروى بنت أويس من أن مذهبه جواز الدعاء بأكثر، يقال عليه: من لنا بأن تلك العقوبة المدعو بها عليها أعظم من جنايتها وجرأتها على صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أحد العشرة الذين هم أفضل الصحابة المعدلين منه صلى الله عليه وسلم، ففي انتهاك حرمته انتهاك لحرمة من زكاه وشهد بعدالته وهو محمد صلى الله عليه وسلم، قال في لطائف [المنن] نقلا عن شيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنه في أثناء كلامه على هذه القضية ما معناه أن سعيدا رضي الله عنه ما دعا

عليها لأنها آذته، ولكن دعا عليها لأنها آذت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي وإذاية الصاحب إذاية للمصحوب، كما دل عليه حديث "ومن آذاهم فقد آذاني"، فهو رضي الله عنه لم يستقص الحق لنفسه وإنما استقصاه لربه، كما هو شأن الكُمَّل من العارفين رضي الله عنهم أجمعين. فيظهر أن ما دعا به عليها ليس بأكثر في جنب هذه الحالة، وعلى تسليم أنه أكثر بحسب الظاهر، فسعيد رضي الله عنه من الخواص، بل من خواص الخواص الذين ينظرون بنور الله، وقد قدمنا أن حالهم في الدعاء ليس كحال غيرهم، فلا يكون ما صدر منه حجة لغيره، ومذهبنا يقتدي فيه سواه من العامة الذين هم بمراحل عن مقامه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثانيهما: أن ما استدل به من الحديثين المذكورين أن ([1]) يقال: أما الحديث الأول فيحتمل أن يكون ما فيه من الدعاء محمولاً على غير العقد والقصد كما جرت به عادة العرب في محاوراتهم، من نحو "قاتله الله" و"تربت يمينه"، غير مريدين الدعاء على من قالوا له ذلك ولا طالبين //6// الإجابه فيه، بل يأتون به دعامة في الكلام، أو لمجرد العتب والملام، أو لغير ذلك من الأغراض المناسبة للمقام، وفي أدعيته صلى الله عليه وسلم من هذا النوع كثير، فإن قيل: إنما يتجه ويظهر ما ذكر فيما غلب في العرف استعماله في غير الدعاء حتى انتسخ منه حكم الدعاء لأنه استعمال له في موضعه عرفا، لا في نحو ما لم يغلب فيه ذلك فإنه لا ينصرف إليه إلا بقرينة ولا قرينةَ، فالجواب أن يقال: يحتمل أن القرينة هنا حالية، وهي معرفة خفة ذلك الأمر على المعاتب عليه بالنظر لذاته، وأنه لا يستحق فاعله حقيقة الدعاء عليه بذلك، مع ما علم من كمال شفقته صلى الله عليه وسلم وشدة رأفته ورحمته بالمؤمنين، ويَحتمِل أنه جرى على القرينة قصدا لإيهام الحقيقة فيحصل الخوف الموجب لعدم ارتكاب مثل ذلك الأمر اختيارا، وعلى تقدير أن يكون ذلك على العقد والقصد وطلب الإجابة فيحتمل أن يكون دعاءً له بالشهادة في سبيل الله ليفوز بنيل ما أعد لأهلها، وأبرز أيضا في قالب الإجمال ليحصل الارتداع به عن معاودة مثل ذلك الحال، والدعاء بالقتل من حيث ما يترتب عليه من الأجر لا من حيث كونُه أمرا مؤلما، دعاءٌ له لا عليه.

إذا كانت الأجساد للموت أنشئت   فقتل الفتى بالسيف في الله أفضل

وبفرض تسليم أنه دعاء عليه بذلك الأمر، حيث إنه مؤلم ومكروه، فيحتمل أن يكون باعتبار ما نشأ ذلك الفعل عنه من مطاوعة المدعو عليه نفسَه في شحها وهلعها، وما اتصف به من رذيلة البخل المذموم طبعا وشرعا حيث ارتكب ذلك الأمر اختيارا، وهو غير قليل في جنب ما دعا به عليه، ففي الحديث "وأي داء أدوأ من البخل" لأنه يتشعب عنه كثير من مذموم الخصال وسيء الأفعال، فموت المتصف به خير من حياته إذ لا يزداد مع طول الحياة إلا خزيا. وهذا محترز قولنا أولا: "بالنظر لذاته". وبعد كتبي هذا وقفت على الحديث في الموطأ في أبواب اللباس فإذا فيه: فسمعه الرجل فقال: يا رسول الله في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "في سبيل الله"، فقُتِل الرجل في سبيل الله. ولا ينافي ما ذكرنا من الاحتمال، لأن هذا في ثاني حال كما لا يخفى.

هذا وقد نقل السيوطي رحمه الله في الخصائص الكبرى عن إمام الحرمين وغيره أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم جواز الدعاء على من شاء بغير سبب //7// واستدل على ذلك بما هو مذكور فيه، فقف عليه إن شئت. وإذا احتمل الحديث المذكور ما ذكر من الأوجه لم يتم الاستدلال به لما نص عليه الأئمة من ضعفه، والضعيفُ لا يستدل به في الأحكام، بل قال الحافظ شمس الدين الذهبي: أظنه موضوعا، ولكن لا بأس بتوجيهه بتقدير ثبوته، فنقول: لو كان المدعو عليه فيه بالغا حين فعل ذلك لكان الأمر واضحا، غير أن في أخذ القرطبي منه على هذا جواز الدعاء بأكثر، ما لا يخفى، فإن الجسارة عليه صلى الله عليه وسلم بالمرور بين يديه الخ هو مظنة شغل الخاطر وتشويش البال في حال كمال توجهه إلى ربه، ووقوفه بين يديه وتلذذه بمناجاته وقرة عينه، وابتهاج سره بما يكشف له عنه من أوصاف جماله ونعوت كماله، عظيمةٌ لا يتجاسر على القول بأكثرية الدعاء المذكور عليها، وبتقدير تسليم الأكثرية فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فله التصرف فيهم حِسًّا ومعنا بالوجه

---

1 – كذا، ولعل في الكلام سقطا.

الذي لا يباح لغيره كما هو مذكور في خصائصه، وقد ذكرنا قبلُ ما نقله السيوطي من جواز دعائه على من شاء الخ، لكن المدعو عليه المذكور كان صبيا كما هو صريح حديث أبي داوود ونصه: عن سعيد بن غزوان عن أبيه أنه نزل بتبوك وهو حاج، فإذا رجل مقعد، فسأله عن أمره، فقال له: سأحدثك حديثا فلا تحدث به ما سمعتَ أني حي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بتبوك إلى نخلة فقال: "هذه قبلتنا" ثم صلى إليها. فأقبلت، وأنا غلام أسعى حتى مررت بينه وبينها، فقال: "قطع صلاتنا، قطع الله أثره"، فما وقفت عليهما إلى يومي هذا. انتهى بلفظه. وبه تعلم ما في نقلكم له من التغيير والإسقاط، وبه نسبتم ذكر كون المار صبيا إلى بعضهم، مع أنه في نص الحديث المذكور، وكذلك نقله في الشفاء. وحيث كان المار صبيا أشكل الأمر بأن الصبي غير مكلف، فكيف يدعو صلى الله عليه وسلم عليه، فاحتيج إلى الجواب عن ذلك، فأجيبَ بما ذكرتم في السؤال وبغيره، واستبعد الشهاب الخفاجي تلك الأجوبة كلها ولم يُبِن وجه الاستبعاد ولا ذكر جوابا يرتضيه، اكتفاء بما ذكره من ضعف الحديث ووضعه.

ويظهر لي والله أعلم أن ما ذكرتم عن شرح الجوهرة، وأصله للبرهان الحلبي، بعيد بل لا يصح، وذلك أن قضية المرور إنما وقعت بتبوك بنص الحديث السابق، ولذلك ذكرها السيوطي في //8// الخصائص الكبرى فيما وقع في غزوة تبوك من المعجزات، وغزوة تبوك كانت في أواسط السنة التاسعة من الهجرة، وغزوة أحد كانت في الثالثة، فهي متأخرة عن وقت تعلق الأحكام بالبلوغ على كلا القولين المذكورين بكثير، فكيف يصح الاعتذار بذلك.

وأما ما ذكرتم عن بعضهم من الجواب الآخر فلا يظهر له وجه لاستبعاده، لما ذكر أئمة الحديث من أن له صلى الله عليه وسلم أن يحكم بالباطن أحيانا كما يحكم بالظاهر، وأنه من خصائصه، وقد أفرد السيوطي المسألة بجزء ألفه فيها، وذكر ذلك أيضا في الخصائص الكبرى ونصه: ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه جمع له بين الشريعة والحقيقة، ولم يكن للأنبياء قبله إلا أحدهما، بدليل قصة موسى مع الخضر وقوله: إني على علم من علم الله لا ينبغي لك أن تعلمه، وأنت على علم من علم الله لا ينبغي لي أن أعلمه، ثم أيد ذلك بما وقف عليه من كلام غيره وبما عثر عليه هو من الشواهد فانظره. وقد تبين بهذا صحة الجواب المذكور وأن لا إشكال في الحديث بفرض ثبوته، وإن كان المدعو عليه صبيا، غير أن الاستدلال به على ما ذكر لا ينهض ولو فرض المدعو عليه بالغا فكيف والواقع أنه غير بالغ، وإذا لم يتم الدليل على ذلك كان الاحتياط التمسك بما قاله القرافي حتى يظهر دليل ناهض على خلافه، ولو قيل إن ما ذكره القرافي حُكمُ أهل الرسوم المتعبدين بظواهر الشرع، وما ذكره القرطبي حُكمُ غيرهم من الخاصة ذوي الفراسة الصادقة والبصيرة النافذه ما بَعُدَ.

وقولكم: وانظروا آخره مع ما سبق عن القرافي من الإرادة، جوابه أنا نظرنا فظهر لنا صحة ما قال القرطبي من عدم استلزام الطلب الإرادة لوقوع المطلوب، كما هو مقرر في علم الكلام وكان القرافي بنى على حال ظاهر الداعي وما يغلب من قصده حيث لا قرينة صارفة والله أعلم.

وقولكم: وقد أشكل علينا كلامه من غير ما وجه، نقول: إن كل ما انقدح لكم من الإشكال فيه هو ما انقدح لنا من تلكم الوجوه التي ذكرنا، فقد تطاولت الخواطر، ووقع الحافر على الحافر، ولم يظهر لنا الآن إلا توجهها عليه، فمن ادعى عدم ورودها فليُبِن [1] ما لديه، وإن كان المنقدح لكم غير ذلك مما لم يخطر لنا ببال، فالجواب عنه فرع ذكره في السؤال، والفرض أنه منه خال، فإن شئتم الإعادة، فلا بأس لمزيد الإفادة. هذا ما يتعلق بالقسم الأول//9// من أقسام المدعو به الثلاثة.

<u>**وأما القسم الثاني**</u> وهو كون المؤلم دنيويا أيضا لكنه يرجع إلى غير الظالم ممن هو عزيز لديه، وثانيا إليه، لما يلحقه من الأسف عليه، فلا شك أن كلام القرافي في أول القسم الحادي عشر من الفرق الثالث والسبعين

---

1 – اجتهدنا في قراءة هذه اللفظة والله أعلم بصحة ما أثبتناه.

والمائتين يقتضي بظاهره حرمة ذلك، ونصه: القسم الحادي عشر من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر: الدعاءُ على غير الظالم، لأنه سعى في إضرار غير مستحق، فيكون حراما كسائر المساعي الضارة بغير استحقاق. هذا لفظه، وهو نحو ما نقلتم عنه، غير أن تلك العبارة لم أقف عليها فيه، فلعلها نقل بالمعنى أو هي له في غير هذا الكتاب، لكن آخر كلامه في القسم المذكور، حيث تكلم على مسألة الدعاء بالكفر، ربما يقتضي أن الحرمة إنما هي حيث كان ضرر الغير مقصودا للداعي بالذات لا بالعرض، وأما إن كان مقصوده بالذات إنما هو ضرر الظالم، وضرر ذلك الغير إنما وقع تابعا لمقصوده، لا أنه مقصوده، فهذا ليس بحرام، فإن سلم هذا الاقتضاء فيقيد أول كلامه بالحيثية المذكورة فيوافق آخرَه، فيكون معنى قوله مِن المحرم الدعاء على غير الظالم، أي من حيث كونه مقصودا للداعي بالذات والله أعلم.

وأما القسم الثالث وهو كون المدعو به مصيبة دينية تقتضي عقوبة أخروية من معصية أو كفر، فيقتضي كلام القرافي أثناء القسم المذكور حرمة ذلك أيضا ونصه: وحيث قلنا بجواز الدعاء على الظالم، فلا تدع عليه بملابسة معصية من معاصي الله عز وجل ولا بالكفر، فإن إرادة المعصية معصية، وإرادة الكفر كفر، بل تدعو عليه بإنكاد الدنيا، وفي قوله: "وإراده الكفر كفر" ما ذكرتم من البحث عن ابن الشاط وهو متوجه، وإليه أشار في المختصر بقوله في باب الردة: لا بأماته الله كافرا على الأصح"، لأن كلامه بعد ذلك الذي أشرنا إليه في القسم الثاني يقتضي قصر الحرمة في هذا أيضا على ما إذا كانت المعصية أو الكفر مقصودَ الداعي بالذات، بمعنى أن مراده أن يُعصَى اللهُ سبحانه أو يُكفَر به ليس إلا، وصدور ذلك من خصوص المدعو عليه بطريق العرض، وأما إذا كان الأمر بالعكس وهو أن يكون مقصوده بالذات إنما هو ضرر المدعو عليه، والمعصية أو الكفر تابعان لمقصوده بالعرض، لا أنهما مقصودان بالذات، فهذا ليس بممنوع //10// ولو بالدعاء بالكفر، فضلا عن أن يكون كفرا، وهذا التفصيل الذي دل عليه آخر كلامه هو المعتمد، وعليه المعول للأدلة المذكورة فيه، كآية (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) الآية، وحديث (وددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا) الحديث، وغيرهما، فانظر بسط ذلك فيه، ولموافقته لما عند غيره من الأئمة كالحليمي وغيره، فيقيد أيضا إطلاقه الأول بهذا، ليرفع الاضطراب في كلامه ويكون كله جليا على ما هو الحق في المسألة، ومراعاةُ الحيثية في الأمور التي تختلف بالاعتبار أمر شهير، ونص الحليمي في كتابه شعب الإيمان المسمى بالمنهج: وإذا تمنى مسلم كفر مسلم فهذا على وجهين: أحدهما أن يتمناه له كما يتمنى الصديق لصديقه الشيء يستحسنه فيُحِب أن يكون له فيه نصيب، فهذا كفر، لأن استحسان الكفر كفر، والثاني أن يتمناه كما يتمنى العدو لعدوه الشيء يستفظعه فيحب أن يقع فيه، فهذا ليس بكفر. تمنى موسى صلوات الله وسلامه عليه، بعد أن أجهده فرعون، أن لا يؤمن فرعون وملؤه ليحق عليهم العذاب، وزاد على ذلك أن دعا الله تعالى، فلم ينكر تعالى ذلك عليه لعلمه أن شدته على فرعون وغلظته عليه، لِما رآه من عتوه وتجبره، هي التي حملته على ذلك، فمن كان في معناه فله حكمه. انتهى. وقد نقل ذلك عنه الزركشي في قواعده مرتضيا له، ونقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه لو قُتِل عدو الإنسان ظلما ففرح هل يأثم أم لا؟ فقال إن فرح لكونه عُصِيَ اللهُ تعالى فيه، فنعم، وإن فرح لكونه خلص من شره فلا بأس بذلك لاختلاف سببي الفرح اهـ وقال برهان الدين البقاعي في تفسيره بعد نقله ما تقدم: ومسألة الرضى بالكفر كفر نقلها الشيخان عن المتولي وسكت عليها، لكن قال الشيخ محي الدين النووي في شرح المهذب أن ذلك إفراط، فما تقدم من التفصيل عن الحليمي وابن عبد السلام هو المعتمد، وبهذا تعلم أن ما أفتى به بعض شيوخ ابن الناجي، والمراد به ابن عرفة، صحيح بالاعتبار المذكور، وأنه مسبوق بذلك، كما أنه مسبوق أيضا بالاحتجاج بالآية المذكورة كما رأيتَ في كلام الحليمي السابق، فلا إشكال في عدم صحة الاعتراض، بدليل ما ذكرنا من النقول عما قبله من الأئمة المعتبرين، المرجوع إلى مثلهم في أمور الدين، وأما باعتبار الاحتجاج بالآية ففيه مجال النظر، فقد يسلم وهو الذي يسبق لبادئ الرأي، وقد لا، كما يظهر بالتأمل //11// وإذا أحطت علما بما سبق علمت أنه لا إشكال في دعاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على من افترى عليه، وهو أبو سعدة، بقوله: "وعَرِّضْهُ للفِتن" لِما تقدم من جواز الدعاء بمثل ذلك بغير الحيثية المذكورة حتى في حق العامة، لا سيما وهو من خاصة الخاصة، وقد بَيَّنَا بَيَان حالهم في ذلك، فلا تغفل عما هنالك.

هذا غاية ما لدى كاتبه، مجلو العرائس لطالبه، فليعمل فيه سديد فكره، حتى يميز حصباءه من دُرِّه، فلست على وثوق من صوابه، وصفاء شرابه، وإنما كتبت ما ظهر، ليكون عرضة للنظر، فإن ظهر للسائل أو غيره فيه وجه فساد، فلا بأس بالمراجعة ليفيد أو يُفاد، على أني أستغفر الله راجيا تجاوزه عما تعديتُ من طَور، بما خضت فيه من حديث نبيه ونقد على الأشياخ مع قِصَر الشِّبْر، وإن كنت لم أقصد سوى عرض ما عندي على نظر الغير لتحقيق حق أو لإبطال باطل، وهذا شأن أهل العلم في كل ما عَصرٍ، والله يصلح النية، ويصحح بمنه الطوية.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير لرحمة مولاه، الغني عمن سواه، محمد بن أحمد بن المسناوي الدلائي كان الله له آمين انتهى.

وسئل أيضا رضي الله عنه عن المسألة نفسها أيضا بسؤال آخر ونصه: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، ومتع المسلمين بطول حياتكم وأبقاكم، جوابكم الشافي، وخطابكم المقنع الكافي، فيمن بغى على المسلمين واعتدى، وانتشر ظلمه وتكرر المرة بعد المرة وما اهتدى، فهل يجوز أن يدعى عليه بالهلاك لقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وهل يسوغ أن يرصد له الأوقات بالأوفاق كما هو مسطر ومقرر في كتاب أرباب هذا الفن، كتدمير الظالم وما أشبه ذلك من أنواع الأدعية على الظلمة، بين لنا ما في المسألة سيدي بيانا شافيا، ولكم الأجر التام من الله تعالى بعدد من آمن بالله وأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وعلى سيدنا السلام أولا وآخرا والرحمة والبركة من الملك العلام.

ونص الجواب: الحمد لله، الجواب، والله المرشد لصَوب الصواب، أن الدعاء المتعلق بالظالم له ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن يكون بهدايته //12// وإقلاعه عن ظلمه، وهو شأن الذين إذا ظلموا رحموا، وما أحسن من يُرحَم به ظالمه كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه. قال القرافي: وقد أحسن هذا الداعي إلى نفسه بمثوبة العفو ومكارم الأخلاق، وإلى الجاني بالتسبب إلى إصلاح حاله، وإلى الناس كافة بالتسبب إلى كفايتهم شره، فهذه ثلاثة أنواع من الإحسان لا ينبغي أن تفوت اللبيب اهـ ومن أمثلة هذا القسم دعاؤه صلى الله عليه وسلم يوم أحد لقريش بعد أن صنعوا به ما صنعوا من شج وجهه وكسر رباعيته بقوله: اللهم اهد قومي أو اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

الحالة الثانية: أن يكون بكفاية شره والإراحة منه بما شاء الله من قدرته، من هدايته أو عزله أو هلاكه أو غير ذلك مما شاءه سبحانه، وهذه دون الأولى، إذ ليس فيها دعاء له ولا عليه، بل الدعاء فيها لغيره بكفاية أذاه وشره.

الحالة الثالثة: أن يكون بإصابته بما يسوءه مما يكسر سَورته ويزيل شوكته ويقطع جرأته، وهذه أدون مما قبلها لكونها دعاء عليه وطلبا للانتقام منه، وهو المراد بالسؤال.

فأما الحالتان الأوليان فلا إشكال في جوازهما وأحسنيتهما للخاصة والعامة، وإن كانت الأولى أحسن من الثانية، وأما الحالة الأخيرة فلجوازها شروط، ولا يحسنها العامة ولا يعرفونها، وإنما يعرفها الخاصة المتضلعون بالعلم، فليس للعامة ارتكابها، بل الواجب عليهم اجتنابها وإلا كانوا ظالمين بتعاطيهم لأمر ليسوا به عالمين، قال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) الآية، وأما الخاصة من علماء الشريعة فهي وإن جازت لهم بالجملة عند توفر شروطها وانتفاء موانعها المعروفة عندهم، مرجوحةٌ، بل الأحسن والأَولى الصبر والعفو لقوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) أي معزومها ومطلوبها عند الله عز وجل، وإنما كان الصبر أحسن لأنه دليل رضا العبد بقضاء ربه وتوكله عليه ورجوعه إليه، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وذلك كفيل بنصرة الله له التي هي أولى من انتصاره لنفسه، بمقتضى وعده الصادق في قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين). قال ابن عطاء الله في لطائف المنن: وقد ذكر أن امرأة كانت لها دجاجة ليس عندها غيرها، وكانت تتقوت ببيضها، فجاءها سارق فسرقها، فلم تدع عليه وأرجعت الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، فلما ذبح السارق الدجاجة ونتف

ريشها طار الريش ونبت جميعه في وجهه، فسعى في إزالة ذلك فلم يستطع، فسأل الناس فلم يقدر أحد على إزالة ما نزل به، إلى أن أتى إلى حبر من أحبار بني إسرائيل فشكى له ذلك [فقال:] لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك المرأة التي سرقت دجاجتها، فإن فعلت ذلك شفيت، فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سرقت، قالوا: لقد آذاك من سرقها، قالت: قد فعل، قالوا: وقد فجعك في بيضها، قالت: هو كذلك، فما زالوا بها حتى أثاروا الغضب منها فدعت عليه فسقط الريش من وجهه، قيل لذلك الحبر: مِن أين علمت هذا؟ فقال: إنها لم تدع عليه وردت الأمر إلى الله تعالى وانتصر لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. انتهى.

اللهم اكفنا شر أنفسنا وشر القوم الظالمين، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، والسلام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته من كاتب الحروف، الفقير لرحمة ربه المولى الرؤوف، محمد بن أحمد بن المسناوي الدلائي، كان الله له وليا ونصيرا بمنه وكرمه اهـ بحمد الله.

(هذا آخر ما وجدناه في المخطوط الثاني)

فهرس الجزء الأول من كتاب البدور الضاوية